



صفحات من تاريخ



مكة المكرمة

تأليف

ك. سنوك هورخرونيه

نقله إلى العربية

الدكتور علي عودة الشيوخ

أعاد صياغته وعلق عليه

الدكتور محمد محمود السرياني

الدكتور معراج نواب مرزا

صفحات من تاريخ مكة المكرمة

الجزء الثاني

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هورخرونيه، ك. سنوك

صفحات من تاريخ مكة المكرمة/ ترجمة محمد محمود السرياني، معراج نواب مرزا، مراجعة محمد إبراهيم علي ـ الرياض.

٤١٦ ص ؛ ٢٠×٢٧ سم.

ردمك: ١ ـ ٣٤ ـ ٦٩٣ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)

٢ ـ ٣٩ ـ ٦٩٣ ـ ٩٩٦٠ (ج٢)

١ ـ مكة المكرمة ـ تاريخ ٢ ـ مكة المكرمة ـ الأحوال الإجتماعية

أ ـ السرياني، محمد محمود (مترجم) ب ـ مرزا، معراج نواب (مترجم)

ج ـ العنوان

ديوي ٩٥٣,١٢١ ١٩/٣٠٧٣

رقم الإيداع: ١٩/٣٠٧٣

ردمك: ١ ـ ٣٤ ـ ٦٩٣ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)

٢ ـ ٣٩ ـ ٦٩٣ ـ ٩٩٦٠ (ج٢)





صفحات من تاريخ مكة المكرمة

تأليف المستشرق: ك. سنوك هورخرونيه

الجزء الثاني

دراسة تفصيلية للأوضاع الاجتماعية
في نهاية القرن الثالث عشر الهجري

نقله إلى العربية وعلق عليه

د. محمد محمود السرياني   د. معراج نواب مرزا

راجعه

د. محمد إبراهيم علي

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية
(١٤١٩هـ / ١٩٩٩م)

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الحياة اليومية في مكة المكرمة

سكان مكة

إن الناظر في شوارع مكة يرى خليطاً متنوعاً من السكان من كل جنس ولون، فهناك الأتراك ذوو البشرة البيضاء، والنوبيون ذوو البشرة السوداء، بالإضافة إلى العديد من الأجناس الأخرى التي تتدرج ألوانها من البياض إلى السمرة. إن هذا الخليط السكاني يحمل الناظر على الاعتقاد بأن مبدأ (رينان) في تشكيل الأمة، والقاضي بتناسق عناصر السكان ووحدة أصولهم، لا يفسر تجمع هذا الخليط السكاني المتعدد الجنسيات الذي تحدوه الرغبة في العيش سوياً.

إن الغالبية العظمى من هؤلاء المكيين، الذين لا يزالون ينتمون إلى أصولهم الأولى قد قدموا إلى هذه الديار لرغبتهم في أن يكونوا بجوار بيت الله الحرام، وهذا لا شك يعطي تأثيراً فريداً لاجتماع هذه العناصر الوافدة.

غير أنه بجانب هذا الهدف الديني هناك منافع دنيوية أخرى يلمسها المرء من خلال صيغ الدعاء التي تقال في العادة بمناسبة أداء فريضة الحج، مثل: «حج مبرور، وذنب مغفور، وتجارة لن تبور» فبجانب جوار بيت الله هناك الأغراض التجارية. وإن كثيراً من الأتراك والمصريين والسوريين والبخاريين وسكان آسيا الوسطى بالإضافة إلى الهنود يشتركون معاً كفئة واحدة في حرفة التجارة، حيث يقدم هؤلاء إلى مدينتهم المتواضعة الكماليات التي تبهر بوجودها جموع الحجاج والمجاورين. وبالإضافة إلى ذلك فإن صناعة الأدوات البسيطة التي لا تستورد جاهزة من الخارج هي في أيدي نفر من الحرفيين الذين يأتون من مختلف بقاع العالم الإسلامي.

وبجانب هؤلاء التجار والحرفيين يفد إلى المدينة المقدسة العديد من المتسولين الذين يفدون في موسم الحج، حيث يجدون بيئة خصبة لمهنتهم أكثر من بلادهم، ومن الجدير بالذكر أن المتسولين من وسط آسيا يفدون براً بوصفهم دراويش ويلبسون ملابس رثة، وتغطي رؤوسهم قبعات تترية مصنوعة من الصوف. ويحمل الواحد منهم في يده عصا بها بعض القطع الحديدية التي تصدر أصواتاً تصاحب الأناشيد التي يتغنون بها. أما اليد الأخرى فيمدها لطلب الصدقة، أو يحمل بها وعاء خشبياً، أو غلاف جوزة الهند يستعملها كوعاء لهذا الغرض.

وينتمي إلى هذه الطبقة معظم المتسولين الذين يطلق عليهم اسم الشحاذين أو المداحين. إن المدائح التي ينشدها هؤلاء أمام البيوت هي مدائح دينية قصيرة يتردد فيها ذكر الله ثم طلب الإحسان[1]. وفي حالة عدم رغبة صاحب البيت في إعطاء هؤلاء يكون الجواب (الله كريم)، فيغادر المتسول البيت إلى البيت المجاور.

إن المتسولين والفقراء الأجانب الذين قدموا إلى هذه البلاد، والذين لا يفكرون بالعودة إلى بلادهم يحاولون إيجاد فرص عمل مختلفة في أعمال لا يقبل السكان المحليون العمل بها وبأجور منخفضة أيضاً. ويعمل هؤلاء أمام أبواب المساجد، حيث يحتفظون بأحذية المصلين لقاء مبلغ زهيد من المال، أو يعملون في خدمة عدد من الأسر، أو يعملون في العديد من الأعمال الأخرى التي لا يقبل الخدم العمل بها.

الهنود

ومن الجدير بالذكر أن الهنود كانوا يكسبون أرباحاً طائلة من العمل في التجارة التي ينشط بها هؤلاء. وكذلك من إقراض الأموال المتوافرة لديهم التي كانت تصل أرباحها إلى ٥٠٪. والصورة التي يتم بها إقراض المال تتلخص في:

١ ـ كتابة صك بمبلغ كبير من المال إلى أجل مسمى.

---

(١) كقولهم: من عطانا الله يعطيه.. أو يا حاجي أعطني من زادك عسى الله يوصلك بلادك.

٢ ـ أن يبيع الدائن المدين بعض الحاجات بأسعار عالية جداً على أن يدفع ثمنها في وقت لاحق، ثم يعود فيشتريها منه بثمن بخس، ويعطيه المال دفعة واحدة على أن يتقاضى المبلغ الأول فيما بعد.

لقد عرفت بعض المكيين لهم سندات ديون على بعض أفراد الجاوي تتراوح بين ٥٠,٠٠٠ إلى ٨٠,٠٠٠ دولار نمساوي (ماري تريسا). وهؤلاء ليست مهمتهم إقراض المال بل هي حرفة جانبية. ولقد تأثر الجاوي بالأوضاع السيئة في بلادهم، حتى إن دائنيهم لم يتقاضوا سوى نصف المبلغ المذكور أعلاه.

إن هذه الطرق لابتزاز الأموال عن طريق الإقراض، كانت تعرض بعض هؤلاء الدائنين إلى المحاكمة يومياً. غير أن العديد منهم كان لا يتورع عن مخالفة القوانين الموضوعة لذلك.

الحضارم

إن المنافسين الحقيقيين للهنود في هذه المهنة هم الحضارم. وفي الغالب يأتي هؤلاء إلى مكة خالي الوفاض. ولكن بجد هؤلاء الدائب، وتحملهم المشاق الكثيرة، يرتادون مهنة التجارة أو أي مهنة أخرى تواتيها الظروف. فبعض هؤلاء يبدؤون حياتهم حمالين في جدة، حيث يقومون بنقل البضائع والحاجيات من الميناء إلى المدينة. وبعض هؤلاء يصبح من الأثرياء. أما في مكة فيعمل هؤلاء بادئ ذي بدء عمالاً عند أصحاب المحال التجارية، حيث يتقن هؤلاء المهارة الفنية، ويتعرفون على الأجواء المحلية للبيئة، وينتقلون بعدها إلى العمل بالتجارة لحسابهم الخاص.

فالحدث ابن الأربعة عشر عاماً إذا ما كسب ٢٥ دولاراً من عمله خلال عام، يقوم بإقراض ٢٠ دولاراً إلى بعض المحتاجين، فتدر عليه ربحاً يعادل ١٠٠٪ خلال بضعة شهور.

اليمنيون

ويأتي إلى مكة للأسباب السابقة نفسها أبناء اليمن، ولكنهم أقل أهمية وشهرة من الحضارم، ويأتي من مناطق الحجاز إلى مكة، وخاصة من المنطقة الواقعة بين الطائف ووادي لية بعض البدو الفقراء الذين يعملون بوابين في بيوت مكة، حيث يسكن هؤلاء عند مدخل الدار للقيام

بالحراسة. وهذا النوع من العمل مهم جداً في أوقات الحج، حيث تكون هذه البيوت مليئة بأمتعة الحجاج. وهؤلاء عندهم أمانة للقيام بهذا النوع من العمل، ولهذا يفضلهم سكان مكة أكثر من غيرهم.

البدو

وفي الجنوب الغربي من المدينة يستوطن البدو من مناطق الحجاز المختلفة. ويعيش الفقراء منهم في أكواخ، بينما يعيش الموسرون في بيوت بسيطة. ويقوم هؤلاء بإيجار جمالهم بين جدة والطائف والمدينة، كما يقومون بجلب الأغنام والحليب والزبد والتمور من مناطقهم المختلفة إلى المدينة المقدسة. ويطلق على هؤلاء في الغالب اسم (المكاريين[1] والمتسببين)، أو (المخرجين). ويستوطن في الجهة الشمالية والجنوبية من المدينة أيضاً مجموعات من هؤلاء البدو، ولكن بأعداد قليلة وفي مناطق بعيدة لا يمكن عدّها جزءاً من المدينة.

الأفارقة

وفي القسم الجنوبي الملاصق للمدينة توجد أكواخ الزنوج وهؤلاء هم من التكارنة الأحرار، والقليل منهم من العبيد الذين تحرروا والتحقوا بهم، ويعمل هؤلاء حمّالين، كما يعملون في تنظيف دورات المياه في الشوارع، وفي أعمال صناعة الفخار، وفي صناعة المكبات والزنابيل والمكانس وغيرها.

إن هذه هي المنافع المادية التي تجلب العديد من المسلمين إلى مكة. ومن بين الجنسيات السابقة هناك العديد من الأفراد الذين يفدون إلى مكة بدوافع دينية وروحية صرفة، حيث تكون لديهم الرغبة في تعلم القرآن الكريم في منابعه الأولى، كما أن لديهم الميل للعيش بجوار مشاهير العلماء الذين يعيشون في المدينة المقدسة، أو لتكفير الذنوب والخطايا، أو للبذل بسخاء على أعمال البر والإحسان، أو لانتظار الأجل المحتوم بقصد الموت في هذه الأماكن الطاهرة.

الجاوي

ونجد العديد من سكان جزر الهند الشرقية والملايو يفدون لهذه الأغراض الأخروية أكثر من المنافع الدنيوية، غير أنهم بعد

---

(١) المكاريين: جمع مكاري، وهو مَنْ يؤجر وسيلة نقل.

برهة من الوقت تصيبهم عدوى الدوافع الدنيوية، وعلى العموم يتصف هؤلاء بقلة عدد المتسولين منهم.

سكان نجد

وعلى الرغم من أنه يسكن المدينة المقدسة العديد من الجنسيات المختلفة، غير أن الملفت للانتباه هو قلة عدد القادمين من وسط الجزيرة العربية إلى هذه المدينة، بقصد السكنى الدائمة. والذين يمكثون من هؤلاء هم التجار فقط، أما الباقي فلا يقصدون المدينة إلا في موسم الحج ولمدة وجيزة.

إن الوافدين إلى مكة من أصول مختلفة يبدؤون في السكن بمناطق خاصة بهم في المدينة المقدسة، ومع أنهم يتعاملون مع الجنسيات المختلفة الأخرى، إلا أن اتصالهم المباشر والغالب مع أبناء جلدتهم. وهذا بطبيعة الحال موجود بين جميع رعايا الدولة العثمانية. وهذا الانفصال في الحياة الاجتماعية، ليس له أي تأثير في النواحي السياسية، فحتى رعايا الدول الأوروبية الكبرى التي لها نفوذ كبير حريصون على عدم إظهار نفوذهم السياسي، حتى لا يهانوا من قبل المواطنين، وبالتالي تقوم السلطة بطردهم.

وفي حالات نادرة يكون هناك اتصال مباشر بين بعض المسؤولين في الدولة، وبعض الشخصيات الأجنبية، وخاصة البريطانية، وفي حالة حدوث مثل هذا الاتصال يعامل هؤلاء معاملة رعايا الدولة. وحتى قبل قدوم هؤلاء يجب أن يتقدموا بطلب حماية السلطان، حتى يتسنى لهم البقاء في هذه البلاد. وحديثاً فرض على جميع الأجانب الذين يريدون تملك أراضٍ في الحجاز أن يحصلوا على التابعية التركية. إن التجنس أمر حاصل، ولكن ليس له صبغة قانونية خارج مكة، ولا تستطيع السلطات الأجنبية التأثير في ذلك.

علاقة السلطة بالسكان

إن التعامل بين السلطات المحلية وأفراد الجنسيات المختلفة يحتاج إلى نوع من الوساطة؛ فالاختلاف في اللغة والعادات كثيراً ما ينجم عنه عدم التفاهم بين هؤلاء والمسؤولين. ولتجنب مزيد من سوء الفهم، يقوم الشيوخ أو المطوفون بدور الوساطة بين المسؤولين وأفراد الجاليات المختلفة.

فالحضارم مثلاً، وهؤلاء لم تخضع بلادهم لنفوذ الدول الكبرى، ولا للدولة العثمانية، لهم مشايخهم الذين يقومون بدور الوساطة بين السلطة المحلية وأفراد جاليتهم. وكذلك الحال في كل حي من أحياء مكة، حيث يكون الشيخ (العمدة) حلقة الاتصال بين أبناء الحي والسلطة المحلية. ودور هؤلاء محصور في النواحي الإدارية. وكذلك الحال مع السليمانيين، وهم الجالية الأفغانية، حيث يتسلم مسؤول (عمدة) من أفراد هذه الجالية زعامة الجالية، وتمثيلها لدى السلطات المحلية في مكة. والحكومة العثمانية تكثر من تحديها لسلطة هؤلاء المسؤولين عندما تجد ذلك ضرورياً، وخاصة لدى الجاليتين الأفغانية والحضرمية.

تأقلم الجاليات

إن مكة هي بلد الجاليات المختلفة من كل جنس ولغة، حيث يشعر هؤلاء جميعاً بأنهم في بلدهم، على الرغم من أنهم غرباء عنها. إن كثيراً من الجاليات المختلفة قد اندمجت مع المجتمع المكي؛ فتطلعات هؤلاء، وعلاقاتهم الوظيفية، بجانب العديد من الأسباب الأخرى، قد قاربت بين هؤلاء والمجتمع المضيف، وبالتدريج وجد هؤلاء مكانهم في المجتمع المكي. ونجد بين الجاليات المختلفة العديد من صور التدرج نحو التأقلم مع المجتمع المكي، على أنه لا يوجد هناك فوارق كبيرة بين هؤلاء وأولئك. فالزواج رابطة رئيسة من صور الاندماج بين هؤلاء، فالرجل الذي يتزوج امرأة تربت في مكة يصبح مكياً، وفي الجيل الثاني أو الثالث تتلاشى صلة الأسرة بأصولها القديمة. إن هذا الخليط السكاني من المواطنين ينصهر تدريجياً في بوتقة المجتمع المحلي، على الرغم من عدم وجود روابط قربى بين أفراده، فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار عامل التزاوج بين هذه الفئات المختلفة، وخاصة الزواج بأكثر من واحدة، أدركنا أن كل حي من أحياء مكة المكرمة يشمل أنواعاً عديدة من الأجناس المختلفة. وحتى في الأسرة الواحدة يمكن أن نجد أخلاطاً عديدة من ألوان البشرة التي تمثّل كافة الألوان البشرية المعروفة. إن عملية انصهار الفئات العرقية المختلفة في البوتقة المحلية عملية مستمرة في مكة، وتتجدد باستمرار، وستظل باقية ما دام هناك عناصر وافدة إلى المجتمع المحلي، ومع كل ذلك لا نزال

نجد هناك بعض العادات والزي واللغة والصفات التي تمثل البيئات التي قدم منها هؤلاء موجودة بين أفراد المجتمع المحلي.

وعلى الرغم من أن المجتمع المكي ينحدر من أصول عدّة، معظمها من خارج الجزيرة، إلا أنه يمثل بكل تأكيد خصائص السكان في غرب الجزيرة العربية، التي تمثل التفاعل الحاصل بين العادات والأخلاق التي قدم بها هؤلاء، مع عادات وأخلاق المجتمع المحلي بفئاته المختلفة، ممثلاً بالأشراف والسادة، وبالعائلات المكية القديمة، بالإضافة إلى القبائل الحجازية، وفروع قبيلة حرب المختلفة، ويضاف إلى ذلك المهاجرون القادمون من جنوب الجزيرة العربية (من الحضارمة واليمنيين) الذين لا يختلفون في عاداتهم وتقاليدهم عن سكان مكة الأصليين. وعلى الرغم من أن المهاجرين بفئاتهم المختلفة يتخلون عن عاداتهم الوطنية بمرور الزمن، إلا أنهم قد أثّروا في المجتمع المحلي بتلك العادات والتقاليد التي قدم بها هؤلاء من الوطن الأم. وعلى الرغم من أن لغة أهل مكة الدارجة هي إحدى الأنماط المحلية في غرب الجزيرة العربية، غير أنها تحوي بعض الألفاظ الأجنبية من لغات شتى، دخلت إلى هذه اللغة من جرّاء قدوم الوافدين إلى هذا البلد المقدس. أما من حيث اللباس فعلى الرغم من أن أهل مكة قد استعاروا كثيراً من الملابس الهندية، إلا أن الزي المكي زي مميز، وقد استفاد كثيراً من اللباس العربي التقليدي. ويتجلى لدى أهل مكة الكرم العربي، غير أن المكيين قد استفادوا كثيراً من الأكلات الشعبية لدى الأمم المختلفة التي تمثل الأصول الأولى التي قدم منها بعضهم. ويلمس المرء لدى المكيين في مواسم الحج كرماً بارزاً. والمكيون بطبيعة حياتهم الاجتماعية كرماء إلى درجة الإسراف.

إن العلاقات الاجتماعية المتبادلة بين أحياء المدن، قد اتبعت نمط غرب الجزيرة العربية، فقد تنشأ الحزازات بين أحياء المدينة المختلفة لأسباب تافهة؛ إذ قد يؤدي شجار الأطفال مع بعضهم البعض إلى نزاع بين حيين، وربما يقوم أحد الأشخاص بطرد الكلاب نحو حي معين، فتكون النتيجة نشوب العداء المستمر. وفي هذه الحالة لا يستطيع شخص من أي

الحيين المرور بالحي الآخر دون أن تنهال عليه الحجارة، أو ربما يضرب بخنجر إذا كان الوقت ليلاً. ويحمل رجالات مكة من الأشراف وبعض السادة الخناجر في أحزمتهم، أما أبناء الأحياء فيحملون سلاحهم تحت ملابسهم. وفي حالة الشجار (الهوشة) يحمل أبناء الأحياء العصي (النبابيت)[1] في أيديهم. إن مسببي الشغب بين الأحياء، وخاصة الذين يعدون أنفسهم شجعاناً (مشاكلة) يحسرون عن رؤوسهم، لتظهر الندب الموجودة على جماجمهم، والتي حصلت لهم من جرّاء الشجار، كناية عن الشجاعة وعدم الخوف. وتحدث هذه الخصومات في الغالب أسفل جبل أبي قبيس (منطقة أجياد). وحتى يمكن التهرب من قبضة رجال الأمن، يبتعد هؤلاء أيام الأعياد، حيث يتجمع أناس كثيرون في أماكن بعيدة نوعاً ما، وخاصة بجوار المقابر. وإذا توفي أحد هؤلاء أو جرح، يتولى أبناء الحي الآخر، الذي تسبب في ذلك، دفع الدية أو التعويضات المستحقة، والتي توزع على جميع أبناء الحي كل بحسب إمكاناته، ولا تقل الدية في الغالب عن ٨٠٠ دولار نمساوي. أما الجروح فتقدر قيمتها طبقاً للأعراف السائدة.

أما الانتقام من الخصوم، فيكون على الشخص الذي يقع تحت قبضة اليد أولاً كائناً من كان، وعلى العموم تبقىٰ دائماً حسابات بين الخصوم يجب تصفيتها بطريقة أو أخرى، وحينما يصاب أحد الأشخاص المشهورين بجرح خطير من جراء هذا الشجار، فإن الشيوخ في الغالب يحاولون عقد جلسة للصلح، وذلك بأن يدعو أحد الطرفين الآخر إلى وليمة، وقبل الوليمة يجتمعان معاً وجهاً لوجه، حيث يتقدم الجاني، ويبدأ بجرح نفسه بسكين، ويستمر في ذلك حتى يصرخ أفراد الفريق الآخر (كفى)، وفي هذه الحالة يحيي أفراد الفريقين بعضهم بعضاً، ثم يتناولون الطعام معاً، حيث يصبح بينهم عيش وملح، ويستمر الوئام بعد الخصام إلى ما شاء الله.

---

(١) النبوت أو (الشون): نوع من العصي الغليظة واسمها العربي (المنسأة).

وهكذا نجد للمكيين حروبهم التي يتقمصون بها خطى سادتهم من جهة، والتقاليد العربية العامة من جهة أخرى، في استعدادهم للخصام في بلد جعله الله حرماً آمناً.

صفات أهل مكة

إن عادات سكان غرب جزيرة العرب هي السائدة في مكة. والسكان بمجموعهم العام، سواء أكانوا من عرب الجزيرة، أم من القادمين إلى مكة، يتأثرون تأثراً بالغاً بالحرفة الرئيسة في مكة، ألا وهي الاستفادة من مواسم الحج كل عام. وتعتمد حياة أهل مكة اعتماداً مباشراً على خدمة ضيوف الرحمن القادمين إلى البلد المقدس، والذين يأخذون انطباعاً خاصاً عن معاملة أهل مكة، فالحاج الورع الذي يتخيل أن كل شيء في حالة مثالية في هذا البلد المقدس، يفاجأ حينما يرى السعي المتواصل إلى مزيد من الربح في هذا الموسم، وهذا في واقع الحال أمر طبيعي؛ لأن مكة ليس لديها مصدر حيوي للدخل سوى هذا المورد، ولذا نجد أن التنافس حول طلب الرزق يزداد كثيراً بدل أن يقل، ويجب أن أؤكد هنا أن الذي يرى أهل مكة خارج موسم الحج، يجدهم عذبي المعشر، مولعين بالمرح، كرماء إلى درجة التبذير، يكرسون جهودهم لحياتهم الاجتماعية. وأن الذي يراقب حياتهم عن كثب يجد بجانب الخشونة والفظاظة التي عند بعضهم، أناساً نبلاء المعشر، كريمي الصفات، أتقياء ذوي ورع وصلاح.

الرقيق

وقبل أن نستطرد في وصف الحياة الاجتماعية في مكة بصورة تفصيلية، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار عنصراً مهماً من عناصر السكان، لا يزال يتوافد إلى المدينة منذ أقدم الأزمنة بأعداد كبيرة. ذلك العنصر الذي لعب دوراً كبيراً طبيعياً وأخلاقياً في التكوين السكاني للمدينة المقدسة، ألا وهو العناصر المهاجرة القادمة من أفريقيا أو من القوقاز. وهؤلاء هم الرقيق، الذين كثر الحديث عنهم في الآونة الأخيرة.

الرقيق الشركسي

فالشركس ـ ذكوراً وإناثاً ـ يفدون عبر القسطنطينية، وإن عدد هؤلاء قليل، غير أن أسعارهم عالية جداً. فالعبد الأبيض ثمنه أكثر من غيره، وفي مكة لا يباع هؤلاء في أسواق الرقيق. فالمرأة الشركسية تُشترى للتسري، ولكنها غير مرغوبة من العرب الأقحاح. أما الذكور من هؤلاء فيعملون خدماً في البيوت،

وعندما يكبر هؤلاء الرقيق يعتقهم أسيادهم. وغالباً ما يتعلم هؤلاء النفر، وخاصة عندما يكون أسيادهم يعملون في أعمال حرة، فيكتسب هؤلاء خبرة عملية في هذا المجال، حيث يعملون وسطاء تجاريين لأسيادهم، وأحياناً يقومون بالعمل لصالحهم الخاص. ويسهل على أمثال هؤلاء الحصول على الوظائف لدى الدوائر الحكومية التركية.

الرقيق من أفريقيا

ونجد الرقيق من أفريقيا يلعب دوراً كبيراً في المجتمع المكي، بالإضافة إلى أهميته في تجارة الرقيق. ويطلق أهل مكة على هؤلاء اسم النوبيين، وهم الأرقاء ذوو البشرة الفاحمة الشديدة السواد، ويعمل هؤلاء في الأعمال الشاقة كأعمال البناء والحمل. وهناك الأرقاء السود الذين يؤتى بهم من السودان[1]، ويعمل هؤلاء في قطع الحجارة وأعمال البناء أيضاً. ويقوم سادة هؤلاء بإرسالهم للعمل في البناء منذ صغرهم، حتى يتسنى لهم تعلم العربية بطلاقة. وخلال فترة التدريب على هذه المهنة يتأقلمون على شروط الحياة الجديدة. ومن لم يتقن المهنة جيداً من هؤلاء، يبقى عاملاً فقط، حيث يقوم سيده بتأجيره ليعمل مع البنائين، ويقوم المكيون بتعليم هؤلاء الأرقاء الشعائر الأساسية للدين الإسلامي، غير أن بعضهم مهملون ولا يلتزمون بذلك، على الرغم من أنهم متعصبون للإسلام. ويقوم هؤلاء باحتفالاتهم الشعبية ابتداء من بعد ظهر الخميس وحتى صباح الجمعة، حيث يعزفون موسيقاهم الوطنية وأناشيدهم ويرقصون رقصاتهم الشعبية. وكل مجموعة من هؤلاء لها شيخها الخاص الذي يقوم بفضّ النزاعات بينهم، ويصدر العقوبات القضائية على المذنبين منهم، ويجلس بجانبه ضابط يدعى النقيب، حيث يحمل عصا لتوقيع العقوبة على المذنب. إن الأوركسترا الزنجية تتألف من الطنبورة (آلة موسيقية لها ستة خيوط وعليها ريش)،

(١) إن مفهوم السودان لا يقتصر على ما يسمى بجمهورية السودان، وإنما كان يطلق على كل مناطق أفريقيا المدارية، وكان يطلق على الجزء الشرقي اسم السودان الإنجليزي، أما الجزء الغربي فكان يطلق عليه اسم السودان الفرنسي، والأقطار الحالية التي كان يطلق عليها في السابق اسم السودان تشمل المنطقة الواقعة بين البحر الأحمر من الشرق والسنغال وموريتانيا في الغرب.

وبعض الطبول. ويحتزم أحد هؤلاء بحزام يتمنطق به، مكون من حوافر الغنم، ويقوم هذا الرجل بالرقص، ويهز نفسه بقوة بالغة، حيث يحدث صوتاً قوياً. ويصطف المجتمعون حلقة دائرية، حيث يغنون ولعدة ساعات ألحاناً رتيبة.

وفي وسط هذا التجمع الدائري يدخل اثنان من المجموعة إلى الرقص، ويحمل كل من هؤلاء عصا طويلة بيده، ويتبارزان كما لو أنهما في معركة. وفي فترات الاستراحة يتناول بعض هؤلاء شراباً يقال له البوزة. إن مثل هذه الاحتفالات تجعل هؤلاء في حالة مرح وسرور زائدين.

وبعد ظهر الجمعة من كل أسبوع يعود هؤلاء إلى عملهم. والذي لا يعد في نظرهم شاقاً، إلا أن الكثير من السكان المحليين لا يستطيعون احتمال أمثال هذا النوع من الجهد العضلي في العراء. إن الطعام اليومي لهؤلاء ليس بالقليل، فالمرء هنا يستطيع أن يحصل على غذائه اليومي بما لا يزيد على أربعة بنسات. إن اللباس والسكن ليس لهما أهمية تذكر في مثل هذه البيئة، حيث يحصل هؤلاء وغيرهم من المواطنين على أكثر مما يحتاجون إليه. وبعد تحرير هؤلاء يعمل معظمهم عمّالاً يوميين وحملة ماء (سقائين) وما إلى ذلك. وفي الغالب يفضل هؤلاء البقاء تحت وصاية سيدهم، وخاصة إذا سمح لهم بالزواج.

والأرقاء السود الأكثر ذكاء ومهارة يعملون خدماً في المنازل وفي المحلات التجارية. والأثرياء في العادة وخاصة التجار يملؤون منازلهم بالرقيق، وأمثال هؤلاء يجدون عيشاً رغيداً في مثل هذه الأجواء. وحتى الرقيق في بيت المواطن العادي لا يجد شظفاً في العيش، لأنهم يعدون من أفراد الأسرة. والموهوبون من هؤلاء ممن يعمل مع سيده في التجارة يصبحون موضع ثقة واعتبار من أسيادهم، بحيث لا تشكل العبودية سوى مظهر شكلي واسمي فقط، والخدم في المنازل غالباً ما يطلق سراحهم عند بلوغهم سن العشرين؛ لأنه - في الغالب - تقتضي طبيعة عملهم الاتصال اليومي المباشر بنساء وخدم رب الأسرة، ولهذا يحررون بعد سن العشرين. والموسرون من أهل مكة يشعرون أن عليهم أن يحرروا عبيدهم الذين

أخلصوا لهم اعترافاً بالجميل لإخلاصهم وصدق معاملتهم في الأسرة، وذلك كي يتمكن هؤلاء من الزواج وتكوين أسر خاصة بهم.

وبعد إعتاق الرقيق تبقى العلاقة الأسرية كما كانت عليه سابقاً، ولا يوجد أي وظيفة أو مركز لا يكون فيه أي عتق لهؤلاء، فهذا حاصل في كافة المجالات التي يعمل بها الرقيق. وبعد العتق يتنافس هؤلاء مع الأحرار على قدم المساواة، وهؤلاء لا يمثلون الفئة الضعيفة في تنافسهم مع نظائرهم من أبناء المجتمع المحلي، بل يمثلون نسبة كبيرة من الأعضاء البارزين في المجتمع، وكذلك أصحاب العقارات والمؤسسات التجارية، ولا يمثل اللون عقبة كأداء أمام هؤلاء؛ لأن كثيراً من أبناء المجتمع المحلي لهم أبناء بهذا اللون من جواريهم.

سوق الرقيق

ويبدو من غير المعقول وجود سوق للرقيق في مكة. وهو نتيجة للظروف السياسية في المنطقة، ويمثل سوقاً رئيسة يستقبل أحياناً أرقاء من المستعمرات البريطانية، وكذلك من جزر الهند الشرقية الهولندية، والرقيق القادم من المستعمرات الهولندية، يكون في الغالب من المناطق النائية والبدائية في مقاطعات سلبيس أو بورنيو أو من جزيرة نياس، ويرسل هؤلاء إلى مصر. ولقد أخبرني المدرس التركي الذي كان يدرس أبناء الأمراء المصريين أن أقاربه ومعاونيه لديهم العديد من هؤلاء. ولقد شاهدت العديد من الغلمان الأرقاء من بلاد الهند. وكذلك شاهدت أربع هنديات من رعايا الإمبراطورية البريطانية، ولكنني لم أتحقّق من المناطق التي قدم منها هؤلاء النسوة الأرقاء.

إن الروابط التي توجد بين الرقيق من النساء، وأفراد الأسرة المكية قوية جداً، ولذلك سوف أناقش موضوع الرقيق من النساء في الفصل القادم المتعلق بحياة الأسرة. ويجب أن أذكر هنا أن المرأة تقوم بالأعمال المنزلية وأعمال الطبخ والخدمة، وكذلك تكون سرية للرجل. أما الرقيق من الأحباش اللواتي تتمثل فيهن كافة الملامح البشرية من الأصفر الفاتح حتى الأسود الفاحم، فهن مخصصات للتسري في الغالب، ولا يقمن إلا ببعض الأعمال المنزلية البسيطة. والأحباش عموماً يعدون أكثر نقاء، وأكثر ذكاء

من غيرهم من الرقيق الأسود، وكذلك أكثر ثقافة، ولهذا فإنهم يقومون بأعمال الخدمة الشخصية، أو موظفين في الأعمال التجارية. وتحت اسم (الحبوش) يندرج كثير من أبناء المناطق المجاورة لأثيوبيا. والخبراء في هذا المجال هم الذين يعرفون الفروق بين الجنسيات المختلفة. وكذلك جمهور البائعين والمشترين يعرفون أيضاً إلى حد ما خصائص وصفات ما يودون شراءه من الجالا والقوراج، فبعضهم يفضّل الجالا، والآخر يفضّل القوراج عند الشراء.

بيع الرقيق

إن كل أنواع الرقيق الأفريقي كان موجوداً بأعداد كبيرة (١٣٠١هـ ـ ١٣٠٢هـ)، (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م) لدى تجار الرقيق (الدلالين). ويباع الرقيق في سوق الرقيق الذي يعرض فيه الأرقاء من الجنسين. وبعض هؤلاء وصل حديثاً، بينما بعضهم الآخر من الموجودين في مكة، والذين استغنى عنهم سادتهم. والسوق هو قاعة كبيرة بجانب المسجد الحرام عند باب دريبة.

إن الذي يدخل سوق الرقيق بتصورات أوروبية وفي ذهنه (Uncle Tom Cabin ـ كابينة العم توم، وهي إشارة إلى الرقيق الذي كان يرسل إلى العالم الجديد ـ سيأخذ انطباعاً سيئاً، وسوف يغادر السوق وهو مشمئز من سوء المنظر. وهذا الانطباع الأولي هو انطباع خاطئ، ومع الأسف فإن معظم المستشرقين الرحالة لم يصوروا لنا إلا انطباعاتهم الأولية، وهذا هو مصدر الخطأ لديهم.

وعلى المقاعد اللاصقة للحائط تجلس البنات والنساء، والنساء البالغات يتحجبن بحجاب خفيف، وأمامهن يقف أو يجلس الذكور المتقدمون في السن، وفي الوسط نجد الصبيان. وبعض الدلالين يقوم بترتيب هؤلاء عكس ذلك. فإذا ما أبدى أحد الجمهور اهتماماً بغلام مثلاً يقصد شراءه، فإن الدلال يطلب إلى الغلام الوقوف، ويطلع المشتري على شعره وساقه وذراعه، ويطلب إلى الصبي أن يظهر له لسانه، ويمتدح مهارته ونوعه.

وإذا كان الزبون جاداً في الشراء، فإنه يتحدث إلى الغلام نفسه: هل تتكلم العربية يا بني؟ قليلاً يا سيدي، ولكنني أفهمها جيداً. وبعد هذه المقدمة يتحدث الغلام عن نفسه وحياته، والدلال لا يتوانى أن يطلع المشتري على

ذراع الغلام الذي يبرز أنه قد حصل على تطعيم ضد الجدري قائلاً: (مجدر خالص). أما بالنسبة للتطعيم ضد الأمراض، فهو معروف في قلب الجزيرة العربية، ومعترف به شرعاً من قبل مفتي الشافعية بمكة، إلا أنه بالنسبة للرقيق لا يستعمل إلا قليلاً.

فإذا شك الراغب في الشراء في صحة الغلام يمكنه أن يرسله إلى الطبيب للفحص لقاء مبلغ يدفعه من جيبه هو. وأحياناً يقوم المشتري بعمل الاستخارة، وهو أن يصلي صلاة الاستخارة ثم ينام وينظر في الصباح ماذا حلم بالأمس، وعلى ضوء ذلك يقرّر الشراء أم لا. أما إذا كان يؤمن بالخرافات فإنه يذهب إلى شيخ مشهور، أو إلى (ضارب الرمل) ويستشيره في ذلك.

وقبل نهاية الصفقة يسأل المشتري الغلام هل تقبل أن تخدمني؟ ومن الجواب يمكن معرفة رضاه أو عدم رضاه. وحتى في حالة النفي يمكن معرفة أن الرفض ناجم عن كرهه لعمله في المستقبل، أو هو مجرد عدم الميل إلى تغير غير معروف العواقب. وعلى كل حال لا يمكن شراء عبد دون رغبته سواء أكان ذكراً أم أنثى. وفي المقابل إذا كان العبد غير راض عن طريقة الحياة التي يعيشها في بيت سيده فإنه لا يتوانى ـ ذكراً كان أم أنثى ـ عن إظهار عدم رغبته في البقاء في هذا البيت، ويطلب إلى سيده بيعه، الأمر الذي يضطر معه سيده إلى إحضار عبده إلى السوق (الدكة)، وفي بعض الحالات تتقدم المرأة، وتعرض نفسها في السوق، دون إذن سيدها، على الرغم من أن ذلك غير قانوني، ولكن المالك لا يجد ضرورة في إجبار إنسان ما على العيش معه دون رغبته.

والذي يبدو غير لائق هو فحص وجس هؤلاء الأرقّاء وكأنهم قطيع من الأغنام، وخاصة حينما تكون الصفقة امرأة صغيرة السن. ومن خلال الاستقصاء لا يشكل هذا الأمر عند هؤلاء الرقيق كرهاً شديداً، فهو يشبه إلى حد ما حالة الضجر الذي يصيب المرأة الأوروبية حينما يقوم الطبيب بفحصها. وهذا واضح جداً في سوق الرقيق، حتى عند الغريب الذي يدخله لأول مرة. فإحدى هؤلاء كانت تحدّث زميلاتها عن الأسئلة

المضحكة التي سألها إياها أحد الراغبين في شرائها، وكيف أن الدلال حاول خداعه، ولكنها أوقفته عند حده، وأظهرت للزبون كذبه وافتراءه. وكانت جميع زميلاتها يضحكن بسرور بالغ. ولا نجد في السوق أو في المنزل أي نوع من البكاء على حالة الاسترقاق هذه. وقد يكون مرد الضيق ـ إن وجد ـ عدم الرغبة في البيت الذي توجد فيه أو عدم الرغبة في الانتقال إلى بيئة جديدة. وإذا حدث أن بكت إحدى الفتيات عند الشراء، فهو من قبيل بكاء الفتيات حينما يرسلن إلى مدرسة داخلية، أو بكاء الشباب حينما يذهبون إلى الخدمة العسكرية. إن بعض الأمثلة تظهر أننا بصفتنا أوروبيين نصل إلى استنتاجات خاطئة إذا لم نأخذ العلاقة الاجتماعية وحدة واحدة وأخذناها جزءًا جزءًا.

فقد يحدث أن يستيقظ أحد الأجانب القادمين إلى جدة، لمدة يوم أو يومين، على أصوات أحد العبيد ملقى على الأرض على ظهره، وقدماه مرفوعتان في الهواء، ويجد بجانبه أحد العرب الذي يضربه بالسوط على قدميه، بينما الغلام يصرخ قائلاً: سأتوب من ذنوبي أنقذوني، يا الله، لا إله إلا الله، يا ناس أنقذوني!.

إن مثل هذه المناظر ليست سارة بالطبع، ولكنها ليست نادرة في مكة أو جدة، وإن مَنْ يراها أول مرة من الأوروبيين يزداد اقتناعاً بانطباعات أنكل توم (Uncle Tom) السيئة عن الرق، وعند عودة هؤلاء إلى بلادهم يتحدثون بهذه على أنها حقائق عن العبودية والرق في هذه البلاد. إن مثل هذا الأجنبي تنقصه الخبرة عن طبيعة السكان هنا؛ لأن العربي على استعداد أن يضرب ابنه بهذه الطريقة، إذا ما ارتكب ولو خطأ صغيراً. فالسائح لم يشاهد منظراً من حياة الرق والعبودية، وإنما شاهد مثالاً لنوع من التربية والعقاب عند العرب، الذي يطبق على العبيد والأولاد أيضاً، وهذا بطبيعة الحال يخالف الأفكار الحديثة في التربية.

وهناك منظر آخر قابلني في مكة، وهو أن أحد رجال مكة المرموقين (كُباريّة) من عائلة كانت لها الفتوى، كان يزورني، وكان على عادة أهل

مكة أن يصطحب معه أحد عبيده، وقد كنت مندهشاً من أدبه الجم مع خادمه، وكيف أنه كان يسأل خادمه باستمرار، إذا كان يحتاج إلى أي شيء. وكان يطلب إلى خادمي الذي يقف على الباب الجلوس معنا. وعندما أطريت الثناء على هذا الفعل الحسن، أخبرني بالقصة التالية عن نفسه فقال: «حينما كنت صغيراً لم يكن يصاحبني كثيراً سوى خادم لأبي اسمه سليم، وقد كان يعاملني على أنه أبي، وقد كان يعمل كل شيء لإدخال السرور على نفسي، وقد تربيت على يديه، ولكنني كنت أطلب منه المزيد من الخدمات، ومرة كنت في الطابق الثالث، وقد أردت لعبة موجودة في غرفة أخرى بالطابق نفسه، وقد ناديت سليماً كي يحضرها لي، لقد كان في ناحية الدار، وصرخت عليه من النافذة، ولكنه لم يسمعني، فقلت له: أيها النذل سليم ألا تسمعني؟ وفي تلك اللحظة دخل أبي من غير أن أشعر به، وفجأة لطمني على أذني، ورماني على الأرض، وضربني على قدمي ضرباً مبرحاً، علّمني أن أتعامل مع سليم بكل أدب واحترام. وقد طلب إليّ النزول والاعتذار فوراً لسليم، الذي لم يكن يعلم بما حصل. وقد كان لتلك الصفعة على أذني الدرس الذي لقّنني إيّاه أبي أثر كبير في تحديد علاقاتي مع والدي الأصغر سليم، ومع هؤلاء الذين سخرهم الله لخدمتنا». وإن لهذه الحادثة نظائر كثيرة، وعلى العموم فإن الرقيق في العالم الإسلامي لا يختلف كثيراً عن الخدم والعمال في المجتمع الأوروبي. وإن الذي يعرف الظروف المحلية يعرف هذا تماماً، ويعلم كذلك أن إلغاء الرقيق يعني ثورة اجتماعية في الجزيرة العربية. وهناك العديد من الأوروبيين الذين يعرفون جيّداً شؤون الشرق، لا يريدون أن يقولوا ذلك بصراحة، لئلا يتهم هؤلاء بأنهم ضد الاتجاه السائد عموماً، والداعي إلى تحرير الرقيق نهائياً، ذلك الاتجاه المبني على مشاعر إنسانية نبيلة.

ويمكن القول: إن المجتمع الأوروبي يمكن أن يذعن مؤقتاً لاستمرار وجود الرق في المجتمع الإسلامي؛ لأن هذه المؤسسة التي عُدّت شرعية منذ العهود القديمة لا يمكن إلغاؤها بسهولة وبقرار من المجلس الأوروبي،

وحبذا لو اقتصر الأمر على ما في أيدي الناس من رقيق، دون اللجوء إلى الحصول على المزيد عن طريق صيد هؤلاء من مجاهل القارة السوداء.

والآن (١٨٨٨م) فإن في بقاع مختلفة من مناطق القارة الأوروبية حماسة شديدة ضد الرّق، مما يجعل سماع الحقيقة بهدوء واعتدال حول هذا الموضوع أمراً صعب التصور.

ولهذا يجب علينا أن نبتعد عن التلويح دائماً بمناظر صيد الرقيق أو عمليات السطو[١] على هؤلاء الأرقّاء التي بولغ فيها كثيراً في الصحف والمجلات، وعدّ ذلك من شرور الإنسانية التي لا جدال فيها. والسؤال الآن هو كيف نساعد في حل المعضلة، وكيف نغيّر من الوضع القائم لصالح هؤلاء بالنظريات المثالية؟ ويمكننا أن نفكر بادئ ذي بدء بالنتائج التي يمكن الحصول عليها من كل الإستراتيجية التي يمكن اتباعها في الوقت الحاضر.

إن أصحاب النظريات هم الذين يبقون عيونهم مفتوحة على الإلغاء الكلي لعملية اصطياد الرقيق والتي تعدّ عادة مستنكرة. فآلاف الأبرياء تتحطم حياتهم بذلك. ومع هذا فإن آلافاً مؤلفة من الدهماء من أوروبا قد أرسلت إلى القارة الأفريقية[٢]. وهذا بدلاً من أن يحل المشكلة الأفريقية بطريقة تفيد المواطنين أنفسهم يجعلها أكثر تعقيداً وصعوبة.

فالزنوج لم يدعوا لا الأوروبيين ولا العرب إلى بلادهم، وجميع هؤلاء غرباء لا يحتفى بقدومهم؛ لأن كلاً منهم يثير المشكلات عند هؤلاء. إن كثيراً من القصص التي سمعتها من هؤلاء الرقيق تؤكد أنه لولا مجيء الأوروبيين والعرب لما حصل غزو الرقيق واصطيادهم. ومع كل هذه

---

(١) يلزم التنويه هنا إلى أن «صيد الرقيق وعمليات السطو إلخ..» لا يقرها الإسلام أبداً، فالإسلام ليس فيه طريق للاسترقاق إلا نتيجة للأسر والسبي في الجهاد في سبيل الله. أما هذا الرقيق الذي كانت البلاد الأوروبية تمارسه ـ والذي لا يرى فيه المؤلف بأساً على ما يظهر ـ فلا يقره الإسلام ولا يعترف به.

(٢) يعني المؤلف بالدهماء الأوربيين الذين أرسلوا إلى أفريقيا، وهم أولئك المهاجرون والمستوطنون الذين أرسلتهم الدول المستعمرة للعيش والاستيطان في القارة السوداء واستغلال ثرواتها المختلفة التي حرم منها الإفريقيون أنفسهم.

المصائب لا يزال الأوروبيون والعرب يفدون إلى تلك المجتمعات البدائية بقصد شراء الرقيق.

إن العرب والمسلمين عموماً يحاولون نشر الإسلام حيثما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. والنتائج التي حققها هؤلاء لم تستطع إنكارها الإرساليات التبشيرية الإنكليزية. إن القرى المتحضرة في أفريقيا هي قرى المسلمين التي يرتدي فيها السكان الملابس ويشتغل أهلها بالزراعة والصناعة، ويخصصون جزءًا من وقتهم للتعليم. إن هذه الأشياء جميعاً تميّز مناطق المسلمين عن مناطق الوثنيين التي ليس للحياة الإنسانية فيها أيّ قيمة. وفي هذا المجال يعتقد العرب أنهم مؤهلون لتقديم مساعداتهم لهذه المجتمعات. إن الدين الإسلامي لا يأمر أتباعه بأن يستولوا على ممتلكات هؤلاء الوثنيين الذين لا يخضعون للنظام الإسلامي وليسوا متحدين في إطار الإسلام.

أثر سياسة تحرير الرقيق

إن الوصول إلى أقرب مركز لبيع الرقيق يستلزم إلزام هؤلاء الأرقّاء بالسير لعدة أيام. إن حركة تحرير الرقيق قد جعلت جلابي الرقيق يتوغلون في الداخل للحصول على بضاعتهم. وهذا يقتضي السير لمسافة ١٢ ساعة على الأقل للوصول إلى الأماكن التي يوجد بها بائعو الرقيق. ولا شك أن مثل هذه المسافات الطويلة جعلت الكثير من هؤلاء الأرقاء الذين لا يستطيعون السير لمسافات طويلة يفقدون حياتهم. وهذا لم يكن في السابق، حيث كان الناس يتعاطون بيع الرقيق بالقرب من الموانئ. وسبب ذلك هو حركة تحرير الرقيق التي لم تقلّل عدد الرقيق، بل وضعت صعوبات إضافية على هؤلاء بالسير لمسافات طويلة. فعلى طول الطريق يعامل هؤلاء على أنهم غنائم يجب الحفاظ عليها. وجلابو الرقيق يحاولون جهدهم الإبقاء على هؤلاء بحالة جيدة. ونجد المعاملة السيئة القاسية نادرة لهؤلاء، ولكن يجب ألاّ ننسى أن بعض هؤلاء ضعفاء البنية أو مرضى، وهؤلاء لا بد أن ينالهم العقاب من أجل الإسراع في المسير. ولقد حدثني بعض هؤلاء الرقيق أن الجلابين كانوا يستحثونهم على المسير بطريقة لطيفة، وحيث يكون هناك إمكانية يعطي لهؤلاء بعض الدواب للركوب.

إن الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها أن سرقة هؤلاء البشر مع ما يترتب على ذلك من نتائج مباشرة هو عمل مفزع شرير.

الاستعمار

إن بعض الأشخاص الأوروبيين النشيطين، بالإضافة إلى بعض المفلسين، قد قدموا من مناطق متعددة إلى القارة السوداء بدافع الحصول على المال. إن بعض هؤلاء كانوا يخدمون سياسة الجشع لمراكز القوى الأوروبية. إن الحصول على هذه المطامع لا يمكن تحقيقها إلا على حساب العديد من الضحايا الزنوج، والكثير من سعادة هؤلاء.. ولقد اعتاد الأوروبيون على اعتبار ذلك من الضروريات. إن الأموال التي يحصل عليها الأوروبيون من تجارة الرقيق هذه ليست بالقليلة. فإذا أضفنا إلى ذلك المساوئ التي جلبها لهؤلاء عهد الاستعمار، أدركنا أن المستعمرين هم الذين جعلوا أبناء هؤلاء الرقيق متمردين وثوّاراً ضد الحماية المفروضة عليهم من الخارج. الأمر الذي يقلّل من نفوذ الأوروبيين ويضعف من سلطانهم.

إن الأفريقيين حتى لو كان لديهم القوة والرجال فإنهم لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً؛ لأنهم لا يستطيعون أن يتحكموا بمقدرات بلادهم التي سلبت منهم. وحتى هم أنفسهم قد تحولوا إلى أقنان، لا يتمكنون من الاندماج مع حضارة مجتمعات أسيادهم، وكل ما يمكن قوله: إنهم حولوا إلى أدوات لخدمة أسيادهم.

التبشير

وفي خضم هذه الأجواء نجد المبشر المسيحي يتبع خطى هذا الحشد من الثقافات المتباينة محاولاً العلاج الروحي. ولكن ما المحاسن التي يقدمها وسط هذا الحشد من المساوئ؟ وحتى حينما يقوم هؤلاء المبشرون بدور الارتياد لمجاهل القارة، فإن الجماهير المسيحية تتبع خطى هؤلاء المبشرين، وتنتقل إلى هذه البقاع، الأمر الذي يجعلهم مقدمة وتهيئة لدخول المستعمر.

إن المسيحيين المخلصين الذين ينظرون إلى بواطن الأمور يخجلون دائماً من رؤية ثقافتنا التي فرضناها ـ نحن الأوروبيين ـ على هؤلاء، والمتمثلة بقبعة

كبيرة وزجاجة (براندي) لإنسان يعيش شبه عار في مجاهل القارة الأفريقية، وفي الجانب الآخر نجد المسلمين من هؤلاء يتصفون بالجد والعمل ويظهرون قوة الإسلام.

أمام هذه الحقائق هل تستطيع أوروبا أن تشير إلى دولة متحضرة واحدة موجودة تحت سيطرتها؟ هل أوروبا تستطيع أن تدعو في كل مكان وقبل أي شيء آخر إلى الصليب بدلاً من عمليات الاسترقاق التي تقوم بها. وعلى الرغم من أن أوروبا تعلم أنها تسير في طريق تسميه طريق التحرير، وهو لا يرضي الأرقّاء أنفسهم، كما أنه يعرض حياة العديد من هؤلاء إلى الخطر الداهم، بسبب وجود المدنية الأوروبية المفروضة عليهم. إن مَنْ ينجو من هؤلاء ويذهب إلى العالم الإسلامي وهو رقيق يعيش حياة سليمة بوصفه عضواً في مجتمع منظم.

إن آلاف الزنوج والأحباش الذين يحملون إلى ديار الإسلام، حينما يتذكرون حياتهم الأولى، يعدون أنفسهم خلقوا من جديد من خلال الاسترقاق. إن كل هؤلاء لا يريدون العودة إلى حياتهم الأولى، ونتيجة لذلك نجد أن أوروبا بكل ما لديها من شرور إنسانية ترسل إرسالياتها إلى أفريقيا لتقاوم تجارة الرقيق بعصبية بغيضة.

إن هناك شيئاً ذا فائدة أكبر يجب عمله في أفريقيا، وهو أن هؤلاء الأفريقيين حينما يدركون قيمة الحياة فإن عمليات الاسترقاق ستتوقف من ذاتها. إن الأوضاع السيئة تكمن في الأوضاع الداخلية للدول الأفريقية، وليس في عملية الرق ذاتها.

إن خدعة ما يسمى حركة تحرير الرقيق، ليس سببها اهتمام شعبي لغاية شريفة، ولكنه لعبة خطرة مزيفة يقوم بها رجال السياسة الكبار لأغراض ليست إنسانية، وذلك من أجل أن يتخذ العالم المسيحي موقفاً عدائياً خاطئاً ومزيفاً ضد الإسلام.

ويمكننا أن نرى بسهولة مدى التأثير الذي لعبه الأفارقة في المجتمع المكي، حينما كان هؤلاء الأفارقة يعيشون مع العرب ويتقمصون حياتهم.

لقد أصبحت المرأة الأفريقية أمًّا للعديد من أهل مكة، كما أن الرجل الأفريقي ساعد مساعدة فعلية في تربية النشء المكي.

الأغـــوات

إن الإساءة لهؤلاء الزنوج والتي لا تزال تمارس على الرغم من أن الإسلام لا يقرها هي عملية الخصيان، الذين يتولون خدمة نساء الطبقات العليا في المجتمع، أو يتولون عملية حراسة المسجد الحرام، ويطلق على هؤلاء اسم (الأغوات) أو (الطواشات) (مفردها أغا أو طواشي)[1]. إن عدداً قليلاً من هؤلاء في مكة يعملون في البيوت، بينما الغالبية العظمى منهم يعملون في المسجد الحرام. إن هؤلاء يستوردون وهم مخصيون من الخارج، ونجد من بين هؤلاء النوبيين والزنوج والأحباش من ذوي الأجسام القوية، وهم غير لطيفي المعشر.

لقد رأينا أن مصدر دخل أهل مكة هو من أعمال الحج المباشرة وغير المباشرة. ويجب أن نحدّد هنا كيف يعمل هؤلاء على أن تكون عاصمتهم المقدسة مدينة منتجة.

إن المسلم بطبيعة الحال لا يحتاج في أموره الدينية إلى وسيط بينه وبين ربه، لهذا لا نجد أمثال هؤلاء الوسطاء الذين يثرون بهذه الوسيلة، عن طريق فرض الرسوم على استعمال ودخول الأماكن المقدسة.

آل الشيبي

إن مفاتيح الكعبة لدى آل بني شيبة، وهي إحدى العائلات المكية القديمة في المدينة المقدسة[2]. لقد كان هؤلاء يقومون ببيع كسوة الكعبة القديمة على شكل قطع صغيرة. وحينما تفتح الكعبة في الأيام العادية أو الأيام الاستثنائية، وخاصة عند قدوم أحد الزوار المرموقين، كان أفراد هذه الأسرة يتلقون الأعطيات بهذه المناسبة. وفي مثل هذه المناسبات وغيرها يحصل الأغوات

---

(١) انقرض هؤلاء القوم اليوم بسبب الوفاة، وعدم ورود شباب جدد، ولم يشاهد في المسجد الحرام سوى نفر قليل جداً من هؤلاء.

(٢) ينحدر الشيبيون (سدنة الكعبة) من قريش وهم: بنو قريش بن عثمان بن أبي طلحة ابن عبد الله بن عبد العزى بن عبد الدار بن قصي بن كلاب يجتمعون مع النبي ﷺ في قصي.

أيضاً على بعض الأعطيات، كما أنه تتوافر فرصة لحشد من الناس أن يدخلوا الكعبة، أو أن يقوموا بما يقوم به الزائر المرموق.

ماء زمزم

إن إدارة بئر زمزم كانت ميراثاً لأبناء العباس عم الرسول ﷺ. وحينما أسقط هؤلاء حقهم في المطالبة بها، أحيط فم البئر بجدار سميك، وأصبحت زمزم مفتوحة لكل الناس. وباستطاعة كل فرد أن يصعد من على هذا الجدار، ويدلي دلوه إلى البئر، ويأخذ حاجته من الماء. وعلى العموم نجد الفقراء يتجمعون حول هذا المكان حينما يبدأ سحب الماء من البئر، حيث يقومون بنشل الماء دون أن يطالبوا بأي أجر.

وهناك فئة الزمازمة الذين يتجرون بتوزيع الماء، ويستغلونه في بعض الأحيان. والواقع أن مَنْ يريد أن يستحم بماء زمزم، أو يريد بعض الماء يذهب إلى البئر بنفسه، وهذا يفعله أهل مكة حينما يريدون ملء جرارهم. على العموم فإن موزعي الأشياء المباركة يخدمون المواطنين من أهل المدينة، دون أن يرفعوا من أسعار سلعهم. ويحرص خدم المسجد وحراس الأبواب على أن تكون لهم علاقات طيّبة مع المواطنين من أهل المدينة المقدسة. وبالمقابل فإن المواطنين من أهل المدينة لا ينسون هؤلاء عندما يقومون بإرشاد الحجاج إلى الأشخاص الذين يجب أن توزع عليهم الصدقات بحيث ينال هؤلاء نصيبهم منها.

إن كل الزمازمة في مكة يحتفظون داخل المسجد الحرام بـ:

١ ـ العديد من جرار الشرب الفخارية (الأزيار)، المركزة على قواعد خشبية، ومعها مغاريف معدنية مربوطة بسلاسل.

٢ ـ العديد من جرار التبريد الصغيرة (الدوارق)[١] التي تملأ وتوضع في ظل أركان المسجد.

إن هذه الجرار الكبيرة منها والصغيرة هي ملك للزمازمة. والجرار الكبيرة لا تبرد الماء كثيراً، ويشرب منها في الغالب الفقراء عادة. أما الجرار الصغيرة

(١) هذه الدوارق هي جرار فخارية مخروطية القاعدة، لا تستقر على قاعدتها، ولذا جعلوا لها حاملات من الخشب، وقد ألغيت اليوم وحل محلها (حافظات الثلج) مع بداية عام ١٤٠٠هـ.

(الدوارق) فيشرب منها الموسرون في الغالب، حيث يقدم الزمزمي الماء البارد في إناء من النحاس (الطاسة).

وفي العادة يقوم أي فرد من أفراد المجتمع المكي أو من الحجاج بدفع ثمن جرة ما ـ كبيرة أو صغيرة ـ ويطلب إلى الزمزمي توزيعها على عامة الناس (سبيل)، ويُعدُّ ذلك أمراً لا يتولاه إلا الزمزمي فقط. وعلى الرغم من أن هؤلاء يدعون أن ما يقومون به من عمل هو خدمة عامة للجمهور، إلا أن دوافعهم الحقيقية من أجل الربح، تظهر مع عامة الحجاج الذين يشكلون غالبية زبائنهم، وفي العادة يعطي الحاج حين قدومه إلى المدينة المقدسة أحد الزمازمة ما يعادل دولاراً، حيث يقوم الزمزمي بشراء جرة يكتب عليها اسم المحسن ويضعها إلى جراره. ولا ينسى الزمزمي أن يظهر هذه الجرة للمحسن كلما سنحت له الفرصة، ولا يدع فرصة سانحة إلا ويذكره بأعمال البر والإحسان، فعند إعطائه ماء زمزم ليستحم به، يتوقع منه هبة خاصة، ولا ينسى أن يذكر له أن السجاجيد التي يقدمها الزمزمي ليجلس عليها المصلون في المسجد أمر يجدر بالحاج أن ينفق عليه بعض ماله؛ لأن ذلك من أعمال البر. وباختصار يحاول بكل وسيلة إقناع الزائر بدفع مبالغ إضافية على أن ذلك من أعمال البر والإحسان.

وإن من يدفع من المواطنين بسخاء يجد جرته مملوءة أمام بيته كل يوم، وخاصة في شهر رمضان، حيث يجلب الزمزمي الكثير من هذه الجرار إلى البيت؛ ليفطر أهل البيت وجيرانهم على ماء زمزم. وفي نهاية الشهر الكريم لا بد أن يكون الأجر مجزياً، وفي إحدى المرات قدم اثنان من الزمازمة إلى بيتي لإحضار الماء البارد، وقد حدث بينهم خصام على من يقوم بالخدمة انتهى بتكسير جرارهم جميعاً.

إن حفظ الماء في أوانٍ صغيرة من الصفيح أو الزجاج بقصد التصدير يدر ربحاً كبيراً على هؤلاء. وقد نجم عن الاختلاط بالعديد من الأمم أن تعلم هؤلاء الزمازمة العديد من الكلمات من لغات شتى بقصد كسب ثقة زبائنهم.

إن هذه الحرفة هي إحدى الحرف المريحة التي لم تكن تخفى على السلطة العامة. وحتى يستطيع هؤلاء حماية أنفسهم من سلطان الحكومة يحاولون الحصول على رخصة (تقرير) من الشريف لقاء مبلغ من المال.

وخارج المسجد هناك العديد من الأماكن التي لا يدخل المرء إليها إلا بدفع هدية أو مبلغ من المال، منها (دار السيدة خديجة) الدار التي ولدت فيها فاطمة، حيث عاش الرسول ﷺ مع زوجته خديجة في هذه الدار لعدة سنوات. ويوجد حجر مجوف يقبله الناس، اعتقاداً منهم أنه المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة الزهراء، وبالإضافة إلى ذلك هناك دار أبي بكر، ومكان ولادة الرسول الكريم[١]، ومكان ولادة علي بن أبي طالب. وفي هذه البيوت توجد حجارة سوداء وخضراء يقبلها الناس[٢]، ويوجد فوق هذه الحجارة صناديق خشبية مغطاة بسجاد، كالتي توجد في أماكن دفن الموتى، وخاصة في مقبرة المعلا وقبر السيدة خديجة وآمنة. وبجانب مقبرة المعلا يوجد مسجد الجن، حيث نزلت على الرسول الكريم سورة الجن، وهي السورة (٧٢) من سور القرآن الكريم[٣].

وبالإضافة إلى ذلك هناك العديد من الأماكن التاريخية ولكنها غير مشهورة كالتي ذكرناها سابقاً. والقائمون على هذه الأماكن في العادة يقومون بتلاوة صيغ من الدعاء يرددها الحجاج بعدهم جملة جملة، ثم يقوم الحجاج بتلاوة الفاتحة. وهناك اعتقاد بأن من تزار قبورهم وأضرحتهم يشهدون بالإسلام لزوارهم يوم القيامة[٤].

إن هذه المواقع المقدسة تبقى مفتوحة دائماً للزوار، ونجد فيها بعض الأشخاص الطفيليين، الذين يضايقون الزوار كالشحاذين أو الأدلاء. إن

---

(١) مولد النبي ﷺ في شعب علي، وهو الشعب الذي كان يسكنه بنو هاشم، وقد حوّل إلى مكتبة عامة، سميت مكتبة مكة (انظر عاتق البلادي، معالم مكة التاريخية والأثرية ص٢٩٤).

(٢) إن تقبيل أي حجر غير الحجر الأسود لم يثبت عنه ﷺ ولا عن أصحابه والسلف الصالح فهو إذاً عمل مردود.

(٣) الرأي الراجح أن سورة الجن نزلت على الرسول ﷺ بنخلة (انظر: تفسيري ابن كثير، وظلال القرآن: تفسير سورة الجن).

(٤) هذا من البدع والخرافات التي انتشرت بين الجهلة.

هؤلاء الناس ليست لديهم صفة رسمية، وإنما يفرضون حقوقهم التقليدية بالقوة ضد منافسيهم.

لقد عرفنا سابقاً أن أهل مكة يكسبون عيشهم من وجود الأماكن المقدسة. وعلى الرغم من أن الكثير من الحجاج يدرسون شعائر الحج والعمرة قبل قدومهم لكنهم مع هذا يحتاجون إلى مساعدة الأشخاص المحليين في زيارة المناطق المقدسة.

وحينما يحط الحاج رحاله في الديار المقدسة، ويصل إلى مدينة جدة، فإنه يحتاج إلى دليل ليستأجر له جمالاً لنقله إلى مكة. وإذا كان الحاج لا يتكلم العربية، لا بد له من مترجم عند استئجار بيت له، وشراء بعض ما يحتاج إليه من أمور. وسيجد الحاج صعوبات بالغة جداً لولا وجود هذا النوع من الوسطاء. في الأسابيع الأولى من قدوم الحاج ـ على الأقل ـ لا يستطيع الحاج أن يخطو خطوة واحدة، ولا يقيم أي علاقات مع الآخرين، كما أنه لا يستطيع إنهاء الإجراءات التي تتطلبها السلطة، لولا مساعدة هؤلاء الأدلاء الذين يعرفون باسم المطوفين.

الطوافة

إن أكثر المهن أهمية في مكة هي مهنة الطوافة. وهناك بعض المطوفين الصغار الذين يديرون عملهم من خلال الأسرة والخدم، وفي بعض الحالات يستأجرون معهم بعض المعوزين من الأصدقاء. وهؤلاء في الأعم الأغلب يتعاملون مع زوار من نوعية معينة، تقتصر في الغالب على الأثرياء من الحجاج، والذين يقومون بخدمة هؤلاء هم في الغالب مجموعة من الصبيان والأقرباء والعبيد والمستأجرين الدائمين والمؤقتين. وجميع هؤلاء يعملون تحت اسم شخصية معينة، أو اسم معين، ويتقاضون نصيبهم من الأرباح.

إن كل مطوف يقدم خدماته لشعب من الشعوب أو لمنطقة من المناطق. ويكون المطوف في هذه الحالة يعرف لغة هؤلاء. كما يعرف الكثير من شؤونهم وأحوالهم، وفي هذه الحالة يستطيع تقديم كل مساعدة ممكنة لهم، ويتقاضى على ذلك كل ما يمكنه الحصول عليه من أجر[1].

(١) لقد طرأت تحسينات كبيرة في هذا الزمن على الطوافة والمطوفين لا يتسع المكان لشرحها، =

ومن صلاحيات هذا المطوف أن يعرف البواخر القادمة إلى جدة، والتي تحمل الحجاج الذين يتبعونه. وعندما تكون بعض الشخصيات المهمة قادمة على ظهر سفينة ما، يذهب المطوف بنفسه إلى جدة، أو يرسل ابنه ليشرف على عملية الاستقبال. أما الأشخاص العاديون فيقوم الوكيل[١] المقيم في جدة عادة بإنهاء معاملاتهم. وعند إنزال الحجاج من البواخر إلى السنابك الصغيرة لإيصالهم إلى البر، يكون المطوف وصبيانه في انتظارهم في الميناء، حيث يساعدون هؤلاء في حمل أمتعتهم إلى المدينة، كما يقومون بتسهيل إجراءات التفتيش لهم من قبل موظفي الجمارك. ويتعرف هؤلاء المطوفون أيضاً على المدة التي سيقضيها الحجاج في الديار المقدسة، وعلى نوع السكن الذي يريده هؤلاء، وما الأشياء التي يفضلونها في السكن، وقبل كل هذا يتفقون على أجرة السكن أولاً.

وبعد زيارة الحجاج لقبر أمنا حواء، الذي يبلغ طوله بضع ياردات[٢]، يقومون باستئجار الجمال التي تنقلهم إلى مكة، ويكونون عادة في ملابس الإحرام، المكونة من قطعتين من القماش، يلف الرجل بهما جسمه، دون أي لباس تحتهما. وتحتاج الرحلة من جدة إلى مكة يومين. وما إن يصل الحاج إلى مكة حتى يبادر إلى أداء العمرة (الحج الأصغر) التي ليس لها وقت محدد، وإنما يؤديها المسلم في أي وقت. وبعد العمرة يتحلل الحاج من لباس الإحرام. ويؤدي الحاج العمرة بصحبة مطوف يقوم بإرشاده إلى ما يجب عمله في هذه الشعيرة[٣]. وكذلك يقوم المطوف أو الدليل بإرشاد

= غير أنها تحسنت كثيراً في هذه الأيام وخاصة بعد قيام مؤسسات الطوافة التجريبية التي تضم كل منها مجموعة من المطوفين يقومون على خدمة جنسيات معينة.

(١) لكل مطوف من المطوفين وكيل في جدة يقوم بتصريف أمور الحجاج نيابة عن المطوف.

(٢) ليس هناك أي دليل يمكن تصديقه بأن هذا قبر أمنا حواء.

(٣) يذكر الأستاذ السباعي في تاريخ مكة أن صناعة الطوافة ربما ابتدعت في عهد الشراكسة، بحكم جهلهم باللغة العربية، وميلهم إلى الأبهة والبذل، فقد كانوا يفضلون أن يعتمدوا على من يخدمهم، ويدلهم على مشاعر الحج ويتلو أمامهم أدعيته. وفي الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام: ١٥٨ أن السلطان قايتباي حج في عام ٨٨٤هـ ولم يحج من ملوك الشراكسة غيره، وأن القاضي إبراهيم بن ظهيرة تقدم لتطويفه وتلقينه الأدعية. ولم يذكر المؤرخون مطوفاً قبل القاضي كان يلقن الحجاج في مكة. (السباعي: ص٣٣٧).

الحاج إلى من يجب أن يعطي صدقاته، وهؤلاء في الغالب يكونون من أصدقائه الذين يعطونه سهماً منها في النهاية.

وهناك عادة عند العرب عموماً، وهي عادة الوساطة بين شخصين لتوفيقهم لإتمام صفقة أو عمل ما. والوسيط في هذه الحالة يتقاضى شيئاً من المال، ولو لم يتكلم سوى بضع كلمات. والمطوف عموماً يتقاضى شيئاً من هذا القبيل، من أجرة البيت الذي يستأجره للحاج، ومن ثمن طعامه وحاجاته الأخرى. وكذلك من الأموال التي يحضرها الحاج لتوزيعها عن أرواح أقاربه في البلد الحرام، وحتى من أجرة الدابة التي يستأجرها للحاج ليركبها إلى التنعيم أو إلى مقبرة المعلاة.

إن المطوفين ومساعديهم يلعبون دور المضيف اللطيف لحجاجهم، ويجعلون أنفسهم دائماً تحت تصرف هؤلاء، ويدلونهم على الأماكن التي تجب زيارتها، ويحببون ذلك إلى نفوس الحجاج بعبارات مثل: (إن من ينام ليلة هنا تعادل العبادة في موضع آخر).. (إن كل حسنة هنا ستضاعف بسبع حسنات).. (إن نية المرء كعمله إلا في النية السيئة).. (إن ماء زمزم لما شرب له)... إلخ.

إن هؤلاء يعتقدون أن الذي يشك في هذه الأشياء هو أوروبي، قد فقد سن الفهم لجوهر الدين. إن المطوف نفسه قد لا يعتقد ببعض هذه الأشياء، وهمه الأول هو الحصول على المزيد من الحجاج. وقد يتولى هؤلاء إرشاد غير القادمين للحج إلى الأماكن الرئيسة للحياة الاجتماعية في المدينة، وكذلك إلى تلال أبي قبيس التي يطل منها المرء على كافة أرجاء المدينة، وكذلك إلى أحسن المناطق التي تصلح للنزهات (قيلات)[1].

إن القصور الحاصل من هؤلاء المطوفين ومساعديهم في غير أوقات الحج، في أمور يصرون عليها بإلحاح في وقت الحج، ليس مرده إلى خلل في عقيدة هؤلاء، بل هو من قبيل الكسل «إنني أطلب المغفرة والعفو

---

(١) القيلة عند أهل الحجاز هي: قضاء القيلولة في مكان خارج البلد للتنزه.

من الله الكريم، لقد صليت في الحرم كثيراً»، قالها أحد هؤلاء في معرض الدفاع عن صلاته منفرداً، بدل أن يصلي صلاة الجماعة في الحرم.

إن ثقافة وظروف حياة المطوفين تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً، فبعض هؤلاء عالو الثقافة، وبعضهم الآخر قليل الثقافة، وخاصة أولئك الذين حصلوا على هذا المنصب من خلال صلتهم ومعارفهم برجال الدولة، فانتقلوا مباشرة ومن خلال الوساطة من مساعدين إلى مطوفين رسميين، ومعظم هؤلاء المساعدين جهلاء بالكامل. ولقد دهش اثنان مني حينما قلت لهما: إن المذاهب الأربعة لم تكن موجودة على عهد الرسول ﷺ. إن هؤلاء يعرفون الشعائر الإسلامية كما يعرف أمين المتحف المواد الموجودة لديه.

إن المطوف يقوم بعمل جميع الترتيبات في الحج، فهو يتولى إحضار الجمال والخيام والحطب، وكافة التدابير اللازمة للرحلة إلى عرفات ذهاباً وإياباً. وكذلك يتولى المطوف ترتيبات إحضار الذبائح إلى منى. وفي كل خطوة من خطوات الحج يقوم مساعدو المطوف وصبيانه بإرشاد الحجاج بلغتهم التي يتكلمونها إلى الأشياء التي يجب عملها خطوة خطوة، ابتداء من أول الحج إلى آخره.

وقبل أو بعد الحج، يذهب الحجاج إلى المدينة للسلام على الرسول ﷺ، وهذه الزيارات ليست من أعمال الحج. وعلى المطوف أيضاً أن يعد الترتيبات لهذه الزيارة، وذلك باستئجار الجمال المزودة بالشقادف[1]. كما يقوم بشراء المفارش والحنابل، التي توضع فوق

(١) الشقادف جمع شقدف، والشقدف عبارة عن كرسيين بطول الشخص المتمدد متماثلين لا يستقل أحدهما بالوقوف دون الآخر، بحيث يصلحان للشد والربط على ظهر الجمل. ويعلو كل قسم قبة على شكل نصف دائرة من أعواد الشوحط القابل للثني، بحيث إذا ربط على ظهر الجمل بالحبال شكل القسمان قبة كاملة، يسدل عليها ستر للوقاية من الشمس نهاراً ومن البرد ليلاً... وعلى جانب كل شق من الشقدف أجربة (جمع جراب) يسمونها مخالي (جمع مخلاة) يوضع فيها ما يحتاجه الراكب من مرافق. والشقدف يستعمله اثنان واحد من كل جانب. وفي بعض الأحيان يتوسط بين هذين الراكبين راكب ثالث صغير السن على ظهر الجمل بين الشقين. هذا المكان يسمى: «الوسك». لقد =

الشقادف للحماية من الشمس، وكذلك شراء الأغطية والفرش اللازمة لهذه الرحلة.

ومن هنا نستطيع أن نتعرف على أهمية الطوافة عموماً في المدينة المقدسة، وكيف تعود بالنفع على الحجاج، وعلى أهل المدينة، ممن يعملون بهذه الحرفة على حد سواء.

إن الذي يريد أن يحرز نجاحاً في الطوافة، يحتاج إلى مساعدة العديد من الأشخاص في أوقات المواسم. إن هذا يدر بالنفع عليه من جهة، وذلك بزيادة دخله، كما يدر بالنفع عليهم هم أيضاً؛ لأنهم يتقاضون نصيباً من الربح. ومن الأهمية بمكان إبراز أن حجاج الجاوة لهم ١٨٠ دليلاً أو مطوفاً، يعمل مع كل منهم العديد من الأشخاص. وهناك شيخ المطوفين الذي يتولى الإشراف على هذه المهنة ويحافظ على تقاليدها، كما يساعد الحكومة في تطبيق الأنظمة والتعليمات الخاصة بذلك.

إن الحجاج لا يختلفون في اللغة فقط، بل يختلفون في العادات والتقاليد، وكذلك كل منهم له اهتمامات خاصة بأماكن دون أماكن أخرى في المدينة المقدسة[1]. وهذا بطبيعة الحال يستدعي أن يكون مطوفو الأتراك والمصريين والمغاربة والهنود والجاوة وغيرهم، لهم اهتمامات متباينة في بعض الأحيان، بحسب رغبة الحجاج أنفسهم، لهذا نجد أن مطوفي كل

= كانت الشقادف تستعمل للتنقل بين جدة ومكة والمدينة والطائف بديلاً للمواصلات الحالية، واستعمال الشقادف قديم نوه به ابن جبير وابن بطوطة (انظر محمد عمر رفيع، مرجع سابق ص١١٤، وانظر محمد علي مغربي، مرجع سابق ص٢١٠).

(١) من بين الأماكن العديدة التي يفضلها الحجاج الأتراك الحمام الذي يقع في سوق الليل، والذي يعرف «بحمام النبي». والواقع أن هذا الحمام العام كان يمتلكه شخص يعرف بعبد النبي، ومع مرور الزمن اختصرت الكلمة، لتصبح بدلاً من حمام عبد النبي إلى حمام النبي. وكان هؤلاء الأتراك يعتقدون أن الرسول ﷺ قد استحم في هذا المكان. (المؤلف) ولم يعد لهذا الحمام وجود في وقتنا الحاضر. ويعتقد البعض أن موقعه حتى عام ١٤٠٧هـ كان مكان شركة الراجحي للصرافة المقابل لموقف السيارات المتعدد الأدوار في محلة القشاشية الذي هدم في توسعة الملك فهد للحرم المكي الشريف وأصبح يشكل الساحات التي تقع أمام المسعى.

شعب من الشعوب يكونون نقابة، أو طائفة خاصة بهم. ويطلق في العادة على المطوف اسم (شيخ). فهناك شيخ الأتراك وشيخ المصريين، وأمّا رئيس الطائفة أو النقابة فيطلق عليه شيخ المشايخ.

إن كلمة شيخ لها معانٍ كثيرة، وذلك بحسب استعمالها. إن رئيس القرية أو رئيس العائلة أو رئيس مجموعة من العائلات يطلق عليه اسم شيخ، وكذلك نجد شيخ الحي وشيخ مجموعة من النبلاء، وإن تحدث أحد المريدين عن شيخه، فإنه يعني أستاذه في الطريقة الصوفية، التي هو أحد أفرادها. ويطلق الطالب على مدرسه اسم شيخ، وكذلك يطلق اللفظ نفسه على العالم أيضاً.

إن كلمة شيخ، وهي كلمة عامة للتخاطب، لها معانٍ ودلالات كثيرة، فكما أن رئيس الطائفة هو شيخ على أفراد طائفته، فإن المطوف هو شيخ على حجاجه أيضاً.

إن عمل الطوافة مبني على تقاليد موروثة، ونظرياً يمكن لأي فرد أن يقدم هذه الخدمة إلى الحجاج، لقاء مبلغ من المال، ولكن هناك صعوبات بالغة في أن يقوم شخص ما ويمتهن هذه المهنة؛ لأنه بذلك يعرض نفسه وسمعته للخطر. إن جميع أفراد الطائفة (طائفة المطوفين) يقفون ضده وقفة رجل واحد، على الرغم من وجود بعض الحساسيات بين هؤلاء. إن هذه الحساسيات والضغائن تنسى حينما يتعلق الأمر بمتطفل على المهنة. إن مثل هذا المتطفل لا يجد سوى العداوة والبغضاء، ولا يمكن أن ينصح الحجاج بالتعامل معه. وإن مثل هذه الأمور تحدث بين جميع الطوائف الحرفية (النقابات المهنية)، ولكن لا يوجد في أي منها ما يشبه حرفة الطوافة، التي تمتاز بأعرافها التقليدية الصارمة، والمتبعة بدقة بين أفراد هذه الطائفة، الذين يمثلون أقوى النقابات، وأكثرها عدداً. إن هناك بعض المتطفلين على هذه المهنة، ولكن هؤلاء لا يستحقون الانضمام إلى هذه المؤسسة. ومعظم زبائن هؤلاء من الفقراء المعدمين، أو من البخلاء الشحيحين، الذين لا يدفعون مكافآت مناسبة. ويطلق على هؤلاء اسم (الجرارين مفرد جرار)[1]

---

(١) كلمة (جرار) هي في الأصل شتيمة فلعل المؤلف سمع من ينعت هؤلاء بهذه الكلمة شتماً =

الذين غالباً ما ينتظرون على مداخل المدينة، أو بجوار الحرم، يعرضون خدماتهم على الحجاج القادمين. وعندما يصل بعض الحجاج من منطقة ما عدد حجاجها قليل، وليس لهم شيخ معين، فإن شيخ الطائفة هو الذي يقرر إلحاقهم بأي من المطوفين. غير أن لهؤلاء الحق في أن يرفعوا أمرهم إلى السلطات، إذا لم يكن المطوف مناسباً، وفي هذه الحالة يختارون مطوفاً آخر.

صلاحيات شيخ الطائفة

إن شيخ الطائفة هو الذي يقرر أيضاً قبول أعضاء جدد في المهنة، آخذاً بعين الاعتبار ألا يكون عدد الداخلين كثيراً، بحيث يؤثر ذلك في التنافس بين أفراد الطائفة. وكذلك ينظر في مدى صلاحية الأعضاء الجدد، ومدى حصولهم على كفاءة جيدة في العمل، بالإضافة إلى حسن سلوكهم وأخلاقهم. وهناك أمور أخرى كثيرة تؤخذ بعين الاعتبار في هذا الصدد.
إن شيخ الطائفة هو أحد أفراد الحكومة. وغالباً لا يستطيع أن يرفض متقدماً يحظى بتوصية من مسؤول عالٍ في الدولة. إن بعض المتقدمين الجدد يرشحون أنفسهم عن طريق مركزهم المرموق، أو عن طريق الهدايا التي يقدمها هؤلاء إلى شيخ الطائفة. وكذلك تلعب العلاقات الشخصية بين شيخ الطائفة وبعض الأفراد دوراً بارزاً في هذا الصدد، على الرغم من أن شيخ الطائفة يعلن أنه أب لجميع أفراد نقابته، يحبهم بالتساوي كأبنائه، ويهتم بمصالحهم جميعاً دون استثناء. إن هذا الحب الأبوي مشكوك فيه من قبل الأبناء أنفسهم؛ لأن الشيخ في بعض الأحيان يجبر على تنفيذ بعض الأوامر بالقوة، على حساب هؤلاء، وإلا فقد مركزه. ومن ناحية أخرى فإن الأبناء الذين يدفعون البخشيش ينالون بسهولة كل ما يريدون، وهنا أيضاً تبدو سيطرة الغني على الفقير.

العضوية الجديدة في الطوافة

ولتأكيد قبول العضوية الجديدة للفرد لا بد من عمل وليمة لأفراد الطائفة، يقوم بها العضو الجديد. إن هذه الوليمة تسمى معلمية (من معلم الذي أتقن الشيء)، وأمام جميع الحاضرين يقول العضو الجديد: (إنني أطلب من الشيخ أن يسمح لي بممارسة الحرفة التي وهبها الله سبحانه

= فظنها اسماً لهم، والله أعلم.

وتعالى)، فيطلب منه شيخ الطائفة أن يطيعه، وأن يكون أخاً صالحاً لزملائه في الحرفة. فيتعهد الرجل بذلك، وتقرأ الفاتحة من جميع الحاضرين بنية التوفيق والقبول[1].

وعلى هذا فالمرء الذي يدخل إحدى الحرف يقال عنه: إنه قرأ الفاتحة، أو أن فنجاناً من القهوة قد أعطي له من الشيخ باعتبار أن الشيخ (شيخ الطائفة) شخص يمثل الدولة، ومعين بواسطتها، ويعطى جبة بهذه المناسبة دلالة على تعيينه لهذا المنصب. وبعد ذلك يتناول الشيخ والحاضرون الطعام، أو يشربون القهوة المصحوبة بالحلويات، ويدعون للعضو الجديد بالتوفيق والنجاح.

إن الطاعة التي يتعهد بها العضو تنحصر في حدود المهنة فقط، وحتى في المهنة فهؤلاء ليسوا خارج دائرة قانون القضاء العام. إن كل أعضاء الطائفة يعرفون أن الحكومة تستشير هؤلاء الشيوخ في كل الشؤون التي تخص الطائفة، وعلى هذا فهؤلاء لا يستطيعون تجاهله، أو التغاضي عن سلطاته. والشيخ بدوره يعرف أن يميز بين أولئك المدعومين من قبل السلطة، وأولئك الأشخاص الذين ليس لهم نفوذ في هذا المجال.

إن جميع ما ذكر سابقاً ينطبق على جميع الحرف في مكة، وكذلك المؤسسات المنظمة على مثل هذه الشاكلة، مثل العلماء والسادة. وعلى هذا فلن نطيل البحث في هذه النقابات الحرفية، ولا سيما أن معظم هذه الحرف يتعلق باستئجار البيوت، أو بيع المواد الغذائية أو الملابس أو التحف والكماليات، وكلها متشابهة عموماً في خطوطها العريضة، باستثناء بعض الخصائص الطفيفة، التي تمتاز بها كل نقابة عن غيرها من هذه النقابات.

---

(١) في الأوساط الإسلامية تكون قراءة الفاتحة في نهاية القرارات المهمة. كما أنها تكون خاتمة لكل دعاء من الأدعية، وكذلك تقرأ الفاتحة في جميع المناسبات السارة. وكذلك نجد التجار الذين لا يصلون إلى قرار معين لأسعار بعض السلع يقرؤون الفاتحة بقصد الوصول إلى اتفاق حول مثل هذا القرار (المؤلف).

وبجانب أصحاب المحلات التجارية الذين يجهزون كميات كبيرة من البضائع الخاصة كالمسابح والأمشاط، والتي تنفرد بها المدينة المقدسة، يوجد ـ أيضاً ـ المكاريون الذين يؤمنون عمليات الانتقال من المدينة وإليها، والذين لولاهم لكان من العسير الاتفاق مع البدو لاستعمال جمالهم[1]. ولمّا كان التحلل من الإحرام يقتضي حلق الشعر أو تقصيره، لذا نجد العديد من الحلاقين. ولما كان على الحاج أن يذبح في منى، فوجد العديد من الجزارين لهذه المهمة.

وإنه من المفيد أن يقتصر دور المطوفين على ما هو ضروري لأعمال الحج فقط. ولكن هؤلاء يوسعون دائرة صلاحياتهم كثيراً، بحيث يحيطون الحاج بسياج لا يمكن اختراقه إلا بدفع مبالغ إضافية من المال. وفي هذا المجال الواسع لا يستطيعون منع أشخاص آخرين من منافستهم. وإذا ما وجد المطوف أحد الحجاج الأثرياء الذي يمتلك بضع مئات من الدولارات، ويريد إنفاقها، حذره من المتطفلين الفضوليين. غير أن المطوف نفسه يرسل إلى هذا الثري العديد من الأشخاص بقصد الحصول على بعض هذه الأموال عن طريق الصدقة.

الصداقات النفعية

إنه لمن السهولة بمكان أن يكوِّن الحاج العديد من الصداقات مع بعض أبناء مكة، وخاصة من أولئك الذين يترددون عليه. وبعض هذه الصداقات شريفة، غير أن بعضها الآخر هدفه النصب والاحتيال، من بعض ضعفاء النفوس. إذا ما عرف هؤلاء أن الحاج من أسرة ثرية قدموا له كافة الإغراءات.

هل الحاج بحاجة إلى نقود ولا سيما أن في مكة الكثير من أبواب الإنفاق المختلفة؟.. فإن كان الحاج بحاجة إلى مثل هذا المال يقوم الصديق بإقراضه هذا المال، شريطة أن يوقع على اتفاق، يتعهد بموجبه بدفع ضعف المبلغ المقرر فيما بعد.

---

(١) الشخص الذي يؤمن وسائل النقل يسمى (المقوم)، أي يقوم الجمال، ويأتي بها لحمل الأثقال.

هل الحاج يرغب في الزواج؟ إن أصدقاءه يعرفون بعض البنات الأبكار أو النساء المتواضعات أو الأرامل أو اللواتي ليس لهن أمهات أو أقارب، وما عليه إلا أن يختار ما يريد.

هل الحاج بحاجة إلى شراء جارية؟ إن أصدقاءه أكثر الناس معرفة بالدلالين، الذين يقومون ببيع الجواري.

وقد يقوم هؤلاء بأداء فريضة حج البدل عن أقربائه الموتى، إذا كان الحاج شافعياً، أو عن أقربائه الأحياء إذا كان حنفياً، على أن يأخذ هؤلاء بعض القطع الذهبية نظير ذلك. وعلى العموم فإن هؤلاء الأصدقاء يسحبون كل كلامهم إذا وجدوا أن المطوف قد حجز على الأموال التي أحضرت لهذه الغاية. فهم لا يستطيعون أن يأخذوا هذه الأموال من المطوف نفسه، ولكنهم بالمقابل لا يتركون صديقهم الحاج في مثل هذه البيئة بدون إسداء النصيحة له. إن القارئ يستطيع أن يدرك بسهولة مدى عمق هذه الصداقات التي تعقد وأثرها. إن هناك العديد من الأشخاص يكسبون عيشهم من خدمة الحجاج، دون أن يكونوا مطوفين أو وسطاء أو مساعدين، وإن الجواب الذي يتلقاه المرء عند سؤاله عن مصدر دخل هؤلاء هو: لقد كنت عتالاً أو إسكافياً أو غير ذلك، ثم أصبحت لي علاقات وطيدة مع الهنود أو الأتراك أو الجاوة أو غير هؤلاء، وأعيش الآن من عملي مع هؤلاء الناس في أثناء فترة الحج.

وعلى العموم فإن هناك العديد ممن يعملون في خدمة الحجيج، وهؤلاء يشكلون نقابة كبيرة واسعة الانتشار والنفوذ، تحوي عناصر مختلفة متباينة الثقافة والمركز الاجتماعي في المدينة المقدسة.

وأخيراً يجب أن يذكر مصدر مهم من مصادر الدخل لأهل مكة في موسم الحج، ذلك هو تأجير البيوت السكنية. لا يوجد في مكة فنادق، فالمرء في الشهور الأخيرة من كل عام يقوم بتأجير بيته كاملاً. وقد يؤجر طابقاً أو نصف طابق. وعلينا هنا أن نتحدث قليلاً عن ترتيبات السكن في البلد المقدس في أثناء موسم الحج.

البيت المكي

إن مادة البناء لمعظم بيوت مكة هي الحجارة التي يؤتى بها من مقاطع قريبة من المدينة. إن البيوت الجيدة مبنية من حجر الشميسي، الذي يؤتى به من منطقة الشميسي[1] بقرب حدود الحرم على طريق جدة. أما السقوف، فلها عوارض خشبية، توضع فوقها أوراق سعف النخيل المنسوجة بشكل حصير، يوضع فوقها الرمل[2]. وإن المعماريين من إسطنبول وسوريا الذين يستخدمهم الأشراف والأثرياء من التجار، يستعملون مواداً أخرى أكثر متانة. ويستعملون في الخوارج[3] وأرضية البيوت وبيوت الدرج (السلم) نوعاً من البلاط الأسمنتي الذي يعرف (بالطبطاب)[4]. وفي البيوت القديمة التي تشهد إعادة ترميم، فإن السطوح والأرضيات كلها مصنوعة بهذه الطريقة. وإن أدراج السلالم العالية غير المنحوتة قد استبدلت بغيرها مما يسهل الصعود عليه. ولا يوجد هناك نمط معين في البناء، ويصعب القول بوجود خصائص مشتركة لجميع البيوت. إن المعماريين المهرة يعملون وفقاً للرغبات الفردية للأشخاص الذين يقومون بالبناء. والمواطن العادي يجب أن يأخذ بعين الاعتبار ندرة بعض مواد

(١) حجر الشميسي ويسميه أهل مكة «قاحوط» وهو أحمر اللون تخالطه صفرة وهو لين في النحت. وهو منسوب إلى قرية الشميسي (الحديبية). وما زال يستخرج من جبالها وله شكل جميل، وبالإضافة إلى صخور الشميسي كانت بيوت مكة في أول القرن الرابع عشر وما قبله تبنى بالحجر الشبيكي وهو أسود اللون، تعتريه نقط بيضاء ضئيلة، وهو حجر صلب للغاية (محمد رفيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجري ص٢١).

(٢) كانت السقوف بعد أن تصف بأعواد شجر الدوم، يعمل لها شبكة من جريد النخل، وتوضع على الأعواد، ويوضع فوقها الحصير، ثم توضع على الحصير كمية من نبات الإذخر، ثم يخلط التراب المبلول بمقدار من النورة، لتتصلب بعد أن تجف، ثم يكبس السطح بالخليط المذكور. وبعد أن وُجد الخشب صار الخشب يوضع بدلاً من الجريد أو الحصير. وأولو السعة يبلطون السقوف بعد ذلك بعملية الطبطاب (انظر محمد عمر رفيع، مصدر سابق ص٢٢).

(٣) الخوارج جمع خارجة وهي الرحبة الموجودة على السطح أمام البيت.

(٤) كيفية عمل الطبطاب، هو أن يخلط الحصحاص بالنورة والبطحاء، ويفرش ثم يدق بالمطارق ويسمونها «قزم» إلى أن يتماسك، ثم يملس بآلة مخصوصة وتعرف بالملعقة، ويسوى سطحه تسوية معتدلة إذا كان في الغرف، أما إذا كان في السطوح، فيكون مع ميل لجهة الميزاب، لتسرب ما يتجمع من ماء المطر أو في أثناء غسل السطح، وتسمى هذه العملية طبطاب (محمد عمر رفيع، مصدر سابق ص٢٢).

البناء، وأشكال الأرض غير المنظمة وغير مستوية السطح في الغالب. وعلى هذا سيقتصر حديثنا على بعض الغرف والشقق التي لا يمكن أن تكون ممثلة لنمط البناء المكي، حيث يوجد بجانبها أنماط أخرى مختلفة تماماً.

الدهليز

عند الدخول من الباب الخارجي، يدخل المرء إلى (الدهليز) الذي له أرضية من الرمل، وقد تكون مغطاة بالطبطاب. وفي البيوت الصغيرة نجد في الغالب مقعدين من الخشب، كتلك التي توجد في المقاهي. وهنا يستقبل صاحب البيت الضيوف والزائرين الذين لم يرتبوا أمر زيارتهم مسبقاً. ويوجد بجانب الدهليز من الجهتين أو من أحدهما عدد من الغرف الصغيرة التي ترتفع أرضيتها عن أرضية الدهليز نفسه، لتجنب وصول الماء إليها، فيما إذا حدث فيضان ونزل الماء إلى الدهليز. إن هذه الغرف تدعى مقاعد (مفردها مقعد) وتستعمل مكاتب أو غرف استقبال لأقرباء الأسرة ومعارفها، وتستخدم أحياناً أخرى لأغراض النوم، أو تستعمل مع الدهليز مخزناً للبضائع، أو مكاناً لحفظ الأمتعة. وفي بيوت الأثرياء يبدو الدهليز فخماً ومرتباً، والقسم الخلفي منه والذي يصعد إليه بعدة درجات، يكون مفروشاً بالسجاد، وعلى جوانب الحائط توجد المساند والفرش التي تستعمل للجلوس أو الاضطجاع. ويعد وجود هذه المساند المكسوة بالقطيفة، والموضوعة على المقاعد الخشبية (الكراويت) المكسوة أيضاً بالسجاد نوعاً من الموضة الجديدة التي استعملت مؤخراً. إن هذا الديوان يخدم أغراض الاستقبال العادية، كما يستخدم لطعام الرجال حينما يوجد ضيوف أو أصدقاء في البيت.

إن الديوان مع الغرف المجاورة يكفي لاستقبال الضيوف الأعزاء، الذين لا يسمح لهم بالصعود إلى الطوابق العليا من البيت. إن الغرف المجاورة تستخدم لكثير من الأغراض المختلفة. فواحدة يمكن أن تكون مكتبة، وأخرى يمكن أن تستعمل مجلساً يضم حلقة من الأصدقاء الذين يتناقشون في الأعمال التجارية، بعيدين عن الضوضاء التي تنبعث من الدهليز. إن هذا الطابق كغيره من طوابق البيت يحوي (بيت الماء أو كما يطلق عليه

أحياناً اسم بيت الطهارة) والذي يستخدم حماماً أيضاً، ويوجد به عادة زير كبير من الماء لاستعمالات هذا الطابق.

الحمام

وهناك جدار صغير يخفف من المنظر غير المريح لتلك البقعة من المنزل التي يقع المرحاض خلفها، ويتكون المرحاض من مقعد يرتفع حوالي ١٠ سم عن أرضية المكان، وفيه فتحة يجلس فوقها المرء ليقضي حاجته. وعند دخول المرء إلى الحمام، يحضر معه إبريقاً من الماء للاستنجاء، ثم يقوم المرء بالوضوء في الجانب الآخر من الحمام. وعند الاستحمام من الجنابة، يقوم المرء بنضح الماء من الزير بواسطة مغراف يكون في الغالب على الغطاء الخشبي للزير، ثم يغتسل ويتوضأ. ومن هذا الزير أيضاً تملأ الجرار الصغيرة (القلل أو الشراب) المخصصة للشرب. وكذلك حوض الغسيل وأدوات المطبخ. كما يشرب الخدم من هذه (المغاريف) أيضاً. إن أرضية المكان لها ميلان معين يسمح بتسرب الماء وجريانه في الفتحات التي تخترق الجدار إلى الخارج. ويمكننا أن نترك هذا المكان الذي لا يذكر فيه اسم الله، والذي يحوي بالإضافة إلى الصراصير الأرواح الشريرة غير المرئية والتي يحمي المرء نفسه منها عند دخوله الحمام بقراءة الآية: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1] [الصافات، الآية: ٧٩].

وفي بعض الأحيان، في الطابق الأرضي، يوجد بدلاً من الديوان العديد من الغرف المغلقة عند مدخل الدهليز. بعض الأثرياء يبنون في الغالب خزاناً حجرياً (بركة) في مكان هذه الغرف، التي تتسع لمئات من قرب الماء، وذلك للاستعمالات المنزلية. وحينما يكون الجدار الخلفي للبيت غير ملتصق بمساكن أخرى، يكون هناك باب آخر من الجهة المقابلة، يفتح على أرضية الدار المحيطة بالمنزل، والتي تحاط من جميع جهاتها بمنازل صغيرة متصلة بالشارع العام بدخلة ضيقة.

---

(١) لم نجد من المراجع الشرعية ما يؤيد ما ذهب إليه المؤلف حول قراءة هذه الآية الكريمة. بل جاء في الحديث فيما يقال عند دخول الحمام: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث».

وفي الدور الأرضي لا يمكن مشاهدة النساء بدون حجاب إلا عرضاً. والنساء في الغالب يقمن في الطوابق العلوية. فإذا كان المنزل مسكوناً من عائلة واحدة، لا يمكن الدخول بدون سماح من البواب، أو بصحبة أحد أصحاب البيت. وفي هذه المدن العربية العظيمة، فإن معظم المواطنين يشغلون طابقاً واحداً أو نصف طابق من بنايات فيها ثلاثة أو أربعة طوابق. وفي مثل هذا النوع من السكن يمكن للمرء بتحفظ أن يصعد إلى أحد هذه الطوابق ليزور بعض المعارف والأصدقاء. وعند الدخول يجب على المرء أن يتباطأ في السير قائلاً في أثناء سيره: يا ستّار، بصوت مسموع كي تتنبه النسوة في البيت، بحيث تتحجب أو تبتعد عن الطريق. وعندما يقترب الزائر من بيت يود زيارته، يجب أن ينادي على صاحب البيت، وإذا لم يسمع تصفيقاً من النساء، يشعر بعدم وجود صاحب المنزل، يستمر بالمناداة حتى يحضر الرجل.

الطوابق العليا

وعلى الدرج يمر المرء على بعض الأبواب التي تمثل غرف التخزين، أو بعض المطابخ التي تتبع الطابق العلوي. إن عدد وحجم الشقق في كل طابق يختلف كثيراً بين بناية وأخرى. وفي معظم البيوت تتشابه الأدوار في السعة، ولكن كلما صعدنا إلى الأدوار العليا، تتضاءل سعة هذه الأدوار، وذلك ناجم عن اقتطاع جزء من البيت ليكون شرفة (خارجة)، أو لأن البناء لم يكتمل نتيجة لعدم توفر المال اللازم لذلك. وعلى سبيل المثال في الطابق الثاني، فإن ربع مساحة البناء تستعمل خارجة. إن هذه الخوارج هي أماكن خاصة، لا يمكن الدخول إليها، وذلك لأن معظم أعمال النساء تتم فيها، بل أيضاً تعلق فيها الملابس المغسولة، وتستخدم لجلوس أفراد العائلة بعد الغروب، وكذلك ينام فيها أفراد الأسرة في ليالي الصيف الشديدة الحرارة.

الخارجة

المبيت

ولهذا السبب فإن هذه الشرفات لها جدران خاصة من الطوب لمنع نظرات الغرباء، غير أنها تحوي فراغات بين كل طوبتين، للسماح للهواء بالدخول. وقد يخصص للمتزوجين شرفة خاصة للنوم لهم ولأطفالهم. وحيث يوجد أكثر من عائلة لا بد من تجزئة المكان بستائر أو بعض الحواجز. وهناك أحياناً غرفة صغيرة تبنى في هذا المكان، ويطلق عليها غرفة مبيت ينام فيها

الزوجان[١]. إن الأطفال الصغار والخدم يمكن أن يناموا في أي جزء من هذا المكان. أما الفقراء فينامون على المقاعد في أسفل البيت أمام الباب أو في المقاهي.

وعلى الرغم من أن المكيين لا ينامون في الهواء الطلق في الأيام الباردة، لكن القليل منهم لديه غرف خاصة للنوم. إن مثل هذه الغرفة لا حاجة لها ألبتة؛ فهم يغتسلون في الحمام، وينامون بالملابس نفسها التي يرتدونها، فعندما يضع المرء الجبة والشاية[٢] والتي لا يلبسها المرء في البيت، يمكن للمرء أن ينام في أي مكان من البيت، وغالباً ما ينام المرء في المكان الذي يجد فيه متنفساً من الهواء المتحرك. إن العديد من هؤلاء يضطجعون على الفرش (الطراريح) والمساند والمخدات الموجودة في كل غرفة من غرف البيت. وهناك عادة النوم في أوقات الحرارة الشديدة في الظهيرة، وقد ينام الإنسان في أي وقت يشعر أنه بحاجة إلى مزيد من النوم. وتخصص الليالي اللطيفة الجو إلى السمر والأحاديث والمناسبات الاجتماعية.

المجلس

وأمام البيت وباتجاه الشارع فإن لكل طابق غرفة للجلوس تسمى (المجلس) لها العديد من النوافذ، وتحوي المفارش والمخدات. إن النوافذ الوسطى لها بلكونات[٣] (رواشين) تطل على الشوارع العامة، وكلها مغلقة

(١) إن غرفة المبيت تشغل قسماً من السطوح، وتحفظ فيها المفروشات المخصصة للنوم. ومن كان يعتاد تأجير قسم من داره في موسم الحج، يؤجر الطبقات السفلى، ويسكن هو وأسرته في المبيت طوال فترة الحج (محمد عمر رفيع، مصدر سابق ص٢٣).

(٢) الجبة: هي ما يلبس فوق الثياب في العادة وتكون واسعة فضفاضة وأكمامها واسعة كذلك. أما الشاية: فهي عبارة عن جبة مفتوحة إلا أنها تربط بحزام لقفلها من الوسط، وكان المكيون يرتدونها تحت الجبة فإذا ما أضفنا إلى ذلك «العمامة الألفي» كان هذا هو الزي الحجازي لملابس الرجال، وخاصة العلماء والتجار والطبقة المتعلمة (محمد علي مغربي: ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز ص٨٧ ـ ٩٠).

(٣) إن البلكون يطلق عليه اسم روشن، أما النوافذ التي لها شبابيك خشبية فيطلق عليها اسم طاقة (جمعها طيق أو طيقات)، وهذه الكلمة تطلق أيضاً على الخزائن الحائطية التي توضع فيها أدوات الصيني والزجاج والأدوات الأخرى (المؤلف).

لقد كانت الرواشين في بيوت مكة القديمة صغيرة نوعاً ما لا تتسع لأكثر من أربعة أشخاص جلوساً، وعلى جانبي الروشن طاقة، وكانت الرواشين والطيق وكذلك الأبواب تجلب من =

بشبابيك خشبية، لها فتحات عرضية، يمكن الرؤية من خلالها (قلابات) لمن في داخل البيت، في حين لا يتمكن الناس من الخارج من رؤية الناس في داخل المنزل. وهناك بعض أقسام الروشن يمكن فتحها وإغلاقها بواسطة سقاطة. وعندما تفتح كامل النافذة تتدلى ستارة مكونة من عيدان نحيفة ذات ألوان زاهية (الكبريتة). إن الأرض أو المقاعد الكراويت الموجودة على طول الجدار تكون مفروشة ومؤثثة، على النحو الذي ذكرناه في الديوان، وتحت السجاد تفرش في الغالب الحصر المصنوعة من سعف النخيل، وذلك لحماية السجاد من التلف.

الصفة

وعند الدخول إلى غرفة الجلوس، على المرء أن يمر من خلال غرفة أخرى مجاورة لغرفة الجلوس وبعرضها نفسه. ويطلق على هذه الغرفة اسم (الصفة)، وهنا يمكن استقبال الضيوف بصورة مؤقتة، إذا كانت غرفة الجلوس مشغولة بالنساء. وفي الدعوات يجلس فيها المباشرون الذين يقومون بخدمة الضيوف. وعلى جوانب غرفة الجلوس والصفة توجد ملحقات تستغل أحياناً لوضع دواليب وأماكن للتخزين، وفي هذه الحالة يطلق عليها اسم (الخزانة)، وقد تستعمل أحياناً أخرى مطابخ. وعندما يفد أحد الزوار إلى المنزل تغادر المرأة غرفة الجلوس إلى الخزانة. وحينما لا يكون هناك ضوء في الخزانة فإن المرأة تمر عبر الباب الخلفي حيث تخرج.

وإذا كان هناك بناية ذات حجم كبير، نجد العديد من غرف الجلوس، والعديد من الغرف الأخرى، ولا يوجد نمط معين لتوزيعها. ويمكن أن

= الهند، وتكون مزخرفة على شكل نقوش وأزهار تعطيها شيئاً من حسن المنظر وجماله. وفي أوائل القرن الرابع عشر تغير شكل البناء، فقد جلبت إلى مكة أنواع من الأخشاب كخشب يسمى: «الفني» تعمل منه الرواشين والطيق والأبواب، وكان يجلب من الملايو، وكذلك نوع آخر من أعواد الأخشاب التي سميت (القندل) وتجلب من سواحل أفريقيا الشرقية، وصارت الرواشن والأبواب تصنع محلياً، وقد تأثرت هندسة البيوت بنمط الهندسة التركية، وأصبح الروشن بعد أن كان صغيراً في وسط جدار الغرفة صار يصنع بقدر سعة الحجرة (محمد عمر رفيع، مرجع سابق ص٢١ ـ ٢٤، ومحمد علي مغربي، مرجع سابق ص٧٨).

نذكر هناك غرفة الجلوس الصغيرة التي تطل على فناء الدار (الحوش) أو على الشارع الخلفي وتسمى المؤخر.

احترام الجار

وحينما يشترك العديد من العائلات في طابق واحد، فإن هذه العائلات تقسم البناء إما بواسطة ستائر أو حواجز خشبية وما إليها. ومن الواجب هنا أن يحترم المرء ويحافظ على منزل شريكه في السكن. ومن العادات الشائعة والحسنة أن الجيران مرتبطون مع بعضهم بروابط قوية، بحيث يساعد بعضهم بعضاً في كل مناسبة، وفي كل حاجة يحتاجها هؤلاء، مثل الحاجة إلى استعمال غرفة معينة، أو استعارة أدوات معينة، وحتى استعارة بعض الملابس. ومن هنا نفهم المثل العربي القائل: (الجار قبل الدار). وإذا كان سلوك أحد الجيران غير سليم، فإنه يحق لبقية الجيران أن يطلبوا إخراجه وإنهاء عقده من صاحب البيت.

حيوانات مؤذية

وهناك جيران من نوع آخر، لا يترددون عن الإيذاء المستمر ولا سبيل إلى الخلاص منهم. وهؤلاء يشملون: القطط، والحمام، والسحالي (الوزغ)، والنمل، وحتى الأفاعي. فالسحالي يمكن قتلها؛ لأن الرسول ﷺ لعنها، في حين الأنواع الأخرى من الحشرات، تتكاثر تحت حماية القانون الذي يمنع قتل هذه الحيوانات كما يمنع قتل الإنسان باستثناء حيوانات الذبح، وبعض الحيوانات الضارة بالصحة، والحيوانات المؤذية. والحمام كان موجوداً في مكة حتى قبل الإسلام. وبالنسبة للقطط فإن الرسول ﷺ كان يحبها. إن كلا النوعين من هذه الحيوانات (القطط والحمام) تتجول بحرية في المدينة المقدسة، ولما كانت الأبواب والنوافذ مفتوحة باستمرار، فإن دخول هذه الحيوانات وخروجها يسبب إزعاجات كثيرة لربة المنزل.

إن الأحياء البعيدة عن قلب المدينة، تكون في العادة مساكنها أقل جودة وصلاحية، من تلك التي تكون قريبة من السوق. وتتكون في الغالب من طابق واحد. وكلما اتجهنا نحو الضواحي، تتضاءل المساكن الجيدة، ويحل محلها الأكواخ التي تسمى (بالعشش).

أما المتسولون ومن لا مسكن لهم، يجدون مكاناً جيداً للنوم في المسجد الحرام، الذي يضم بالإضافة إلى هؤلاء بعض الناس الذين جاؤوا للنوم في المسجد بقصد العبادة (الاعتكاف)، أو لأن هناك بعض المنغصات في البيت. أما الفقراء والبخلاء من الحجاج فينامون في المسجد أيضاً، أما في النهار فيجلسون هم وأمتعتهم في ظل المساكن القريبة من الحرم.

إيجار المساكن

إن الإيجار في مكة يكون في العادة لسنة كاملة، ولو كان الاستئجار في أول السنة أو وسطها أو قبل موسم الحج بشهر واحد. وبالنسبة لصاحب المنزل لا يفرق الأمر كثيراً إذا كان المستأجر مواطناً أو حاجاً. وفي حالة الحاج يكون المبلغ المدفوع أكثر قليلاً. فإذا كان لديه الرغبة في أن يؤجر بيته لأهل مكة، فذلك لأنه يريد أن يريح نفسه عناء البحث عن مستأجرين من الحجاج في نهاية العام، وإذا كان المرء يسكن في بيته، فإنه يحصل على أجر في الثلاثة أشهر الأخيرة من السنة، يعادل الأجر الذي يتقاضاه من أول السنة إلى آخرها، فيما لو أجر بيته في شهر محرم. وحتى أولئك الذين يعيشون بنصف طابق، يعرفون كيف يجدون متسعاً لبعض الحجاج في البيت، لأن إقامة الحاج غير طويلة، فمعظم هؤلاء الحجاج يقضون أوقاتهم في المسجد وخارج المنزل. إن على أفراد العائلة في الموسم أن يقنعوا بالعيش في جزء من أجزاء البيت.

ولا يهتم المؤجر بنوعية من يستأجر البيت، فلا خوف من تهرب هؤلاء من دفع الأجرة؛ لأن هذا لا يحدث إلا نادراً من بعض الحجاج. وباستثناء المطوف، ليس لأي فرد سلطة على الحاج، سوى صاحب البيت. وصاحب البيت يفضل تأجير بيته إلى أصدقائه وأبناء بلده الأم الذين يفدون عليه. ويختار من بين هؤلاء ذوي الثروة والجاه. ومن جهة أخرى فهو يفضل أن يؤجر بيته لطائفة دون أخرى، فهو يفضل الأتراك لنظافتهم، والجاوة لتواضعهم. والمؤجر يضع سياجاً ثانياً حول الحاج خلف السياج الذي وضعه المطوف، بحيث لا يمكن لشخص ثالث أن يخترقه. غير أن هناك إمكانية للعديد من أولئك الذين يقومون بمساعدة المطوف وغيرهم للاستفادة من أموال الحاج، بما فيهم الأشخاص الرسميون والموظفون الذين لهم نصيب في هذا المجال.

وتجد في أحد البيوت أن ٢٠ شخصاً من أفراد الجاوة يعيشون في غرفة واحدة، ينامون ويطبخون ويأكلون ويشربون فيها. وجميع سكان المنزل لا يبدون تذمراً في أشهر الحج، خاصة لأن هذا هو الطريق إلى جمع مزيد من المال. وحينما يكون مع الحجاج نساء تكون هناك نوع من الاستغلالية لهؤلاء. غير أن صداقات وتبادل زيارات وحتى دعوات تقوم بين هؤلاء وربة المنزل. والعلاقة التي تقوم بين المطوف أو رب المنزل من جهة، والحاج من جهة أخرى، تحددها الأغراض الشخصية لكل منهما، كما يحددها نوع العلاقات التي تربط بين الحاج والمجتمع المكي. تلك العلاقات التي تبني في الغالب من سنوات سابقة قدم فيها الحاج إلى الديار المقدسة.

وقد يقع الحاج في مشكلات عدة بالنسبة للسكن، فقد يستأجر غرفة أو اثنتين ويراهما بادئ ذي بدء مناسبتين وسعرهما رخيص، وما إن يسكنهما حتى يكتشف العيوب الموجودة فيهما، كأن تكونا في بعض أوقات النهار لا تصلحان للسكن، أو يحتاج المرء الساكن فيهما إلى سطح للنوم في الليل، وفي هذه الحالة يقدم صاحب المنزل تسهيلات إضافية إلى المستأجر يتقاضى بدلها ضعف الأجرة المقررة.

ولما كان للمطوف نفوذ كبير على الحاج يمتد ليشمل اختيار المسكن، فإن كل المكيين يحرصون على وجود صلة مع العديد من المطوفين الذين تربطهم صلات كثيرة بالجمهور.

إن التقويم الإسلامي المبني على دورة القمر له دور مهم، ولا نظير لأهميته في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي. أما السنة الشمسية فيذكرها الناس هنا عند تغير درجات الحرارة، وعند نضوج بعض الثمار كالتمر والتين والدراق، وفي الدورات الزراعية فإن المواسم تحدد عن طريق دائرة البروج. إن الفلكي الذي يقوم بعمليات الحساب للتقويم، يطلق عليه اسم (الريّس). ولدراسة واقع العلاقات الاجتماعية في المدينة المقدسة سوف نربطها بشهور السنة القمرية، بحيث نتحدث عن هذه المناسبات الاجتماعية في وقتها المخصص لها.

الحياة الاجتماعية بعد موسم الحج

ففي شهر محرم، بداية السنة الهجرية، والذي يعقب شهر الحج، نشاهد انخفاضاً ملموساً في النشاط الذي بدأ في موسم الحج، ووصل قمته في شهر ذي الحجة. ومع بداية محرم يبدأ سلم النشاط بالنزول تدريجياً. فكثير من الحجاج قد غادر البلاد المقدسة، وفي كل أسبوع يرسل المطوفون أعداداً كبيرة من هؤلاء إلى ميناء جدة، لترحيلهم إلى بلادهم. ونجد في جدة العديد من الوسطاء والسماسرة الذين كانوا يعملون في موسم الحج في مكة، نجدهم في جدة يعملون لصالح شركات البواخر التي تقل الحجيج إلى بلادهم، ومن يتخلف عن العودة بعد موسم الحج بغرض الدراسة أو السكنى الدائمة في مكة، يستطيع الحصول الآن على مسكن دائم وملائم، ليتكيف مع شروط الحياة الجديدة في البلد المقدس. إن أفراد المجتمع المكي الذين فرض عليهم موسم الحج الابتعاد عن بعضهم من جراء ترك بيوتهم، أو الاشتغال بأعمال الحج، يبدؤون بالعودة إلى حياتهم العادية، ويلتئم شمل الأسر المختلفة، ويبدأ موسم الراحة والاستجمام. إن هذا لا يعني أن جميع أفراد المجتمع المكي يتركون أعمالهم، بل هناك العديد من هؤلاء ليس لديه فرصة للراحة والاستجمام، فالتجار يقومون برحلات مختلفة من أجل الحصول على البضائع، والمطوفون أو وكلاؤهم يذهبون إلى كثير من بقاع العالم الإسلامي النائية، بقصد الحصول على مزيد من الحجاج للموسم القادم.

أوصاف الأوربيين

إن آلاف المكيين لم يسافروا طوال حياتهم إلى أبعد من الطائف والمدينة، ولا يحبذون الذهاب إلى جدة مخافة أن يختلطوا بالكفار. لقد تعلم هؤلاء من أمهاتهم ومن النساء اللواتي يحطن بهم منذ الصغر أن الكافر هو إنسان شاذ مخيف. إن ملامحهم الشاحبة تعطي انطباعاً بأنهم مصابون بالجذام، ولا يستطيعون التطلع إلى السماء، وغالباً لا يمشون وهم رافعو رؤوسهم، وعليهم أن يظللوا عيونهم بأطراف قبعاتهم الكبيرة، ويجلس الرجال والنساء معاً دون خجل، ويشربون الخمر، وهم غير نظيفين، ويدخلون المساكن بأحذيتهم الوسخة، ولا يعرفون كيف يطهرون أنفسهم بعد الذهاب إلى الحمام، أو من الجنابة، ولديهم طباع خشنة، ويضحكون بصورة عالية

كالضباع، ويتكلمون بلهجة عنيفة، حتى عندما لا يكونون في حالة سكر، ليس لديهم أي دين. وإن سعادتهم وعظمتهم في هذه الدنيا فقط. وإنهم لا يتألمون عند الموت الذي يصادف في الغالب يوم السبت. غير أن عذابهم في جهنم شديد. وعلى ضوء ذلك لا يجدي اقتناع كثير من المتعلمين بعدم صحة كثير من هذه الأقاويل، أمام تلك المعلومات الموروثة عن غير المسلمين. لذا نجد الأحداث الصغار ينفرون من مقابلة غير المسلم، كما ينفرون من الأشباح. إن عدداً من الأشخاص الذين سافروا في عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) إلى جدة للذهاب إلى المدينة بطريق البحر، قد وصفوا لي مشاعرهم التي تبدو مشاعر عاطفية، كالتي تعتري الأوروبي حينما يرى مجنوناً أو رجلاً مصاباً بوباء. إن ما سمعه هؤلاء من مواطنيهم الذين رحلوا معهم لم يوسع مداركهم قليلاً، بل زاد حيرتهم، وكان معظم ما سمعوه عن هؤلاء الكفار يدور حول نوادر وقصص، تظهر جهلهم في الدين، وعدم اعتقادهم بوجود الخالق الكريم.

وهناك العديد من أهل مكة ممن يشكرون الله ـ تعالى ـ، الذي حماهم من المخاوف، ومن عين الحاسد، وكذلك من الاختلاط بهؤلاء، وإن من قدر له أن يخالط عرضاً بعض غير المسلمين يخفف من غلواء بعض هذه القصص الغريبة، إلا أنه يكتسب نوادر أخرى أكثر مما فقد، وليس من شك في أن الأوروبيين أنفسهم يتحملون بعض اللوم، لأنهم لم يتفهموا طرق حياة المسلمين، وفي الوقت نفسه، إن كل خطوة يخطوها الأوروبيون يطؤون فيها على أقدام هذا الشعب المحافظ على إسلامه.

ويجب أن نشير هنا إلى أن العديد من أهل مكة يبقون في المنزل، بمعنى أنهم لا يمارسون عملاً، حيث يقوم هؤلاء باغتنام مسرات الحياة بعد موسم الحج بالطريق التقليدية، وذلك بالأموال التي تحصلوا عليها من موسم الحج. إن المرح هو طبيعة أهل مكة، على الرغم من أن المكي في موسم الحج لا ينقطع لسانه عن ذكر الأحاديث النبوية، وليس هذا من قبيل النفاق، كما أنه ليس نابعاً من الشعور الداخلي للفرد، بل هو ببساطة ـ من وجهة نظره ـ أداء لواجب مفروض عليه بوصفه مواطناً من أبناء البلد الحرام،

وبوصفه صاحب عمل يقصد من ورائه دخلاً. وهذا يشبه إلى حد كبير حالة رجل ثري، يظهر شعوراً نبيلاً بالعطف على بعض من أصيب بمكروه. فالمكيون يريدون بحماس شديد أن يمتعوا إخوانهم في العقيدة بهذه الشعائر المقدسة التي يفعلها المكيون كل يوم. وبعد أن ينهي المكي هذا العمل السنوي، يبحث عن المسرات المريحة، في جو من الاسترخاء. وهذا متيسر له أولاً في بيته، حيث الفرد المسلم يسر كثيراً لوجوده مع أبنائه وزوجته، وقد يجد المتعة أيضاً في بيوت أصدقائه، حيث المناسبات السارة، وحتى في المآتم التي يحاول المرء ألا تفوته. ففي كل ذلك يجتمع هؤلاء ويتحدثون ويأكلون الطعام في وليمة معاً، وبالإضافة إلى ذلك هناك اللقاءات الاجتماعية، أو الرحلات القصيرة (قيلة) في المدينة وخارجها، التي يقوم بها هؤلاء مع أصحابهم ومعارفهم. وأخيراً هناك الأعياد التي يشارك المكيون فيها العالم الإسلامي فرحة العيد. وأيام الأعياد هذه يفضلها المكيون ويحتفلون بها في مدينتهم، بحيث يبدو هؤلاء خدماً أكثر من كونهم مضيفين.

إن التقويم القمري يتغير تدريجياً بحيث يتغير تاريخ المواسم والفصول كل ٣٣ سنة، بحيث تقع المناسبات التي كانت تحدث في الصيف، تحدث الآن في فصل الشتاء. فإذا صادف أن كان الوقت صيفاً، فإن الموسرين من أهل مكة يذهبون شرقاً إلى مدينة الطائف، التي تبعد مسيرة يومين إلى الشرق، حيث الهواء اللطيف، والمناخ البارد، والحدائق الجميلة المحيطة بها، ويقول المكيون لقد نقل الله هذه الأرض من الشام، ليرضي بها ضيوف الرحمن. أما إذا جاء الحج في مثل هذه الأشهر، فإن المكيين يحرمون الذهاب إلى المصيف. وإذا كان الصيف في رمضان، فإن الذهاب إلى الطائف يحقق فائدة مزدوجة، حيث يصبح العطش ـ وهو المشكلة الكبرى في الصيام ـ أمراً غير ذي بال في جو الطائف الجميل. وإن الذي ليس له بيت في الطائف، يذهب مع أحد أصدقائه، حيث يستخدم التسهيلات التي يقدمها له صديقه.

مظاهر الحياة في محرم

وفي محرم تعود الحياة إلى ما كانت عليه قبل أيام الحج. ليس فقط في الحياة العائلية، بل أيضاً في المسجد الحرام، ففي العاشر من محرم يصادف

يوم عاشوراء، الذي يستحب فيه الصيام لدى كل أفراد المسلمين، وفي هذا اليوم تقام عند الشيعة احتفالات خاصة بمناسبة استشهاد الحسين ابن علي[1]. وفي هذا اليوم أيضاً يفتح باب الكعبة[2]. وفي هذا التاريخ لا تزال مكة مليئة بالغرباء الذين أدوا فريضة الحج، ويحاولون العودة إلى بلادهم. ونجد المسجد مليئاً بالطائفين الذين يحاولون أن يطوفوا حول البيت ما أمكنهم ذلك قبل سفرهم إلى بلادهم.

وبالتدريج يقوم الحجاج بالرحيل، وتتناقص حلقة الطائفين حول البيت، ويصبح هناك متسع لأهل مكة للجلوس في أروقة المسجد. وكذلك تعود الدروس في الحرم إلى ما كانت عليه قبل الحج. كما تعود الحلقات الصغيرة التي يكونها الأصحاب والأصدقاء بعد كل صلاة في أماكن معينة من الحرم، يلتقي فيها هؤلاء، حيث يتبادلون الأحاديث المختلفة. وفي شارع المسعى[3] حيث كان يعج بالمهرولين بين الصفا والمروة أصبح الآن فيه مجال للبيع والشراء بسهولة أكثر من ذي قبل، وكذلك الحال في الأسواق المجاورة مثل سويقة وسوق الليل.

---

(١) في مكة يقوم الشيعة باحتفالات العاشر من محرم سراً. أما في جدة فمنذ الحرب الروسية التركية فإن الاحتفالات بهذه المناسبة علنية، ويجتمع هؤلاء خلال العشرة أيام الأولى من محرم في بيت، يمكن لأي شخص دخوله، وفي أكتوبر عام ١٨٨٤م حضرت عاشوراء بكل طقوسه. وقد حضر الحاكم التركي هذا الاحتفال أيضاً في العاشر من محرم بدعوة من القنصل الإيراني، حيث شرب الشربات، وشارك في البكاء أيضاً (المؤلف). ولما كانت هذه من البدع التي لا أساس لها في العقيدة فقد منعت هذه الاحتفالات منذ بداية العهد السعودي وليس لها من أثر في أي من مدن الحجاز الحالية الآن.

(٢) إن دخول الكعبة ليس جزءًا من أعمال الحج، وليس له أي صبغة دينية ومن الملاحظ أن الحجاج يحاولون جهدهم وبأي طريقة الدخول إلى داخل الكعبة والصلاة فيها مع العلم أن أهل مكة قد يدخلونها مرة واحدة طيلة حياتهم وقد لا يدخلونها أبداً (المؤلف). (أما أن دخول الكعبة ليس من أعمال الحج فصحيح وأما أنه ليس له صبغة دينية فغير مسلم به، فقد ورد عن الرسول ﷺ دخول الكعبة والصلاة فيها).

(٣) كان المسعى في السابق مفصولاً عن المسجد الحرام وكانت دكاكين الباعة تحف به من الجانبين. أما الآن وبعد التوسعة السعودية في الحرم ألحق المسعى بالمسجد، وأزيلت الدكاكين الجانبية منه.

عودة قافلة المدينة

وفي نهاية الشهر أو بداية الشهر المقبل، فإن الهدوء الذي خيم على المدينة خلال تلك الفترة، يشوبه العودة إلى الصخب ثانية، وذلك عند عودة القافلة الثانية من الحجاج من المدينة المنورة. فالحجاج الذين تأخروا في الوصول إلى مكة قبل الحج، وفاتهم الذهاب إلى المدينة في القافلة الأولى، يذهبون مع القافلة الثانية بحماية الجنود العثمانيين، حينما تعلن الحكومة أن الطريق خالية من المخاطر. وفي هذه الفترة تعود الحركة والنشاط إلى المدينة المقدسة، وينشط المطوفون ومساعدوهم في عمل الترتيبات اللازمة لرحيل هؤلاء، وفي هذه الأثناء ينشغل الحجاج بأمرين هما: مزيد من الصلوات والطواف في المسجد الحرام، ومزيد من الشراء للحاجات الضرورية والهدايا اللازمة لهم في سفرهم.

مظاهر الحياة في صفر

وبعد بداية شهر صفر يقوم المكيون بالتحضير والاستعداد لمناسبة شعبية مهمة، هي احتفالات الثاني عشر من صفر، الخاصة بالسيدة ميمونة. والسيدة ميمونة ـ رضي الله عنها ـ هي إحدى أزواج الرسول الكريم، وقبرها يقع في نقطة على الطريق المؤدي من مكة إلى المدينة، على بعد نصف يوم إلى الشمال من مكة، وكان هذا الموقع يطلق عليه تاريخياً اسم (وادي سرف) وأطلق عليه بعد ذلك اسم (النوارية)[1].

إن أهل مكة لا يعرفون بالضبط ما المقصود من هذه المناسبة، والتي ربما تكون الذكرى السنوية لوفاة السيدة ميمونة. ولكن هناك بعض المناسبات الشبيهة بتلك يحتفل بها لعدة أيام، ولا يعقل أن يكون ذلك ذكرى سنوية للوفاة؛ لأن معظم وفيات هؤلاء غير معروفة، ويمكن أن تعزى مثل هذه الأعياد إلى مناسبات شعبية جاهلية للحفاظ على استمرارها[2].

---

(١) يقع أثر قبر السيدة ميمونة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ على يسار الطريق الذاهب إلى المدينة من مكة، قبل مدينة الجموم، على بعد (١٦) كم من الحرم. وكانت المنطقة تعرف تاريخياً باسم وادي سرف. ويطلق أهل مكة على هذه المنطقة اسم (النوارية)؛ لأنهم كانوا يستخرجون منها الحجارة التي تصنع منها (النورة). والنوارية الآن أصبحت من أحياء مكة المكرمة بعد أن خططت ووصلها العمران الحديث.

(٢) لا نوافق المؤلف على رأيه في أن مظاهر الاحتفالات التي كانت تقوم على القبور والأضرحة =

وقبل موعد الاحتفال بذكرى السيدة ميمونة (ستنا ميمونة) بأسبوع، يبدأ الأصحاب والأصدقاء بالتحضير لهذه المناسبة. ومثل هذه اللقاءات تسمى (بشكة)[١]، يتولى أمورها أحد الأشخاص الذي يأخذ مبلغاً من المال من كل أفراد المجموعة، ليحضر الأشياء المطلوبة. والمسؤول عن الرحلة يدعى (قويماً) الذي يستأجر أو يستعير الخيام والفرش والسجاد والجمال وأدوات الطبخ. بينما بقية أعضاء المجموعة يفكرون فقط في ملابسهم، وفي إحضار أدوات الشيشة، بالإضافة إلى تحضير بعض الأطباق الجاهزة التي يحضرونها معهم، إلى جانب اللحم، وبعض الفواكه؛ لأنه لا يوجد أي من هذه الأشياء عند قبر السيدة ميمونة؛ لأن تلك المنطقة غير آهلة بالسكان.

إن من يحضر هذه الاحتفالات من النساء عدد قليل، والرجال في الغالب يلبسون الأزياء التقليدية، حيث تستبدل العمامة بالكوفية والعقال، وفوق الجاكيت تلبس العباءة المصنوعة من وبر الإبل. والعباءة تلبس في العادة من قبل البدو ذوي المقام الرفيع. وكذلك تلبس من قبل بعض أهل مكة من الطبقة الوسطى في الموسم البارد[٢]. وبعد نصب الخيام يزورون ضريح السيدة ميمونة، وهناك اعتقاد أن الضريح موجود في المكان الذي تزوج الرسول الكريم فيه من ميمونة حيث دخل بها في خيمة هناك.

إن زيارة القبور من وجهة نظر إسلامية، لا تتطلب سوى السلام على هؤلاء، وقراءة الفاتحة، وتلاوة بعض الأدعية لهؤلاء بالرحمة والمغفرة، بقصد المغفرة من الله تعالى. غير أن الغالبية العظمى من الزوار يكتفون

= في أنها من أصول جاهلية. فالحقيقة أن هذه المظاهر دخلت إلى مكة في أثناء العهد الفاطمي. فقد كان الفاطميون يحتفلون بأعياد ومناسبات كثيرة تقليداً لتشيعهم لآل البيت.

(١) البشكة: هي الجماعة من القوم تجمع بينهم المودة، ويقترن بها المفهوم الخاص بهم وهو (السمر والقيلات) والاستجمام والنزهات.

(٢) لقد كان ارتداء العقال والعباءة محدوداً في مكة، ولم يكن شائع الاستعمال كالعمامة الألفي والجبة اللتين كانتا لباس الكثرة الكاثرة من الناس. ولكنه كان معروفاً بين الأشراف وأعيان البلد في المناسبات، أما في العهد السعودي فقد عم استعمال العقال والعباءة (المشلح) لدى الجميع.

بقراءة الفاتحة ودعاء قصير ثم يعودون بعد ذلك إلى خيامهم حيث يلهون ويسلّون أنفسهم بطرق عدّة.

إن عدداً قليلاً ممن يحضرون احتفال السيدة ميمونة يمضون وقتهم بالعبادة، وتلاوة الذكر في الليل، أو يستمعون إلى تلاوة المولد، أو قراءة سير بعض الصالحين.

إن الشباب من أهل مكة يأتون هنا لأغراض مختلفة تماماً. فهم يأتون هنا لاستنشاق هواء الصحراء من جهة، ولإرضاء بعض رغباتهم التي يتوقون لتحقيقها من جهة أخرى. فبعد أن يتناول هؤلاء طعامهم المفضل كـ(المبشور)[1] و(السلات)[2] يتجمعون بالقرب من القبر، حيث يسردون القصص والأحاديث، ويغنون الأغاني العاطفية، ويصطحب كل ذلك بالموسيقى، من آلات موسيقية مثل القابوس[3] والقانون. ويمكن أن يكون الأمر مقبولاً إذا اقتصر الأمر على الغناء المثير والتصفيق، لكن الأمر قد يتعدى ذلك إلى الشجار والمشاحنة، ولهذا السبب نجد العديد من رجال الشرطة الأقوياء في هذا الموقع، لحفظ النظام في المنطقة المحيطة بالقبر في أثناء هذا الموسم.

---

(١) المبشور: هو عبارة عن لحم مفروم ولكنه متخير مما يلي: سلسلة الظهر وأعالي الفخوذ، ويقولون عنها: «خرصة» وبعد أن ينظف اللحم من الأعصاب والعروق، يضاف إليه مقدار من شحم البطن، ويفرمونه بسكاكين حادة، ويضعون عليه كمية وافرة من الثوم والفلفل الأسود، ثم يكببونه تكبيباً مدوراً على قدر حبة الليمون (البنزهير) ويرصونه في صينية إلى أن يجف قليلاً، ثم ينظمونه في أسياخ من الحديد مخصوصة. ويجب أن يكون الفحم المعد للشواء دقيق الحجم. أما بقية اللحم والعظام الأخرى فيطبخ مع كمية من الأرز، وبعد وضع الأرز في الأطباق ترص عليه حبات الشواء ويؤكل المبشور مع اللبن الحامض الممزوج بالسمن النقي. (محمد عمر رفيع: مصدر سابق ص٤٩ ـ ٥٠).

(٢) السلات: ويصنع في الغالب من لحم الماعز، حيث يقطع اللحم قطعاً صغيرة وتكون قطعة من الحجر يسميه المكيون «حجر السلات» رهيف قد وضعت على نار قوية أحمت الحجر بحيث أصبح في حرارتها، فتوضع عليه القطع من اللحم وتقلب، وكلما استوت كمية قدمت للأكل أولاً بأول. (المرجع السابق ص٥٤).

(٣) القابوس: هي آلة ذات أربعة أوتار تشبه إلى حد كبير الكمان مع خلاف في أن أوتارها من أمعاء الحيوانات بدلاً من شعر الخيل (المؤلف).

فلا عجب إذن أن نرى العلماء لا يقرون مثل هذه الاجتماعات، ولا يسمحون للصغار والبالغين بحضور مثل هذه التجمعات، إلا إذا كانوا بصحبة أناس أتقياء فوق مستوى الشبهات. وإن الذكرى السنوية للسيدة ميمونة ليست مناسبة محزنة، فعلى الرغم من أنها تعقد على قبر، فإن أبعد شيء يفكر فيه الحضور هو الموت في هذه المناسبة.

ذكرى وفاة عبد الله بن عمر

وعلى الطريق المؤدي إلى قبر السيدة ميمونة، وعلى بعد ساعة وساعة ونصف من مكة تقع مناطق الشهداء[1] والتنعيم[2]. ويطلق على التنعيم اسم العمرة الآن، فهي المكان الذي يحرم منه أهل مكة بالعمرة. أما موقع الشهداء فقد اكتسب الاسم من ثورة قام بها العلويون في هذا المكان في أسفل فخ عام ٧٨٦م (١٦٩هـ). وقد قدم هؤلاء من ينبع بقيادة الحسين ابن علي حيث قتل وأنصاره ودفنوا في هذا المكان، ويبدو أنه قبل حصول هذه الموقعة، وسقوط هؤلاء الشهداء، كان قبر أحد أصحاب الرسول الكريم موجوداً في ذلك المكان. ويذكر أهل مكة أن عبد الله بن عمر عاش شطراً من حياته في الشهداء، واليوم المخصص للاحتفال بالذكرى السنوية لوفاته في الشهداء هو اليوم الرابع عشر من صفر. وإن الذين يعودون من قبر السيدة ميمونة يصلون إلى الشهداء في الوقت المناسب.

إن الهواء والماء في الشهداء صحيان، لذلك نجد أن الكثير من المكيين لهم سكن صيفي في هذا المكان. والموسرون من أهل مكة يجلبون الماء يومياً من الشهداء إلى بيوتهم. وفي مساء الذكرى السنوية (أو في الليلة التي قبلها) يقوم الحارس على القبر، أو قارئ ماهر بتلاوة سيرة حياة الصحابي بأسلوب شيق، معدداً الأعمال المجيدة التي قام بها في حياته، كما يعدد المناقب

---

(١) الشهداء: هي أحد أحياء مكة المكرمة، وكان يعرف في السابق باسم فخ.

(٢) التنعيم: أحد أحياء مكة على الطريق المؤدي إلى المدينة المنورة. وهو أقرب الحل إلى المسجد الحرام، فهو يقع على بعد ٦كم شمالي المسجد. ويسميه أهل مكة حي العمرة. وبه مسجد عائشة، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ أمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن يعمر أخته السيدة عائشة رضي الله عنها من التنعيم، وهو ميقات لمن أراد العمرة من المكيين (البلادي: معالم مكة ص٥٠).

والمزايا التي كان يتحلى بها. والغرض الأساسي لمعظم هؤلاء الزوار هو التسلية واللهو. وتستمر الاحتفالات هنا في الشهداء لمدة أسبوع كامل[1].

التشاؤم في صفر

وفي الأربعاء الأخير من شهر صفر يتشاءم الكثير من الناس ويتغيرون. غير أن سبب ذلك غير واضح تماماً[2]. والفكرة المنتشرة أن هذا الشهر مليء بأنواع المكاره التي تحصل عادة في الأربعاء الأخير من هذا الشهر. وإن الذي لا يصاب بسوء في هذا اليوم لا يحصل له مكروه طوال عامه. وفي مثل هذا اليوم يقضي بعض الناس معظم ليلهم ونهارهم في العبادة. إن عامة الناس ليس لديها مثل هذه التصورات عن ذلك اليوم المشؤوم لذا نجد الناس - رجالاً ونساء - يقومون بالرحلات والحفلات وركوب الخيل إن الحياة العادية في المدينة لا تتأثر بمثل هذه الأيام (أيام التطير والشؤم).

المولد

وفي الثاني عشر من ربيع الأول قبض الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، غير أن هذا التاريخ يحتفل به في مكة على أنه يوم ميلاد للرسول الكريم، وبهذه المناسبة يقوم المدرسون في الحرم بقراءة المولد بدلاً من إعطاء المحاضرات. وفي ظهر يوم الحادي عشر تطلق المدافع إعلاناً لهذه المناسبة. ومع صلاة المغرب التي هي بداية اليوم الثاني عشر من ربيع الأول يبدأ تجمع الناس بأعداد خيالية. والمرأة المكية تأتي إلى المسجد

---

(١) إن الشائع لدى المكيين أن قبر عبد الله بن عمر كان موجوداً في الزاهر، غير أن الأزرقي يذكر أن عبد الله بن عمر مات ودفن في قبور آل عبد الله بن خالد بن أسيد، قال ذلك عند الكلام على ثنية أذاخر التي تشرف على حائط خرمان والمشهور اليوم بالخرمانية، خلف مبنى أمانة العاصمة الحالي، (انظر الأزرقي جـ٢ ص٢٨٩)، وقد ذكر الفاسي ما يدل على أن المدفون بحي الزاهر وعلى قبره قبة في زمانه هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب الذي قتل في حربه مع محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس المندوب لقتاله من الخليفة الهادي العباسي، وقد كان القتال يوم التروية سنة ١٦٩هـ. وقد عرف الزاهر منذ ذلك التاريخ بالشهداء (انظر شفاء الغرام جـ٢ ص١٧٩، والسباعي جـ١ ص١٤٠).

(٢) إن بعض مسلمي الهند يعزون هذا التشاؤم في الأربعاء الأخير من صفر إلى مرض الرسول ﷺ الذي حصل في هذا الشهر (المؤلف).
إن عادة التشاؤم في صفر عادة جاهلية أبطلها الإسلام، وقد قال الرسول ﷺ ناهياً المسلمين عن ذلك بقوله في الحديث: «لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ولا صفر» (صحيح البخاري باب الطب).

بهذه المناسبة بملابس العيد، في حين نجد في غير هذه المناسبة أن ثلاثة أرباع النساء اللواتي يأتين إلى المسجد هن من عائلات الجاليات الوافدة إلى المدينة المقدسة. والشيء الملفت للانتباه هو الحلى والزينة التي تتحلى بها النساء. والأكثر غرابة هو ملابس الأطفال ذات الألوان العديدة والمطرزة بالذهب والفضة، ويأتي هؤلاء الأطفال مع أمهاتهم إلى المسجد. ويحدث هؤلاء الأطفال في ساحة المسجد الكثير من الصخب، وخاصة في المنطقة المجاورة للنساء. والكثير من الناس يتضايقون من هذا المظهر في أوقات الصلاة. وعلى طول الطريق المؤدي إلى المسجد، نجد المحلات التجارية مليئة بألعاب الأعياد، كما نجد محلات الحلوى مليئة بالأصناف العديدة التي هيئت لهذه المناسبة، وأن الأطفال في مكة يدخلون إلى المسجد ومعهم صنوف الحلوى اللذيذة.

وبعد الانتهاء من صلاة المغرب[1] تضاء مصابيح المسجد المضاءة بالزيت، بأعداد كبيرة أكثر من المعتاد. ويبقى الجمهور بعد ذلك قرابة نصف ساعة في حركة دائمة يحيي بعضهم بعضاً. وإن عدداً قليلاً من الجمهور يرى ماذا يحدث في القسم الشمالي الغربي من القاعة ذات الأعمدة بالقرب من باب دريبة، حيث يجلس الإمام على منصة خشبية، دائراً ظهره إلى الكعبة، ومواجهاً الجمهور، ليتلو قصة المولد. وفي مكان الصدارة يجلس شريف مكة والوالي التركي مع حاشيتهما، إلا إذا كانت الظروف السياسية لا تسمح بوجودهما. ويبدأ الإمام بقراءة قصة المولد[2]. إن السواد الأعظم من جمهور الناس يحرص على الحضور، على الرغم من

---

(١) الصلوات كانت تقام في الحرم أربع مرات على المذاهب الأربعة، لكن بهذه المناسبة كانت الصلاة تقام مرتين، الأولى يؤمها إمام الأحناف، والثانية يؤمها إمام الشافعية، ولا مجال لعقد الصلاة على المذهب المالكي أو الحنبلي لضيق الوقت (المؤلف).

(٢) يطلق البعض خطأ على قراءة قصة المولد (خطبة)؛ لأن الخطبة لا تكون إلا أيام الجمع والأعياد وبعض المناسبات. وبالخطأ نفسه أيضاً وقع بيركهارت حينما قال عن الدعاء الذي يتلوه الحجاج في عرفة: إنه خطبة وإنه جزء أساس من شعائر الحج، وهذا بطبيعة الحال ليس صحيحاً سواء من وجهة نظرية أو عملية (المؤلف).

أنه في مثل هذه المناسبات، من النادر أن يعي المرء شيئاً منها أو يسمعها. ويطلق السكان على هذه المناسبة وهي ١٢ ربيع الأول، بالإضافة إلى ٢٧ رجب اسم الأعياد تشبيهاً لها بأعياد الفطر والأضحى.

وحينما تنتهي قراءة المولد نشاهد هرجاً كبيراً في داخل المسجد، فالكل يريد أن يرى الشريف ورجال الحكومة وكذلك خدم المسجد، الذين يمشون بخطى وئيدة، يحملون القناديل المضيئة عبر أسواق القشاشية وسوق الليل، إلى بناية القبة في الشعب (شعب علي) حيث رأى الرسول الكريم النور لأول مرة. وفي تاريخ المدينة منذ ٣٠٠ سنة كان المولد يحتفل به بطريقة مشابهة لهذه الطريقة. غير أن بعض العلماء كانوا يصرحون بمعارضتهم لهذه الاحتفالات؛ لأن هذا الموكب والحشد الكبير من النساء اللواتي يحضرن، يثير الكثير من الشبهات بدلاً من الفضائل[١].

---

(١) لقد دخلت إلى مكة في أثناء حكم الفاطميين لمصر، وما تلا ذلك من سيطرتهم على الحجاز الكثير من الأعياد الدينية، مثل عيد المولد النبوي، وعيد مولد السيدة فاطمة، ومولد السيدة خديجة، والسيدة آمنة، ومولد علي «رضي الله عنه» وأمثال ذلك كيوم عاشوراء، وآخر أربعاء من صفر، كل هذه الأعياد من المعتقد أنها انتقلت إلى مكة من الفاطميين، الذين كانوا يحتفلون بها تقليداً لتشيعهم لأهل البيت. وما كانت مكة تعرفها قبلهم (السباعي جـ١ : ٢١٦).

لقد تبع إدخال هذه الأعياد أن وجدت قباب ومزارات في مواقع مختلفة من مكة، منها قبة مكان مولد الرسول ﷺ. وقد كان له سادن خاص. وكذلك لسيدنا علي موضع مولد في الشعب نفسه على مقربة من مكان مولد الرسول ﷺ، ولكن لم تكن عليه قبة، بل مبنى على شكل مصلى، وكذلك كانت دار لسيدنا حمزة على شكل مسجد، ودار لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وعليها قبة. كما أن بزقاق الحجر بيت السيدة خديجة رضي الله عنها، وبالطبع فيه مولد السيدة فاطمة، وكان على شكل مسجد. ومن القبور التي عليها قباب في مقبرة المعلا قبر السيدة خديجة والسيدة آمنة وعبد المطلب وأبو طالب (اثنان من ولاة مكة من الأشراف وليسا جد وعم الرسول ﷺ)، وكذلك قبر الشيخ محمود بجرول وقبر عبد الله بن عمر في الزاهر. وكانت تقام لمعظم هؤلاء حفلات مولد، كما تقام بجانبها حلقات الذكر للمتصوفة، وفي عهد الشريف عون الرفيق هدم بعض هذه القباب. ولما جاء العهد السعودي ودخل الإخوان مكة عام ١٣٤٣هـ، هدم جميع ما تبقى من هذه القباب والمزارات، وأبطلت جميع مظاهر التقديس، لما تجره من مفاسد حيث كان العوام يفعلون عندها من المحاذير التي يأباها الشرع وتأباها العقيدة، زد على ذلك أن =

وأمام هذا الموكب يسير (الرّيس)، وهو كبير المؤذنين، وفلكي المسجد الحرام، ينشد الأناشيد في مدح الرسول الكريم. وعند الوصول إلى مكان الميلاد، يدخل هذا الحشد إلى مكان المولد، حيث يقرؤون شيئاً من سيرة الرسول الكريم، ثم تقام الصلاة جماعة، ويستغرق كل ذلك قرابة ساعتين بعد الغروب، وخلال الليل تقام حفلات السمر واللقاءات الاجتماعية، والكثير من الناس يذهبون إلى المقاهي، التي يكسب أصحابها كثيراً في تلك الليلة. في حين يقوم المتصوفة بتكوين حلقات يرددون فيها بصورة جماعية قصائد البردة والهمزية وأشعار المديح الأخرى.

وفي بقية هذا الشهر ربيع الأول والشهرين الآخرين ربيع الآخر وجمادى الأولى يزداد الاهتمام بالشؤون العائلية. ففي هذا الفصل من العام، يكثر الإقبال على الزواج، ويبدأ سكان البيت العتيق إعداد العدة لحفلات الزواج البهيجة ـ غنيهم وفقيرهم ـ على السواء، وسنتحدث في الفصل الثاني عن هذه المناسبات.

ذكرى الشيخ محمود

وفي الشهر السادس، وهو جمادى الآخرة، تتطلع البنات والنسوة في مكة إلى مناسبة جديدة. ففي الخامس عشر من هذا الشهر، تبدأ الذكرى السنوية للشيخ محمود بن إبراهيم الأدهم، وهذا مشهور في التراث الديني لسكان جزر الهند الشرقية. فضريح الشيخ محمود المزعوم، والمكون من بناء تعلوه قبة، يقع في نقطة يلتقي فيها القادمون من أعالي مكة وأسافلها في طريقهم إلى جدة[١]. وهذه النقطة تبعد قرابة نصف ساعة من مركز المدينة. والأصدقاء في الغالب يذهبون مع المسافرين إلى جدة ليصلوا إلى هذه البقعة. إن كل من يمر بهذا المكان عليه أن يقف ويقرأ الفاتحة لروح الشيخ. وهذه العادة (قراءة الفاتحة) موجودة في مواضع كثيرة تحوي القبور، ولكنها غير منتظمة، في حين تكون الفاتحة عند زيارة قبر الشيخ محمود من الأمور المهمة. ويمكن عدّ ضريح الشيخ محمود جزءاً من

= الأمور السابقة هي من البدع التي لا أساس لها في الشريعة الإسلامية (السباعي ج٢: ٥٥٣).

(١) هذه المنطقة تعرف بجرول وهي أحد أحياء مكة الشمالية الغربية.

المدينة، بحيث لا يفصله عنها سوى بعض البيوت الصغيرة والأكواخ، التي يعيش فيها البدو، الذين يستوطنون جرول، ويعملون في نقل البضائع على جمالهم.

لقد رأينا أن مناسبات السيدة ميمونة والشهداء مخصصة للرجال، غير أن ضريح الشيخ محمود مخصص كلية للنساء، وعلى الرغم من أن بعض الرجال يزورون ضريح الشيخ في مساء الليلة التي تسبق الاحتفال بذكراه، إلا أن النهار مخصص لزيارة النساء التي تستمر لمدة ثلاثة أيام، حيث يشاهد المكان يعج بالنساء المكيات.

إن ذهاب المرأة لزيارة الضريح يحتاج إلى موافقة الرجل. غير أن الرجل يعرف مسبقاً المتاعب التي يتجشمها فيما لو رفض ذلك؛ لأنه يعرض زوجته إلى سخرية النساء الأخريات. وبهذه المناسبة فإن الرجل لا بد له من دفع مبالغ من المال لشراء بعض أدوات الزينة، وكذلك لدفع النفقات التي تتطلبها الزيارة لمدة ثلاثة أيام. وعليه أن يذعن لكل هذه المطالب، فالمرأة المكية تعد ذلك حقاً تقليدياً إذ تمضي بعض الوقت في زيارة ضريح الشيخ محمود، التي تعد أولاً وقبل كل شيء نزهة للتسلية والسرور.

ويستفيد البدو والقاطنون في (جرول) من هذه المناسبات، حيث يقومون بتأجير بيوتهم إلى سيدات مكة لقاء أجر معين من المال أو هدية مناسبة. وأثرياء مكة لهم العديد من المصالح مع هؤلاء البدو، حيث يقوم هؤلاء بالعمل لحسابهم في بعض أيام الموسم، وفي هذه الحالة يقوم هؤلاء البدو بدعوة نسوة معارفهم المكيين لقضاء تلك الأيام الثلاثة مع نسائهم، ويحوي البيت في العادة قرابة اثنتي عشرة امرأة. وفي اليوم الأول فإن سيدة البيت تقوم بواجب الضيافة، وفي العادة تتلقى نظير ذلك بعض الهدايا والقهوة والتنباك. أما في الأيام الأخرى فتقوم النساء المدعوات بواجب الضيافة، حيث تقوم هؤلاء النسوة بإحضار الطعام، بالإضافة إلى المفارش والسجاد وأدوات الطبخ، وحتى أدوات الشيشة، وفي حالة الحاجة إلى بعض الأغراض يقوم الخدم في العادة بإحضارها من المدينة.

وتقوم النساء خلال هذا الاحتفال بسماع الأغاني، التي تغنيها بعض الجواري المحترفات، اللواتي يؤتى بهن لهذا الغرض، ويصاحب الغناء الضرب على الطبلة والنقر على الدف.

إن موضوعات الأغاني في الأعم الأغلب، هي موضوعات متنوعة، محرفة من خلال الموروثات القديمة، حتى إنه من المستحيل أن تفهم معناها، إلا من خلال تأويل واضح بها. وسنتكلم عن ذلك بالتفصيل حينما نتحدث عن الزواج. والنساء يستمتعن حينما ينتقل الغناء من الألحان الشعبية الأقل شهرة إلى الألحان المعبرة عن العواطف، وهي تلك التي يحبها الهواة في مثل هذه المناسبات. وفي مثل هذه الألحان الطبيعية لا نجد الالتزام بالقافية، أما الوزن فلا ينظر إليه أبداً، ويستعاض عنه بما يشبه النثر الذي له قافية. إن المرء يجد في مثل هذه الألحان تلميحات هزلية إلى حوادث حديثة العهد، ومناسبات مثيرة للضحك، ولكن نادراً ما نجد معنى واضحاً. إنه لمن السهل أن يضيف كل واحد تصل إليه هذه الأغاني شيئاً أو يغير شيئاً فيها، بحيث تثير دائماً بعض الشجون لدى السامع. وإن بعض الأغاني مصممة لإثارة العواطف بطريقة لا شعورية.

وعندما زار الوالي التركي جدة عام ١٨٨٥م، قال الجمهور الأغنية التالية فيه وفي حاشيته: «أنا أحب بلاميتا. أعطوني بلاميتا. الوالي عنده قيليطة (مرض بالخصية). اطردوه خارجاً». وبالطريقة نفسها واللحن تغني النساء في حفلات الأعراس: الحنة في الخزانة والعريس على الباب. ارفعي صوت الزغاريد يا أمي.

وفي أغسطس عام ١٨٨٥م (شوال ١٣٠٢هـ) انتشرت في جدة ثم في مكة حمى خبيثة، لكنها مرت بدون حوادث خطيرة، ولكنها مصحوبة بآلام عنيفة في الظهر والأيدي والأرجل. وبالطبع فإن بعض الأغنيات الشعبية قد ظهرت لوصف هذا العدو الخبيث، الذي جثم على صدور الناس الواحد بعد الآخر. وسرعان ما أطلق على هذا المرض اسم محمد البغدادي، وبعد ذلك محمد غندور[١] وقد غنى الناس بأبيات مقفاة أغاني متعددة متنوعة.

---

(١) غندور تعني الشخص الشديد التأنق في ملبسه أو مظهره أو المنتفخ كبراً وغروراً (المؤلف).

لقد قدم محمد الغندور أولا إلى سوق الفخاخرية (الذي يباع فيه الفخار)، ثم عرج على حارة النورية. وقد قابل امرأة بربرية فقال لها: احضري لي امرأة مراكشية (من مراكش) لتجهز لي موكباً قادرياً (يشبه مواكب أهل الطريقة القادرية) فقالت له: اذهب إلى سوريا، إلى أصحاب القلوب المرحة، إن الذي لا يحب محمد الغندور، يذهب إلى أخته نور، التي تصنع له كفناً وتحفر له قبره.

إن المغنيات من الجواري يتناقلن مثل هذه الأغاني وينشرنها أينما ذهبن، فيتناقلها النساء، ثم يتعلمها الأطفال، ويغنونها في الشوارع. وفي خلال احتفالات الشيخ محمود يتناول النساء المرطبات والحلوى بجميع أنواعها والشاي الأخضر والأحمر، ويستعملن الشيشة، ويقضين وقتهن بالأحاديث والسمر في غياب أزواجهن.

وخلال احتفال النساء بذكرى الشيخ محمود هناك احتفال للرجال بمناسبة أخرى هي ذكرىٰ الشيخ المهدلي، الذي يصادف السابع عشر من جمادى الآخرة على مسافة يسيرة من مدخل وادي منى. ويسرد المكيون حكاية هذا الرجل الصالح على النحو التالي:

ذكرى الشيخ المهدلي

«منذ عدة سنوات، وفي الثالث عشر من شهر ذي الحجة، وحينما كان الحجاج يهمون بمغادرة منى بعد انقضاء أيام التشريق. وبينما كانت القافلة مغادرة منى توقفت فجأة، ولم يستطع إنسان أو حيوان تجاوز نقطة معينة أسفل منى باتجاه الغرب. وبعد الاستفسار المتواصل لم يجدوا سبيلاً لسبب هذا التوقف المفاجئ. لذا أمر شريف مكة بتفتيش المناطق المجاورة. وعلى مقربة من نقطة التوقف، وجدت جثة غير مدفونة. لقد كان هذا الجثمان هو جثة الشيخ المهدلي. وبعد غسيل الجثة والصلاة عليها ثم مواراتها بالتراب، سارت القافلة في طريقها بسلام. وقد أمرت الجهات العليا ببناء قبة فوق الضريح، وأقيمت مؤسسة خيرية بهذه المناسبة أدت إلى إقامة يوم للاحتفال بذكرى الشيخ الراحل، حيث يقوم الناس بتوزيع الطعام بجوار الضريح. والمستفيدون من هذا الطعام في الغالب هم الذين يقومون

بتلاوة القصائد والذكر بهذه المناسبة. أما لماذا أصبحت هذه المناسبة تقام في شهر جمادى الآخرة، فهذا أمر ليس له جواب في الأسطورة، كما أن أهل مكة لا يفكرون كثيراً بمثل هذه الأمور[١].

وبهذه المناسبة يقيم أهل مكة الاحتفالات (البشكات) لمدة يومين أو ثلاثة، حيث يسكنون الخيام بجوار الوادي المقدس (وادي منى)[٢]. إن

---

(١) إن الميت لا يستطيع أن يجلب لنفسه ضراً ولا نفعاً فكيف يستطيع أن يوقف ركب القافلة ويمنعه من مغادرة منى. ومثل هذه الأمور الخرافية التي سيطرت على عقول الناس فترة من الزمن مردها إلى الجهل المطبق الذي كان موجوداً، الأمر الذي ساعد على إيجاد البدع والضلالات، وسخر لها دوام البقاء والاستمرار، وجود المزارات والأضرحة، وقد أحسنت السلطة صنعاً في زمننا هذا عندما قضت على جميع مظاهر الشرك وأسبابه.

(٢) لقد علق الشيخ حمد الجاسر على احتفالات الشيخ محمود والمهدلي بقوله:
ولقد مرّ فيما عرض هذا الرحالة من أحوال سكان مكة المكرمة بعض الأمور الغريبة، ولكنني وقفت على حالتين اثنتين منها:
الأولى: ما ذكر من أن اليوم الخامس عشر من شهر جمادى الآخر تبدأ الذكرى السنوية للشيخ محمود بن إبراهيم بن أدهم، ووصف موقع ضريحه، وهو مشهور في أول (محلة جرول)، وقال عن هذه المناسبة: (لقد رأينا أن مناسبات السيدة ميمونة والشهداء مخصصة للرجال، غير أن ضريح الشيخ محمود مخصص كلية للنساء). وذكر أن الزيارة تستمر ثلاثة أيام حيث يشاهد المكان يعج بالنساء المكيات. وذكر أن الذهاب للزيارة بموافقة الرجل الذي يدرك المتاعب التي يتجشمها فيما لو رفض ذلك، إذ يعرض زوجته لسخرية النساء الأخريات، وإذن لا بد له من دفع مبالغ من المال لشراء بعض أدوات الزينة ولدفع نفقات الزيارة مدة ثلاثة أيام، فالمرأة المكية تعد هذا حقاً تقليدياً، إذ تمضي بعض الوقت في زيارة الضريح التي تعدها قبل كل شيء نزهة للتسلية والسرور.
وتحدث عما يستفيد منه قاطنو الحي في (جرول) في هذه المناسبة بتأجير بيوتهم إلى سيدات مكة، وقد يضم البيت الواحد قرابة اثنتي عشرة امرأة، ثم ما يجري في الثلاثة الأيام من أمور لا تتجاوز المألوف سوى الاحتفال بسماع الأغاني من بعض المحترفات من الجواري، مع الضرب على الطبلة، والنقر على الدف.
لا يستطيع القارئ أن يستسيغ صحة ما ذكر (سنوك)، إذ كيف يجيز عاقل من الرجال لامرأته أن تمضي ثلاثة أيام تختلط فيها بكثير من النساء في مظاهر ليست مأمونة من جميع الأحوال، وفي غفلة عن الرقباء والمهتمين بالمحافظة على الأخلاق والعادات الكريمة، وأقل ما يمكن تقبله من هذه الناحية هو القول بأن (سنوك) جسّم الأمر، وبالغ في وصفه، أو أن الذي حدّثه به حاول إبرازه بمظهر من الغرابة ليتلقفه هذا الغربي الجاهل بأحوال ما يتصف به سكان هذا البلد الأمين، من الغيرة الدينية، والحفاظ على الأخلاق الإسلامية والتمسك بجميع الأمور الشرعية =

الاهتمام البارز في هذه المناسبة، هو المحاولات التي يقوم بها أولاد الأحياء المختلفة بالتحرش فيما بينهم، بعيدين عن قبضة الجنود والشرطة في هذا المكان المهجور. وإذا استثنينا منطقة مشق القمر (أبو قبيس) التي تقوم بها مثل هذه المشاجرات، فإن المكان المفضل لمثل هذه المعارك بين أبناء الأحياء المختلفة هو قبر الشيخ المهدلي. وخلال إقامتي في مكة لم يكن الوقت ملائماً لمحبي هذا النوع من الشجار، لوجود العديد من رجال الشرطة الأشداء، الذين خصصوا لمكافحة هذا النوع من الشغب.

إن أعياد السيدة ميمونة والشهداء والشيخ محمود والشيخ المهدلي هي الأعياد الخاصة لأهل مكة[1]. أما بقية المناسبات فهي كثيرة، ولكن دائرتها

= بالنسبة للجنسين، في هذه المدينة المقدسة لدى كل مسلم، والتي تضم عدداً من العلماء في ذلك العهد، ذوي غيرة ونصح، وحفاظ على أمور دينهم، وإظهار بلدتهم بالمظهر الذي يجعلها مثالاً يقتدى به في القداسة وسمو الأخلاق.

وقريب من هذا ما ذكره عن خرافة شيخ يدعى (المهدلي) خلاصتها: (أن الحجاج قبل سنوات في نفرتهم من. . . بعد انقضاء أيام التشريق توقفت قافلتهم في . . . . إنسان تجاوز نقطة معينة أسفل منى، فلما أمر شريف مكة بالبحث عن سبب التوقف علم بوجود جثة غير مدفونة، اتضح أنها جثة الشيخ المهدلي، التي غسلت وصلي عليها، ثم دفنت وبُني فوقها قبة، وأقيمت مؤسسة خيرية بهذه المناسبة أدّت إلى إقامة يوم للاحتفال بذكرى ذلك الشيخ، حيث يقوم الناس بتوزيع الطعام بجوار الضريح، ليستفيد منه من يقوم بتلاوة القصائد والذكر بقربه، ويقيم أهل مكة (البشكات) يومين أو ثلاثة حيث يسكنون الخيام في (وادي منى).

ومع أن (سنوك) عدّ هذا من الأعياد الخاصة لأهل مكة، إذ قال: (إن أعياد السيدة ميمونة والشهداء، والشيخ محمود والشيخ المهدلي هي الأعياد الخاصة لأهل مكة، أما بقية المناسبات فهي كثيرة، ولكن دائرتها محدودة بعدد قليل من الناس، وليست ذات طابع عام لكل أهل المدينة) كذا قال.

قد يقال بأنه ليس من المستغرب أن يتخذ من مثل تلك المناسبات إقامة احتفالات يراد بها ترويح النفس والخروج إلى أمكنة عذبَة، وممارسة بعض الأمور المباحة شرعاً، وأنه قد يتخذ من بعض الأوقات التي ذكرها وسيلة للتخلص من الأعمال المملة في كثير من أيام السنة، أما أن ينظر إليها لتتخذ أعياداً ذات قدسية ومكانة في النفوس، فلا شك أن هذا الرحالة إنْ توهم هذا بنى توهمه على جهله بمكانة هذه المدينة الكريمة، وبما يتصف به علماؤها وعقلاء أهلها من صفات فاضلة. (المجلة العربية عدد جمادى الآخرة، ١٤١٦ ص١٠٢ ـ ١٠٣).

(١) علق الشيخ حمد الجاسر على احتفالات السيدة ميمونة والشهداء والشيخ محمود وغيرها من =

محدودة بعدد قليل من الناس، وليست ذات طابع عام لكل أهل المدينة. فعلى سبيل المثال هناك احتفال الولي جوهر (أحد الأتقياء الهنود)، حيث يذهب بعض الناس إلى ضريحه الموجود بالقرب من القلعة بجبل هندي، ويقرؤون القرآن ويتذاكرون في سيرة هذا الرجل الصالح، من بعد المغرب وحتى منتصف الليل، ويقوم المجتمعون هناك بشرب الشاي والقهوة وتناول الحلويات. وهناك ضريح المجنون[1] أو المجذوب الذي يدعى بالمحجوب، في المنطقة المجاورة لباب العمرة، حيث يحتفى به أيضاً بالطريقة نفسها. وهناك العديد من الأضرحة التي كانت في السابق أمكنة يلتقي فيها العديد من أعيان مكة، أما الآن فهي مهجورة، ويكتفى فيها بإضاءة القناديل والشموع في بعض المناسبات. وبجانب ذلك هناك العديد من القباب، التي لا يعرف حتى أهل العلم من يربض تحتها من الموتى. غير أن الناس لا يحرمون هؤلاء الموتى من ثواب قراءة الفاتحة.

ذكرى السيدة خديجة والسيدة آمنة

وهناك مناسبتان يحتفل بهما كل شهر. ففي اليوم الحادي عشر من كل شهر، يتجمع العديد من الناس على ضريح السيدة خديجة، زوج الرسول

= الاحتفالات بقوله:

ويتضح للقارئ من خلال عرض المؤلف لمظاهر تلك الاحتفالات المتعددة أمران:

أولهما: أن أكثر البواعث والحوافز لإقامتها من قبل أناس نفعيين، أرادوا الاستفادة المادية، فتذرعوا بالوسائل الدينية، فانقاد لهم بعض العامة، وقد يكون أكثرهم ممن هو بحاجة إلى أن يروح عن نفسه بأي مظهر من مظاهر الحياة عمّا ألفه واعتاده من نظام حياته اليومية الممل المرهق دون أن تكون هناك بواعث نفسية حقيقية لما وراء هذا.

الأمر الثاني: أن العلماء ومثلهم الشباب يدركون ما تجره تلك الاحتفالات من مفاسد، فيتجه العلماء للتحذير منها، وقد يتخذ منها الشباب وسائل للهو والاسترواح، وممارسة بعض الأعمال الملائمة لحياتهم كالغناء وغيره. (المجلة العربية، جمادى الآخرة، ١٤١٦هـ).

(١) هو عبد الرحمن المحجوب، ولد بمكناسة في أرض المغرب سنة ١٠٢٣هـ، ورحل إلى بلاد الشام والروم وجاور بمكة، وكان له حظوة عند الأمراء وعامة الناس. أصيب بالفالج في آخر أيامه. كان يحب العلماء، ويحسن إلى الفقراء، توفي سنة ١٠٨٥هـ، ودفن بحارة الشبيكة بزاويته التي اشتراها (انظر الغازي، إفادة الأنام بأخبار بلد الله الحرام (مخطوط - جـ١ ص٥١٨).

الكريم، الذي يحيط به مصلى له قبة كبيرة في مقبرة المعلا[١]. أما اليوم الثاني عشر فهو مخصص للسيدة آمنة أم الرسول ﷺ[٢].

إن كلا الضريحين قد أقيم منذ فترة حديثة نسبياً، وعادة الاحتفال بهاتين السيدتين الكريمتين، لا يزيد عمرها على ٣٠٠ سنة فقط. وقبر السيدة خديجة رضي الله عنها أكثر شهرة.

ولا تمر إلا أيام قليلة من العام لا ترى فيها بعض النساء والرجال ينذرون لها بعض النذور بقصد شفاء بعض المرضى أو تحقيق بعض الرغبات، وقد ترى أشخاصاً آخرين يحملون الشموع والبخور إلى قبرها وفاء بنذورهم. وبجانب ضريح السيدة خديجة ضريح السيدة آمنة، والذي يضيء فقط من اللمعان المنعكس من الشمس على ضريح السيدة خديجة، غير أن رواده أقل بكثير من القبر الأول.

وفي كل أسبوع هناك يوم مخصص لقراءة الفاتحة على الأموات، حيث يقوم الناس بزيارة المعلا، وخاصة من لهم موتى في تلك المقبرة، ولقد

(١) إن السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ماتت في مكة، وقبرت في مكة. غير أن الجزم أن مكان القبر هو المكان الموجود في مقبرة المعلا أمر غير مؤكد، حيث إن بمكة العديد من المقابر في ذلك العهد. ويقول تقي الدين الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢هـ: «لا يعرف قبر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ في عهدنا سوى قبر أم المؤمنين ميمونة في سرف». وقد نقل ابن الضياء في كتاب البحر العميق في العمرة والحج إلى بيت الله العتيق عن المرجاني أنه في أول القرن الثامن رأى أحد الأولياء رؤيا، بأن الموضع الموجود في المعلا، هو قبر السيدة خديجة رضي الله عنها. وقد وصل الخبر إلى والي مكة فأمر بإقامة قبة فوق المقام. فالقبر الذي ينسب إلى السيدة خديجة لا يثبت أمام التاريخ، وإنما هي رؤيا الله أعلم بصحتها. والرؤيا لا يعتمد عليها من ناحية الجزم بأن هذا الموضع صحيح (انظر حمد الجاسر: الآثار في مكة المكرمة محاضرة منشورة ضمن أعمال اللجنة الثقافية بجامعة أم القرى عام ١٤٠٢هـ).

(٢) تعددت الروايات في المكان الذي دفنت فيه السيدة آمنة أم الرسول ﷺ، فيذكر ابن فهد في كتابه إتحاف الورى أنه في السنة السادسة من مولد الرسول ﷺ خرجت آمنة إلى المدينة تزور أخوال عبد الله بن عبد المطلب، ويقال تزور قبر زوجها عبد الله وعند عودتها إلى مكة أتتها المنية بإحدى قرى الفرع التي تدعى بالأبواء فدفنت هناك ويقال: إنها ماتت بمكة ودفنت في شعب أبي ذئب الخزاعي في الحجون، وقيل في دار رابعة بالمعلاة بثنية أذاخر، غير أن الرأي الراجح هو الأول (انظر ابن فهد) إتحاف الورى بأخبار أم القرى جـ١ ص٩٠).

كانت هذه الاجتماعات تؤدي إلى الكثير من المفاسد، الأمر الذي فرض حظراً على دخول الرجال للمقبرة منذ ظهيرة يوم الخميس وحتى غروب الشمس، بحيث تكون الزيارة في هذا الوقت للنساء فقط[1]، ثم تخرج النساء، ويقوم الرجال بالزيارة بعد ذلك.

إن المسلمين لا يذهبون إلى المقبرة بقصد البكاء، فالنواح في الإسلام ليس مشروعاً. وما يعمله الزائرون هو تنظيف القبر، ووضع بعض الزهور عليه. إن ما يحتاج إليه صاحب القبر هو الدعاء والاستغفار له، فهذه القربات ينال ثوابها الميت. والناس هنا يقومون بتوزيع الطعام على الفقراء في المقبرة، ويقرؤون شيئاً من القرآن. وفي المعلا نجد العديد من قارئي القرآن[2]، الذين يوهبون ثواب ما قرؤوا من القرآن لقاء مبلغ من المال، إلى كل من يذكر اسمه من الأموات. ونجد كذلك بائعي الخبز والمتسولين الذين يسألون الإحسان والصدقة. وإن الذي يريد أن يدعو لأحد الموتى أو أحد الصالحين قد يصطحب معه (فقيهاً) يقرأ له بعض الأدعية هناك.

إن النساء أقل انشغالاً بمثل هذه الأمور، وكذلك الحمالون الذين يحملون كل أصناف الحلوى والفواكه إلى سيداتهم اللواتي قدمن للحديث عما يجول في صدورهن عن الأعمال التي قمن بها خلال الأيام الماضية. وعندما تميل الشمس إلى الغروب، تتوجه هؤلاء النسوة ببطء شديد إلى بوابة الخروج في طريقهن إلى بيوتهن.

وبعد خروج النساء يدخل الرجال عادة إلى المقبرة، ويكون هؤلاء في الغالب هم الذين يحتفلون بالذكرى السنوية لبعض أقاربهم، وفي مثل هذه الذكرى توزع الهدايا الكثيرة والصدقات الجليلة. وقد يدعى بعض

(١) من الأمور الغريبة المنافية للشرع عادة زيارة القبور من قبل النساء، والرسول ﷺ يقول فيما يرويه أبو هريرة: «لعن الله زائرات القبور» (انظر صحيح الجامع الصغير للألباني حديث رقم ٤٩٨٥ ص٢٣ من المجلد الخامس). وهذه العادة هي من جملة البدع التي شاعت في تلك الأزمنة غير أنه ولله الحمد قد قُضِيَ عليها نهائياً في هذه الأيام.

(٢) قراءة القرآن عند القبور بدعة غير مشروعة إطلاقاً.

الأشخاص لحضور هذه المناسبة، ويمضي هؤلاء بعض الوقت في الدعاء والعبادة والاستغفار للميت. إن بعض الأشخاص يقومون بزيارة المقابر بعد صلاة الفجر، ومن لم يتمكن من ذلك، فقد يزور بعد الظهيرة.

إن المعلا في أيام الجمع هي منتزه أهل مكة، فهؤلاء لا يحضرون للحزن بل للبهجة والسرور، ويتفكرون هم أنفسهم بهذه التقاليد المحلية ـ تقاليد زيارة القبور ـ التي بلغت جملة ما جمع منها ٧٠ ألف ليرة ذهبية.

وفي الحادي عشر من كل شهر، يقوم الرجال باحتفال مهيب قرب قبر السيدة خديجة، حيث يتجمع بعض الناس، ويقرأ عليهم أحد السادة قصة المولد النبوي لقاء مبلغ من المال، ثم يتناول هؤلاء الطعام الشهي الذي يجلب إلى المقبرة. وتبقى الاحتفالات دائرة حتى منتصف الليل. وفي هذه المناسبات يجلس بعض الأفراد حول القبر، وتحت القبة، حيث يلمسون ويتشبثون بالأغطية والسجاجيد التي تعلو الضريح، والتي يصعب الوصول إليها ولمسها؛ لأن القبر محاط بقفص حديدي.

وهناك ترتيبات أخرى للأطفال، فالطعام والشراب في متناول اليد للأطفال على طول الطريق. وأمام المقبرة هناك الساحر الذي يعرض مواهبه وحيله، وعلى الرغم من أن رجالات مكة يمنعون أولادهم من رؤية ألعاب الساحر، إلا أن مثل هذه الألعاب محببة للأطفال.

أما الاحتفالات بالسيدة آمنة في اليوم الثاني عشر من هذا الشهر، فتشبه الاحتفال بالسيدة خديجة، إلا أن الناس لا يولون اهتماماً كبيراً بهذا الاحتفال، كالذي يولونه للسيدة خديجة.

لقد وصلنا مع أهل مكة حتى الشهر السابع (وهو شهر رجب) الذي كان حتى في الجاهلية شهراً معظماً، ولا يزال يحتفظ بأهميته بالنسبة لأهل مكة، وهناك يومان في رجب لهما أهمية خاصة.

الطريقة السنوسية

ففي اليوم الثاني عشر يقام اجتماع كبير في المبنى المقام على سفح جبل أبي قبيس. وهذا المبنى يعرف باسم (الزاوية) ولم يكن هذا الاسم معروفاً قبل عدة أجيال. إن هذا التجمع يشمل أفراد الطريقة الصوفية، التي لعبت دوراً دينياً

سياسياً بارزاً في أفريقيا، وفي الجزيرة العربية. وهذا الاجتماع الكبير هو الاحتفال بالذكرى السنوية لوفاة مؤسس هذه الطريقة. وفي مدن غرب الجزيرة العربية يقدر الناس كثيراً هذه الطريقة، وفي مناطق الحجاز المأهولة بقبائل حرب وغيرها من قبائل البادية تلعب دوراً بارزاً ومهماً؛ لأن هذه الطريقة نجحت في ضم بعض أفراد هذه القبائل إلى صفوف أتباعها. فأبناء الصحراء الذين لا يخضعون لأي سلطة، والمبتعدون كثيراً عن تعاليم الإسلام، قد وجد بينهم من يعتنق هذه المبادئ الصوفية، غير أن البدو عموماً لم يتركوا عاداتهم في السلب، ولم يخرجوا من جهلهم بتعاليم الإسلام.

إن الطريقة السنوسية تساهلت كثيراً في قبول المريدين من هؤلاء البدو، وهذا ساعد على دخول العديد من هؤلاء ـ ولا سيما من قبيلة حرب ـ مريدين في الطريقة الصوفية. ونجد على طول طريق الحج بين مكة والمدينة العديد من الزوايا لهؤلاء المريدين. وهذه الأماكن كثيراً ما تتعرض للهدم والتخريب نتيجة مرور (الإخوان) في أثناء موسم الحج، والذين يقومون بهدمها عمداً.

إن الدور الذي ستقوم به هذه الطريقة الصوفية في تاريخ الإسلام المستقبلي غير واضح الآن ١٨٨٥م. وإنما يكفي أن أذكر أن الاحتفال في ليلة الثاني عشر يكون بالذكر الجماعي وقراءة سيرة الشيخ. وفي الصباح تذبح الخراف، وتطبخ أكوام من الأرز، ويقدم طعام الغداء لجميع الحضور، الذين نالوا البركة في الدنيا والمغفرة في الآخرة.

ذكرى الإسراء والمعراج

منذ القديم واليوم السابع والعشرون من رجب مناسبة لأداء العمرة الرجبية. وفي هذا اليوم حدثت أحداث كثيرة في التاريخ الإسلامي. ففي مثل هذا التاريخ أسري بالرسول الكريم من مكة إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماء. وفي هذا التاريخ أيضاً جدد عبد الله بن الزبير بناء الكعبة ووسعها. أما بناء الكعبة فقد هدم من قبل الأمويين، أما الإسراء والمعراج فقد اعتراهما الكثير من الخرافات والأساطير، ولكن الذكرى بقيت لهذا اليوم، الذي أصبح مناسبة لأهل مكة. وعلى العموم فإن هذه المناسبة، التي يعلن عنها بطلقات المدافع بعد ظهر اليوم السادس

والعشرين، تشبه بكل تفصيلاتها احتفالات المولد النبوي. غير أن القراءة في هذه المناسبة لا تكون من سيرة الرسول الكريم بل تكون مركزة على قصة الإسراء والمعراج، التي تحوي حديث الرسول الكريم مع جبريل والأنبياء ومخاطبته ﷺ ربه، كما تحوي معلومات عن بعض المعتقدات الإسلامية واليوم الآخر.

وهناك عادة غريبة يمكن ذكرها عند أهل المدينة المنورة في ذكرى المعراج، وهي أنه بعد إتمام قراءة المعراج في المسجد، وعندما ينهي الخطيب القراءة والدعاء، ينهال عليه البدو ويمزقون جبته إلى قطع صغيرة، وإن سعادة هؤلاء تكمن في الحصول على قطعة من هذه الجبة.

ويعطي أهل المدينة المنورة تفسيراً سطحياً لذلك، وهو أن أحد الخدم في المسجد، والذي يقوم بقراءة المعراج دائماً، ينال نصيباً أوفر مما كان يناله صاحبه، الأمر الذي جعل زميله يغتاظ منه ويحاول الانتقام، لذلك أقنع هذا الرجل عدداً من البدو الذين يحضرون مثل هذه المناسبة، بأن بركات المولد لا تكون إلا لأولئك الذين يأخذون قطعة من جبة الشيخ، وبهذا انتقم الرجل لنفسه من خصمه، وقد بقي هذا التقليد شائعاً فيما بعد. ويمكن محاولة تعليل هذه الظاهرة على ضوء ما قدمه لنا (الهركوندن فلت) من أن بربر الريف[1] يقومون بتمزيق البرنوص (البُرنس) الذي يلبسه السلطان (غطاء الرأس) بجلال ووقار، ويأخذون هذه القطع الصغيرة منه، على أنها تعاويذ وتمائم تدفع الشر. ويمكن أن يلقي هذا التفسير ضوءًا على تصرف البدو في المدينة المنورة.

وعلى الطريق المؤدي من جدة إلى مكة، توجد هناك شجرة يقدسها أهالي المنطقة المجاورة، التي تحوي كل أنواع الخرق الملونة. ومن المعلوم أن عبادة الأشجار وتقديسها عادة جاهلية قديمة في الجزيرة العربية. والسؤال هو: لماذا كل هذه الخرق البالية على هذه الشجرة؟ والجواب عن ذلك يأخذ صوراً عديدة، فبعض الناس يقولون: إن هناك شيخاً مدفوناً تحت هذه

---

(١) Herr. M. Quendenfelt «Berber Zeit Schrit Fur Ethologic», 1888, P.112.

الشجرة، وإن ذلك من قبيل تبجيله. وفي رواية أخرى: إن هذه الشجرة هي شجرة الرضوان التي تمت تحتها بيعة الرضوان سنة ٦٢٨م (ذي القعدة ٦هـ)[١]. وهناك تفسير ثالث هو أن الرسول الكريم قد نشبت عمامته في الشجرة، فتمزق بعضها وعلق في الشجرة، ولهذا فإن الناس يعلقون هذه الخرق كذكرى لما حدث مع الرسول الكريم ﷺ.

المدينة المنورة في نظر المكيين

وتمثل المدينة المنورة في نواحٍ أخرى من حياتها خصائص قديمة لا توجد في مكة، ففي بعض السنوات هاج السكان هيجاناً شديداً؛ لأنه تم حبس امرأة بتهمة القتل حبساً مؤقتاً على ذمة التحقيق من قبل الحكومة التركية، وقد طالب السكان بتسليمها إلى القضاء المحلي، وفي النهاية قرر الباشا أن يستسلم للجمهور الذي تجمع حول بيته، فسلمهم المرأة كما لو لم يكن هناك قانون مكتوب في المدينة. وهناك معارضة شديدة في المدينة للهاتف. وإن كثيراً من أهل المدينة يتضايقون من وجودهم في مكة، لما يرونه من المخالفات والعادات السيئة.

إن قول أهل مكة صحيح من أن أهل المدينة يعيشون فقط للدين ومن أجل الدين، أما أهل جدة فيعيشون من أجل الدنيا، أما في مكة فيعيشون من أجل الدين والدنيا معاً. ومع أن أهل مكة يعترفون بحبهم للدنيا، ولكن إذا ما حصلت هناك مقارنة بين أهل مكة وأهل المدينة، نجد النتيجة في صالح مدينة الرسول ﷺ. لقد كان هناك نوع من التنافس بين مكة والمدينة أثار صراعاً كبيراً في القرن التاسع للميلاد، غير أن ذلك لم يعد له وجود الآن. ومنذ انفصال الحجاز اسمياً عن الخلافة، فإن المدينة أصبحت تابعة لمكة. ومع أن المكيين يشعرون أن مركز مدينتهم أعلى من مركز المدينة المنورة، إلا أنهم يظهرون تفضيلاً للمدينة على مكة بدون الحط من قدسية مدينتهم.

---

(١) من المستحيل أن تكون الشجرة المذكورة هي شجرة الرضوان؛ لأن الثابت تاريخياً أن هذه الشجرة قد قطعها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)؛ دفعاً لهذه البدع. غير أن الناس لم يتورعوا عن ذلك فيما بعد فاتخذوا لهم شجرة ربما كانت في المنطقة المجاورة للشجرة القديمة.

إن هذا الشعور يمكن تفسيره بالتوقير والتبجيل الذي يظهره أهل مكة لأهل المدينة، الذين لم ينحنوا لمتطلبات العصر. وتمتاز المدينة بأنها بعيدة عن البحر أكثر من مكة. أما موقعها الثقافي فهو بين مكة وداخل الجزيرة. وحب المكيين للمدينة المنورة، يكمن في حبهم لرسول الهدى، الذي ووري جثمانه في ذلك التراب الطاهر قبل ١٣٠٠ سنة. وبدلاً من الدخول في خصام مع أهل المدينة، كما كان يحدث في السابق حول من هي أفضل مكة أم المدينة؟ فإن أهل مكة دائماً يظهرون ميلهم وحبهم للمدينة المنورة. ويقترن ذلك بوجود قبر الرسول الكريم. وعلى الرغم من أن الرسول ﷺ قد لعن اليهود والنصارى، لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، إلا أن عادة زيارة الأضرحة والقبور انتشرت انتشاراً كبيراً بين صفوف المسلمين، حتى إن قبره ﷺ أصبح هدفاً لهذا النوع من البدع. وباستثناء البقاع التي تقع تحت تأثير دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، فإن البدع والضلالات قد شوهت مفهوم العبادة بتقديس وعبادة الأولياء وأصحاب القبور.

وعندما يتحدث أهل مكة فيما بينهم، ويدور الحديث عن المدينة، تجد الجميع يمتدحون ذلك المكان. فأهل المدينة محظيون بوجود قبر الرسول عندهم، واللحم عندهم ألذ من أي مكان آخر، والسمن والحليب ميسور ومتوفر، وهناك أربعون نوعاً من التمر، يؤتى بها من المناطق المجاورة. إن أخلاقهم دمثة وكرمهم لا يوصف، كما يتناول المكيون في أحاديثهم عن المدينة بعض الخوارق أيضاً، مثل: أن رجلاً من أهل مكة كان يقضي في كل عام بضعة أسابيع في المدينة أورد أنه في مساء كل جمعة وعند غروب الشمس تقف بعض الحمائم على قبة القبر لتحيي الرسول وتطير في الهواء.

وإذا حدث أن قرئ المولد في أحد بيوتات مكة، فإن القارئ يقاطع دائماً بصوت أحد الحضور قائلاً: يا رسول الله يا مدينة[1]. وإذا كان هناك أحد المنشدين لا يسمح له بالمغادرة، حتى يقول قصيدة جميلة في مدح الرسول ﷺ فيها الحنين إلى زيارة المدينة، والسلام على النبي هناك. إن

(١) الاستعانة بغير الله شرك أكبر.

قلبي معلق بك يا رسول الله، ولكنني مثقل بالذنوب والمعاصي. وإن مثل هذه القصائد تهز المشاعر وتدمع عيون السامعين.

والمرأة المكية يكتنفها السرور حينما يسمح لها زوجها بأداء فريضة الحج، فالنسوة يعتبرن ذلك فرصة للقاءات الاجتماعية، كالتي تكون عند قبر الشيخ محمود. وتسر المرأة المكية أكثر بالذهاب إلى المدينة للسلام على الرسول، والصلاة في مسجده الكريم، حيث تستجاب الدعوات وتحصل البركات.

وحتى شريف مكة الحالي يعزو نجاحه ضد أنصار الوالي العثماني عثمان باشا إلى استجابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لدعواته عند قبر الرسول الكريم.

وبينما تسير القافلة الأخيرة إلى المدينة في رجب تقل بعض المتأخرين من الحجاج الأجانب، وتضم نساء مكة وأولادها الصغار، يقوم شبان مكة في هذا الشهر بركب سَريع إلى المدينة المنورة.

إن سكان مكة عندما يقومون بزيارة المدينة خلال شهر رجب يقسمون أنفسهم إلى مجموعات تبعاً إلى أحياء المدينة (حاراتها)، كل مجموعة لها رئيس يقال له: شيخ الركب. والترتيبات لمثل هذه الزيارة تستغرق وقتاً طويلاً، ويعد لها منذ وقت مبكر. والذين لا يملكون الجمال لهذه الرحلة يقومون باستئجارها، أو باستئجار بعض الدواب، وخاصة الحمير. إن هؤلاء المسافرين يلقون الكثير من المتاعب الشديدة، وكل منهم يحاول أن يسبق الآخرين، سواء من مكة إلى المدينة أو بالعكس، وإن من يتخلف أو يتأخر يتعرض لسخرية الآخرين.

وإذا صادف أن كانت العلاقة بين القبائل القاطنة على طول طريق المدينة والحكومة متوترة، فإن الرحلة إلى المدينة تؤجل. أما في الأحوال العادية فالحراسة جيدة على الركب في الطريق، حيث أعداد المسافرين كبيرة، وهؤلاء في الغالب من الرجال الأشداء الذين يتحملون المشاق، وليس معهم إلا الأشياء الضرورية.

وبالإضافة إلى كل ذلك فجميعهم يحملون السلاح. وليس هناك من فائدة للبدو من غزو هؤلاء. وفي خلال أربعة أو خمسة أيام يقطع هؤلاء ما تقطعه القافلة خلال عشرة أيام أو اثني عشر يوماً. وفي المدينة يأتي أصدقاء هؤلاء للسلام عليهم. ويبقى الركب في المدينة بضعة أيام، حيث يقوم أفراد الركب بالسلام على الرسول، وزيارة بعض الأماكن هناك، ثم يواصل هؤلاء السفر إلى مكة، حيث يستقبلون بالبهجة والسرور. وسنناقش في الفصل الثاني كيف يستقبل أهل مكة أفراد الركب والقافلة عند العودة من المدينة إلى مكة.

وفي نهاية هذا الشهر تبدأ مجموعات الحجاج بالوصول. وفي شعبان يزداد عدد الوافدين من الحجاج. إن هؤلاء الحجاج يحرصون على صيام رمضان في مكة المكرمة، ثم الذهاب مع القافلة إلى المدينة قبل الحج. إن الخامس عشر من شعبان[1] هو يوم مهم جداً بالنسبة للعالم الإسلامي. في ليلة الخامس عشر تكتب أعمال الناس للسنة القادمة. وإن الاعتقاد بأن أعمال الناس مكتوبة في اللوح المحفوظ منذ الأزل، لا يمنع الناس من أن يصوموا هذا اليوم ويقضوا ليلته في العبادة والدعاء، بقصد أن يمحو الله بعض خطاياهم. أما بالنسبة للأولاد والنساء فهذا اليوم هو عيد يحتفى به. إن الرجال الصالحين يقضون تلك الأمسية بقراءة القرآن في المسجد، فبعد صلاة العشاء يتجمع الناس في حلقات صغيرة، حيث يقوم أحد الأشخاص بقراءة دعاء النصف من شعبان. إن جميع الحجاج القادمين يحضرون هذه المناسبة دون استثناء. ويقوم مساعدو المطوفين بعمل الأدلاء لهؤلاء الحجاج، ويتلون لهم الدعاء الخاص بهذه المناسبة. وقد شاهدت بنفسي أحد هؤلاء المساعدين الذين يطمحون في يوم من الأيام إلى أن يصلوا إلى مرتبة المطوفين، يقضي أياماً في استظهار وحفظ دعاء النصف من شعبان، كي يتلوه أمام الحجاج الذين يتولى إرشادهم.

إن بعض ما يقال في دعاء النصف من شعبان: يا الله إذا كنت كتبت في كتابك أنني غير سعيد أو فقير فامسح اللهم بعنايتك ذلك عني يا كريم.

---

(١) الاحتفال بليلة النصف من شهر شعبان بدعة دينية لم يرد فيها أثر أو حديث صحيح. وكذلك الأدعية والقراءات التي تتلى في تلك الليلة.

وفي هذه الليلة تضاء أنوار المسجد بصورة أكثر من الأيام العادية، بالإضافة إلى أن القمر يكون في تلك الليلة بدراً. وفي اليوم التالي تفتح الكعبة للجمهور.

رمضان في مكة

وفي النصف الثاني من شعبان يبدأ الحديث عن شهر الصيام رمضان، الذي يكون قاسياً في مدينة مكة الشديدة الحرارة. وهناك نكتة تقال للأطفال في العشرين من شعبان، وهي: أن الشيخ رمضان قد بدأ رحلته مع القافلة القادمة من المدينة، وسيكون في مكة بعد عشرة أيام. وفي كل يوم يقطع الشيخ رمضان مسافة، ويصل إلى مكان يسمى للأطفال، وفي نهاية المطاف يبقى الأمر غير مؤكد، فيما إذا كان سيصل في يوم أو يومين؛ لأن بداية شهر الصوم تعتمد على رؤية الهلال، أو على إكمال شعبان ثلاثين يوماً فيما لو لم ير الهلال.

وقبل بداية رمضان يحاول بعض الأفراد أن ينظف معدته، وذلك بأن يتناول شربة أو مادة مسهلة للمعدة، تحضر من قبل الطبيب بموجب وصفة، يختص بها ويحتفظ بها سرية في العادة، ومع أن العلاجات تباع بالثمن إلا أن الشربة يعطيها الدكتور مجاناً.

إن المدافع تكون على أهبة الاستعداد لتعلن بداية شهر الصوم. وبعد سماع العيارات النارية تصبح الأسواق أكثر حياة، حيث تجد باعة المواد الغذائية يتفننون في صناعة أطباق الحلوى الرمضانية، التي يقبل عليها الصائمون للتحضير لوجبة السحور، لأول يوم من أيام الصيام حيث يبدأ الجوع والعطش.

إن شهر رمضان هو شهر العبادة، فحتى أولئك الذين ليس لديهم الحماس الديني في غير شهر الصوم يجهدون أنفسهم بالعبادة والقربات لينالوا رضى الله تعالى. أما الأتقياء فتزيد عبادتهم وتقربهم إلى الله ـ تعالى ـ بالطاعات وأعمال البر. ويمكن أن نأخذ فكرة واضحة عن الحياة في رمضان، وذلك بوصف الأعمال التي يمكن القيام بها خلال ٢٤ ساعة، وستبدأ قبل غروب الشمس بقليل، حيث يعتبر الغروب حداً فاصلاً بين يومين.

إن صحن المسجد غطي بالأشرعة لتفادي حرارة الشمس، ويترك جزء بسيط فقط مفتوحاً لأشعة الشمس. ومع هذا فإن الممرات الممتدة من الأروقة إلى صحن المسجد تكون شديدة الحرارة، بحيث ترى المرء يرفع قدمه بين الفينة والأخرى، باحثاً عن مكان أقل حرارة يضع قدمه عليه. وترى في صحن المسجد وتحت الأروقة العديد من الوعاظ يجلسون، وحولهم العديد من الرجال، يستمعون إلى محاضراتهم التي تعالج شؤون الصوم المختلفة. أما المحاضرات العادية في الحرم فتتوقف في رمضان؛ لأن المسجد يكون مزدحماً بالناس. وكذلك فإن المدرسين والطلاب لا يستطيعون مواصلة الدروس في مثل هذه الأجواء الحارة.

إن الذي يرى الوعاظ في المسجد في أثناء إلقائهم الدروس في رمضان، يرى طبقة بيضاء على شفاههم وألسنتهم، تنبئ عن صعوبة الموقف في أوقات ما بعد الظهيرة. وكذلك الحال بالنسبة للمستمعين إلى هؤلاء، حيث ترى آثار التعب والإرهاق بادية على وجوههم. الأمر الذي يدل على صعوبة استمرار هذا النوع من الدروس، بدون وجود الماء الذي يطفئ ظمأ هؤلاء. إن كل الغرباء الذين يفدون إلى مكة لقضاء بضعة أيام من رمضان، يمضون وقتهم في التنقل بين الأروقة، ليحصلوا على شيء من الظل.

وقبل المغرب يبدأ الزمازمة بالخروج من الخلاوي، ويقومون بفرش السجاجيد والحصر في الأماكن المخصصة لزبائنهم، فوق الحصى في صحن المسجد، أو بين أروقة الحرم، وقبل مد السجاجيد يضعون الدوارق التي تحوي الماء البارد، بمعدل دورق لكل خمسة أشخاص. وقبل أن يجلس الأشخاص البارزون في أماكنهم المخصصة لهم، توضع بعض الدوارق الخاصة، التي تحوي الماء المحلى أو ماء المطر أو ماء العيون، وذلك حسب ذوق الجالس ورغبته.

ونجد الجماهير المحتشدة من الصائمين تدخل إلى المسجد خلال أبواب الحرم التسعة عشر[1]، وكل واحد من هؤلاء يحمل حقيبة صغيرة، أو سلة

---

(١) بعد التوسعة السعودية الأولى للحرم المكي الشريف أصبح عدد الأبواب (٦٤) باباً. وبعد التوسعة السعودية الثانية، أصبح عدد الأبواب الحالية (٩٥) باباً.

مليئة بالخبز والتمر والزيتون والتين. والأثرياء من هؤلاء يدخلون إلى المسجد يتبعهم عبيدهم الذين يحملون على رؤوسهم أطباقاً معدنية ثقيلة مليئة بأنواع الطعام.

إن جميع القادمين إلى المسجد قد أخذوا أماكنهم بانتظار لحظة الإفطار. وذلك حين يصعد (الريس) إلى الطابق العلوي الذي يحيط ببئر زمزم، ويلوح بعلم إلى القلعة التي ينتظر فيها بعض الجنود لإطلاق المدافع إيذاناً بالإفطار. ويسمع المرء الآن من كافة أرجاء المسجد دعاء خاصاً، كما يسمع أصوات شرب الماء من الدوارق الخاصة، وكذلك قرقعة صحون الطعام وما إليها. وفي هذه الأثناء يرتفع الأذان من على المنارات السبع[1] الموجودة في المسجد، يؤدي بعدها الناس صلاة المغرب.

إن هذه الفترة قصيرة، لذلك تحذف المدائح التي تعقب الأذان، وتكون الإقامة مباشرة بعد الأذان، ويصطف الناس للصلاة خلف إمام الأحناف، الذي يتخذ مكانه بجوار المقام.

إن المرء في العادة يصلي خلف إمام مذهبه. غير أن الشريعة الإسلامية لا تمنع من أن يقوم الناس بالصلاة خلف إمام من مذهب آخر، لا بل تمنعهم من أداء الصلاة خلف إمام مذهبهم إذا كان ذلك يؤخر أداءهم للصلاة عن موعدها.

إن تعيين أئمة لكافة المذاهب الأربعة في الحرم، وقيام هؤلاء الأئمة بصلاة الفريضة بالتتابع، ليس مرده إلى فروق بين الأحناف والشافعية والمالكية والحنابلة في أداء الصلاة، فالصلاة واحدة وجميع هؤلاء يعيشون سوياً في مكة. إن السبب في ذلك مرده إلى أن مكة مدينة مقدسة لجميع المسلمين دون استثناء، وليست ملكاً لأهل مكة، أو لأي أسرة من أسرها، لهذا كان من المستحيل أن يُستثنى أي من هذه المذاهب أن يمارس صلاته

---

(١) أصبح عدد المنائر الآن تسع منائر: اثنتان فوق باب الفتح واثنتان فوق باب العمرة واثنتان فوق باب الملك عبد العزيز واثنتان فوق باب الملك فهد ومنارة واحدة على الصفا.

على قدم المساواة مع غيره من المذاهب. ومع هذا فإن المذهبين الحنفي والشافعي لهما مزايا خاصة لظروف سياسية خاصة.

وبعد أن ينهي إمام الحنفية الصلاة، يتقدم إمام الشافعية ليؤم الناس لصلاة المغرب ثانية، ويصطف خلفه من وصل متأخراً من أصحاب الأعمال، ومن هم على شاكلتهم، ممن لم يتمكنوا من أداء الصلاة مع الجماعة الأولى، وكلما كان عدد الصفوف خلف الإمام كبيراً، كثر عدد المكبرين الذين يرددون خلف الإمام كلمة الله أكبر، كي يسمع جميع المصلين الذين لا يرى غالبيتهم الإمام ولا يستطيعون سماعه.

وبعد أن ينهي إمام الشافعية الصلاة، يقوم شيخ المؤذنين من مقام الأحناف بترديد بعض المدائح لمدة ربع ساعة (وتسمى هذه بالرواتب). وهذه تكون في صلاة المغرب فقط؛ لأن الصلوات الأخرى يكون بعدها بعض القصائد النبوية التي تقال بترنيم خاص بعد إقامة الصلاة[1].

إن الأشخاص الذين لا يؤدون الصلاة باستمرار، تجدهم في هذا الشهر يصلون على الأقل صلاة المغرب في المسجد الحرام. والأشخاص الذين كانوا يصلون الفرائض فقط، تجدهم يصلون النوافل أيضاً، ويطيلون الركوع والسجود في صلواتهم. وبعد الصلاة يذهب الناس إلى بيوتهم، حيث تكون الزوجة والأولاد بانتظار رب الأسرة، لتناول طعام الإفطار سويّاً. إن الطعام الذي يؤخذ في المسجد، هو عبارة عن أكل خفيف، يقصد به مجرد الفطور. إن اللحم هو وجبة الإفطار التي تثير الشهية. وهذا النوع من اللحم يختار بعناية، ويكون في العادة من الأنواع السمينة، ويوضع عليه الليمون أو الخل.

إن الذين يبقون في البيت بعد الإفطار هم الكسالى فقط؛ لأن الكل يذهب إلى العمل أو إلى المسجد لأداء صلاة العشاء، وحتى أولئك الذين يصلون في بيوتهم، يذهبون إلى المسجد في هذا الشهر لأداء صلاة العشاء.

---

(١) لقد أصبحت الصلوات الآن تقام في جماعة واحدة وانتهت مظاهر الفرقة المذهبية التي كانت سائدة آنذاك.

إن المنارات وكل بقعة في المسجد تضاء بالقناديل، وكذلك صحن المسجد توضع به القناديل على ارتفاع ١،٥ متر، وبعد الانتهاء من الصلاة يتجمع الناس جماعات جماعات تتراوح أعدادها بين ١٠ إلى ١٠٠، وأحياناً ١٥٠ شخصاً، بجانب أحد القناديل لصلاة التراويح، ويصطف هؤلاء، ويتقدم أحدهم ليؤم الناس لصلاة التراويح، وهي عشرون ركعة في الغالب. وخلف كل إمام من هؤلاء مكبر يردد كلمة الله أكبر خلف الإمام، لينبه المصلين بمتابعة الإمام بالسجود والركوع، وكذلك يشعر الناس ببداية الصلاة قائلاً: صلاة التراويح أثابنا وأثابكم الله، وبعد كل أربع ركعات يقرأ بعض الأدعية. إن هذه التجمعات تتكون في العادة من الأصدقاء أو من المريدين التابعين لطريقة ما، وكل هؤلاء جاؤوا بدافع الصلاة والعبادة. وهناك بعض التجمعات التقليدية، يكون أعضاؤها من رجالات الشريف الأعظم، ويكون لها إمام خاص بها، يؤتى به كل عام ليقوم بصلاة التراويح، وحتى في بعض الأحيان يقوم الزمزمي بدور إمام التراويح، حيث يصطف خلفه من يجلسون بجواره عادة. إن هذا لا يعني أن هذه التجمعات مغلقة على أشخاص محدودين، بل هي مفتوحة لكل من يريد الالتحاق بالصف. وهناك قاعدة عامة هي أن كل شخص يحاول الإبقاء على مكانه طوال الشهر.

وفي النادر أن تجد أحد الأشخاص لا يصلي التراويح مع أنها ليست شرطاً من شروط رمضان، وهي ليست إجبارية بل هي اختيارية، غير أن الناس يؤدونها وكأنها إجبارية، وإن أئمة التراويح هم أئمة فقط لهذه المناسبة، وحتى حينما يقوم أئمة الحرم بصلاتها، فإنهم يصلونها كغيرهم بدون صفة رسمية.

وتختلف مدة صلاة التراويح بين إمام وآخر داخل المسجد، فبعض الأئمة تكون قراءته قصيرة وسريعة بحيث لا تستغرق الصلاة سوى ١٠ ـ ٢٠ دقيقة، في حين نجد آخرين وخاصة الشبان (١٢ ـ ١٥ عاماً) الذين حفظوا القرآن، وأجادوا حفظه وقراءته، وهم على أبواب حياتهم العملية، يقرؤون

كافة القرآن في خلال الشهر المبارك[1]. وفي مكان آخر نجد فقيهاً مشهوراً يقرأ القرآن بصوت جميل، وينهي قراءته خلال الشهر، إلا أن الوقت المخصص لصلاة التراويح يكون طويلاً أكثر من أولئك، وذلك لتأني الأخير في القراءة، وعدم الإسراع، ومراعاة أحكام التجويد والترتيل.

وبين الفينة والفينة تتكون مجموعات جديدة تقوم بالصلاة، وهؤلاء في العادة ممن لديهم أعمال يمارسونها بعد العشاء، وبعد الفراغ من أعمالهم يأتون إلى المسجد لأداء صلاة التراويح، التي قد تستمر إلى قرابة منتصف الليل، ولهذا نجد المسجد في مثل هذه الليالي مزدحماً بالناس.

وهناك بعض الأشخاص الأتقياء الذين ينامون قليلاً بعد صلاة التراويح، ينهضون بعدها لقراءة القرآن والذكر والعبادات الأخرى، مثل هذه الجهود التي يقوم بها هؤلاء تتم بالممارسة اليومية لهذا النوع من الأعمال التعبدية.

إن المكيين في رمضان ينامون قرابة نصف النهار وربما أكثر، وهذا يساعدهم كثيراً على السهر بعد التراويح. فالليل هنا يحل محل النهار لأداء جميع الأعمال. حيث يستقبل المرء ضيوفه في هذه الليلة، وفي الغد يقوم هو نفسه بزيارة بعض الأصدقاء، وفي الليلة التي بعدها يذهب مع أصدقائه إلى المقهى بجوار المروة. غير أن هناك نفراً قليلاً من أصحاب الأعمال يضطرون إلى العمل نهاراً، ولهذا لا يجدون الفرصة للنوم نهاراً، ولا إلى الحياة الاجتماعية ليلاً.

إن الأتقياء من أهل مكة والكثير من المجاورين والحجاج القادمين، يستغلون الليل بأداء مهمات أخرى، ألا وهي القيام بأداء العمرة المفضلة في

---

(١) من المعروف أنه في صلاة التراويح لا بد من قراءة الفاتحة وبعض آيات من القرآن ويعتمد طول الصلاة وقصرها على الإمام نفسه. وفي عام ١٨٨٥م كان أحد الأئمة الذين يؤمون الناس في التراويح سريعاً جداً، حتى إن المصلين أطلقوا عليه اسم (البابور)، وحينما يقرأ الإمام كامل القرآن، يحتفل المصلون في نهاية الشهر بختم القرآن وتوزع بعض الحلوى بهذه المناسبة. وفي مثل هذه المناسبة تقدم للإمام هدية، عبارة عن جبّة، يقدمها المصلون له. إن مثل هذه الأمور يحتفل بها في الليلة الأخيرة من الشهر المبارك (المؤلف).

رمضان. فعلى الرغم من أن شهر رجب هو الذي يكثر فيه أداء العمرة، كما أن الصيام في بعض أيام رجب مستحب، إلا أن العمرة يكثر أداؤها خلال رمضان. إن قليلاً من الناس، هم الذين يذهبون إلى التنعيم على أرجلهم ليحرموا من هناك، لكن الأغلبية يستأجرون الدواب لهذه الغاية، وإذا لم يكن هؤلاء من سكان مكة، فإنهم يذهبون مع دليل مرسل من قبل مطوفهم ليصحبهم ويرشدهم لأداء العمرة.

أداء العمرة

إن بعضهم يؤدي العمرة خلال الصباح، وبعضهم الآخر يؤديها بعد الظهيرة، غير أن الغالبية العظمى من الناس يؤدون العمرة في الليل. إن الطعام في الطريق إلى التنعيم غير متوفر، تلك الطريق الرملية والحجرية؛ لذا يقوم الأدلاء بإحضار الطعام لحجاجهم، بينما تعاني الدواب كثيراً في هذا الطريق. إن المقاولين والباحثين عن الربح يقومون بشراء الدواب في رمضان، بقصد تأجيرها للراغبين في أداء العمرة، ثم يبيعونها بعد ذلك بثمن زهيد. إن الذين ينالون منافع مادية من أداء العمرة، لا يتوانون أن يشجعوا الحجاج على أدائها، لينالوا نصيبهم من المنفعة المادية. وهناك بعض الأشخاص الذين يقومون بالعمرة يومياً[١]، في حين نجد بعضهم الآخر حينما يرى مشاق العمرة الأولى يكتفي بذلك.

التذكير

وبعد منتصف الليل بنصف ساعة، يعتلي المؤذنون منائر الحرم السبع ليقوموا بالتذكير أو الاستغفار، المكون تارة من الشعر (المدائح النبوية) وأخرى من النثر ولمدة ساعتين. إن الله سيغفر لأمة محمد، ولكن الله حذر المؤمنين، والليل الآن في نهايته، ويجب أن يُستغل ما تبقى منه بذكر الله والعبادة. وإذا استثنينا أولئك الأتقياء الذين يكثرون من العبادة والتهجد والقيام، فإن معظم المكيين حينما يستيقظون على صوت المذكر يقولون بعض الأدعية المعتادة، ويغيرون إلى الجانب الآخر، ويواصلون النوم.

---

(١) إن بعض الناس يؤدون العمرة في الأيام ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٢٩ من رمضان، التي تقع في إحداها ليلة القدر (على الرغم من أن ليلة القدر غير معروفة في أي منها وقد ذكرها الله في رمضان، دون تخصيص لها بيوم ومن المرجح أنها في العشر الأواخر منه) (المؤلف).

التسحير

وبالإضافة إلى التذكير هناك التسحير، وهو الدعوة إلى تناول وجبة السحور قبل الإمساك عن الطعام، والتذكير في العادة يبدأ قبل ثلاث ساعات من الفجر. ويعتبر التذكير إيذاناً بالاستعداد للسحور. والسحور أساس ومستحب بالنسبة للصائم، وقد ورد عليه تأكيد في الأحاديث النبوية.

أيها النائمون اصحوا. اذكروا الله الذي سخر الرياح. إن جيش الليل قد انسحب، وجيوش الصباح تشعشع. أسرعوا بالشرب فقد حان موعد الصباح. ويستمر المؤذنون بترديد ذلك، وبعد ساعتين ينهون بالأذان الأول، ويطلق عليه (الأذان الأول)؛ لأن الذي يرغب في أداء الصلاة جماعة لديه متسع من الوقت لمدة ساعة، بحيث يلبس ويأكل شيئاً من الطعام، ثم يذهب إلى المسجد. وبعد نصف ساعة من الأذان الأول، يعلن المؤذنون من على المنائر قرب بدء وقت الفجر، وهذا يسمى «تتفيه» وهو الاسم الشعبي لهذا النوع من التحذير، بحيث لا يفاجأ المتسحرون ببدء وقت الإمساك، بحيث يتفلون ما في أفواههم من طعام أو شراب. وقبل التتفيه بساعة تجد المسحرين يقرعون طبولهم أمام البيوت بطريقة تقليدية تساعد على إيقاظ الناس. وفي نهاية رمضان يزور هؤلاء المسحرون هذه البيوت، وغالباً ما تكون الزيارة في يوم العيد، لينالوا شيئاً من الهدايا والأعطيات، حيث يعطيهم بعض الناس نقوداً وبعضهم الآخر حبوباً، وبعضهم يعطيهم صدقة الفطر كذلك.

المسحرون

وبعد نصف ساعة من التتفيه يعلن المؤذنون النداء للصلاة. يسبقه في العادة (الترجيم) لمدة عشر دقائق. وهذا الترحيم موجود طوال العام. إن بداية هذا الترحيم، وكذلك بداية التذكير، وكذلك الأذان لصلاة الفجر، هي بدايات التوقيت لأهل مكة، ففي الترحيم يسأل الناس الله سبحانه وتعالى الرحمة، والمرء يطلب هذه الرحمة من الله العظيم.

المطاوعة

وفي الوقت نفسه يمر خلال الشوارع الرئيسة من المدينة بعض الأشخاص المتطوعين الذين لم يعينهم أحد، ولا يطلبون على ذلك أجراً، ويقفون على كل جانب من جوانب الطريق، ويستعجلون النائمين بقولهم: «الصلاة يا

عباد الله»، ويقولون ذلك بصوت عال، وبعض هؤلاء يتبعونها بأدعية، وصيغ أخرى يراد بها تنبيه النائمين إلى الصلاة. وهناك العديد من الناس في مدن الجزيرة العربية يسمعون النداء، ولكنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا في وقت متأخر، وفي هذه الحالة يستفيد هؤلاء المتأخرون من وجود أربع صلوات متتالية تقام في المسجد على المذاهب الأربعة. وصلاة الفجر الأخيرة تؤدى من قبل إمام المذهب الحنفي، ومن لم يدركها فقد تأخر كثيراً في القدوم إلى المسجد.

الصلاة على المذاهب الأربعة

ونجد في الصلاة الأولى التي يؤديها إمام الشافعية الأتقياء الحريصين على أداء الصلوات في وقتها، وكذلك أصحاب الوظائف المعينة التي تفرض عليهم مظهراً معيناً، وكذلك أصحاب الأعمال التجارية الحريصين على أداء الصلاة مبكرين بغرض الإسراع إلى متاجرهم وأعمالهم.

والأذان للفجر يأتي بعد الترحيم، وقبل شروق الشمس بقرابة ساعة ونصف. والأذان عبارة عن النداء إلى الصلاة بكلمات مخصوصة واردة في الأحاديث دون تبديل أو تغيير، يقولها المؤذن بصوت عال. وهناك فهم خاطئ عند بعض الأوربيين وهو أن الأذان يجب أن يكون بلحن معين أو نغمة خاصة، وهذا لا أساس له، فالعبرة بلفظ كلمات الأذان بصورة صحيحة ولا عبرة للترنيم الذي يقوم به المؤذن.

وهناك عادة موجودة في مكة، وقلما تحدث، وهي إذا صادف أن كان الجو غائماً وقت الأذان يؤدى الأذان بأنغام مثيرة حتى تنجلي الغيوم وتظهر زرقة السماء. والأذان في مكة كقراءة القرآن يحرص المؤذنون على أدائه بدقة، وهو فن رفيع لا يتأتى للكثيرين.

وبعد الأذان يبدأ الناس بصلاة السنة، وكذلك يصلون ما شاء الله لهم أن يصلوا حتى تقام الصلاة من فوق مقام الحنفية، حيث يتقدم إمام الشافعية باتجاه مقام إبراهيم ليؤم الصلاة الأولى.

وحينما يزدحم المسجد بالحجاج يقف الحنفية والشافعية بجوار الكعبة، حتى يسمح للعديد من الحجاج باستغلال المكان، وفي أيام الجمعة في

الغالب يقرأ الإمام سورة السجدة؛ ليتمكن المصلون من أداء السجود، ثم يواصل الإمام بعدها القراءة، ويتم الركعة الأولى والثانية، منهياً صلاة الفجر.

وبعد أن يؤدي إمام الشافعية الصلاة الأولى، يبادر أولئك الذين يعملون إلى عملهم، حيث الوقت المفضل للبيع والشراء في الصباح الباكر، وخاصةً أصناف اللحوم والحليب والخضروات والخبز وما إليها، إذ ليس من السهل الحصول عليها بعد الظهيرة.

وبعد أن ينهي إمام الشافعية الصلاة، يتقدم إمام الحنابلة، يتلوه إمام المالكية، وفي النهاية يأتي إمام الأحناف، الذي يكون جمهور المصلين خلفه أكثر من جمهور إمام الحنابلة والمالكية، غير أنه في العادة أقل من جمهور إمام الشافعية، وبهذا تنتهي صلاة الفجر. وقبل شروق الشمس يقوم الذين ليس لديهم أعمال خاصة بالطواف حول البيت وتقبيل الحجر الأسود[1]. أما المعارف والأصدقاء فيتجمعون ويتحدثون بعد الصلاة، ثم ينصرفون إلى بيوتهم، حيث لا نرى بعد ساعة في أروقة المسجد سوى العلماء والطلاب والحجاج والأدلاء الذين يرافقونهم والأغوات والزمازمة. والزيارات التي يمكن أن تتم في أي وقت خلال النهار لا يمكن القيام بها خلال رمضان، إلا إذا كانت لسبب ملح للغاية.

العمل في رمضان

إن المحلات التجارية ومحلات الأدوات المنزلية والملابس تفتح في العادة للحجاج فقط، ولا يرتادها من أهل مكة سوى من ينسى أن يحضر حاجته قبل الصيام. ولهذا فإن حركة الأعمال التجارية تصاب بالركود حتى قرابة نهاية الشهر، حيث تعود الحركة والنشاط للأعمال التجارية. فكل الناس يبدؤون بشراء الحنطة، من أجل توزيع صدقة الفطر. وكذلك يبدؤون ـ غنيهم وفقيرهم على السواء ـ بشراء الملابس الجديدة من أجل

---

(١) إن الطواف هو جزء من الحج والعمرة. ويمكن أن يكون الطواف مستقلاً وهو أمر مستحب، والحجاج في الغالب يقضون طوال وقتهم في الطواف، أما أهل مكة فالأتقياء منهم يطوفون مرتين إلى خمس مرات، أما الأشخاص العاديون فيقتصرون على طواف واحد قبل صلاة الجمعة. (المؤلف).

العيد. صحيح أن كثيراً من المكيين لديهم ملابس خاصة، لا تلبس إلا في الأعياد والمواسم فقط، ومع هذا فإن هؤلاء لا بد لهم من شراء بعض الملابس لهذا العام.

إن رجال الحرف المختلفة لا يعملون أيضاً في رمضان، ومن يعمل من هؤلاء هم أبناء مكة الأصليون، الذين اعتادوا على العمل في الحر منذ الصغر، فهؤلاء يقومون ببعض الأعمال الخفيفة خلال هذا الشهر.

أما المتسولون فيكفون عن العمل صباحاً في رمضان، ويمارسون مهنتهم بعد الظهيرة، حيث يحصلون على كميات إضافية من الطعام، حتى من أولئك البخلاء الذين تجود أنفسهم في رمضان؛ لذا يرجع هؤلاء المتسولون بأوعيتهم مليئة بالطعام. وفي المحلات التجارية المظللة بالأشرعة، يجلس البائعون والتجار الذين ينادون على المارة لإقناعهم بالشراء. إن أصوات هؤلاء في رمضان أقل ارتفاعاً مما في سواه، نتيجة ما يعتريهم من الإعياء بسبب الصوم. أما في المقاهي التي لا تقدم أي شيء خلال أوقات الصوم، لا تجد إلا بعض الأشخاص النائمين على المقاعد الخشبية. أما المتجولون في السوق بغرض الفرجة، والذين يشكلون في العادة جزءًا كبيراً من رواد الأسواق، فلا نجد لهم أثراً. إن كل من يأتي إلى السوق في رمضان يعرف بالضبط ماذا يريد. لذا لا نجد أثراً للصخب والصراخ والنكات التي يلقيها البائعون في غير هذا الشهر الفضيل. وبالمقابل نجد هؤلاء يرددون أهازيج أو عبارات تشيد برمضان وتدعو للصائمين. بارك الله لك أيها الصائم، فإن الجنة هي مأواك. (الله وليّك يا صايم)، وبعضهم الآخر يضيف بعض العبارات التي يشتم منها رغبة هؤلاء بانقضاء رمضان بسرعة، كي يتمكنوا من ممارسة أعمالهم التجارية بأرباح وفيرة (يا رمضان ليمنحك الله القوة كي تهرول).

إن معظم أبناء مكة الموسرين يحملون معهم ساعات توقيت. وعندما يؤذن المؤذن لصلاة المغرب، يخرج كل منهم ساعته من جيبه، ويضبطها على الساعة الثانية عشرة. أما الغالبية العظمى فليس لديهم تصور لساعات

النهار بمعنى الساعة ٢، ٣، ٤ وهكذا. إن مفهوم الوقت مبني على أساس تقسيم النهار إلى خمسة أوقات هي أوقات الفرائض. أما الليل فينقسم إلى ما سبق وذكرناه من التذكير والترحيم. وهناك تقسيمات أخرى فرعية، فهناك نوبتان موسيقيتان يومياً أمام مقر الشريف الأعظم، وكذلك هناك مواقع الشمس في كبد السماء. أما الحديث عن الدقائق فأمر غير وارد هنا بالتأكيد.

وحينما يحين موعد صلاة الظهر والعصر يرتفع الأذان لكل منهما، يعقبه ولمدة عشرين دقيقة أدعية ومدائح نبوية وتذكير بالأئمة الأربعة، ثم تؤدى الصلوات على المذاهب الأربعة، حيث يبدأ إمام الأحناف ثم الشافعية، ولكن هذا الترتيب ليس شرطاً أساسياً؛ لأنه يخضع لكثير من التغيير والتبديل. وحينما لا يكون هناك حجاج فإن جمهور المصلين في هاتين الفريضتين يكون قليلاً نسبياً. إذ إن بعض المكيين لا يجدون حرجاً في أداء الصلاة في بيوتهم لهاتين الفريضتين. وإذا كان هناك بعض الأشخاص النائمين في الشارع، أو الذين لا يريدون أن يصلوا، فلا تعدم أن تجد من ينبههم إلى ذلك بقوله: «ألا تسمع الأذان يا شيخ؟ إنه وقت الصلاة». ولهذا فإن الناس ينامون في بيوتهم إلى وقت متأخر من النهار، حيث يقومون بعدها لتجهيز أنفسهم للإفطار.

عيد الفطر

وبالحماس نفسه الذي استقبل به المكيون شهر الصوم، ينتظرون رؤية هلال شوال، الذي هو نهاية رمضان؛ إذ يتجمع في المسجد ليلة التاسع والعشرين جمع غفير من الناس، وكل منهم ينظر إلى السماء بهدف رؤية الهلال، الذي يؤذن بانتهاء الصوم، وفي حالة رؤية الهلال يسري الخبر إلى كل بيت في المدينة كسريان النار في الهشيم. وتجد في كل جوانب الشوارع الجمع الغفير من الخدم، الذين ينظفون السجاد (ضربه بالعصا لإخراج الغبار منه)، ويضعون اللمسات الأخيرة في تنظيف البيوت. وفي كل مكان نجد الناس يقومون بتجديد ما تلف من النوافذ. ونجد السوق مليئاً بالناس الذين يتجولون هنا وهناك لشراء حاجاتهم التي تأخروا في إحضارها حتى آخر لحظة. إن رب الأسرة بهذه المناسبة يقوم بشراء الملابس الجديدة لجميع أفراد عائلته، بما فيهم الخدم، كما يشتري الحلوى

والعطور لزواره، كما يقوم بإبدال بعض حاجات المنزل القديمة بجديدة، كما أنه يذهب إلى الحلاق. وفي محل الحلاقة أو حتى في الشارع العام تجد العديد من الناس الجالسين على مقاعد، وعلى ظهر كل منهم كوبان من أجل الحجامة. إن كل مكي حتى ولو كان مصاباً بفقر الدم عليه أن يقوم بالحجامة مرة في كل عام على الأقل، لإخراج الدم الزائد. ويحب الناس أن يقوموا بهذه المهمة في يوم العيد، حيث يشعرون بالنشوة بعد هذه العملية.

أما في المنزل فإن أعمال الطبخ تكون جارية على قدم وساق، كما تزين بهذه المناسبة غرف الاستقبال، كما تعد غرفة أخرى واسعة بجانبها لطعام الإفطار الذي يبدأ بعد صلاة العيد مباشرة.

ولأداء صلاة العيد يتوجه المصلون إلى المسجد عند شروق الشمس، كي يتمكنوا من الحصول على مكان مناسب لهم، وهناك العديد من المصلين الذين لا يتركون المسجد بعد أداء صلاة الفجر بانتظار صلاة العيد. إن المرء ليعجب كثيراً بمنظر الداخلين إلى المسجد، وهم يرتدون ملابس العيد الزاهية الجميلة. إن الطبقة الوسطى في هذا اليوم تظهر بمظهر مختلف عن الأعياد العادية، حيث يلبس هؤلاء الملابس الجميلة. وبعد نصف ساعة من شروق الشمس، ينادى لصلاة العيد، التي هي عبارة عن ركعتين يعقبها خطبة العيد.

وتختلف صلاة العيد عن صلاة الجمعة، التي تأتي الصلاة فيها بعد الخطبة، الأمر الذي يترتب عليه بقاء جمهور المصلين انتظاراً للصلاة، في حين نرى في صلاة العيد أن الخطبة تأتي بعد الصلاة، حيث تصلى ركعتا العيد أولاً، ثم يعتلي الإمام المنبر، ولما كان الكثير من الناس لا يحرصون على سماع الخطبة، فإنهم يبدؤون بالخروج من المسجد، الأمر الذي ينجم عنه هرج شديد، لا يساعد على سماع الخطبة أو الإصغاء إليها، ولا سيما أنه في الأحوال العادية، وفي غياب مكبرات الصوت لا يسمع الخطبة سوى عشر المصلين، فالمصلون في الصفوف الخلفية يبادرون أولاً بالخروج، ثم يتوالى الناس في الخروج، حتى لا يبقى مع الإمام سوى أعداد قليلة. وهذا

اليوم هو يوم سعادة وسرور، يحاول الناس مقارنة شهر العيد في هذا العام مع الأعوام السالفة، كما يتحدثون فيه عن الملابس الثمينة التي يلبسها هذا الرجل أو ذاك. إن مقارنة الحاضر بالماضي، يقود بعض أبناء مكة إلى أحكام خاطئة عن حاضرهم، إنهم يقولون: «يبدو أن العالم كله يعاني من مجاعة، أو على حافة الانهيار من حيث الثروة والمال، ولهذا فإن الأمور الاقتصادية في مكة ستكون صعبة في هذا العام. أين الهنود الأثرياء الذين كانوا يرمون القطع الذهبية هنا وهناك؟ أين الجاوة المنفقون إلى حد الإسراف، الذين يحضرون ليوزعوا الهدايا والأموال؟ أين الأتراك الذين كانوا يحضرون الجمال المحملة بالتحف والهدايا؟ إن الحجاج اليوم يغنون سوياً بنغمة واحدة ليس لدينا نقود زائدة للإنفاق. انظر النتائج المترتبة على ذلك والتي تؤدي إلى العوز الدائم لأهل مكة».

إن المهرجين قبل ٢٥ عاماً لم يكونوا يسمحون لأحد بالمرور، حتى يوزع ملء يديه من النقود (خماسي من الفكة)؛ ولكن الآن لا يوجد مثل هذا التقليد؛ لأنه لا يوجد نقود. إن العيد في السابق لم يكن له بهجة إلا مع وجود نوع من الشجار بين أبناء الأحياء المختلفة (الحارات)، ولكن لا يوجد مثل ذلك اليوم، وحتى لا يمكن التفكير في مثل ذلك. والتاجر الذي يبيع الخيوط الذهبية والفضية، وكذلك صفائح الفضة التي تزين بها أثواب النساء متشائم وحزين، ولسان حاله يقول: في السابق كانت مثل هذه الأشياء تباع بالأكوام، والآن وبعد مشادة عنيفة حول السعر بيني وبين الزبون، يأخذ قطعة صغيرة من أردأ الأنواع بدريهمات قليلة.

إن الانطباعات السابقة لها أساس من الصحة، لكن هذا لا يمنع الناس من الاحتفال بالعيد بكل سرور وبهجة، ربما بملابس أقل تكلفة من ذي قبل، وبطريقة أقل تغطرساً واختيالاً، لكنهم مع هذا يأكلون ويشربون ويمرحون كما كان عليه الحال في السابق.

عيد الأضحى

ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى أن هذا العيد يقال له: العيد الأصغر، في حين عيد العاشر من ذي الحجة هو العيد الأكبر، ولكن نجد أن هذا العيد

في كثير من الأقطار أكثر أهمية من العيد الأكبر، ولا عجب في ذلك فالناس في هذا العيد يحتفلون بنهاية المصاعب خلال شهر رمضان، بينما عيد الأضحى، هو يوم راحة في وادي منى، بعد أداء شعائر الحج. ولكن لغير حجاج بيت الله الحرام المكيين لا يوجد ما يستدعى الاحتفاء والاحتفال بهذا العيد. ومن المعروف أن المسلمين جميعاً في عيد الأضحى، يصلون العيد ويستمعون إلى الخطبة، ويقومون بذبح الضحايا، لهذا يشبه إلى حد كبير ما يفعله الحاج في عرفة ومنى، ولكنه ليس له بهجة العيد التي في منى.

إن العديد من حجاج بيت الله الحرام في هذه المناسبة يجهلون الكثير من الأمور التي يجب عملها في العاشر من ذي الحجة، ففي نهاية ليلة الوقوف بعرفة أو صباح اليوم الثاني وهو العاشر من ذي الحجة، يصل الحجاج من عرفات ومزدلفة إلى منى. وهنا يذهل الحجاج لعدم معرفتهم ماذا عليهم أن يفعلوا. إن المطوفين ومساعديهم وخدمهم يجب أن يفرغوا حمولة الجمال، وينصبوا الخيام، ويحضروا الطعام، ويهيئوا كل ما يلزم لحجاجهم. وبجانب ذلك يقوم هؤلاء بشراء الأغنام من أجل الأضاحي والغذاء، وكذلك يرتبون أمر وجود الحلاق الذي يقوم بالحلق أو التقصير لمن يريد التحلل من إحرامه. وكذلك عليهم أن يرتبوا استئجار دواب للحجاج لنقلهم إلى مكة للطواف والسعي، حيث يعودون بعدها إلى منى ليقضوا فيها ثلاثة أيام، يرجعون بعدها إلى مكة.

إن بعض أهل مكة يحضرون معهم الكثير من الحاجات[1] بقصد بيعها في منى، وكذلك الحلاقون والقصابون لا يجدون متسعاً من الوقت للراحة، فهم في عمل دائم. إن القوانين التي تحدّد أسعار الحاجات يتوقف العمل بها. إن العديد من الحجاج يذهبون لمسجد منى (الخيف) لأداء صلاة العشاء، غير أن الكثير

---

(١) في مكة أسعار الحاجات الضرورية مثل الخبز واللحم والسمن وما إليها محدودة إجبارياً من قبل الحاكم (المحتسب أو مفتش السوق)، لكن التقاليد السارية خلال موسم الحج ألاّ يتقيد أحد بهذه التسعيرة، ويكون السعر خاضعاً للعرض والطلب، وهذا ما يسبب غلاء الحاجات، مما يترك أثراً سيئاً في الناس، غير أنه من جهة أخرى يساعد على الكثير من الربح، وخاصة لبعض المتنفذين. (المؤلف).

منهم يضل طريقه وسط الزحام ووسط الأعداد غير النهائيّة من الخيام، فقد يقضي المرء ساعات طويلة حتى يستطيع العودة إلى مكانه في منى. إن أحداً لا يستطيع أن يرافقهم في ذلك؛ لأنهم كلهم مشغولون بأمورهم الخاصة.

إن المسجد في منى لا يضم في العادة سوى أهل مكة وبعض الأشخاص الرسميين؛ لأن الحجاج لا يعرفون طريقهم إليه، بالإضافة إلى أن الحجاج يؤدون الصلوات في مجموعات صغيرة بجوار خيامهم. إن مدينة مكة في هذه الأثناء تكون شبه خاوية ومهجورة، ولا يوجد فيها البهجة التي تراها في أثناء عيد الفطر. وكذلك الحال في مختلف المدن، حيث يبدو العيد الصغير أكثر أهمية من العيد الكبير. ومع أن العيد الكبير يجلب للمكيين المتعة، ولكن يصاحبها تعب شديد نتيجة لأعمال الحج المختلفة، التي يتوجب عليهم القيام بها من أجل ضيوفهم وحجاجهم.

تبادل الزيارات بالأعياد

ولا يبقى بعد أداء صلاة العيد (المشهد) سوى القيام بالزيارات. إن الرجال الأحدث سناً يقومون بزيارة أقربائهم الأكبر سناً، ثم يزورون جيرانهم وأصدقاءهم وأساتذتهم. وفي العادة يذهب الرجل مع أصدقائه لزيارة أقربائهم ومعارفهم الذين لا يعرفهم هو شخصياً. إن الناس متواضعي الحال يزورون من يعملون عندهم، بقصد الحصول على هدية العيد (العيدية). ويسمع المرء في كل مكان عبارات التهنئة بالعيد: جعلكم الله من العائدين، كل عام وأنتم بخير، من المقبولين إن شاء الله. ويكون الجواب في الغالب: إن شاء الله نحن وأنتم وجميع المسلمين. وفي هذه المناسبة تقدم القهوة إلى الضيوف باستمرار وطوال الوقت، وعلى طبق جميل توضع ثلاثة صحون وعليها اللوز والعناب والحلوى المشكلة، ويقوم الضيوف بتناول ما يريدون منها، ثم يقوم المباشر بتغطية الصحون بقطعة جميلة من القماش، حواشيها مطرزة بخيوط ذهبية. وإذا صادف أن قدم المهنئون في وقت تقديم الطعام فلا يمكن للزائر مغادرة المنزل قبل أن يأكل شيئاً، وإذا تجمع عدد من المهنئين، يسارع رب المنزل إلى إحضار الشاي إليهم. إن مثل هذه الزيارات في العادة تكون قصيرة وسريعة، وعندما يهم الضيوف بمغادرة المكان، يأتي بالمبخرة أو المرش الذي يحوي ماء الورد ليتعطر الضيوف.

وفي بعض الأحيان يقدم المضيف طبقاً عليه لفائف مغموسة بزيت عطري نفاذ، حيث يقوم الضيوف بغمس أصبعهم في هذه اللفائف ومسحها تحت أنوفهم. وفي الغالب يكون تقديم العطر إشارة إلى السماح بالانصراف، وهكذا يتقدم الضيوف بالشكر على كرم الحفاوة، كما يقوم المضيف بشكر هؤلاء على تجشم المتاعب والقدوم إليه.

وفي الشوارع العريضة يلهو الأطفال بما يسمى المراجيح «المدارية»، وبجوار مكان ميلاد علي بن أبي طالب، نجد أبناء حام يلعبون كذلك. أما المرأة فلا تخرج خارج المنزل؛ لأن عليها أن تقوم بتجهيز كل شيء يقدم إلى الضيوف والإشراف عليه. وهناك في الشريعة حث على صيام ستة أيام في شوال، غير أن القليل هم الذين يقومون بهذا الصيام، وهؤلاء هم الرجال الأتقياء، وكذلك بعض النساء اللواتي يقضين ما فاتهن بسبب الحيض، وقد تؤجل هؤلاء النسوة قضاء هذه الأيام إلى رجب.

إن مناسبة عيد الفطر تستمر في مكة إلى اليوم الثاني والثالث، حيث يقوم الرجال بمزيد من الزيارات للمعارف والأصدقاء، وكذلك يرتبون العديد من اللقاءات للسمر والاحتفال بمناسبة العيد. ومن بداية اليوم الرابع وحتى السابع من شهر شوال يأتي دور النساء في الاحتفال. فهؤلاء النسوة كن طوال الفترة السابقة مشغولات جداً بضيوف أزواجهن. أما الآن فغرف الاستقبال تحت تصرفهن، ولا يقتنع هؤلاء كالرجال بالجلوس لبضع دقائق ثم الانصراف، بل يجلسن أوقاتاً طويلة يشربن القهوة والشاي والشراب، ويتحدثن في مختلف المواضيع، ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل يتعداه إلى الخروج خارج المنزل بقصد النزهة والتسلية، حيث يقمن بما يسمى عند أهل مكة بـ (القيلة).

مظاهر الحياة في شوال

وفي خلال شهر شوال إذا كانت الظروف الأمنية مع البدو تسمح بالذهاب إلى المدينة، فإن القافلة الكبرى تذهب إلى المدينة. وأفراد القافلة هم الحجاج الذين وصلوا مبكرين، يصحبهم أدلاؤهم، والرجال المسنون من أهل مكة، وعائلاتهم، وأولادهم. وباختصار إن كل من لا يستطيع الذهاب في الركب

يسافر مع القافلة. وتستغرق القافلة قرابة شهر ذهاباً وإياباً. وفي العودة يحضر الزائرون لأقاربهم بجانب الدعاء لهم عند الرسول الكريم من الهدايا التي ربما تفوق هدايا الزيارة التي تتم في رجب؛ لأنه يسمح بحمل نصف الأمتعة الزائدة في هذه القافلة. وتتكون الهدايا في الغالب من التمر والدقة (مسحوق يغمس فيه السكان قطع الخبز) والمراوح المصنوعة من سعف النخيل، والتي تباع على جانبي الطريق من قبل النساء البدويات. والزوار إلى المدينة يحرصون على إحضار مكيال القمح (الصاع) المصنوع من الصفيح (التنك) أو الخشب، وهذا يعادل المد الذي كان الرسول ﷺ يستعمله. وفي العادة تجد اسم المالك مكتوباً على ورقة حمراء ملصقة على الصاع، ويستعمل أهل مكة، هذا المكيال الذي يعادل أربعة أخماس اللتر في كيل صدقة الفطر. إن هذه القافلة تقابل في أثناء العودة بالبشر والسرور.

ويوجد في هذه القافلة أحياناً بعض المكيين الذين يذهبون إلى المدينة لقضاء بعض الأعمال التجارية، ويغتنمون هذه الفرصة للزيارة والسلام على الرسول الكريم.

مظاهر الحياة في ذي القعدة

وفي نهاية شهر شوال، وبداية شهر ذي القعدة، تبدأ حمى الكسب عند أهل مكة، حيث يبدأ الحجاج بالوفود بأعداد غفيرة إلى العاصمة المقدسة. إن المنافسة الزائدة تجعل المطوفين يضرعون إلى الله أن يرسل إليهم المزيد من الحجاج الموسرين. وكذلك نجد هؤلاء يختلقون الأقاويل والمكائد لمنافسيهم في المهنة. إن هذا التنافس من أجل العيش بين هؤلاء يسهل الأمر للسلطات الحكومية أن تستولي وتسيطر على الجميع، حيث تسخر الدولة أحد هؤلاء ضد الآخر، حينما تريد إدخال أي تنظيمات تلقى بعض المعارضة من هؤلاء.

وإذا تعثر دفع الضرائب المستحقة لشريف مكة أو للوالي العثماني، فإن هؤلاء يقاسمون المطوفين وأصحاب الحرف المختلفة جزءًا من دخلهم. ويكون ذلك بأن يطلب من الحجاج في جدة التبرع بمبلغ من المال لصيانة أقنية الماء في مكة، أو لإنشاء قناة جديدة في المشاعر. إن المطوف الذي

لا يجبر كل أفراد الحجاج على الدفع، أو الذي يتغاضى عن بعض هؤلاء الذين لا يجدون مالاً يدفعونه يكون نصيبه الطرد من مهنته، وتعيين بديل له قادر على إجبار الناس على الدفع، وكما أن إعطاء رخص ممارسة المهنة (التقرير) لا تمنح إلا لقاء مبلغ من الربح المتحصل. إن كل من يدخل المهنة يحتاج إلى تزكية من قبل شيخ الطائفة، وكذلك من قبل زملائه في الحرفة، إلا أن ذلك لا يكون قانونياً إلا إذا صدّقت السلطات على ذلك. إن مثل هذا الحق القانوني يعطي للشريف السلطة بالتهديد بسحب رخصة المطوف، إلا إذا حمى نفسه بدفع مبلغ من المال. وحتى عهد قريب لم يكن من الممكن لشخص حصل على إجازة ممارسة الحرفة، أن تسحب الرخصة الممنوحة له إلا إذا أساء استعمالها، وفي حالة موته يخلفه أحد أفراد أسرته، الذي يتوجب عليه دفع مبلغ من المال أيضاً للسلطات، ليتمكن من الحصول على حق أبيه. إن أصحاب المؤسسات يتوجب عليهم دفع مبالغ من المال هدية لحاكم المدينة أيام الأعياد، أو حينما يريدون مقابلته لأمر من الأمور. وفي هذه الأيام (١٨٨٥م) يتبع أمير مكة والوالي التركي أساليب ابتزاز متنوعة لأفراد الحرف المختلفة في المدينة.

وعندما يشعر هؤلاء ـ الشريف والوالي ـ أن المطوفين يستغلون طائفة من الحجاج، أو بمعنى آخر يحصلون على أموال طائلة، يستصدرون أمراً بموافقة شيخ المطوفين، يتوجب فيه على هؤلاء المطوفين، تجديد الرخص الممنوحة لهم. إن هذا التجديد يكلف كل فرد من المطوفين مئات الدولارات تقتطع من دخله. وفي هذه الحالة يحصل شيخ المطوفين على بعض الامتيازات الخاصة به، بحيث يقوم بعمل خاص لحسابه، ولكن عليه أن يقتطع مبلغاً من هذا الدخل أيضاً إذا علمت السلطات العليا بهذا النوع من الدخل.

وخلال السنوات القليلة الماضية على سبيل المثال، فإن الرخص الممنوحة لشيوخ الجاوي، قد جددت مرتين، فمرة وجد أنه من الأفضل أن تغير الرخص الممنوحة لكل عناصر الجاوة، وتستبدل برخص خاصة تخص طبقات وفئات معينة من الحجاج، مثل القادمين من (بونتياناك أو القادمين من لامبونج وغير ذلك) يلتزم بها المطوف. وفي السنة التالية وجد أن هذا الترتيب لم يوقف

المطوفين البارعين والمخادعين من الاستئثار بكافة الحجاج، ولهذا حدث هناك ترتيب جديد لتقسيم جزر الهند الشرقية، وكما يقول الماليزيون المقيمون في مكة متفكهين: إن أقطار الملايو وضعت في المزاد. وإذا استثنينا بعض المطوفين ذوي النفوذ، فإن الذي يرسو عليه المزاد، هو الذي يدفع للسلطة أكثر من غيره.

إن أكثرية أفراد المهنة لم يكونوا راضين عن هذا التغيير، وإن عدداً من هؤلاء أبدى تذمره وسخطه، بينما فكر بعضهم في الثورة عليه. وهناك عدد قليل فقط ممن حبذوا هذه الخطوة، وهؤلاء على الرغم من الأسعار العالية المدفوعة لنيل رخص ممارسة هذه الحرفة، وعلى الرغم من كل صور الابتزاز الأخرى، فإن لديهم توقعات بزيادة دخلهم. ولسوء الحظ فقد اكتشفت السلطة أولئك الذين يريدون رفع عرائض إلى الباب العالي بهذا الخصوص عن طريق مخابراتها الخاصة. وإن قادة هؤلاء المعارضين قد اعتقلوا جميعاً. وباعتقال هؤلاء كان من السهل تطبيق القانون الجديد بدون صعوبة، ولمنع المعارضين من القيام بشكوى الشريف وأتباعه في إسطنبول أجبر جميع أبناء المهنة على توقيع عريضة إلى السلطان يشكرونه فيها على تعيين الحاكم الذي قام بإصدار هذا القانون الذي جاء وفقاً لآمالهم ورغباتهم. ولم يقتصر الأمر على الحاكم بل تعداه إلى شيخ الطائفة الذي فرض مبلغاً من المال على جميع أتباعه، نظير ما قام به من جهد في هذا المجال. وهكذا نرى أن ما في جيوب الحجاج قد بيع بثمن عال قبل قدومهم. وهذا يعني أن هؤلاء سيدفعون بالتالي كل ذلك وزيادة.

إن هذه الأمثلة تعطينا فكرة عن حمى الكسب التي تنتاب بعض العاملين في الحج. وكلما زاد عدد القادمين من الحجاج تغيرت ملامح الحياة العادية في مكة، وفي بداية ذي القعدة (الشهر الحادي عشر)، فإن الحاج لا يرى من أهل مكة سوى أناس شديدي الجشع والنهم، في حبهم للمال والغنيمة، في حين لا يعرف هؤلاء الحجاج أن هذا الكفاح المرير من أجل المادة، يستبدل بحياة اجتماعية فياضة بالجمال والحيوية. ويضاف إلى ذلك أن هؤلاء الحجاج

أيضاً لا يدركون أهمية المسجد الحرام على أنّه جامعة ومعهد علمي رفيع إلا إذا لبثوا فترة طويلة في مكة[1].

ولهذا السبب نجد أن كل المعلومات التي وصلت إلى أوروبا كانت من خلال ملحوظات وانطباعات الحجاج الذين لا يعرفون إلا ظواهر سطحية عن الحياة الحقيقية لأهل مكة، والتي لا يعرفها إلا من عاش مع هؤلاء وعاشرهم ونظر إليهم عن قرب ومن الداخل.

---

(١) علق الشيخ حمد الجاسر على حديث المؤلف عن المطوفين فقال:
وختم هذا الفصل بالحديث عن المطوفين، ولم يفته وصف بعضهم بالجشع، مع مشاركة والي مكة فيما قد يحصل عليه هؤلاء، مشيراً إلى حمى الكسب التي تنتاب بعض العاملين في الحج مضيفاً: (وفي بداية القعدة فإن الحاج لا يرى من أهل مكة سوى أناس شديدي الجشع والنهم، في حبهم للمال والغنيمة، في حين لا يعرف هؤلاء الحجاج أن هذا الكفاح المرير من أجل المادة يستبدل بحياة فياضة بالجمال والحيوية)، وأضاف إلى ذلك: (إن هؤلاء الحجاج أيضاً لا يدركون أهمية المسجد الحرام على أنّه جامعة ومعهد علمي رفيع، إلا إذا لبثوا فترة طويلة في مكة، ولهذا السبب نجد أن كل المعلومات التي وصلت إلى (أوروبا) كانت من خلال ملحوظات وانطباعات الحجاج الذين لا يعرفون إلا ظواهر سطحية عن الحياة الحقيقية لأهل مكة، والتي لا يعرفها إلا من عاش مع هؤلاء، وعاشرهم ونظر إليهم عن قرب وفي الداخل).
وكأن المؤلف بهذا الكلام أراد أن يوجد مبرراً لما وصف به أهل مكة، وما كان محقاً بهذا الوصف، فما كلهم بتلك الصفة، ولو فرض وجود فرد أو طائفة ممن يعنى بشؤون الحجاج ممن يبدو بذاك المظهر الذي وصف، فإن ما يبذله حاج ذلك الزمان بالنسبة لما ينال من خدمة ورعاية يعد ضئيلاً، ثم هو في الوقت نفسه قد أتى إلى هذه البلدة الطاهرة محتسباً للأجر، مؤملاً ما عند الله مترقباً إليه بما استطاع أن يقدمه من عمل صالح، فلماذا يستكثر ما يدفعه في هذا السبيل؟! ولا يفكر فيما سيجنيه من فوائد، ومكاسب، ومنافع عظيمة ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج، الآية: ٢٨] (المجلة العربية عدد جمادى الآخرة، ١٤١٦).

الفصل الثاني

الحياة العائلية في مكة المكرمة

نظرة أوربية خاطئة

إن من يرغب في إعطاء القراء الأوربيين صورة عن أوضاع الأسرة عند المسلمين يواجه أخطاء لها جذورها المتأصلة. فالأوربي يعتقد أنه في الركن الخلفي من البيت المسلم، يوجد سجن يعرف بالحريم، يحوي في العادة أربع نساء وعدداً لا يحصى من الجواري، يقمن بإشباع نزوات سيدهن، وعندما يخرجن من هذا السجن بين الفينة والفينة، لا بد أن يرتدين الحجاب المكثف. وتتأكد هذه المفاهيم والتصورات عند الأوربيين، من خلال مطالعاتهم لكتب الرحالة، الذين زاروا المناطق الإسلامية. ولما كان هذا الجزء الجوهري من حياة المسلم بعيداً عن متناول مثل هؤلاء الرحالة، كما أن هؤلاء لا يحصلون على معلوماتهم من مصادر دقيقة، فإن النتيجة هي أن الأوربيين يحملون انطباعاً غريباً، مؤداه أن المسلمين يحتفظون بمثل هذه الأمور بسرية تامة. وما يراه هؤلاء هو مجرد تلك الأشكال المحجبة، على الرغم من أن مثل هذه الأمور المتعارف عليها في ديار الإسلام عموماً ليست من أصول التشريع الإسلامي.

الحريم

إن كلمة الحريم في مكة لا تعني ذلك الجزء من الدار بل تعني النسوة أنفسهن. فعندما يتحدث الرجل عن حريمه، فإنه يعني زوجته وجواريه والنساء الأخريات اللواتي يعشن في منزله. ولا يوجد في العادة في المسكن المكي جزء خاص من المنزل تحجز فيه النساء كما يتصور الأوربيون، لكن حيث تتواجد النسوة يكون للزائر قدر بسيط من الحرية في الإذن له بالدخول، وهذا يشبه إلى حد كبير الدخول إلى حجرات النوم من قبل

المعارف والأصدقاء بالنسبة إلى الأوربيين. ولما كان الزائر لا يعرف مكان تواجد النسوة، فعليه أن يتخذ دليلاً من أهل المنزل عند الدخول إليه.

إن أصدقاء الزوج لا يعرفون الكثير عن العلاقات المنزلية لصديقهم. وقد يقومون بزيارته مرات عديدة دون أن يعرفوا ما إذا كان متزوجاً، أو كم عدد الجواري التي لديه، أو من هن النسوة اللواتي يشاركنه السكنىٰ في المنزل.

التزاور الأسري

وفي حالة التجار الأثرياء، والمسؤولين الكبار، فإن عائلات هؤلاء يتزاورون، ويشاهد بعضهم بعضاً، ولكن الجنسين يبقيان منفصلين دون اختلاط. وهناك حالات لا يسمح فيها للزوجة بزيارة بعض الناس، حتى لا تتأثر بالأحاديث الدائرة في مجالس النساء. والمكيون في الغالب لهم بجانب البيت الكبير المخصص للسكنىٰ، والذي يحوي المحل التجاري أو المكتب بعض الغرف الصغيرة أو (الصنادق) التي تجلس فيها النساء، ولهذا فإن الزائر يكون بعيداً تمام البعد عن الاختلاط بالنساء.

وعندما تكون الصداقة قوية بين شخصين مثلاً، فإن ظروفهم العائلية تكون مدار حديث بينهما. وإذا صادف وبحثت مثل هذه الأمور، فإنها تبحث وتناقش بصراحة تامة، وبدون تحفظ إلا في الخصوصيات الخاصة، والتي في العادة يتحفظ الناس في الحديث عنها، وفيما عدا ذلك فإن الحديث عن هذه الأشياء، يشبه إلى حد بعيد حديثنا ـ نحن الأوربيين ـ عن التبغ أو عن المشروب.

مشاركة المرأة في الحديث

وعند عامة الناس، والطبقة الوسطى بشكل خاص، يجلس الرجل مع ضيفه في غرفة الاستقبال (المجلس)، وتجلس المرأة في الغرفة المجاورة. ويصادف أحياناً أن الباب الذي يفصل بينهما غير مغلق بإحكام، وحتى في حالة إغلاقه هناك فتحات وشقوق في الأبواب، تنجم عن جفاف الخشب نتيجة لشدة حرارة الشمس، يمكن من خلالها الرؤية، وإذا ما عرف الشخص أن ضيفه مهذب وعينه مملوءة (لا ينظر بشهوة إلى محارم غيره)، فإن المرأة قد تشارك في الحديث من خلال مكانها في الغرفة الأخرى، أو

من خلال وجود ستارة أو حاجز بينهما، وفي بعض الأحيان يمكن للزوج أن يزيل هذه الحواجز تماماً.

وفي حالة العلاقات الاجتماعية بين الرجال والمحارم، وكذلك في حالة العبيد، فلا حظر على الاختلاط. وهذه الاستثناءات تفشو في مكة على أوسع نطاق حتى تشمل الأقارب مما ليسوا بمحارم، وكذلك الأرقاء المحررين، إذا كان هؤلاء موثوقين ومستقيمين، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأصدقاء الذين تربطهم علاقة وثيقة بالأسرة، يمكنهم في بعض الأحيان أن يختلطوا بامرأة الزوج، ويقدموا للزوجة على أساس آباء أو أبناء أو إخوة. وبالطبع فإن الزوج يفعل ذلك في حالة جزمه التام بعدم وجود صلات سوء في ذلك؛ لأن إزالة مثل هذه الحواجز التي تفصل بين المرأة والرجل الأجنبي قد يسبب علاقة مريبة، الأمر الذي يتسبب في مشكلات بين الزوجين تنتهي عادة بالطلاق. إن السبب الرئيس في هذه التحفظات في العلاقات بين المرأة والرجال الأجانب مرده إلى أن الروابط الزوجية غير وثيقة في الزواج الإسلامي[1]؟! وحينما يكون هناك ثقة بالأجنبي، وعدم خوف من العلاقات

---

(١) لقد جانب المؤلف الصواب حينما ذكر أن الروابط الزوجية في المجتمع الإسلامي غير وثيقة. والذي يستعرض واجبات وحقوق الزوجين في الشرع الإسلامي، يدرك أن مثل هذا الكلام غير صحيح (المترجم). لقد علق محمد عبد الله مليباري رَحِمَهُ اللهُ على هذه الفقرة في جريدة الندوة في ١٠ رمضان ١٤١١هـ فقال: «الزواج ذاتية تشريعية قاعدتها الحب الأخوي الكبير الذي يجمع كل مسلم في رابطة عقدية وتشريعية. أما الحب الفردي فإن ميزته تكتمل كلما تقدم المجتمع الإسلامي المتآخي، وهو حب يفقد تفرديته تناسبياً بقدر توثق الصلات الأخوية الدينية، وحب الزوج لزوجته أساس لرابطة حب أسرتين أو شعبين أو قبيلتين، وإن كان التخلي عن خليلة عند الغربي أكثر صعوبة، فإن الارتماء إلى أحضان الخليلة، وهجر الزوجة لحرمانية الطلاق في المسيحية أسهل بكثير من التخلي، وحتى احتضان ولد غير شرعي من الخليلة وصمة من وصمات ما يسميه الغربي بالحب، والواقع أنه ليس حباً يشد أزر المجتمع، ويقوي آصرة أفراده بل هو حب يقضي وَطَرَ نزوة نفسية شهوية.. وهو الحب الذي افتقده هورخرونيه في مكة». لقد أخطأ المؤلف في حكمه هذا على الزواج في الإسلام، وسبب ذلك على ما يبدو هو إباحة الطلاق في الإسلام وتحريمه في المسيحية. لكنه لم يوفق في استنتاجه هذا؛ لان الطلاق إن أُبيح في الإسلام، فقد أُبيح للضرورة وعندما يستحيل استمرار الحياة الزوجية. أمّا تحريمه في المسيحية فهو تحريم شكلي إذ يتم الانفصال بين الزوجين، وتنتهي بينهما جميع مظاهر الحياة الزوجية وإن لم يتم الطلاق بصورته الرسمية.

المشبوهة، فإن حجاب المرأة، والحواجز التي تفصل بين الرجال والنساء تخف تماماً، وعندما يتأكد الزوج من عدم إمكانية قيام مثل هذه العلاقات، تزول الحواجز نهائياً، غير أنه ينجم في الغالب عن هذا الانفتاح بعض العلاقات التي ربما تتطور إلى عمل محرم، لا يقره الشرع. وفي مثل هذه الحالة يحرص من يقوم بهذه العلاقات المشبوهة على إخفائها؛ لأنها تعدّ زنى محرماً، وعملاً غير أخلاقي.

أما في الطبقات الفقيرة فإن العلاقات الاجتماعية نفسها تسود بين أفرادها، غير أن هناك حرية أكبر بين الجنسين، حتى إن الحديث ممكن بين الرجال والنساء إذا استدعت الضرورة ذلك.

إن أبناء مكة حينما يستفسرون عن المرأة بقصد الزواج، يعرفون عنها من خلال أقاربها من النساء، أو من خلال الوسيطات (الخاطبة). إن المرأة سواء كانت بكراً، أو مطلقة، أو أرملة، تثقل كاهل من يعولها من أقاربها، إلا إذا كان هؤلاء من الأثرياء، وهناك بعض النساء اللواتي يتزوجن وفي نيتهن عدم استمرارية هذا الزواج. وفي مثل هذه الحالة تحصل المرأة على مهر متفق عليه، بالإضافة إلى السكن المناسب والطعام واللباس. وإذا كان الزوج مقتدراً فيشتري لها خادمة أو صبياً يكون تحت تصرفها. وحتى النساء الغنيات يرغبن دائماً في عقد مثل هذا الزواج، حتى يتخلصن من تأثير استغلال أقاربهن لثرواتهن. ومثل هؤلاء النسوة في العادة يتنازلن عن حقوقهن[1]، ويساعدن الزوج، الذي يقوم بحماية حريتهن، ولا سيما أن لهن الحق في أي وقت في طلب الطلاق، وإنهاء عقد الزوجية، وفي كل هذه الأحوال لا بد من مساعدة الوسطاء في ترتيب أمور مثل هذا النوع من الزواج، الذي يعطي للمرأة الحرية في طلب الطلاق في أي وقت تشاء.

---

(١) التنازل عن الحقوق يكون في الموافقة الشفوية، ولكن لا يمكن إثبات ذلك في إجراءات العقد؛ لأن من صحة شروط العقد أن ينفق الرجل على المرأة، ولا يجوز مخالفته، والشيء المثبت في العقد هو حرية الزوجة في الانفصال متى أرادت (العصمة بيدها)، وعلى هذا فالزوج لا بد أن يكدح حتى يؤمن لنفسه ولزوجته النقود، في حين ليس له الحق في أخذ فلس واحد من أموالها. (المؤلف).

ومن هنا فإن بعض هؤلاء النسوة يتزوجن مرات عدّة، قد تصل إلى عشرات المرات.

إن المتسولات من النساء الكبيرات في السن، وكذلك من المعتوهات لا حرج عليهن في الخروج بدون حجاب، وكذلك اختلاط الأبناء والبنات دون سن الثامنة أو العاشرة أمر متعارف عليه في مكة. والزواج المبني على الحب يكون من خلال اختلاط هؤلاء الصغار. وبعد أن تتحجب الفتاة لا يعدم الشاب الوسائل التي تشعرها أنه لا يزال على حبها، ويقوم بعض الوسطاء بنقل مشاعر الود إليها، ومن ثم في النهاية يحاول إقناع أسرته بالتقدم لها وطلب يدها لتكون زوجة له.

تعدد الزوجات

بعد أن أتينا على موضوع الحريم، دعنا نتحدث قليلاً عن تعدد الزوجات بالنسبة لمكة، وباقي بقاع العالم الإسلامي. إن الزواج بأربع نساء دفعة واحدة أمر نادر، ويقتصر على بعض الأثرياء جداً. وإن التعدد هنا في الغالب موجود في الطبقة العليا من المجتمع. وبجانب بعض الصعوبات التي تحول بين أفراد الطبقة الوسطى والفقيرة وتعدد الزوجات، فإن التكاليف الباهظة المترتبة على ذلك، هي تكاليف عالية لا يستطيعون الالتزام بها. وهكذا فإن الزواج بواحدة فقط هو السائد عموماً. والغريب في المجتمع الإسلامي ليس تعدد الزوجات، وإنما سهولة الطلاق بين الزوجين، وخاصة في مدينة مليئة بالأجانب مثل مكة. فالرجل يستطيع أن يطلق زوجته بدون سبب، وقد يكون السبب هو تقييد حرية الزوج من قبل أسرة الزوجة، أو لعظم النفقات التي وضعها في زواج ثان، أو ربما لما ترتب عليه من نفقة عند تسريحه لزوجة أخرى. وقد يكون السبب هو رغبة الزوجة نفسها في الطلاق. إن عقد العزم على الطلاق عند المسلمين هو أقل صعوبة مما يفعله الأوربي عندما يعزم على التخلي عن خليلته، حينما يشعر أن حياته معها تشبه الحياة الزوجية الدائمة. إن أي ارتباط بين الزواج أو الحب، وبين ديمومة الحياة الزوجية، لا يخطر بأي حال من الأحوال على بال الرجل المسلم[1].

---

(١) إن أساس الزواج في الإسلام هو ديمومة الحياة الزوجية، لا كما يقول المؤلف، من أنه لا =

ترتيب أمور الزواج

وعند الطبقة الراقية من المجتمع المكي، تقوم أسرة الزوج وأسرة الزوجة بترتيب الزواج لأبنائهم في سن مبكرة، من غير أن يكون هناك تعارف مسبق بين الزوجين. ومن النادر أن تكون هناك رغبة من الزوج في الزوجة، وإنما رغبة الأسرتين في المصاهرة. إن مثل هذه الزيجات هي أكثر الزيجات استقراراً ودواماً. غير أن هذا لا يمنع من أن يتزوج الرجل بعد ذلك امرأة أخرى، بجانب زوجته الأولى، أو ابنة عمه التي يمكنها البقاء معه، إلا إذا طلبت الطلاق أو ساءت سمعتها بين الناس، فإن الزوج يقوم بتسريحها. إن الطبقة الفقيرة في مكة لا يكثر الطلاق بين أفرادها أيضاً، وهي من هذه الوجهة ـ ديمومة الزواج ـ تشبه إلى حد كبير زواج الأقارب السابق الذكر. إن الطلاق لذوي الدخل المحدود يضيف مشكلات جديدة إلى المشكلات التي تعاني منها الأسرة حالياً. إن الغالبية العظمى من الرجال يتزوجون ويطلقون أكثر من مرة، من غير أن يجمع بين أكثر من واحدة إلا في القليل النادر.

طلب المرأة للطلاق

إن المرأة تستطيع هي الأخرى أن تطلب إنهاء الحياة الزوجية، فقد تتقدم إلى القاضي بطلب الطلاق، باعتبار أن زوجها يسيء معاملتها، أو أنه لا يستطيع أن يهيء لها مسكناً مناسباً، أو أن يقدم لها ما تحتاج إليه من طعام أو كساء، أو أن الزوج به عته أو جنون. وهناك حالات أخرى تشتري فيها المرأة نفسها منه بمبلغ من المال ليطلق سراحها. غير أن الزوجة إذا أرادت الطلاق، تخلق العديد من المشكلات التي لا يمكن للزوج الخلاص منها إلا بإطلاق سراحها.

بعض الشروط الزوجية

إن الشروط التي يضيفها أحد الزوجين إلى عقد الزواج، والتي يوافق عليها شفوياً الطرف الآخر، ليس لها صفة الديمومة والثبات، ويذعن لها في الغالب أحد الطرفين لفترة مؤقتة. فالزوجة مثلاً تتعهد بالتخلي عن المطالبة ببيت مستقل، كما توافق على السكن مع أقرباء الزوج في بيت واحد، وتتعهد

= يوجد ارتباط بين الزواج وبين ديمومة الحياة الزوجية. والدليل على ذلك أن عقد الزواج لا يجوز أن يكون لأجل محدد بل على التأبيد، وحتى إن عدم حب الزوج لزوجته ليس شرطاً موجباً لفك ديمومة الحياة الزوجية. ولنا في قول عمر رضي الله عنه: «أعلى الحب وحده تبنى البيوت؟».

بأن تقوم بكافة أعمال البيت وأعبائه، غير أن أمثال هذه التعهدات ليس لها صفة قانونية، ومع هذا فإن الرأي العام يرى ضرورة الالتزام بهذه الشروط، ويجيز للطرف الآخر اتباع كافة الوسائل لضمان استمرار هذه التعهدات. إن المرأة لا تعرف من الشروط الأساسية للزواج إلا ما كان محبباً لنفسها، وتخلق الأعذار الكثيرة التي تساعدها على تحقيق ما تريد. فإنْ كانت حالة زوجها المادية موسرة فلماذا لا تصاحبه في أداء فريضة الحج. وإذا كان لا يسمح لها بالحج، فلماذا لا يعطيها الأموال التي سينفقها فيما لو رافقته إلى الحج. ويكون الرجل في نظر المرأة بخيلاً وحتى شريراً، إذا لم يسمح لها بالذهاب سنوياً لزيارة ضريح الشيخ محمود، وزيارة المدينة المنورة، وعلى الزوج أيضاً أن يقبل بين الحين والآخر أن تذهب زوجته لزيارة صديقاتها في إحدى الأمسيات، أو أن تدعوهن إلى بيتها. وعلى الرغم من أن مثل هذه الأمور هي كمالية، وليست أساسية، إلا أن المرأة المكية تطالب بهذه الأمور على أنّها حق تقليدي من حقوقها، وليس من حق الزوج أن يغضب من تنفيذ ذلك، أو أن يمنعها من ممارسته، حتى لا يفاجأ الزوج بزوجته وهي تتلو عليه الآية: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة، الآية: ٢٢٩] تلك الآية بجانب سورة الفاتحة، هي كل ما تعرفه المرأة من كتاب الله الكريم.

ومن التقاليد المرعية في مكة، هو حق الزوجة بأن تطلب البقاء في مكة، على الرغم من أن زوجها قد يسافر إلى مناطق أخرى. والمرأة المكية تغتاظ كثيراً إذا أجبرت على مرافقة الزوج خارج مكة. إن هذا المطلب مبني في الغالب على قدسية هذا المكان التي تسبغ التقاليد الموروثة[1] المديح الجم والثناء العطر لكل من يسكنه. غير أن السبب الحقيقي يكمن في اعتقاد المرأة المكية في أنها في مسقط رأسها تتمتع بامتيازات لا تحلم بها في مكان آخر.

---

(١) قدسية مكة المكرمة ليست تقاليد موروثة كما يذكرها المؤلف بل هو ثابت بنص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص، الآية: ٥٧].

لقد كان من المفروض أن تضاف المرأة إلى قائمة المنتفعين من أعمال الحج، فالمرأة المكية تساعد زوجها في أعمال الحج. وقد تقوم بالعمل لحسابها. إن بعض الحجاج يقضون في مكة بضعة أشهر، بينما بعضهم الآخر يبقى في مكة بضع سنوات، وهؤلاء في العادة يحتاجون إلى الزواج، ولما كان هؤلاء يأتون إلى المدينة المقدسة وجيوبهم مملوءة، فإن الرغبة شديدة في تلبية طلبات هؤلاء في الزواج.

إن العلاقة بين العرض والطلب تتأثر بحجم حشود الغرباء في مكة من أجل الزواج، وكلما كانت المرأة جميلة، كان العائد أكبر. إن الرجل المكي لا يمكن أن يخدع بامرأة مكية، لكن الطلب على هؤلاء النسوة من قبل الغرباء، يمكن المرأة من الحصول على مغانم كثيرة، لا يمكن الحصول عليها بغير هذا السبيل.

الزواج النفعي

إن الأجنبي الذي يفكر في البقاء في مكة، تتدفق عليه عروض الزواج من كل جانب. وكيفما تكون أذواق هؤلاء الغرباء، فإن الوسطاء يمكن أن يوفروا لهم ما يريدون، وحتى لو أصر الخاطب على دفع مهر قليل، فهناك بالتأكيد أرملة متواضعة لا تعير بالاً للمال، وحتى لو أراد الاكتفاء بحفلة للزواج بسيطة تقتصر على بعض الأشخاص فإن له ذلك. وهناك بعض النساء اللواتي لا مانع لديهن من القدوم إلى بيت العريس مباشرة بعد إجراء عقد الزواج. وتقوم بعض هؤلاء النسوة بالتغرير بالزوج بعد بضعة أيام فقط من زواجه. فهؤلاء يبحثن عن نقاط ضعفه ليستفدن منها لأغراضهن الخاصة. وفي خلال نصف عام ينفق الزوج على شراء حاجات الزوجة ومتطلباتها، ما كان يعتقد أنه يكفيه لمدة عامين على الأقل. وحينما تفرغ جيوب الزوج تبدأ الزوجة بالتذمر، وتظهر الجانب السيئ من سلوكها، الأمر الذي يدفع الزوج بدون وعي إلى إطلاق سراحها، وإعطائها نفقة لمدة ثلاثة أشهر، تكون في خلالها قد وجدت بمساعدة أصدقائها عريساً جديداً، إذا لم تكن لديها الرغبة في أن تؤخر زواجها بضعة أشهر أخرى. وفي بعض الأحيان لا يسعفها الحظ، فتتورط مع أشخاص لا مال لديهم، فتكون الحصيلة مزيداً من المشكلات.

إن هذه الطريقة الرخيصة في الزواج، تقتصر على نفر محدود، ولا تشكل غالبيته. فهناك الزواج السعيد الذي تحدثنا عنه، والموجود لدى الأغنياء والفقراء على السواء. وما هذا الشذوذ الذي نراه إلا نوعٌ من التسري الرخيص. فالشريعة الإسلامية فيها تقاليد عريقة للزواج، وحقوق للزوج والزوجة، فعلى الزوج المهر والنفقة والمسكن والملبس وما إلى ذلك، وعلى الزوجة أن تسعد زوجها وتمكنه من نفسها وتحفظ ماله وتصون نفسها إلى غير ذلك من الشروط الواجبة عليها، وهذا في الواقع تصور سام، ومفهوم للزواج رفيع. وهذا المفهوم يتوافق مع التقاليد المرعية في الزواج عند أهل مكة. ولمزيد من اللذة والبهجة في العلاقات الزوجية التي يسعى إليها المرء منذ صغره، نجد أن أهل مكة حريصون على استعمال المقويات التي تزيد من نشاطهم الجنسي في أثناء الجماع.

إن كل موجودات المنزل هي ملك للمرأة، تشتريها من الصداق المخصص لها (المهر). وفي حالة الزواج الثاني تحضر المرأة الكثير من حاجات بيتها السابق إلى بيتها الجديد، الأمر الذي يؤدي إلى التساهل في المبلغ المخصص للمهر، والذي تشتري به المرأة مثل هذه الحاجات في العادة. أما المنزل فإنه في العادة ملك للرجل يشتريه أو يستأجره، ولا تعدم المرأة أن تجد الوسيلة المناسبة للخروج منه إلى بيت آخر إذا كان لا يلائمها، الأمر الذي يضطر الزوج إلى استئجار بيت جديد لها على نفقته الخاصة. وفي الصباح يذهب الرجل إلى السوق لشراء المأكولات اللازمة لذلك اليوم، بالإضافة إلى الحاجات الأخرى التي تخزن لفترة طويلة كالأرز والدقيق والسمن وغيره. أما إذا كان لدىٰ صاحب البيت بعض الخدم، فإنه يعهد إليهم بإحضار كافة الحاجات. وعند الموسرين يعهد إلى خادمة خاصة بالعناية بشؤون المطبخ. وإذا لم يكن لديه بعض الخدم، فإن المرأة هي التي تقوم بذلك، وقد يساعدها الرجل في بعض الأمور التي لا تتقنها الزوجة خاصة عند الولائم. وفي بعض الأحيان تبدي المرأة بعض التذمر خاصة وأن الرجل يأكل خارج البيت في معظم الأحيان، ومع أصدقائه في البيت أحياناً أخرى، مما لا يترك للمرأة الكميات اللازمة من الطعام. إن

شراء ملابس المرأة هو الذي يثير الخصام في الغالب بين الزوجين. إن أشكال الملابس تتغير في مكة كما هي الحال في أي مكان آخر. فإذا ما عرفنا أن المرأة لا تقتنع إلا إذا كان لديها العديد من أنواع الملابس المختلفة، التي ترتديها في المناسبات المختلفة ولا يعقل أن تظهر المرأة بلباس واحد دائماً أمام معارفها وصديقاتها، وإذا عرفنا أن الملابس النسائية هنا مطرزة حواشيها بالخيوط الذهبية والفضية، وقد تتعداه إلى حزام ذهبي تشده المرأة على وسطها، وكذلك على غطاء الرأس (المدورة) الغالي الثمن. إن كل ذلك يدخل الرعب إلى قلب الرجل؛ لأن ذلك يحتاج إلى نفقات غالية، يتوجب على الزوج دفعها وتأمينها. وإذا اعترض الزوج على هذه المتطلبات يوصف بالشح والبخل، أو يتهم بأنه ينفق نقوده على امرأة أخرى تزوجها سراً ولم يخبر زوجته عنها. إن غيرتها من المرأة الأخرى، تكمن في أن ذلك يحرمها من الهدايا والملابس والأشياء المادية التي تطلبها، الأمر الذي يحاول الزوج إزاءه أن يخفي زواجه الثاني أطول مدة ممكنة. ولا يوجد هنا في مكة شجار بين الزوجات؛ لأن هؤلاء لا يعشن سوياً في بيت واحد. إن الشرع يعطي كل زوجة الحق في منزل مستقل، كما أن الزوج نفسه لا يفكر مطلقاً بأن يضع زوجتيه سوياً في مسكن واحد. وإذا صدف وأن حصل ذلك، فإن المرأة تستطيع أن تشكوه إلى القاضي، الذي يأمره بفتح بيت مستقل لكل منهما. ومن هذا المنطلق فإن مفهوم (الحريم) المنطبع في أذهان الغربيين بحاجة إلى تصحيح.

إن بعض الرجال لا يطلعون نساءهم على الكثير من خصوصياتهم، وبالمقابل فإن بعض النسوة قد لا يطلعن الزوج على ما لديهن من نقود، فقد تخشى الزوجة طمع الزوج في مالها، إن هو عرف أن لديها هذا المال. غير أن الكثير من هؤلاء حينما ترى أن زوجها قد قل ماله، أو أصيب بمكروه، تخرج ما عندها من وفر، وتسلمه إلى زوجها ليتصرف به. ولا تعدم أن تجد من بين الأزواج من يستغل زوجته إلى أقصى حد ممكن، الأمر الذي يفرض على المرأة أن تخفي نقودها تحت الأرض، أو أن تودعها أمانة عند بعض الناس.

وقلما تكون هناك تحفظات من قبل الزوج على تكرار الزيارات التي تقوم بها قريبات الزوجة أو معارفها وصديقاتها. والمرأة تصبح أكثر جرأة كلما تنازل الزوج عن بعض الأمور في سبيل إرضائها. وإن معظم الزيارات التي تقوم بها هؤلاء النسوة تكون بغرض الاستغلال بصورة أخرى! ولهذا نجد أن الزوج والزوجة لا يتحدثان عن الفرح أو الحزن أو الجيد أو الرديء خارج حدود السرير الذي ينامون عليه.

تنشأ الفتيات بين هؤلاء النسوة، والأحاديث التي تسمعها الفتاة منذ حداثة سنها أن رأس مالها في الحياة هو الزواج السعيد، ومن الخير لها أن تهتم به. إن هؤلاء الفتيات لديهن مواهب وقادة يستخدمنها من أجل دوام واستمرارية الحياة الزوجية مع أزواجهن. أما أولئك اللواتي حصلن على نصيب من الثقافة التي غيرت مجرى حياتهن فعددهن قليل، ولا يتأثرن بما تقوله النساء العاديات عن الحياة الزوجية في الغالب. وإن لدى الرجال قناعة تامة أن مثل هؤلاء النسوة عددهن قليل، وأنه فيما عدا المتعة الجسدية للمرأة، فإن كافة خصائصها شيطانية. وإن تعليمها يشبه إلى حد كبير رمي الجواهر أمام الخنازير[١].

فلا عجب إذن في مثل هذه الظروف، وحينما تشعر الزوجة أن زوجها قد أهملها، وأنه يعاملها كقطعة من أثاث البيت أن تتطلع إلى بناء علاقة غير شريفة مع آخرين، وهذا بطبيعة الحال يمكنها من الحصول على ما تريد. إن ما تحصل عليه من الزوج خلال عام، يمكن الحصول عليه من الخليل خلال شهر، مع تقديم الشكر والامتنان لها على هذه العلاقة الودية. أما الشعور بالذنب ويقظة الضمير فأبعد ما يكون عن أمثال هذه المرأة المنحرفة، التي لا تعرف القيم الخلقية، ولا تتقيد بتعاليم الدين. وكل ما تعرفه حقاً أن ذلك حرام وستستغفر الله عن ذلك. إن لسان حال هذه المرأة

(١) إن النظرة إلى المرأة بأنها ذات خصائص شيطانية، غير موجودة لدى المسلمين. وهي نظرة كان يقول بها بعض رجال الدين النصارى. أما المسلمون فينظرون إلى النساء من منظار أن النساء شقائق الرجال. أما التعليم فأمر حثت عليه الشريعة. وإذا كانت مثل هذه النظرة موجودة لدى بعض الأشخاص، فإنما هي نتيجة الجهل المطبق.

يقول: إن هناك الكثير من الرجال الذين يقعون في الحرام، وأنا لست سوى امرأة. إن انتهاك حرمة الحياة الزوجية من قبل بعض النسوة في المجتمع المكي، يشبه إلى حد ما تورط الأوربيين في علاقات مشبوهة مع غير نسائهم، علما بأن مثل هذه العلاقات المشبوهة يرفضها المجتمع المكي، ويحكم عليها بقسوة بالغة. وهي على أي حال حالات نادرة. وبجانب متعة الزواج فإن الرجل يكتسب خبرات كثيرة من زوجته، ويتعلم الكثير من مخزون خبرتها. فالمرأة هي طبيبة الأسرة التي تستشار في كافة أنواع الأمراض التي تصيب أفراد الأسرة. والمرأة في الغالب لديها في البيت بعض أنواع الوصفات الطبية المؤلفة من الأعشاب والتوابل، التي يمكن الحصول عليها من محلات العطارين.

الطب في مكة

إن التطبيب والشعوذة والابتزاز متصلة بعضها مع بعض، وكذلك نجد مثل هذه العلاقة بين الأمراض، والأرواح الشريرة وعين الحاسد إلى غير ذلك من أمور. والمرأة في الغالب لها خبرة بمعالجة الأنواع العامة والشائعة من الأمراض.

وللاستشفاء من التوعك العام، هناك وصفة تسمى بالمثلث، تتكون من البنفسج والخميرة وعنصر ثالث. أما الحمى فعلاجها يتكون من نقيع الكزبرة، والعناب البخاري، وسكر بني مصري، ويسمى (المزوّق) الذي ينظم الدورة الدموية، أما نزلات البرد فيوصف لها نقيع النعنع، أو أزهار الضرم Dhurm أو الدوش[1]، أما ورم العين، فيمسح بمحلول مكون من ماء الليمون والراتينج البني الغامق المسمى (صبر) مع محلول آخر يستخدم للشرب، مكون من الشب النوبي (المكون من كربونات وبايكربونات النتروم Natrum بالإضافة إلى الملح الخشن والرمل). إن وصفات النساء تماثل تماماً وصفات الأطباء، غير أن وصفات الأطباء تحوي عدداً أكبر من المحتويات، وتموه في العادة من قبل هؤلاء بالالتزام بنوع معين من الغذاء.

---

(١) الدوش: النعناع الحساوي.

إن الطب هنا ـ كأي مهنة ـ ينتقل بالوراثة من الأب لابنه، أو من العم لابن أخيه، أو من السيد لغلامه وصانعه. إن الحلاق الذي يمارس في العادة بعض أنواع الحجامة وإخراج الدم الزائد، ويشغل نفسه بأمور الطب يعتبر منتهكاً لحرمة المهنة ومتطفلاً عليها. والناس هنا لا يعدّون ممارسة الطب تحتاج إلى تفرغ كامل. وهناك طبيب مشهور عرفته في مكة، يتعاطى تصليح الساعات والبنادق وتقطير الزيوت العطرية والصياغة (وهي مهنته الرئيسة) وصهر الذهب والفضة وصناعة الحلي الخفيفة. ومع كل هذه الأعمال فإنه متفوق في مهنة الطب على الكثير من أصحاب هذه المهنة[١].

إن هذا الطبيب وغيره من الأطباء، يقومون بجس النبض، وينظرون إلى اللسان والعيون، ويستمعون إلى صوت الأيدي. والطبيب الماهر في نظر هؤلاء من يعرف المرض عن هذا الطريق، وليس عن طريق سؤال المريض بماذا يشعر. وبعد هذه الإجراءات يصرح الطبيب بثقة تامة، وبصورة قطعية، أن بك مرضاً في الجهة الفلانية من جسمك، وهذه الصفة هي ما تميز الطبيب الجيد عن غيره، وتعطي مزيداً من الثقة فيه، من قبل جمهور المراجعين. وفي الحقيقة لم يدرك هؤلاء المراجعون أن الطبيب عرف علتهم من خلال استماعه إلى الحديث الذي دار بين هذا المريض وزميله في أثناء انتظاره لدوره. والطبيب في العادة يخبره كما أخبر زميله أنت معك نوازل (تعبير يقصد به جميع الأمراض الناجمة من البرد)، أو أرياح التي تشمل كل أنواع الأمراض التي تستقر في الدم وتظهر على شكل طفح على الجلد أو احتقان أو أورام وهكذا، أو عندك إمساك (قبض)، أو يوصف له بكلمات مبهمة نوعاً من المرض غير المعروف، في حالة فشله في تحديد نوع المرض الحقيقي، وعند ذلك يوصيه بالحمية (الامتناع عن بعض أنواع الغذاء والالتزام بنوع معين)، وألا يتناول الطعام الحار أو البارد أو ذا الطبيعة الرطبة أو الجافة، أو أن يأكل الخبز بخميرة أو بدون خميرة، وفي النهاية يعطي المريض شربة أو يعطيه وصفة لمستخلص مكوناته

---

(١) هذا الطبيب هو السيد عبد الغفار الذي ورد ذكره في مقدمة المؤلف وهو الذي استعان به المؤلف لأخذ عدد من الصور.

الأساسية موجودة عند العطار. أو يعطي المريض الموسر بعض الأدوية من تركيبه الذي يبقيه سراً، لقاء مبلغ كبير من المال. ويقوم الطبيب أيضاً بعملية الكي الذي يؤثر في شفاء حالات الاحتقان والأورام وفي الجروح السيئة. ويستعمل الكي أيضاً في حالة الكسر بعد شفائه، على الرغم من الأحاديث الواردة التي تظهر استياء الرسول الكريم من عملية الكي[1]. ويستعمل الطبيب أيضاً العلق[2] في الشفاء، ولكنه يترك للحلاق أمر إخراج الدم الزائد بالحجامة، غير أنه يقوم بعمل الحقنة الشرجية، ولا يعتبر ذلك عملاً مهيناً، لأنه يتقاضى عليه مبلغاً وفيراً.

وبجانب هذه النشاطات المهنية، فإن صديقنا الطبيب له خبرة طويلة، أكسبته شهرة واسعة، في مجال طب العيون، فهو يقوم بإجراء عملية لعدسة العين، ويشفي عن طريق الجراحة الانتفاخ في جفون العين، الذي قد ينتهي بالعين إلى العمى إذا لم يعالج في حينه[3]. وتسرد القصص عن أعاجيبه في شفاء مرضاه، فيدور الحديث مثلاً عمن أعطاه حقنة، ثم منعه عن الطعام ٤٠ يوماً، باستثناء الحليب، بحيث استعاد هذا المريض حيويته ونشاطه. وكيف أنه عالج شخصاً آخر من آلام المعدة باستعمال شراب حار استخلص من النانخا. والمهم أن هذا الرجل المشهور في مكة، ليست لديه أي معرفة لوظائف الجسم، وحتى الدواء الذي يقدمه لا يعرف ما هي تأثيراته. إن نجاحاً واحداً يحققه، من بين ١٠٠ محاولة، كاف لجعل الثقة فيه كبيرة، في حين يترك شفاء ما تبقى من الحالات لله عز وجل.

---

(١) علق الجاسر على استياء الرسول ﷺ من الكي بقوله: ولا أدري من أين أتى المؤلف بهذا مع أنه عليه الصلاة والسلام كوى عدداً من الصحابة منهم أسعد بن زرارة وغيره، كما استعمل الكي بعض مشاهير الصحابة رضوان الله عليهم (انظر المجلة العربية، عدد جمادى الآخرة، ١٤١٦هـ).

(٢) العلق: حيوانات بحرية صغيرة يتراوح طولها بين ٥ ـ ١٠ سم، يؤتى بها من مناطق المستنقعات، وتوضع على جسم المريض، في الموضع الذي يحدده الطبيب، فتمسك بفمها الجسم، وتبدأ بامتصاص الدم.

(٣) كان لدى هذا الطبيب آلة كهربائية صغيرة يستخدمها لجميع الأمراض وخاصة لتنشيط بعض الوظائف العضوية، وقد أسهمت هذه الآلة في إضفاء الشهرة على هذا الطبيب (المؤلف).

فإذا قيل: إن الأطباء الأتراك أكثر وعياً من الأطباء المكيين، قيل: إنهم قليلو التدين، ولا يعرفون كيف يتعاملون مع المكيين، وعلى الرغم من ثقافتهم العلمية فهم لا يعرفون حاجات المناخ المحلي. ومهما يكن هؤلاء فهم لا يقرون الحجامة المعتادة، ويمنعون جنودهم من تعاطيها (إنهم فرنجة، الله يقطعهم).

وعلى الرغم من أن الطبيب المكي يظهر كرهه صراحة للأطباء الأتراك، فإنه لا يتورع أن يتعلم بعض الأشياء منهم عن طريق الحيلة. وفي الحقيقة إن الفرق بين الاثنين هو في الدرجة وليس في المبدأ. فإذا تحدث أحد المرضى للطبيب المكي عن قوة الجن والأرواح الشريرة، أو أحضر له مريضاً مصاباً بالعين، أو من الزار لا ينكر ذلك، بل يشرع في وصف العلاجات الواقية من تلك الأمراض. ولذلك فهو يمثل المحافظ على الخرافات والتقاليد، أمام الحقائق العلمية التي تمثل المعرفة الإنسانية الجريئة. غير أن هذا الرجل يمثل في وسطه الذي يعيش فيه رجل معرفة وعلوم طبيعية. لهذا لا يلجأ الناس إليه في العادة إلا إذا فشلت المرأة في تقديم العلاج اللازم. فالمرأة أكثر خبرة بالطب، وتستطيع أن تعالج كل أنواع الخرافات، باعتقاد أعمق من العلوم السطحية التي يحملها هؤلاء[1].

الخرافات في مكة

إن انتشار الدين الإسلامي في بقاع كثيرة من العالم، ساعد على إيجاد خليط سكاني من أصول متعددة، استوطن مكة المكرمة. ولهذا فإن هذا

(١) قال الشيخ حمد الجاسر تعليقاً على احتراف المرأة للطب: أشار المؤلف إلى أن المرأة هي طبيبة الأسرة تستشار في كافة أنواع الأمراض ولديها في البيت بعض أنواع الوصفات الطبية من الأعشاب والتوابل. والواقع أن هذا الأمر يشك أن يكون شاملاً في كل الأقطار العربية في العهد الماضي، فربّة البيت في الغالب تدّخر عدداً من الأعشاب والتوابل لاستعمالها في العلاج مثل الصبر والحلتيت، والمرّ والتوتيا والشب والقرمز)، وغيرها. وبعض أنواع المسهلات كـ (العشرق) وغيره، وكثيراً ما تعالج أطفالها وأهل بيتها بما لديها من ذلك. وقد أدركت فترة من الزمن ما كان أهله يعرفون من أنواع العلاج سوى ما هو متوارث عن كبار السن رجالاً ونساء، ومن أشهرها استعمال الكي في أغلب الأمراض، إن لم يكن كلها، ومن أمثالهم: «آخر الطب الكي». (المجلة العربية، عدد رجب، ١٤١٦هـ، ص١٠٠).

المجتمع لديه الكثير من المعتقدات الخرافية، التي تسربت إليه من جميع بقاع العالم. إن مهمة جمع هذه الخرافات والتوفيق بينها يعود إلى المرأة. وإن حب النساء لهذا النوع من العمل، هو الذي يدفعهن للقيام بذلك. إن هذا الميل للخرافات قليلاً ما يقابله معرفة تامة بالعقيدة الدينية.

وفي مكة يعدّ غرب العالم الإسلامي (تونس، الجزائر، المغرب) الموطن الأم لعدد كبير من المعتقدات الخرافية التي تبناها المجتمع المكي. وخاصة إيذاء الخصوم عن طريق جلب الأمراض والمساوئ لهم. إن استعمال السحر والقوى الخفية ضد الأرواح الشريرة، تكتسب شهرة ذائعة الصيت بين سكان أرخبيل جزر الهند الشرقية. والسبب في هذه المهارة عند الجاوة، يعود إلى أن أرضهم تعج بالأشياء الخارقة التي تؤذي البشر، ولهذا فعلى السكان أن يتعلموا حيل الجن ليتقوا خطرهم وشرورهم، يضاف إلى ذلك وجود الخدم من النساء الأفريقيات، وكذلك وجود الهنود. وكل ذلك جعل من المدينة المقدسة عشاً لكثير من المعتقدات الخرافية. ولقد نوهنا أيضاً ببعض بقايا الوثنية الجاهلية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية، والتي تشاهد في المزارات والأضرحة وفي عبادة الحجارة المقنعة.

وهناك خرافات أخرى تكونت بمرور الزمن، فنجد قبر أبي لهب يرجم حتى الآن (١٨٨٥م)[١].. وعلى طريق جدة ـ مكة بين جدة وبحرة هناك كومتان من الحجارة[٢]، حيث يرمي بعض القادمين على الطريق بعض الحجارة على هذه الأكوام. والأسطورة التي تعلل هذا العمل هي أن أحد صانعي الزلابية في مكة، أكد أنه سيأخذ طبقاً من الزلابية ساخناً إلى جدة، ولكنه نسي أن يقول: «إن شاء الله»، ولما وصل إلى ذلك المكان، وقع ميتاً؛ لأنه لم يتذكر المشيئة الإلهية عند عمله. أما الكوم الآخر فيفسر أيضاً بأسطورة مماثلة، لكن الاتجاه كان من جدة إلى مكة، والذي حمله هذا هو

---

(١) أبو لهب: هو الجبل الواقع بين ريع أبي لهب وريع الكحل، يشرف على الزاهر غرباً وذي طوى شرقاً يسمى اليوم (جبل أبي لهب)، وتقول العامة: إن قبر أبي لهب قريب من هذا الجبل، ولم يعد معروفاً اليوم.

(٢) هذا المكان غير معروف الآن.

الكنافة وليس الزلابية، ولهذا يطلق الناس على هذين الكومين من الحجارة اسم الزلباني والكنفاني.

إن أهل الخبرة في مكة يعترفون بصراحة أنه ليس كل المعتقدات الخرافية قد جاء بها غير العرب إلى المدينة المقدسة. فالحضارمة على سبيل المثال، وهؤلاء نشؤوا في وسط عربي إسلامي، لديهم بعض المعتقدات الخرافية، التي تتعلق بالمكان الذي يخفون فيه نقودهم، فالناس الذين ليس لديهم خزائن حديدية لحفظ النقود، يحفظون نقودهم تحت الأرض أو في فتحة خاصة مغطاة تحفر في الحائط.

إن الحضرمي المحترف يرى أن فأله الحسن يكمن في أمرين: الأول ألّا يعرف مقدار النقود التي يدخرها بالتدريج، والثاني ألّا يأخذ منها شيئاً، وإنما يوفرها لمشروع تجاري معين. وفي حالة احتياجه لبعض النقود، فإنه يقوم باقتراضها من أصحابه، دون أن يمس ما عنده. وإذا دعت الحاجة الماسة إلى استعمال هذا المال، يتقدم إلى الحائط الذي فيه النقود، وهو يحرق البخور ويرش ماء الورد ويخرجها قائلاً: لا تعتبرها خطيئة يا رب إنها لبضعة أيام فقط ثم تعود. وفي الوقت المحدد يعيد النقود مع مبلغ إضافي (حق القهوة).

إن عالماً مسناً قد غضب من الطبيب المذكور آنفاً؛ لأنه لم يصدق أن الجن هي التي ترمي بعض أنصار الشريف بالحجارة. فلا عجب إذاً أن العامة ينسبون إلى الأرواح الشريرة الأمراض والحوادث غير العادية. والشفاء من ذلك يكون عند العامة عن طريق السحر، الذي لم ينكره الإسلام، وإنما أبطله ومنع تعاطيه. أما عند المثقفين فيذهب هؤلاء إلى بعض المشايخ الذين يتعاطون بعض الوصفات الطبية، بالإضافة إلى كتابة الحجب والتمائم التي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم.

التمائم والحجب

وإذا صادف أن خلع المكي قميصه، فإنك ترى خيطاً طويلاً ممتداً من عنقه، يحمل العديد من العزائم والحجب التي تقي كل أنواع الشرور. وهذه يقوم بها أناس متخصصون بهذا النوع من العمل. ويعلق الأطفال على

صدورهم حجباً أيضاً مغطاة بصفائح صغيرة من الفضة. وكذلك تعلق على صدور الأطفال بعض أنواع العملة القديمة، وبعض الأمهات يحاولن أن يحدثن ثلاث ندب على خدود أبنائهن (مشالي)، حماية من العين. وإذا صادف أن لبس المكي خاتماً معدنياً في أصبعه الصغير، فإن ذلك لحمايته من أحد الأمراض.

وإذا صادف أن المرء، على الرغم من كافة الاحتياطات السابقة، أصيب بالمرض، تلجأ المرأة في البيت إلى إحراق المستكة، أو أي نوع من أنواع البخور، بقصد تخويف قوى الظلام. يضاف إلى ذلك أن المرأة تنذر النذور في حالة شفاء المريض. وإذا لم ينفع كل ذلك فيرسل المريض إلى (سيد) متخصص، يقوم بعد التشخيص بكتابة بعض الحروف والكلمات على قطعة من الورق، ثم يأمر بإحراقها، ويوضع الرماد في الماء، ويطلب منه المريض شربه، على بركة الله بالشفاء. وهناك العديد من هذه الوصفات المجربات التي استعملها آباء السيد وأجداده، ووصلت إلى السيد عن طريق الوراثة، ويكون نفع هذه الوصفات أكثر نجاحاً عندما تعطى إلى المريض من يد السيد، بعد أن يقرأ عليها بعض الأدعية والأوراد، وإذا لم يشف المريض يكون الحل الأخير هو إرساله إلى الطبيب[1].

العين

إن الأطفال وحتى سن البلوغ لا بد من تبخيرهم باستمرار. وتحت وسادة الطفل المريض تضع الأم سبعة أقراص من الخبز، ينام عليها الطفل طوال الليل، وفي الصباح ترمي هذه الأقراص إلى الكلب، وتكون حيرة الأم كبيرة جداً إذا لم يشف طفلها بهذه الطريقة التي لا تؤدي إلى نتيجة في كافة الأحوال. عندئذ تعتقد المرأة بأن طفلها قد أصيب بالعين، الأمر الذي أفقد السحر مفعوله. والوصفة الطبية للعين الشريرة هي إحراق الفاسوخ والملح في مبخرة من النحاس، وعلى المريض أن يبخر يديه ووجهه وقدميه

---

(١) إن هذه الأمور الخرافية قد انقرضت تماماً من الوسط المكي، في الوقت الحالي، خاصة بعد انتشار الوعي الثقافي بين جمهور المكيين، فزالت التمائم والحجب، وانتهى عهد مروجي هذه الخرافات التي كانوا يستغلون بها عقول العامة، ممن كانوا يتعاطون السحر والشعوذة، وغير ذلك بقصد الحصول على المال.

ثلاثاً، ويجب أن يمر من فوق المبخرة سبع مرات، حتى يلفه دخان البخور. أما الباقي فعلى الله سبحانه وتعالى. إن المكيين يفقدون الكثير من متع الحياة من خلال الخوف من العين. والبضائع في المحلات التجارية تحمى من العين، عن طريق وضع حذاء قديم، على مدخل المتجر.

ولما كان المرء الذي يصيب بالعين غير معروف من قبل الناس، لهذا يلزم عند حمل أحد الأطفال، أو رؤية شيء جميل، أو عند دخول اجتماع، يشعر أهله بالمرح والسعادة، أن تقول: (ما شاء الله، تبارك الله).

وفي حالات كثيرة ترتبط العين بالحسد. والحاسد كثيراً ما يلجأ إلى السحر، إذا لم تنفع العين بالحصول على غرضها البغيض. إن هذا الرجل يضع السحر تحت بيت شخص ما، ذلك البيت الذي كان يود شراءه لنفسه، اعتقاداً بأن السحر سيتسبب في إحراق البيت وتدميره. وقد يضع علامات سحرية على جدار البيت الذي يسكنه شخص آخر مع زوجته، بقصد زرع العداوة بين الزوجين. ولهذا فإن أهل مكة حينما يشترون الجواري الجميلات، يقومون بتغيير أسمائهن؛ لأن السحر في الغالب يوجه إلى الاسم، وعند تغير الاسم يبطل مفعول مثل هذا السحر. وإن الذي يقوم بشراء بيت جديد، عليه أولاً أن يتخير الوقت المناسب لشرائه، فبعض الأوقات أفضل من بعض، ثم على المشتري قبل الانتقال إلى البيت الجديد أن يقوم بتبخيره كاملاً، وأن يطلب إلى أحد القراء أن يختم القرآن داخل البيت، ومن ثم يقوم بالرحيل إليه والسكنى فيه.

إن تعدد المعتقدات الخرافية المسموحة والممنوعة في مكة، يعني وصف وتجميع كافة الخرافات الموجودة في مختلف ديار الإسلام. والمرأة في الغالب لها قصب السبق في مزج الخرافات الجديدة القادمة من الخارج، مع الخرافات التقليدية الموروثة، الأمر الذي يؤدي إلى المزيد من هذه المعتقدات الخرافية، ويجلب الانتباه إلى شرحها وتفصيلها.

الأرواح الشريرة

إن الأرواح الشريرة، كما هو معروف، توجه سهامها إلى المساس بالمتع المادية، وإلحاق الأذى بأصحابها. ففي مكة مثلاً تحاول هذه

الأرواح منع الحمل عند المرأة. وعلى هذا فالمرأة التي تريد الإنجاب، عليها أن تلبس حزاماً يعطيه إياها سيد خاص، بعد أن يقرأ عليه بعض التعاويذ، ويكتب عليه بعض العبارات الخاصة، ثم يطلب إليها أن تلتزم بمواعيد وأوقات معينة في الجماع، والمحافظة على لبس الحزام إلى أن يحصل الحمل المطلوب. وعندما يأتي المولود تبدأ سلسلة أخرى من الاعتقادات الخرافية الأخرى، فالمولود الجديد تصيبه الأمراض العديدة التي تصيب الأطفال في العادة، وخاصة إذا رأى هؤلاء النور في الفصل المعتدل الحرارة، فعندما يدخل موسم الحر يتعرض هؤلاء إلى الأمراض الخطيرة التي يصعب عليهم احتمالها، بينما الأطفال الذين يولدون وقت السنبلة[1] أقل تعرضاً للأمراض من أولئك الذين ولدوا في الفصل المعتدل. إن أطفال المهاجرين الجدد إلى مكة يتعرضون لأخطار جمة، فقد عرفت سيدة حبشية من الرقيق، التي توفي لها ما بين ٥ ـ ١٠ أطفال. وفي الغالب فإن حليب الأم لا يكفي لتغذية الطفل، الأمر الذي ينجم عنه الكثير من المصائب والأمراض، وبدون معرفة مثل هذه العلاقات بين الغذاء والمرض، تبدأ التساؤلات عن المسبب لكل هذه الشرور؟ إنها بالطبع (أم الصبيان) التي تعرف باسم (القرينة). إن القرينة المزعومة هي التي تتسبب في منع الحمل، وتهاجم الطفل بعد ولادته مباشرة، أو تمنع الحليب في ثدي أمه. وفي العادة يلجأ الناس إلى التعاويذ والسحر؛ لأنه في مثل هذه الحالات، لا ينفع الطب بهذا الخصوص. والوصفة التي ينصح فيها للرضيع الذي يتكرر بكاؤه الناجم عن الجوع في الغالب، هي وصفة مكوناتها الأساسية من بذور الخشخاش (حبة النوم) التي تعطى للطفل من أجل تهدئته.

الزار

وهناك نوع من الأرواح الشريرة التي تسبب المتاعب لكل النساء عموماً ألا وهي (الزار)، والصراع مع الزار يمثل صراع النساء والرجال من حياة المرأة المكية. والزار الحقيقي في لغتنا الدارجة، هو بعض أشكال الجنون،

---

(١) آخر شهر من أشهر السنة الشمسية، ويوافق أواخر آب، ومعظم شهر أيلول.

أو بعض النوبات الهستيرية. وإن التي لديها الزار الآن، كان يطلق عليها في الجزيرة العربية في السابق اسم (مجنونة). والمجنون اليوم هو الذي لا علاقة لجنونه بالأرواح الشريرة. ومنذ نعومة أظافر المرأة، وهي تسمع الأحاديث الكثيرة عن الزار. منها أن المرء حين يصاب بالزار يفقد سيطرته على إرادته وجوارحه، ففي بعض الحالات يظهر الزار على شكل إغماءة، يستمر المرء فيها لبعض الوقت فاقداً وعيه، وملقى على الأرض لعدة ساعات. وفي بعض الأحيان يظهر على شكل معاناة من مرض معين، يزول فجأة تاركاً إجهاداً كبيراً ولوناً شاحباً وعيوناً جاحظة. وفي بعض الأحيان يكون المرء المصاب، وكأنه غاضب ومتوحش. إن الأطباء والعارفين من الرجال يستخدمون في علاج هذا المرض الأدوية وبعض التمائم، التي تطرد القوى الشيطانية. أما النساء فيصررن على استدعاء (شيخة الزار) التي تساعدهن في التغلب على هذا النوع من المخاطر.

إن الزار يحدث بين جميع الطوائف التي تستوطن مكة. ومع أنه في الأقطار التي قدم منها هؤلاء، قد يكون للزار اسم آخر، إلا أنهم جميعاً يعطونه هذا الاسم المحلي «الزار»، والكلمة مشتقة من الأثيوبية، ويظهر أن هذا الاعتقاد الخرافي مصدره الرقيق الحبشي. غير أن هناك فوارق محلية موجودة ويجب أخذها بعين الاعتبار فيما يخص الزار. إن هناك على سبيل المثال طرقاً مغربية وسودانية وحبشية وتركية تستعمل في بعض الأحيان لإخراج الزار، ولكن في أغلب الأحوال تكون شيخة الزار هي المسؤولة عن إخراجه، وإن طريقتها هي أنجح الطرق لذلك. إن الشيخة لا تطرح الأسئلة على المريضة نفسها بل على الزار الذي يتلبسها[١]. وفي بعض الأحيان تكون لغة الحديث هي اللغة الدارجة، التي يمكن للسامع أن يفهمها، وفي أغلب الأحوال يكون الحديث بين الزار وشيختة بلغته هو. وعلى العموم فالنتيجة واحدة في

(١) إن الزار لا يعرف فيما إذا كان ذكراً أو أنثى. ولكن الرجال في العادة لا يصابون بالزار، وإنما هو من اختصاص النساء. (المؤلف).

كلتا الحالتين. وبعد النداءات المتكررة التي تطلقها شيخة الزار، يعلن الزار نبأ خروجه ورحيله في يوم معين، وبطقوس معينة، كما يشترط لذلك بعض الشروط، فقد يطلب ثوباً جميلاً وجديداً أو حلية ذهبية أو فضية أو ما شابه ذلك. ورغبته هذه تتحقق بإلقاء الأشياء التي طلبها على جسم المريض، وإنه لمن الغريب حقاً أن يكون لمثل هذه الأرواح الشريرة أذواق وحاجات تشبه متطلبات البشر. وفي اليوم المحدد لخروج الزار، تأتي المدعوات من صديقات المريضة، ومعارفها ويشربن القهوة والشاي ويتناولن الطعام. وتحضر هذه المناسبة الشيخة وخادماتها، اللواتي يقمن في العادة بضرب الطبول والغناء، وتحضر الأدوات اللازمة لإجراء العملية.

إنه لمن السهل القول إن إخراج الزار الحقيقي، وحتى وجوده أمر نادر. إن الملابس الأنيقة والحفلات الجميلة هي كل ما تطلبه المرأة المكية، كما أن لديها بعض المؤهلات التي تمكنها من تمثيل دور الزار. إن هذا المرض الكوميدي قد أصبح وباء مستوطناً، وإنه لمن الضروري أن يبعد المرء زوجته عن أن تصاب بهذه العدوى، غير أن الأمور صعبة، فالمرأة تأتي إلى زوجها قائلة: (غداً سأذهب إلى حفلة أخرى)، وفي اليوم التالي تقول (أريد أن أذهب هذا المساء إلى بيت فلانة؛ لأن لديها الزار وستحضر الشيخة لطرده). وفي بعض الأحيان تخبر المرأة زوجها أنها يمكن أن يكون لديها الزار؛ لأنها حضرت العديد من المناسبات التي كان يحتفل بها بطرده، ويمكن أن يكون قد تلبسها هي الأخرى. ولهذا لا يجد الرجل أي فائدة من معارضة زوجته، وعليه دائماً الإذعان لمطالبها. وما الفائدة من المعارضة التي إن أبداها تظاهرت المرأة بالجنون، حتى تحصل على ما تريد، وأحياناً تلجأ إلى ذلك للحصول على الطلاق. وحتى لو قام الرجل بطلاق زوجته فإنه سيتزوج بأخرى لها الخصائص نفسها. إن الزار في الحقيقة أمر ضروري للمرأة يشبه في ضرورته لبعض النساء الذهب الذي تحتاجه لملابسها أو حاجتها الماسة إلى التدخين.

إن الطبيب المذكور آنفاً[1] قد اكتشف عقاراً ناجحاً للزار. لقد رأى الطبيب زوجته الأخيرة تتظاهر بأن لديها الزار، وقد بعثت بطلب الشيخة. وما أن حضرت حتى لقيها الطبيب على الدرج، وأمرها بالعودة فوراً وهددها إن اقتربت ثانية من البيت، أو حضرت لمقابلة زوجته. ثم صعد إلى الزوجة ومعه مجمرة كبيرة مليئة بالجمر، وغرس فيها قطعة حديدية. وقال لها: إن الجن خلقوا من نار ولا يخرجهم من الجسم إلا النار، وإنه سيقوم برصد المكان، الذي فيه الجن من جسمها، ثم يكويه بالنار، حتى يخرج. وقد استطاع الطبيب بدهائه أن يقنعها بأن الزار في كل مكان من جسمها، وأن عليه أن يقوم بكيها في أماكن عديدة من جسمها، وما أن سمعت المرأة بهذا النوع من العلاج، حتى أعلنت أنها شفيت تماماً وبدون كي، وأن الزار لن يقترب منها إلى الأبد. إن مثل هذه الحادثة قليلة؛ لأن

---

(١) إن طبيبنا المذكور آنفاً جعبته مملوءة بالوسائل التي يستغل بها هذه المعتقدات الخرافية، بقصد جمع أكبر قدر ممكن من المال. فإذا ما صادف أن سرق شيء ما من أحدهم، ولم يعرف السارق فإن الرجل المسروق، يأتي إلى هذا الطبيب ليستخدم قوته الخارقة الموروثة (العزيمة) في اكتشاف الجاني. والعزيمة الموروثة هنا هي مفتاح مثبت على قطعة حديدية ملفوف بها مصحف. إن أطراف المفتاح من الجانبين ترفع بواسطة الطبيب وأحد أبنائه، وذلك بأطراف أصابعهم، حتى إن المصحف يتأرجح، ويتدلى في الهواء، وبعد ذلك يضع مجموعة من الأوراق يكتب في كل منها اسم أحد المشبوهين واحداً بعد الآخر داخل المصحف. ويقرأ الطبيب على كل ورقة تعبيرات معينة، وحالما يبدأ المفتاح بالتحرك، فإن الاسم الموجود في المصحف هو اسم المشبوه. وعلى المسروق أن يملي كافة الأسماء المشبوهة للطبيب، الأمر الذي يعطي للطبيب الفرصة لتكوين فرضيته على الجاني، والمفتاح بالتالي يدور طبقاً لذلك. وبعد بضعة أيام تخيب آمال هؤلاء، حينما يرفعون أمرهم للسلطة لتحصيل حقوقهم من الجاني، الأمر الذي يدعو إلى السخرية منهم، من قبل أفراد الحكومة. وحينئذ يقول الطبيب: إن هذا صحيح؛ لأن هذه التحريات يجب أن تبقى سرية ولا تعمل رسمياً. وفي أحد المرات استطاع الطبيب أن يكتشف أن ابن أخيه المؤذن قد اختلس شيئاً من المال من أمه، وقد اعترف بذلك وأعلن ندمه عليه. والطبيب كذلك يجيد ضرب المندل، ويأتي فيه بنتائج إيجابية، ويحرز نجاحاً كبيراً. (المؤلف).

إن هذه الأمور تظهر مع الأسف مدى الاستغلال لهؤلاء الناس الذين لا يتورعون عن التلاعب بكتاب الله، للحصول على المنافع المادية.

الغالبية العظمى من النساء يتعاطين الزار، ولا يستطيع أزواجهن أن يخطوا مثل هذه الخطوة الجريئة؛ لأن المرأة في مثل هذه الحالة تهرب وتحطم سمعة زوجها.

إن طريقة إخراج الزار هي أيضاً قصة كوميدية. ومن منطلق التوفيق بين المعتقدات المختلفة في طرد الأرواح الشريرة، فإن هناك العديد من التعاويذ والأدعية، مضاف إليها أشياء أخرى جانبية. إن المرأة التي يلبسها الزار، تلبس الملابس التي يشترطها الزار، أما الجواري اللواتي يصحبن شيخة الزار، فإنهن يضربن بالطبول نغمات سحرية خاصة، بينما تقوم سيدتهم (الشيخة) بضرب المريضة ضرباً خفيفاً، بناء على أوامر الزار المتلبس نفسه، يتبع ذلك أنواع من الممارسات الغريبة. فعلى سبيل المثال تذبح شاة ويؤخذ دمها ويلطخ به جبهة المرأة المريضة، وأجزاء أخرى من جسمها. إن كل طريقة من الطرق المتبعة في علاج الزار لها سمات أو خصائص معينة في طرد الأرواح الشريرة. إن المرأة المريضة يجب أن ترقص وتحرك جسمها ذهاباً وإياباً أو تسقط مغشية على الأرض. وبعد برهة من الزمن تعلن الشيخة أن الزار قد خرج منها. وقد لا يحدث ذلك إلا بعد ليلتين أو ثلاث من العلاج المستمر. وهذا يعني مزيداً من الوقت للمدعوات بالبقاء بجانب المريض، وقد تنتقل حمى الرقص الذي تقوم به المريضة إلى المدعوات اللواتي ينهضن لممارسته، الأمر الذي يجمع بين الحقيقة والمهازل. لقد أخبرتني إحدى النساء أن عدداً قليلاً من النساء هن اللواتي ينجون من عدوى الزار، بينما تتندر النسوة في الغالب: ماذا ألم يأتك الزار بعد؟

وليس من النادر أن كل ثروة الشخص المتوسط الحال، وكذلك ضروريات حياته تدفع للتخلص من الزار. وهناك اعتقاد خرافي آخر. ذلك هو أن بعض الدور (مسكونة)[1]، وكذلك الخوف من المخلوقات الخطرة غير المرئية، وما إلى ذلك من خرافات.

---

(١) في حالة الدار المسكونة تسمى الروح الشريرة التي تسكن الدار باسم (الساكن)، ويجب أن نذكر هنا أن المرء إذا لم يطو سجادة الصلاة وتركها، فإن الجن يقومون بالصلاة =

إن الرجال في الغالب يدركون خلو جعبة هؤلاء النساء من الوسائل الحقيقية لعلاج الأمراض، كما يدركون المساوئ التي تنجم عن مثل هذه الاعتقادات الخرافية المسيطرة، ولكنهم يتساهلون في قبولها.

التدليك

ويجب أن نشير هنا إلى عادة تطبيب أخرى هي (التكبيس) أو المساج. وأن هذا النوع من العلاج الذي انتشر مؤخراً في أوروبا، موجود منذ القدم في الجزيرة العربية، وله نتائج إيجابية ناجحة. وفي المساء تجد المختصّين بفن التدليك، الذين يرجع أغلبهم إلى أصول هندية، يجوبون الشوارع، ويدعون الناس في المقاهي، وينادون على الناس في ردهات بيوتهم، بقصد عملية التدليك (تكبيس). ولأول مرة يبدو التدليك غير مريح، ولكن تدريجياً يشعر المرء معه براحة تامة. وبجانب هؤلاء المدلكين المحترفين نجد أن كل امرأة ـ حرة أو عبدة ـ تجيد هذا الفن. وأن كثيراً من الرجال قد اعتادوا على هذا النوع من الرياضة، حتى إنهم لا يستطيعون النوم بدونه. وفي الكثير من البيوتات تقوم الخادمة بتدليك سيدتها، والسيدة تدلك زوجها. وتتبادل الخادمة مع البنات الصغار التدليك بالتناوب، وإذا كان أحد الرجال يحب إحدى النسوة، ويريد أن يجرها إلى الرذيلة، يمكن أن يطرح أمامها مثل هذه العبارة (يا الله أنا مريض، وأريد أن تكبسيني).

إن التدليك لا يستعمل فقط لإعطاء نوع من الاسترخاء للمرء في جو مكة، ولكنه يستخدم أيضاً في علاج آلام الأعضاء، أو على الأقل مسكناً مؤقتاً للألم. ولقد شاهدت أن هذا النوع من المساج قد خفف، ولعدة ساعات، بعض الآلام الناجمة عن مرض عنيف في الأسنان.

وأخيراً فإن النساء يحاولن دائماً أن يزدن من قوة جاذبيتهن عن طريقين:

= عليها. وهناك اعتقاد خرافي أيضاً وهو أن النسوة يحصلن على عظمة صغيرة من عظام الضأن، والتي يشبه شكلها شكل القسم العلوي من الإبهام، وتقوم المرأة بتنظيفها، وتلفها في خرقة، وتحتفظ بها حتى ليلة السبت، ثم تقوم بتلاوة تعويذة مطلعها يا سبت يا سبوتا.. ثم تضعها تحت الوسادة ثم تذهب إلى النوم، على أمل الحصول على بعض الأحلام، التي تبشر بحصول المراد. (المؤلف).

الأول: إضفاء مسحة جمالية على مظهرهن الخارجي.

والثاني: زيادة متعة اللقاء الجنسي في أثناء الجماع.

والطريق الأول يكون من خلال سؤال المختصّات في هذه النواحي الجمالية. أما الثاني فيكون بالاستفادة من تجارب النساء الأخريات في هذا المجال، ولا سيما الدايات.

الإجهاض

إن الإجهاض يتم في المجتمع المكي عند بعض النساء اللواتي لا يردن استمرار الحياة الزوجية، ممن يرتبطن بعقود زواج صورية، أو عند بعض الجواري في البيوت، وذلك حينما يحدث حمل غير متوقع. إن الإجهاض أمر مقبول إذا كان دون الشهر الرابع، ولكنه مرفوض بعد ذلك التاريخ. إن الداية ليس لديها أي صعوبة في إخراج الجنين في أي وقت. والجواري في الغالب يحصلن على الإجهاض عن طريق إلقاء أنفسهن على الأرض عدة مرات. وهناك بعض العمليات التي تقوم بها الداية لإنزال الجنين، تتلخص في وضع الأدوية والعقاقير خلال الرحم، الأمر الذي يؤدي إلى الإجهاض. وتتحرج الدايات من إجراء هذه العملية في مساء الجمعة، حتى لا تتضاعف السيئات. وحينما يتم المقصود، وتتم عملية الإجهاض بنجاح، تذهب المرأة إلى المسجد الحرام، وتوزع بعض الخبز على المتسولين(١) بقصد التكفير عن مثل هذه الخطيئة.

وهناك طلب متزايد على الموانع التي تؤخر الحمل. وهذا الطلب أكثر من الطلب على العقاقير التي تساعد على الحمل. وبعض هذه العقاقير المانعة يستعملها الرجال ويبتاعونها من عند الطبيب. أما النساء فيتعاطين موانعَ تقوم بتحضيرها الدايات، وهؤلاء يقمن بتحضير مثل هذه الموانع بوصفات طبية سرية لا يطلع عليها أحد سوى خادمات هؤلاء النسوة. وهؤلاء لديهن ثقة بمفعول هذه الأدوية، لدرجة أنهن يتعهدهن بإعادة الثمن، إذا لم تؤد

---

(١) إن المتسولين يتواجدون في الحرم، للحصول على الصدقات من الحجاج، أو يأخذون نصيبهم من الخبز، الذي يقوم بتوزيعه المحسنون، وحالما يدخل أحد الخدم ومعه الوعاء الذي يحمل به الخبز، حتى يجد المتسولين من كل جانب. (المؤلف).

الغرض المطلوب. وبعض هذه الموانع يستمر مفعوله سنة وسنتين وحتى ثلاث سنوات، وتسمى هذه الوصفة (تصبيرة). أما إعاقة الحمل بصورة قطعية فأمر غير ممكن، واللواتي يحاولن أن يمنعن الحمل نهائياً يعبرن عن مثل هذه الرغبة بقولهن أريد أن أكون (بغلة).

إن المواضيع السابقة قد استقيت معلوماتها من المكيين أنفسهم، الذين يعرفون هذه الأشياء بالتفصيل. ومثل هذه المعلومات لا يتحدث عنها الناس هنا بتحفظ، وإنما يتحدثون عنها بكل صراحة ووضوح، ولهذا نجد أن الأوروبيين لديهم مفهوم خاطئ، هو أنهم يعتقدون أن المسلمين دائماً يجعلون كل ما يتعلق بأمور المرأة سراً غامضاً لا يعرفه أحد. غير أن الأمور على العكس من ذلك تماماً، فأمور الجنس تبحث بين الأصدقاء بدون تحفظ. وقد يتحدث عنها الأب مع أبنائه اليافعين حديثاً يتحفظ الأوربي أن يخبر به طبيبه الخاص. إن الأمر الذي يتحفظ (المكي) عن الخوض فيه، هو كل حديث يمكن أن يمس زوجته أو عرضه بسوء أو يعرضها للخطر، وفي هذا الموضوع نجد المكي أكثر تحفظاً من الأوروبي بهذا الخصوص.

إن الحدود واضحة بين ما هو مسموح به، وما هو ممنوع، غير أن هذه الحدود أوسع من الحدود المتعارف عليها عند الأوروبيين. إن الانطباع الخاطئ الذي يحمله الرحالة الأوروبيون مرده في الغالب إلى أن المسلمين يعرفون أن الأوروبيين لهم وجهات نظر وعادات وأخلاقيات مختلفة تماماً عنهم، خاصة فيما يتعلق بأمور الزواج، وعلى هذا فهم يتجنبون الحديث في هذه الأشياء معهم، كما هو الحال حينما يلجأ المرء إلى الصمت حينما يكون هناك فريقان من طائفتين مختلفتين، بينهما تباين في الرأي، فيحاول أن يتوقف عن الحديث.

فإذا كان زواج المكي في نظر الغربيين هو عبارة عن تسري، فإن زواج الأوروبيين من جوانب عدّة في نظر المكي هو التسري بعينه. إذا تحدث المكي بصراحة تامة، فإنه يعترف بأن قلبه ليس معلقاً بفتاة مكية، وإنما بإحدى الجواري الرقيقات. ولقد عبّر أحدهم لي عن ذلك صراحة، بينما كانت زوجته في الغرفة المجاورة. وحينما بدأت بالسعال بعصبية، لم يكن

أمامه إلا أن يغير الحديث بقوله، ليس هناك أثمن من المرأة الحرة بنت البلد. إن كل ذلك هو مجرد تصور واعتقاد، وهذا التصور ليس مجهولاً حتى من الزوجة ذاتها.

المرأة الحبشية في الوسط المكي

إن المحاسن الجسمية للمرأة الرقيق، هي محل اعتبار وتقدير وكلما كانت المرأة أكثر سواداً، كانت أكثر جاذبية جنسية، فقد عرفت رجلاً لا يمنعه شيء عن المرأة التي يريد، قد انهمرت دموعه على جارية زنجية باعها منذ مدة؛ لأنه وجد أنها الوحيدة التي تحقق رغباته في كل شيء، وهذا يبين لنا أن هذا المبدأ ينطبق حتى على الرجال ذوي المكانة العالية. إن الولد الزنجي ابن التاجر الهندي، كان ثمرة ميل من هذا التاجر إلى جاريته التي تعمل في المطبخ. وباختصار فإن جميع أهل مكة يثنون ثناء عطراً فيما يتعلق بالأمور الجنسية على بنات حام، غير أن ثقافة هؤلاء المتدنية، وبعض خصائص الرقيق غير المستحبة، تحدّ من هذا الميل بعد فترة من الزمن. والمرأة الزنجية التي تستثير الكوامن العاطفية لسيدها تستفيد من ذلك كثيراً طوال حياتها؛ لأن مجرد حمل هذه المرأة يجعلها حرة بعد موت زوجها. ولكن هذا التسري لا يشبه الزواج.

وعلى الرغم من أن المكي يركض وراء المرأة المكية، أو قد يغرم ويفتتن بجارية، إلا أن حماسه وإعجابه بالمرأة الحبشية[1] يفوق كل ذلك،

---

(١) تنتشر بين الرقيقات من النساء أسطورة (لعنة حام) التي هي أساس العبودية الحاضرة في مختلف صورها. والأسطورة تعتمد على قصة خرافية تشير إلى أن آدم وحواء كانا يمشيان عاريين في الجنة الأمر الذي أثار الضحك لدى بعض الفتيات الحبشيات مما نجم عنه الدعوة على هؤلاء بالاسترقاق وسواد البشرة. (المؤلف). وقد علق الشيخ حمد الجاسر على هذه الرواية فقال: «أما خرافة أسطورة لعنة (حام)، فقد ورد في «التوارة» تعليل آخر، تناقله بعض المؤرخين من المسلمين، فقال الهمداني في «الإكليل»: «وعن محمد بن إسحاق قال: يزعم أهل التوراة أن السواد لم يكن في ولد (حام) إلا عن دعوة دعاها نوح على ابنه (حام)، وذلك أن نوحاً نام فانكشفت عورته فرآها (حام) فلم يغطها، ورآها سام ويافث، فألقيا عليها ثوباً فواريا عورته، فلما هب نوح من نومته علم ما صنع حام وسام ويافث، فقال: ملعون كنعان بن (حام) عبيداً وعباداً يكونون لإخوتهم، ويبارك الله ربّي في سام». =

وإذا جارى المكي عواطفه وشعوره، فإنه ميال بطبيعته إلى المرأة الحبشية. إن الحياة العامة تفرض على المرء أن يتزوج ولو مرة واحدة امرأة حرة، والناس من ذوي الدخل المحدود يمكنهم أن يدفعوا بضع دولارات مهراً للزوجة، غير أنهم لا يستطيعون شراء جارية بمائة أو مائتي دولار. وعلى هذا فعلى المرء أن يحضر جارية صغيرة أو يشتري جارية من بيت نظيف. والنساء الكبيرات أو سيدات المنزل لا يمانعن في شراء الرجل العديد من الجواري الصغيرات في السن؛ لأنهن يسهلن لها الأعمال الكثيرة، وسيدة البيت ترسلهن إلى المدرسة ليتعلمن النسيج والغزل وما إلى ذلك وتعاملهن كبناتها. وحينما ينشأ هؤلاء النسوة سوياً تبدأ الخلافات بينهن، ويتوجب على سيدة المنزل التخلص من بعضهن. إن أفضل وضع للفتاة الحبشية أن تكون محظية عند سيدها، ويتسرى بها. إن هؤلاء الفتيات يفضلن الخدمة في بيوت كبيرة، حيث يجدن العديد من الأصحاب بجانب الحياة الرغيدة. ولكن حظهن سيكون أحسن فيما لو عشن في بيت فيه سيدة متوسطة السن عندها بعض الخدم. وعند الرجل المتوسط الحال، الذي يمكنه الحصول بصعوبة على جارية حبشية، فإن المرأة يجب أن تقوم بدور الزوجة والخادمة سوياً، وهذا أمر صعب في مثل هذا المناخ. وإذا كان الرجل لديه زوجة ذات غرور، فإن الزوجة تذيق الجارية الأمرين، وخاصة عند غياب الرجل. ولهذا فإن الزوج يستأجر بيتاً آخر يضع فيه سريته، دون أن تعلم بها الزوجة الشرعية. وفي البيوت الكبيرة تكون الزوجة متسامحة مع الخدم، حيث يتوزع هؤلاء العمل فيما بينهم، وبالتالي تتقلص قبضة المرأة على البيت. ومهما كانت المدة التي يتصل بها الرجل مع إحدى جواريه، فإنه من العار عليه أن يبيعها إذا تمكن منها ولو فترة قصيرة.

= ويضيف الهمداني قائلاً: «وهذا غاية التناقض أن يسيء (حام) ويلعن ولده، والله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر، الآية: ٧]. ويحسن سام ويافث، فيشكر لسام وحده، وإنما لسواد الناس وبياضهم وسمرتهم علّة، قد ذكرناها في السيرة من هذا الكتاب» انتهى.
وقسم السيرة من كتاب «الإكليل» مفقود، لكن الهمداني علل ذلك في بعض كتبه بتأثير حرارة الشمس في السكان، وأن من كان بقرب خط الاستواء يشتد سواد بشرته، وكل من بعد يخف السواد من لونه. (المجلة العربية، عدد رجب، ١٤١٦ ص١٠١).

إن المرأة الرقيقة التي لا تتربى منذ الصغر في بيت زوجها لا يمكن أن تكون عذراء عند الشراء؛ لأن سيدها أو أحد أقاربه يفض بكارتها بمجرد وصولها بين سن الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة. إن الرجل لا يستطيع أن يعيش مع جارية ليست له، وهذا القانون مطبق بحذافيره، ولا يجوز مخالفته أو التعدي عليه. وعلى هذا فهناك فرق بين جواري الرجل وجواري المرأة. والمرأة في الغالب تشتري الجواري القبيحات الشكل. وهناك استثناء خاص بالجواري اللواتي يتربين في البيوت منذ الصغر، فقد تسمح سيدة المنزل لابنها أو ابن أخيها أو أخيها بأن يعاشر إحدى هؤلاء الجواري على أن يعيدها في الليلة التالية.

إن الأمور الشرعية الواجب اتباعها في التسري لا تطبق في كثير من الأحيان، فالمرء الذي يشتري جارية بقصد التسري عليه أن ينتظر مدة معينة قبل جماعها، ليستبين فيما إذا كانت حاملاً أم لا، لكن ذلك غير مطبق، ونجد من الصعوبة بمكان أن ينتظر المكي مدة يومين أو ثلاثة. وإذا صادف أن اختلف الرجل مع سريته وكانت حاملاً فعليه أن يعتقها، وبالتالي تصبح حرة وتستطيع الزواج بعد ذلك، ومن ينكر أن الحمل ليس منه يكون هدفه الاحتفاظ بحق بيع الجارية مرة أخرى. والغريب أن هؤلاء الجواري لا يحبذن مثل هذه الحرية، ويحاولن التريث في ذلك؛ لأن الزواج قد يعقبه طلاق ومشكلات؛ لذا تبقى في بيت سيدها بوصفها جارية، إلى أن تجد سيداً آخر تستطيع أن تعيش معه، ويقومان بتربية الأطفال سوياً. وهكذا فإن مثل هؤلاء الجواري يتعاطين موانع الحمل المؤقتة وليست الموانع الدائمة.

وبالنسبة للمرأة الزنجية، فإن الوضع المثالي لها هو أن تعمل عند أهل بيت ذوي سمعة عالية طوال حياتها، حتى تنال العطف حينما تكبر في السن، وقد يتسرى بها صاحب المنزل أحياناً، وفي حالة حملها تستعيد حريتها، ويمكنها أن تتزوج من أحد الأرقّاء المحررين، وبالتالي تتخلص من حياة العبودية.

أما هدف المرأة الحبشية فيكون المحافظة على استمرار العلاقة بينها وبين سيدها، حتى إنها تصبح رفيقة عمره. هذا إذا كانت تربيتها ونشأتها السابقة لم

تؤثر في مواهبها وأخلاقياتها. إن رغباتها ليست كرغبات الزوجة، التي تتعاكس دائماً ورغبات الرجل. كما أنه ليس لديها أفكار استغلالية كالزوجة. إن رغبتها الوحيدة هي أن تجلب الرجل إليها، وتهيئ له أقصى درجات السعادة. إن المرأة الحبشية التي نشأت نشأة قويمة هي امرأة متواضعة، غير متعجرفة، وربة بيت صالحة، وتضع جميع طاقاتها في خدمة سيدها. إن التقدير الذي تناله هؤلاء النسوة من الرجل المكي هو تقدير عال، ولا أدل على ذلك من أن العديد من الحبشيات أنجبن أولاداً يتراوح عددهم بين ٥ ـ ١٢ طفلاً، وأم الولد في العادة هي حرة على الرغم من أنها تستمر كرقيق، إلا أن ذلك الرق اسمي فقط. وإذا نالت المرأة حريتها فإنها تتزوج بشرط أن تعامل مع المرأة المكية الحرة على قدم المساواة. وإذا كانت المرأة المكية تجد عند أقاربها الحماية، فإن المرأة الحبشية (أم الولد) تجد الملاذ والملجأ عند أبنائها.

ومن وجهة نظرية فهؤلاء الأطفال هم على قدم المساواة مع إخوانهم أبناء المرأة المكية الحرة. وفي الحقيقة والواقع أنهم مفضلون أيضاً على أبناء المرأة الحرة. وعلى العموم يمكن القول: إنّ بيوت الأثرياء تحوي كلا النوعين من الأبناء، وهم لا يختلفون في شيء من حيث المظهر أو السلوك.

إن القارئ الآن قد كوّن صورة تقريبية للفوارق المتنوعة الموجودة داخل البيت المكي. وقد يكون من الصعب الخوض في تفاصيل أكثر من ذلك، فقد أتينا على الجوانب المهمة في حياة الأسرة، كما تحدثنا عن تنوع واختلاف السكان. إنه من الضروري أن نعرف الآن أنه بقي بين أطراف المجتمع المكي وفئاته المختلفة أناس لم يندمجوا كلية مع هذا المجتمع، وهؤلاء يشكلون انعطافاً واستثناء لا تنطبق معه تفصيلات الحياة التي سردناها آنفاً.

تسمية المولود

إن المناسبة الأولى المهمة للمولود الجديد هي «التسمية»، وتأتي في اليوم السابع بعد الولادة. إن العادة تقضي بحلق شعر المولود، ثم ذبح شاة أو اثنتين، وهو ما يعرف بالعقيقة. ويمكن أن تكون العقيقة في وقت لاحق. إن المكيين في الغالب يقومون بذبح شاة بمناسبة التسمية دون أن يقرنوا معها العقيقة.

وعندما يقترب اليوم السابع يقوم والد الطفل بإرسال دعوات لأصدقائه، بضرورة القدوم لشرب القهوة، بعد ظهيرة اليوم السابع. وفي غالب الأحيان لا يعرف المدعوون سبب الدعوة. ولذلك فهم في حل من الالتزامات التي تترتب على بعض هذه المناسبات. لكن في بعض الأحيان يذكر للمدعوين أن الدعوة بمناسبة مرور أسبوع (السابع) على المولود. وفي هذه الحالة يسأل المدعو هل هي مناسبة التسمية؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب، لزم المدعو أن يذهب في الليلة التي تسبق اليوم السابع، من أجل المساعدة في ترتيبات الحفل. وفي الغالب تقرع الطبول (الزير) بعد العصر أمام بيت المضيف، وذلك لإعلان مناسبة التسمية، حيث يتجمع الأصدقاء بعد الغروب، وأول ما يقدم للمدعوين القهوة، حيث تدور في أثناء تقديمها أحاديث المجاملة بالتهنئة بالمناسبة السعيدة. بعدها يصعد أحد الشباب من أفراد العائلة إلى مكان النساء لإحضار الطفل الذي يكون ملفوفاً بقطعة من القماش (كوفلة) تتلألأ بالذهب والجواهر، والطفل محمول في سرير صغير جميل، وتحته فرشة صغيرة (طراحة) مغطاة بالستان المطرز على شكل نجوم فضية. وعندما تقوم النسوة بتسليم الوليد للشاب يقمن بالغظرفة التي تصاحب المناسبات السعيدة في العادة، في كل البلاد العربية بلا استثناء، ويقوم الشاب بتسليم الوليد إلى أحد العلماء[1] أو أحد الأقارب المدعوين إلى الاحتفال، حيث يقوم باقتراح الاسم المناسب له، ويذكر اسم الله ثم يؤذن في أذن الوليد اليمنى، بصوت منخفض، الأذان المعتاد للصلاة، وفي أذنه اليسرى الإقامة، وبعدها يقوم العالم بإلقاء كلمة قصيرة يوضح فيها أهمية التسمية التي تعطى للطفل، والتي يتميز بها الناس بعضهم عن بعض، وفي النهاية يصرح بالاسم الذي اختاره للطفل. وفي العادة يقوم الوالدان باختيار الاسم، أما حينما يترك الأمر إلى الشيخ، فإن هذا الأخير يقوم بعمل استخارة قبل التسمية، أو يختار له اسماً شهيراً، وغالباً ما يكون

---

(١) يفتخر مفتي الشافعية بمكة أحمد زيني دحلان في تاريخه عن مكة أنه عهد إليه بتسمية أحد أبناء شريف مكة. (المؤلف).

تاريخياً، ليكون قدوة للطفل في المستقبل. وفي العادة يقول الرجل الذي يعهد إليه بالتسمية: «سميتك كما سماك الله فلاناً»[١]. ثم يقوم بوضع مبلغ من المال بجانب الطفل يتراوح في العادة بين نصف دولار وخمسة دولارات. ويؤكد المكيون أنه في السابق كانت تهدى للأطفال في مثل هذه المناسبة مبالغ كبيرة من المال، حتى إنه كانت تقدم لهم بعض العقارات هديةً بمناسبة التسمية. وينهض المدعوون بعد ذلك حيث يقدم كل منهم هديته للطفل[٢]. ويقوم الخدم بعد ذلك بوضع طبق من الحلوى يتراوح وزنه بين ٠,٥ ـ ١ رطل أمام كل واحد من الحضور، حيث يقوم الأخير بلفه وأخذه معه إلى منزله. والحلوى التي تقدم في التسمية هي الأبنوتة (جمع أبانت)، وهي في العادة أسطوانية الشكل بطول يقارب العشرين سنتيمتر. ويصطف أفراد العائلة عند خروج المدعوين أمام الباب الخارجي لوداع المهنئين. ويكون اصطفافهم في الغالب حسب العمر ودرجة القرابة. إن الضيف حينما يقدم التهاني يقول: «مبروك إن شاء الله»، ويكون الجواب في العادة (ربنا يبارك فيكم، شكر الله مسعاكم) وفي العائلات الكبيرة يتم إحضار المغنيات من النساء، اللواتي يقمن بأغاني الزواج، على مسامع النساء اللواتي يحتفلن بهذه المناسبة.

حفلة التسمية

وفي اليوم التالي يبدأ تحضير الطعام قبل الظهيرة. وفي مثل هذه المناسبات يستأجر طاه (طباخ) يقوم بإحضار القدور وإشعال

---

(١) إن الأسماء التي يعطيها المكيون لأبنائهم هي الأسماء نفسها المتداولة والمعروفة في كل بقاع العالم الإسلامي. ومن الجدير بالذكر أن هناك أسماء تطلق في الغالب على الرقيق مثل: أمان، فرج، يسر، جوهر، ألماس، مرجان، فيروز، عبد المولى، عبد الخير، خير الله، سعد الله، مرزوق، وبخيت، وغيرها. أما أسماء الرقيق من النساء فهي في العادة: فضة، ترنجة، عطر، غزلان، بخيتة، بركة، مبروكة، سعيدة، سعدة، وسيلة، سليمة، دام الهنا، جاد الكريم، خدم الله، باهر الزين، خيزران إلخ. . . (المؤلف).

(٢) هناك عادة ليست شائعة في الوسط المكي، ولكنها تحدث أحياناً، حيث يمرر المولود أمام المدعوين بالتناوب ويقوم كل واحد منهم بقص شعرة أو اثنتين من شعر المولود، بمقص يكون بجوار الطفل على المهد الذي يحمل عليه. (المؤلف).

النيران بالقرب من المنزل. والمكونات الأساسية للطعام هي اللحم والأرز بالاضافة إلى الكثير من البهارات. و(الزربيان) طبق يعمل في هذه الحفلات، ويتكون من الأرز واللحم يطبخان معاً في قدر كبير، ويضاف إليه السمن واللبن وأنواع البهارات المختلفة، أهمها الزعفران. إن الدعوة إلى القهوة في مكة تشبه دعوة الألمان لحضور حفلة الشاي. وتقدم أطباق الطعام الكبيرة التي يخصص كل واحد منها لخمسة أو ستة أشخاص. وقبل تقديم الطعام توضع السفرة المكونة من القماش أمام الضيوف، حيث يوضع عليها الطعام. ثم يقول المباشرون للحضور تفضلوا. ويقوم كل ٤ ـ ٥ أشخاص إلى طبق، ويبدؤون الأكل بعد التسمية. وما بين الساعة الواحدة، وحتى الثالثة يستمر الضيوف بالقدوم؛ لأن الوقت ليس محدداً بالضبط. وفي العادة تمتلئ جميع جنبات المنزل بالضيوف. وبعد تناول الطعام يغادر معظم الحاضرين، ويبقى عدد قليل منهم لتناول الشاي.

إن الوقت الذي تستغرقه المرأة بعد الوضع حتى تطهر يكون أربعين يوماً، وبعد الأربعين تقام حفلة صغيرة (عزيمة)، حيث تدعو المرأة صديقاتها لتناول الطعام الذي يستمر إلى قبل المغرب، ثم تقوم النسوة بالذهاب مع الطفل إلى الحرم، ويكون الطفل في العادة ملفوفاً بقطعة حريرية لامعة مطرزة بالذهب والفضة.

وعند الوصول إلى الحرم، يسلم الطفل إلى أحد الأغوات، الذي يقوم برفع الطفل إلى عتبة باب الكعبة ويقول: (يا الله إنني أقف على بابك وأصلي إليك). وفي هذا إشارة إلى أن الطفل الوليد عند وضعه على الكعبة، ينال حمى الله ووقايته وحفظه. ويبقى الطفل قرابة عشر دقائق على الباب، ثم يسلمه الخادم إلى أمه، بعد أن يتلقى هدية بهذه المناسبة. وبعد الانتهاء من صلاة المغرب، تعود النسوة إلى منزل الأم، ويبقين إلى ما بعد صلاة العشاء.

إن الحضارمة حديثي العهد بالعيش في مكة، هم الذين يقومون بعملية الختان[1] (الطهور) للولد حينما يبلغ عمر أربعين يوماً. وفي داخل الجزيرة العربية هناك بعض القبائل تقوم بعملية الختان حينما يصبح الولد يافعاً، وبطريقة مؤلمة وخطرة جداً. وتجلس خطيبة الشاب تراقب شجاعة زوجها المنتظر، الذي إن أبدى تألماً وعدم صبر طلبت الفتاة فسخ الخطوبة. إن المكي يقوم بختان أبنائه فيما بين الثالثة والسابعة، والفقراء المكيون ينتظرون الوقت الذي يقوم فيه أحد الجيران الأثرياء بختان أولاده، حيث يشاركونه المناسبة ذاتها، ويدفعون جزءًا من التكاليف، أما بالنسبة لختان البنات فتكون مناسبتها خاصة، حيث تقوم المرأة بدعوة صديقاتها فقط لحضور تلك الحفلة. أما الرجال فيستقبلون فقط أقرباءهم أو أصدقاءهم الخلّص. وقبل الختان بيوم يؤخذ الطفل في العادة إلى جولة حول المدينة، والضيوف في العادة يدعون إلى حفل الغداء أولاً. وبعد العصر تضرب الطبول عند باب المنزل إيذاناً ببداية الاحتفال، ثم يؤتى ببعض أتباع الطريقة الرفاعية، الذين يقومون بإنشاد الأناشيد الدينية على أنغام الطبلة والطار في طريقهم إلى الاحتفال. ويتبع هذا الموكب الإنشادي الطفل مثقلاً بالملابس المزينة بالذهب والفضة والجوهر، لدرجة أنه من الصعب رؤية وجهه. ويركب الطفل في العادة على حصان تعلوه الزينات. ولما كان الطفل لا يحسن الركوب فإن عدداً من الأشخاص يحيطون به لرفعه وتثبيته على ظهر الحصان، وتوضع تحت أنف الطفل بين الفينة والأخرى قطعة من القماش مغموسة بالعطر، وفي الموكب نجد إحدى جواري الأب الموكلة بتربية الطفل في الغالب، تحمل على رأسها مجمرة كبيرة (منقل) يحرق فيها بين الفينة والأخرى (الفاسوخ) والملح الذي يعطي رائحة غير مرغوبة، كما أن

---

(١) لقد ذكر العديد من الرحالة الأوروبيين عادة الختان هذه بالطريقة البدائية في غرب وجنوب الجزيرة العربية. ولقد علمت أيضاً أن مثل هذه الطريقة متبعة عند قبائل عسير وبعض القبائل في شرق وجنوب الطائف. ولقد ذكر المهندس صادق بك في كتابه «كوكب الحج» بعض القبائل التي تستعمل هذا النوع من الطهور. وعلى الرغم من أن الكتاب فيه بعض السطحية إلا أنه يحوي الكثير من المعلومات القيمة عن جغرافية وسكان الجزيرة العربية. (المؤلف).

الملح يحدث طقطقة مستمرة. والهدف من ذلك طرد الأرواح الشريرة وإبعاد عيون الحاسدين التي تكثر في مثل تلك المناسبة. وخلف الصبي يأتي مجموعة من أصحابه وأصدقائه بملابس جميلة، ولكنها أقل بهاء من ملابس المحتفل به، ويركب هؤلاء الخيول أيضاً. ويسير هذا الموكب عبر شوارع مكة الرئيسة حتى غروب الشمس، حيث يعود الطفل إلى البيت الذي بدأ منه الموكب. وعلى أنغام الموسيقى المكونة من قرع الطبول يعطى الغلام إلى النساء، ثم ينصرف الرجال من هذا الحفل.

وبعد العشاء وحتى قرابة منتصف الليل تبدأ حفلة النساء، حيث تقوم الجواري بالغناء والرقص. وتكون الأغاني في العادة من ذلك النوع الذي يغنى في حفلات الزواج. وفي اليوم التالي، ومع شروق الشمس، يحضر الحلاق (المزين) مصطحباً معه عدة الختان، حيث يقوم بإجراء العملية بسرعة، في حين يكون الطفل ملقى على ظهره، ويحاول بعض الحضور صرف انتباهه عما يدور بإعطائه الحلوى، ويوقف الدم في الغالب بوضع رماد القطن المحروق، ثم يوضع على الجرح الرباط (المرتك). وفي خلال أسبوع يكون الطفل قد شفي نهائياً، وبعد إجراء العملية يتناول الحضور طعام الفطور المكون في ذلك الصباح (الزلابية)[1]، وتنتهي عملية الختان بعد ذلك.

إن النقطة الأولى في التربية الجيدة في الإسلام هي تعليم الطفل قراءة القرآن وتجويده. وفي الفصل القادم سنعالج أهمية هذا الموضوع في الحياة العلمية والدينية.

القراءة في الكتّاب

ويجب أن نذكر هنا أن الأطفال يمضون طوال وقتهم في «الكتّاب» يتعلمون قراءة القرآن وتجويده من قبل المعلم (فقي أو فقيه). والأطفال الذين لا يتمكن آباؤهم من إرسالهم إلى المدرسة يتعلمون عن طريق السماع بعض سور القرآن الكريم القصيرة، والتي يحتاجونها لأداء الصلوات. وفي

(١) يذكر الأستاذ محمد عمر رفيع في كتابه مكة في القرن الرابع عشر ص٩٤ أن وجبة الفطور هذه تكون من (العريكة).

الكتاب يقوم الأطفال، تحت إشراف مدرسهم، بكتابة الواجب اليومي بالحبر على لوح خشبي يغسل بعد الاستعمال؛ لتعاد الكتابة عليه ثانية. إن على جميع الطلبة أن يحفظوا بعض السور القصيرة من القرآن غيباً عن ظهر قلب. والطالب المجتهد قد يحفظ القرآن كاملاً غيباً، وفي هذه الحالة يسمى (حافظاً).

إن الآباء الذين لا يودون لأولادهم الاختلاط بغيرهم، يقومون باستئجار فقيه يعلم أبناءهم في بيوتهم، أو قد تتفق بعض العائلات سويّاً على أن يعطي الفقيه درسه لهم مجتمعين. إن البنات يذهبن مع الأولاد إلى الكتاب حتى سن الثامنة، حيث يجلسن في البيت أو يذهبن إلى مدرسة (فقيهة) تقوم بتدريسهن. كما تقوم أيضاً بتدريس غيرهن من الجواري، أو من اليافعات اللواتي لديهن الرغبة في تعلم القرآن الكريم.

وعندما يرسل الأب طفله إلى المدرسة يقدم إلى الفقيه هدية متواضعة (استفتاحة) تتراوح بين ربع دولار ودولارين، ثم يتقاضى المدرس بعد ذلك، وفي كل خميس، مبلغاً آخر يتراوح بين نصف قرش وقرش ونصف. وفي كافة الأعياد والمناسبات يقدم الأب شيئاً من المال إلى المدرس يتناسب وحالته المادية. ويجلس الطلاب في حلقة دائرية حول المدرس، وكل منهم يدندن في قراءة الواجب الذي أسند إليه. والشيخ من خلال استماعه لكافة الأصوات يستطيع أن يصحح للمخطئ، سواء أكان الخطأ في اللفظ أم في التجويد، ويراقب الطلبة باهتمام عصا الشيخ الطويلة التي تصل إلى كل فرد تقريباً.

إن الطفل يجابه دائماً في بداية كل حديث معه بالسؤال التقليدي: إلى أي سورة وصلت؟ إن هذا السؤال قد طرحه السلطان المملوكي (١٥١٢م) على الشريف (أبو نمي)، حينما كان عمره ثماني سنوات، وذلك حين أرسله أبوه بديلاً عنه لمقابلة السلطان. لقد كان جواب الطفل ذكياً حينما قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح، الآية: ١]. وقد أعجب السلطان من ذكاء الطفل، الذي توقع له انتصاراً ساحقاً على خصومه من الأتراك.

وحينما ينهي الطفل نصف القرآن أو قرابة الثلثين (حتى السورة ٣٦ من القرآن) يخبر الفقيه الأب عما حققه طفله. وعندئذ يحدد الأب موعد الدعوة التي ستضم المدرس وكافة الطلاب. وفي اليوم الموعود يأتي الطلبة بملابسهم الجميلة، ويضع كل منهم لوح الدراسة على رأسه. ويكون مع هؤلاء الابن المحتفى به، وهو يحمل أيضاً (لوح الدراسة) ملفوفاً بقطعة من القماش موشاة بالذهب. ويمشي الطلبة على هيئة صفوف طويلة يتوسطهم المحتفى به، ويجوبون شوارع المدينة سوية، ينشدون الأناشيد الدينية، وبعض القصائد في مدح الرسول ﷺ، ويقرؤون بعض آيات القرآن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴿١٠٧﴾﴾. وحينما يعود هؤلاء إلى بيت زميلهم، يجدون أقرباء الطفل، كما يجدون شيخهم أيضاً، حيث يتناول الجميع طعام الوليمة. ويتقاضى الشيخ مبلغاً من المال يتراوح بين ١ ـ ٣ دولارات. إن هذه الحفلة تسمى (إصرافة)، ويتبعها بعد مدة حفلة أخرى تسمى (إقلابة) تكون حينما ينهي الطفل قراءة القرآن، حيث تكون الوجبة أدسم، وكذلك يحتفى بالشيخ بصورة أكبر. فالموسرون ينقدون الفقيه هدية قد تعدل ٣٠ دولاراً، كما يخلعون عليه بدلة أو جبّة. وغالباً ما تكون هناك تلاوة للقرآن الكريم في المنزل بعد جولة الطلبة وقبل وجبة الطعام.

الـولائـم

إن مما تحث عليه الشريعة هو إطعام الطعام، من خلال دعوات الأصدقاء والجيران والفقراء ونحوهم، وهذا ما يعرف في العادة باسم الوليمة، فيشترط للزواج الوليمة. وفي مكة لا يحيد الناس في مناسباتهم عن الخطوط العامة للشريعة. فكثير من المناسبات العائلية التي يحتفى بها عادة يقام بها بوصفها نوعاً من الوليمة المحببة في الشريعة. غير أن هناك بعض الاحتفالات التي تخالف نصوص الشريعة، وتتوافق مع التقاليد العرفية، الموجودة لدى مختلف طوائف مكة، والتي لم يستطع الإسلام أن يحررها من الخرافات الموجودة فيها، أو أن يمنعها نهائياً.

والوليمة إذا كانت خالية من المخالفات الشرعية هي في حد ذاتها قربى وواجب ديني. ويحرص الناس على عمل هذا النوع من الولائم في مناسباتهم الاجتماعية؛ ولهذا فهي أخلاق إسلامية حميدة. وفي مثل هذه

المناسبات يقرأ القرآن كما يتلى المولد وبعض أنواع الذكر. وفي العادة تكمل قراءة المصحف بهذه المناسبة، حيث يتولى المقرئون والحضور قراءة أجزاء معينة تنتهي بختم المصحف، وغالباً ما يتم ذلك في المآتم. وفي بعض الدعوات لا تكمل قراءة المصحف، وإنما يكتفى بقراءة بعض السور، ويكون الاهتمام منصباً على قراءة المولد، حتى ليقال: (إن القوم لديهم اليوم مولد)، بمعنى أن هناك عزيمة بإحدى المناسبات. وقد لا يعرف بعض المدعوين مناسبة الدعوة التي ربما تكون بمناسبة زواج، أو ختان، أو عودة من سفر، وإنما يكون الاسم المشهور للدعوة (أنها مولد). إن بعض الأصدقاء قد يجتمعون أسبوعياً لقراءة القرآن، وينهون احتفالهم بفقرات من المولد. وباختصار فالمولد اسم جامع لكثير من النشاطات، وهو في العادة تبجيل وتعظيم لسيرة الرسول الكريم ﷺ.

إن قصة المولد مطبوعة، ولا تحتوي على سيرة حياة الرسول، وإنما تعتمد على ذكر بعض الحوادث المهمّة. وحتى بعض الحوادث الأسطورية غير الصحيحة التي تسرد عن حياة الرسول الكريم، بصورة تتناوب بين الشعر والنثر، ويتخللها الكثير من الصلوات على الرسول الكريم مثل «اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه». وتبدأ قراءة المولد بقراءة الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب، الآية: ٥٦]. وتقرأ القصة في العادة من قبل الفقيه. وفي المدائح يشاركه الحاضرون. وفي وسط الغرفة التي يقرأ فيها المولد، توجد مبخرة تطلق روائح البخور الشذية باستمرار، وطوال قراءة المولد. ومن المقطوعات الشعرية التي تردد من قبل جمهور الحاضرين، وهم وقوف:

«صلى الله على محمد، ﷺ.

وكذلك نجد بعض الألحان الأخرى مثل:

«مرحباً يا نور عيني مرحبا

مرحباً جد الحسين مرحبا

مرحباً يا مرحبا يا مرحبا».

كما نجد بعض الألحان التي تمجد الخالق الكريم بتلاوة أسمائه الحسنى، يتخللها بعض الصلاة على الرسول ﷺ. ويتوجب لتلاوة أسماء الله الحسنى وجود مسبحة مؤلفة من مائة حبة، وهذا النوع من المسابح يحمله المكيون بأيديهم باستمرار. إن هذه (السبح) تقوم عند أهل مكة مقام العصا عند غيرهم من الشعوب، ويستعملها الشباب للتسلي بها بدل أن تستخدم في التسبيح في أوقات الفراغ.

ومن الأمور التي يجب ذكرها هنا ما يتلى عادة في المولد من التوحيد «لا إله إلا الله، لا إله إلا الله» مائة مرة. وفي أثناء القراءة يقوم المباشرون بوضع الطعام أمام المدعوين، ثم تُعطى إشارة إلى قارئ المولد الذي ينهي المولد بالدعاء، ثم يتناول المدعوون الطعام.

أما النساء فيحتفلن بمناسبة (الإقلابة) في المساء، حيث تغني المغنيات لهؤلاء الأغاني العادية المتداولة في الأعراس.

اختيار المهنة

وحينما ينهي الطفل تعليمه، يكون الأب قد خطط للمهنة التي سيقوم بها الولد مستقبلاً. وإن اختيار مهنة أخرى غير المهنة التي اختارها أبوه يكون مهانة للأب وتحقيراً له. وفي مثل هذه الحالة يجبر الأب ابنه على قبول المهنة التي يرتئيها أبوه، وهي في الغالب حرفة الوالد نفسها[1].

إن التجار الأثرياء أو علية القوم الذين لهم العديد من الأبناء، يسرون كثيراً إذا أصبح أحد أبنائهم رجل علم. والتاجر يدرب أحد أبنائه أو أكثر ليخلفه في المهنة. لقد زرت مرة أحد التجار من معارفي فقلت له: إن صوت ابنك (وعمره ١٣ سنة) قد أصبح خشناً، فوافقني على ذلك، وعلل هذا بأنه قد زوجه منذ بضعة أيام، ولما سألته عن السبب، قال لقد رتبت هذا الزواج؛ لأنني أريد الطفل أن يبقى معي في المحل، وأخاف أنه في حالة عدم زواجه أن يبني علاقات خارجية تبعده عني؛ لذا اخترت له الزوجة التي أعرفها.

---

(١) هناك مثل مكي شهير «صنعة أبوك لا يغلبوك».

إن الكثير من الناس هنا يفضلون أن يرثهم أبناؤهم في مهنتهم، ويحاول الأب أن يدرب ابنه على سر المهنة منذ نعومة أظافره، وقد يرسله ليساعد بعض الأصدقاء للأسرة؛ كي يتعلم ويتعود على هذه المهنة منذ الصغر. وإذا أبدى الطفل ميلاً للتعلم فإن الأب لا يمنعه من ذلك، ولو أنه يفضل في داخله أن يمارس الابن حرفة أبيه مستقبلاً.

إن التعليم في العادة مكلف. غير أنه يجلب للمتعلم المكانة العالية والاحترام، غير أنه لا يجلب دخلاً عالياً. وعلى الأسرة أن تساعد الابن مالياً عدة سنوات، وربما طوال حياته. إن التعليم في الغالب يجعل المتعلم عاجزاً عن ممارسة أي مهنة يمكن أن يكتسب منها دخلاً كبيراً؛ لأنه لم يتعود على الخشونة التي تستلزمها هذه المهنة. وقد يكون المتعلم كثير الشكوك حول شرعية العمل الذي يقوم به، وأن هذا العمل قد يكون مدخلاً للحرام فيتجنبه. ولهذا نجد هؤلاء ليست لديهم الدخول العالية والأموال الكثيرة التي يحلم بها آباؤهم.

تطلع الشباب نحو الطوافة

إن من يمتهن حرفة التعليم هم قلة. وإن أغلب الآباء يصارعون تطلعات أبنائهم ليصبحوا مطوفين، فمنذ نعومة أظفار الطفل، وهو يرى هؤلاء المطوفين يتمتعون بمنزلة عالية ونفوذ كبير في صفوف المجتمع المكي. وفي كل مكان تراهم يأمرون فيطاعون، وحتى مساعديهم يتمتعون بهذه الشهرة في أشهر الحج. حيث ترى شموخ هؤلاء ومظهرهم المتعالي على مختلف فئات الحجاج الذين يمشون خلفهم، ويستمعون إلى أوامرهم، ويتقيدون بهم في كل حركة يقومون بها.

إن مظهر الخيلاء هذا يستهوي الكثير من اليافعين؛ لأنه يرضي غرورهم من ناحية، كما أن جيوب المطوفين ومساعديهم المليئة بالنقود، تثير شهية هؤلاء من ناحية أخرى. إن المرء يسمع دائماً بعض هؤلاء الشباب يقول: لو أنني أستطيع جمع نصف قرش من كل حاج في سهل عرفات، لما وجد فقير، ولأصبح الكل أغنياء. ولهذا يفكر هؤلاء الشباب كثيراً في امتهان حرفة الطوافة التي يستطيع المرء من خلالها أن يكسب من المال، خلال

أسابيع، ما لا يستطيع جمعه خلال السنة كلها. وكل ما يحتاجه هو أن يعرف بعض الأدعية وبعض الأمور الخاصة بالحج، وهو أمر يعرفه أهل مكة منذ نعومة أظفارهم.

إن الأب يلقى عنتاً كبيراً في إقناع ابنه بالعدول عن مثل هذه التفكيرات الخيالية. وتجد الأب يقول لابنه: اسأل معظم هؤلاء الذين يقومون بالعمل عند المطوف، كيف يحصلون على لقمة العيش؟ وكيف ينتظر هؤلاء طويلاً ليحصلوا على أجورهم من الحجاج، ولا يتلقون في النهاية سوى بعض الهدايا التي لا قيمة لها. لقد عرفت أنا شخصياً بعض هذه الوقائع. فقد عرفت صبياً مجداً لأحد المطوفين، وقد كان يكدح ليله ونهاره مع الحجاج، عدة أسابيع، وكان أجره في النهاية قميصاً وأربع حبات من البطاطس ودريهمات قليلة. إنه لا يمكن الحصول على الثروة بمجرد تعلم وحفظ أدعية معينة. إن هذه الحرفة تحتاج إلى المثابرة والبراعة وقوّة الاحتمال، مع قدر كبير من الحظ. إن كل هذه التحذيرات التي تصدر عن الأب يقصد بها حث الشاب على أن يمتهن حرفة أبيه، وليس أدل على ذلك من قول الأب لابنه إن حال أولئك الأشخاص الذين لا يمتهنون حرفة الأب أو العم تشبه حالة مساعدي المتسولين، الذين يقومون بالتسول طويلاً، ولا يحصلون إلا على القليل النادر. ويضيف الآباء إلى ذلك أن بعض المطوفين أنفسهم لا يحصلون على المال الوفير، وقد يخسر بعضهم من جيبه سنوياً. وعلى الرغم من هذه المحاولات المتكررة إلا أن بعض الآباء لا ينجحون في إقناع أبنائهم بالعدول عن العمل مع المطوفين لسببين:

الأول: هو أن العمل في هذه المهنة بالنسبة للشاب يرضي غروره وخيلاءه، وهو من هذا المنطلق يشبه إلى حد كبير الشوق الذي يبديه الشباب الأوروبي للعمل في سلك الجندية في إحدى حاميات المدينة.

والثاني: هو حب وجاذبية المغامرة في الوصول إلى الحظ السعيد.

الاحتفال بالعودة من المدينة المنورة

إن (السرارة) أكثر بهجة من (الإصرافة) و (الإقلابة). والسرارة تكون في الغالب بعد القدوم من زيارة المدينة، حيث يأتي الأصدقاء والمعارف لتهنئة

القادم من المدينة بالعودة السعيدة. ويقوم المرء في العادة بدعوة معارفه وأصحابه إلى وليمة بهذا الخصوص. وإذا قدم هؤلاء في الأيام الأولى لوصوله، فإنهم عند قدومهم للتهنئة يشربون الشاي والقهوة، وتقدم لهم الحلوى وبعض الهدايا التي جلبها معه من المدينة. والسرارة تعمل مرة واحدة حينما تكون زيارة الرجل أو المرأة إلى المدينة أول مرة. (والسرارة) بالنسبة للرجال هي عبارة عن زيارة للتهنئة، يدعو فيها الزائر معارفه في غضون ثمانية أيام من عودته، ليحتفل بهم، أما النساء والأولاد فيعدّون هذه المناسبة عيد بهجة وسرور.

إن هؤلاء القادمين لا يدخلون مكة وعليهم وعثاء السفر، ولكنهم يخيمون في التنعيم (العمرة)، وينتظرون قدوم أقربائهم الذين يحملون لهم الملابس الجميلة المحلاة بالذهب والفضة[1]، وتسمى ملابس الزيارة. وتهيأ للأولاد الجمال أو الخيول المزينة بعناية. أما النساء والبنات فيحضر لهن في الغالب مهدٌ (تخت) محمولٌ على أعمدة يجره زوج من البغال. وبعد أن يلبس هؤلاء ملابسهم الأنيقة يتوجهون إلى المدينة المقدسة، وسط الاعتقاد السائد بأن القادمين من المدينة يتقدمهم وتسبقهم كل أنواع البركة.

إن بعض الناس يقومون بتقبيل أيادي الأطفال القادمين من المدينة، ويتمسحون بملابسهم من أجل البركة. فهؤلاء تشع من عيونهم النور (نور محمد ﷺ) الذي خلقه الله قبل خلقه العالم، وفي العادة يقول المهنئون للقادمين: إن وجوهكم منورة (تشع بالنور)[2].

وعند الظهيرة يكون الموكب قد وصل إلى مكة، حيث يشارك في الموكب قارعو الطبول، وبعض الأشخاص الذين يحملون راية (بيرقاً) مصنوعة من الحرير الهندي، الموشى بالذهب، ثم يبدأ هؤلاء بالطواف في المدينة، إلى

---

(١) إن الأطفال دون البلوغ ليس عليهم واجبات، ولهذا يلبسون الحلل الموشاة بالذهب والفضة. والذهب في الشيء حرام على الرجال، والاحتفالات التي تقام لهؤلاء بهذه المناسبات تشبه إلى حد كبير احتفالات النساء. (المؤلف).

(٢) لا شك أن هذه العادات ليس لها أصل في الدين وقد انتهت بفضل الله في الوقت الحاضر على رغم أنها كانت سائدة في الماضي.

أن يصلوا إلى بيت الزائر، حيث يدخل البيت ويتبعه أصحابه، حيث يجدون الطعام قد أعد لهم فيتناولونه وينصرفون.

أما بالنسبة للنساء فالسرارة تبدأ بعد العشاء حتى ساعة متأخرة من الليل، حيث تستمع النسوة إلى أغاني الجواري ويشربن الشاي والقهوة والشربات وربما يدخن الشيشة.

وفي الصباح تتناول العائلة الزلابية على أنها وجبة إفطار، وبعد شروق الشمس يأتي الجيران والمعارف البعيدين لتقديم التهاني. ويحتفل بهؤلاء بأن يقدم لهم الشاي والقهوة والحلوى ثم البخور، ويستمر ذلك إلى قبيل الظهر، حيث يقوم الخدم بتهيئة المكان، وإعداد الطعام للحفلة التي ستجري بعد العصر، تلك الحفلة التي يسبقها قراءة المولد. وإذا كان عدد الحضور كبيراً، فإن المدعوين يوزعون على البيوت المجاورة.

إن بعض مظاهر هذا الاحتفال يخالف الشريعة. إن من يدخل مكة يجب أن يدخلها بسكون ووقار وبملابس الإحرام، ولا يدخل بمثل هذه الخيلاء على قرع الطبول والأناشيد. إنك لتجد أقل الناس مرتبة يدخل البلد الحرام راكباً وكأنه أحد أبناء الأمراء. إن أهل الصلاة من سكان البلدة المقدسة يستاؤون لهذه المناظر، ويهز الواحد منهم كتفه، ويظهر اشمئزازه قائلاً: في وقت الخلفاء الراشدين لم تكن تلك الترهات موجودة. إن الناس لم يكونوا يبنون بيوتهم أعلى من الكعبة، ولم يكن المرء ليدخل مكة إلا بملابس الإحرام. على الرغم من أن هؤلاء يترجلون عن خيولهم أمام بيت الحاكم (شريف مكة).

إن هناك في مكة الكثير من المناسبات التي يشبه الاحتفال بها الخطوط العريضة لما استعرضناه آنفاً، غير أن الشيء الذي يجلب الانتباه، ويحتاج إلى شيء من التفصيل، هو حفلات الزواج.

حفلات الزواج

يجب أن نلحظ أولاً أن الوصف الذي سنقوم بسرده يقتصر على الزواج الأول.. حينما يتقدم الشاب للزواج من امرأة عذراء (بنت البيت) أول مرة. وأن الرجل الذي له مكانة مرموقة في المجتمع لا يقوم بالأعمال التي هي في العادة لصبي غر حديث السن، كما أن الموضوع سيكون سخيفاً بأن

تكرر العملية بالنسبة إلى المرأة التي تتزوج مرتين أو ثلاثاً. وحينما تكون العروس أرملة أو مطلقة، ويكون العريس كبيراً في السن، فإن الاحتفال بزواجهما يعتمد على الظروف. وفي الغالب يقيم الزوج حفلة لمعارفه وأصدقائه بعد أيام من زواجه، أما المرأة فتدعو النساء إلى بيتها قبل الزواج، وتحتفل بهذه المناسبة قبل الذهاب إلى بيت الزوجية، حيث تقوم المضيفات بالغناء لها كالعادة. أما المرأة التي سبق لها الزواج فإنها تفكر كثيراً في النفقات التي تترتب على ذلك، الأمر الذي يؤدي إلى عدم إقامة مثل هذه الحفلات. إن هناك العديد من الزيجات تتم بدون مراسيم واحتفالات. ففي يوم الخطبة تنقل ملابس المرأة إلى بيت الزوجية، وتقوم المرأة ذاتها بالقدوم إلى بيت زوجها في المساء. وهذه العادة تتبع إذا كان الزواج مؤقتاً. وهذا النوع من الزواج غير جائز شرعاً، وهو ما يعرف بزواج المتعة. إن مذهب الشيعة يجيز هذا النوع من الزواج، الذي يستخدم عندهم للزواج بأكثر من أربع. غير أن الذين يتعاطونه من أهل السنة هنا، هم خارجون عن أحكام الشريعة؛ لأن الزواج عند أهل السنة إذا قيد بزمن فهو باطل. إن الاتفاقات الجانبية التي تصاحب هذا الزواج يكون الالتزام بها أدبياً، فعلى المرء أن يطلقها في أي وقت، أو أن يلتزم بكذا وكذا من الشروط، فالقادم من المدينة مثلاً يمكنه أن يتزوج بهذه الطريقة، وعند ذلك تسأل المرأة كم المدة التي ستبقاها هنا؟ وماذا تفعل بي بعد مغادرتك؟ فإذا كان الجواب على سبيل المثال ثلاثة أشهر فقط فتنظر المرأة في القيمة المطلوبة، عشرة دولارات للمهر، واثنا عشر دولاراً مصاريف معيشة للشهر الواحد، مضافاً إلى ذلك نفقات العدة وهي ثلاثة أشهر. وتشترط المرأة أن يدفع لها المبلغ كاملاً منذ البداية، وهكذا يتم زواج المتعة ـ مع الأسف ـ لبعض أفراد أهل السنة الذين يقولون بأن زواج المتعة هو حرام وزنى وهو عادة مبتدعة.

إن الزواج بالطريقة السابقة أمر نادر الوقوع، وليس مقياساً للزواج الرومانسي الذي يتوق إليه المكي. إن الزوجة التي تخطب للزواج يكون عمرها بين ١٢ ـ ٢٠ سنة، والزوج يكون عمره ١٤ ـ ٢٥ عاماً. وعلى

الرغم من حداثة سن الزوج فقد تكون عنده خبرة في المعاشرة الزوجية، فمنذ أن يبلغ الطفل الحلم، يمكن أن يخصص له والده إحدى الجواري التي يتسرى بها. إن الزواج الأول لا يكون مبنياً على الحب، وربما لا يتوافق مع رغبات العريس. والذي يحدث أن يتخذ الولد موقفاً سلبياً على طريقة الزواج التي يرتبها والده، على الرغم من أن الإكراه ليس مستعملاً في العادة، وكذلك البنت من النادر أن تجبر على الزواج، والشيء المتوقع منها في العادة أن تطيع والدها في اختيار العريس لها.

الخطبة

والخطبة هي العرض المبدئي للزواج، وتقوم به إحدى قريبات العريس التي تزور في العادة أهل العروس، بقصد رؤية الفتاة ومراقبة أخلاقها وصفاتها. فإذا كانت الصفات الموجودة في البنت، هي التي يريدها الشاب، أعلنت القريبة عن رغبتها في المصاهرة، بقصد التعرف على وجهة نظر عائلة العروس، وإذا كانت العائلتان على شيء من الود والصداقة، فإنهم يعرفون بطريقة غير مباشرة الكثير من المعلومات عن إمكانية مثل هذا الزواج. ومع هذا فإن زيارة مثل هذه المرأة أمر تفرضه التقاليد المرعية، والقاعدة أن الفتاة المقصودة بالزيارة لا تحضر لاستقبال تلك المرأة، وعلى المرأة أن تطلب إلى الفتاة الحضور والجلوس معها، والمرأة في العادة تستطيع أن تعرف من خلال الزيارة والحديث إذا كان للفتاة وأهلها رغبة في هذا الموضوع أم لا.

وفي النهاية تقول المرأة للبنت: (إن شاء الله سنصبح أقارب)، وتتولى الإجابة في العادة الأم أو السيدة الكبيرة في المنزل، بينما تتظاهر الفتاة بالخجل والإذعان. وبعد أن تنقل المرأة كامل الخبر إلى الأسرة، ترسل الأسرة أحد أفرادها، وغالباً ما يكون متحدثاً لبقاً للذهاب إلى أهل العروس لتأكيد الرغبة في الزواج، والرجل في العادة يقابل بترحاب بالغ. وينتهي الاجتماع بتحديد موعد (الملكة). وبلباقة وكياسة يبحث موضوع المهر وتفصيلاته. وبالنسبة للمبلغ المطلوب ليس هناك الكثير الذي يمكن قوله حول ذلك، وفي وسط الأثرياء هناك مبلغ إضافي يدفعه الطرفان للعروسين. وفي العادة يدفع والد العريس أكثر مما تعهد به. وتجد عند بعض الناس أن

المهر

والد العروس يطلب مبلغاً إضافياً لا من أجل النقود، ولكن ليظهر أنه يهتم بأمرها أكثر من سواه. في حين نجد أشخاصاً آخرين، إذا أتاهم الرجل المناسب خاطباً يرضون به، ولو لم يقدم سوى مبلغ ضئيل من المال. وعند الفقراء يحاول هؤلاء طلب مبلغ كبير من المال، بحجة أن هذا المال سيؤول إليها؛ لأنهم سيدفعون منه كافة التجهيزات اللازمة مع الاحتفاظ بمبلغ إضافي للعروس على سبيل الاحتياط لوقت الحاجة. أما المعدمون فيتغاضون عن كل شيء، ويقتنعون بمبلغ ضئيل من المال، إلا إذا أثار جمال البنت أحد الأغنياء، فإن المبلغ سيكون في هذه الحالة كبيراً. وجمال المرأة وسحرها يزيد من مهرها. وفي الإسلام يشترط أن تكافئ الزوجة الزوج في المنزلة الاجتماعية، أما الزوجة فلها الحق أن تطلب زوجاً من منزلتها الاجتماعية أو أعلى.

وعادة ما تكون قراءة الفاتحة هي تأكيد الخطبة. وتستعمل أيضاً من قبل الناس كناية عن أن الفتاة مخطوبة (فلانة قرئت فاتحتها). وقبل الملكة بعدة أيام يرسل العريس أو والده بعض الأقارب الذين يدفعون المهر المتفق عليه إلى والد العروس. إن أحد هؤلاء الأقارب يحمل صينية فضية مغطاة بحوالي خمس ياردات من الشاش، وعليها القطع الذهبية والحلوى والهيل والفل، والجميع مغطى بقطعة من التل حواشيها مطرزة بالذهب. ويستقبل هؤلاء من قبل الرجال والنساء في بيت والد العروس بالترحاب. وفي أثناء قدومهم ترتفع أصوات الزغاريد (غطرفة)[1]. معلنة الفرح بهؤلاء، ثم يتناول القادمون الشاي والقهوة والشربيت (الشراب)، ويأتي المستقبلون ليشكروهم على الهدية التي قدموها (المهر). وبموجب الشريعة فإن هذا المال هو ملك للعروس نفسها، ولكن الأب هو الذي يشرف على وجوه إنفاقه بما يحقق مصلحة البنت. فهو يقوم بشراء اللوازم التي تحتاجها من هذا المال. وإذا كان الأب موسراً فلا شك أنه سيدفع مبلغاً إضافياً من جيبه. أما إذا كان

---

(١) لقد وصف بعض الرحالة «الغطرفة» باسم الولولة، فذلك الأمر ليس صحيحاً، فالغطرفة هي التي تشبه تغريد الطيور، بينما الولولة تكون في المآتم والأحزان. فالغطرفة علامة السرور والمرح، في حين الولولة هي علامة الحزن والبكاء. (المؤلف).

فقيراً فلا يستبعد أن يأخذ بعض الشيء يسد حاجته منه. وقبل مغادرة البيت يطلب أهل العريس إيصالاً بما دفع، ويكون لهم ذلك قبل مغادرتهم.

عقد القران

إن إجراءات عقد النكاح (الملكة) سهلة جداً، هي الإيجاب من العريس أو وليه والقبول من العروس أو وليها، ثم شهادة اثنين على العقد، وهناك أمور أخرى يجب مراعاتها وهي إعلام أكبر عدد ممكن من الناس عن طريق دعوتهم لحضور عقد القران، حيث يقوم أحد الأشخاص بالحديث عن أهمية الزواج لكونه ظاهرة اجتماعية يحث عليها الشرع.

ويتم عقد القران في المسجد، أو في بيت والد العروس، حيث يأتي المعارف والأقارب والأصدقاء من الرجال إلى المسجد، ويصطفون صفوفاً كأنهم يؤدون الصلاة، وفي الصف الأول يكون المسؤول عن توقيع العقد، وغالباً ما يكون شخصاً ينوب عن الولي في إجراء مراسيم العقد، ويسمى هذا (المملك) أو عاقد النكاح، حيث يقوم بإجراءات العقد. وفي القرى يوجد واحد أو اثنان، أما في مكة فلا تخلو أسرة واحدة من أحد هؤلاء، بالإضافة إلى المقرئين والمدرسين في المسجد الحرام وأئمة المساجد، وفي حالة الخلافات الزوجية مستقبلاً يعتمد القاضي في تقرير كثير من الأمور المتعلقة بالزواج على ثقة عاقد النكاح. وإزاء هذه الكثرة حاولت السلطات تحديد عدد هؤلاء ببعض الأشخاص في كل حي، غير أن هذا الإجراء لم ينجح، فقد احتج الأهالي على ذلك بكونه مخالفاً للشرع؛ لأن كل متعلم يمكنه أن يقوم بذلك.

وبعد برهة يأتي العريس مع أصدقائه ويجلس بجانب عاقد النكاح الذي يقوم بتلاوة بعض آيات القرآن والأحاديث النبوية المتعلقة بالزواج، وبعد ذلك يقول عاقد النكاح: هل تقبل الزواج من المرأة التي اخترتها فلانة بنت فلان، حفظها الله من كل سوء، على المهر الذي دفعت؟ فيرد العريس قائلاً: لقد قبلت الزواج بها على الشروط السابقة، ثم يقرأ الحضور الفاتحة التي هي نهاية عقد النكاح.

ومن المعتاد أن تجري مراسيم عقد القران (الملكة) في البيت بعد شروق الشمس بساعتين، ومن النادر أن تجري قبيل الغروب في المسجد. ويقدم في

حفلة عقد القران نوعان من الطعام: أحدهما حلو، والآخر حامض، بالإضافة إلى البقسماط (البسكوت). وقبل أن يغادر القوم ينال كل واحد منهم قرابة نصف باوند من الحلاوة السكرية أو الحلوى في طبق مكون من السكر (صحن بمكبته)، وفي طريقهم إلى الباب يودعهم أهل العريس شاكرين لهم حسن الزيارة والحضور.

ومن الشائع أن تجري الملكة في الحرم، وغالباً ما تكون بعد العشاء، حيث يتفق أصحاب الفرح مع المسؤولين في المسجد، وغالباً ما يكون المكان شمال غرب الكعبة وفي داخل الحجر، أو على سطح بناية زمزم (المقام الشافعي) حيث يصلي رجالات الدولة صلاة الظهر والعصر؛ لأن الشمس تكون شديدة الحرارة في صحن المسجد، وهذا المكان يسمح لهم بأداء الصلوات بجوار الكعبة وتحت الظل أيضاً، ويفرش المكان المخصص بالسجاد ويضاء بالسرج[1]. ولتوزيع الحلوى وقراءة الفاتحة هناك ثلاثة أشكال وأجملها هو أن يتلقى كل فرد نصف باوند (رطل) من الحلوى في كيس صغير من القماش الجميل. والشكل الثاني أن يقدم للمهنئ قطعة طويلة من حلوى يقال لها الأبنوتة، أما الشكل الثالث فيقتصر على تقديم المشروبات وهذا الشكل أقلها تكلفة. وهناك طريقتان لشرب الشراب الذي يقدم للضيوف قبيل مغادرتهم: الأولى أن يعطى كأس لأحد الضيوف فيشرب منها قليلاً، ويعطيها للذي يليه، ثم الذي يليه، ويملأ في حالة انتهاء الكأس ثانية، أما الطريقة الثانية فيقدم لكل مهنئ كأساً كاملةً، وعليه أن يشربها جميعها. وعند مغادرة الحضور يقف أهل العريس عند باب الحجر أو على باب زمزم يودعون المهنئين شاكرينهم على الحضور.

(١) هناك نوعان من السرج: التنور والفانوس. والتنور عبارة عن قنديل زجاجي مرفوع على حامل مخصص يضاء بالشمع، أما الفانوس فيضاء بالطريقة نفسها غير أنه يضاء في البيوت والمسجد ويحمل في الطريق. والضوء موجود داخل شكل سداسي من الزجاج أطرافه ملصقة بعضها ببعض بنوع من الصفيح الخفيف وتلتقي هذه الألواح الزجاجية في الأعلى سويّة لتسمح بتكوين مقبض يحمل به الفانوس أو يعلق به. وهنا يستخدم الزيت بدل الشمع، ومنع الأتراك دخول هذه الفوانيس إلى المسجد، للخطر الذي قد ينجم عنها، ولرائحة الزيت الكريهة. (المؤلف).

وأحياناً تجري حفلة الملكة في البيت بعد العشاء. وفي هذه الحالة يسمع الناس قرع الطبول أمام بوابة مكان الفرح، ويضاء الشارع الذي فيه المنزل بالقناديل أو البرمة (قنديل زيت زجاجي أسطواني الشكل)، ولا يقدم الطعام، وإنما تقتصر الدعوة على القهوة.

وبموجب الشرع يجوز للعريس والعروسة عمل الزواج في أي وقت، ولكن العرف يقتضي عمل إجراءات كثيرة واحتفالات خاصة يساعد بها الأهل والأصدقاء. وقبل الخطبة بأيام يقوم أهل العريس بإحضار وتوفير الكثير من المستلزمات الباهظة التكاليفة، التي تحتاجها احتفالات الزواج. إن كثرة النفقات التي تصرف على الطعام والشراب والإضاءة وأجرة المغنيين والموسيقيين وغيرها من النفقات الأخرى تجعل من العسير تجهيز بيت الزوجية بالأثاث اللازم إلا إذا كان العريس غنياً وموسراً. غير أن هناك عادات حسنة تجعل حتى من أولئك الفقراء قادرين على القيام بمثل هذه التكاليف عن طريق المساعدة التي تبذل لهم، فالأشخاص الموسرون الذين لديهم بعض مستلزمات العرس، يعيرونها بدون مقابل لهؤلاء، وحتى لو لم يكونوا يعرفونهم من قبل، وهناك بعض الحاجات التي يمكن استئجارها كالقناديل والمقاعد، وأخيراً فإن بعض المحسنين يتبرعون بالكثير من الحلي والزخارف الخاصة بالأفراح، أو يعيرونها فترة معينة. وهكذا فإن الفتاة الفقيرة إن كانت من عائلة طيبة يحتفى بها وكأنها ملكة زمانها.

تدور الأحاديث بين الفتيات على نحو: لقد كانت خطبة صديقتنا فلانة أمس، وفي هذا المساء سوف نحضر ليلة (الحنا)، وغداً سنعمل لها (الريكة)، وبعد ذلك ستكون (الغمرة)، وسيفرح العروسان (بالدخلة) في الليلة التي تلي الغمرة. وسنحاول شرح هذه الخطوات جميعاً.

تزيين العروس

وفي بعض الأحيان يأتي يوم (الريكة) أولاً، وفي المساء يكون (الحنا)، وعلى هذا تختصر حفلة الزواج يوماً. وتبدأ حفلة النساء في غروب شمس يوم (الريكة). وفي بعض الحالات يأتي الأقارب وأصدقاء الفتاة بعد ظهر يوم الحنا، حيث يتناولون وجبة الغذاء عند العروس، وفي

المساء تقوم النساء بتزيين يدي العروس ورجليها بالحناء. وتقوم امرأة متخصصة تدعى (المقينة)[1] بهذا العمل، في حين جميع الصديقات يراقبن ذلك. وبعد جفاف الحنا تقوم المقينة بحف الحواجب قليلاً، ثم تصفيف شعر الرأس إلى ثماني ضفائر، تربط كل واحدة منها بمثبت يسمى (العقص) مصنوع من الصوف الموشى بالحرير. ويوصل بكل ضفيرة خيط حريري تعلق به بعض القطع الذهبية القديمة، والتي تسمى (غوازي ومحموديات)[2]. وهناك نوع من النقود ترغب فيه نساء مكة يسمى (المشخص)، وهو عبارة عن عملة قديمة على أحد وجهيها صورة وجه آدمي، ويبدو أنها من أوائل ما يتداول من العملات في مكة. والموجود اليوم من النوع القديم الذي لا يمكن قراءة الخطوط أو الطغراء الموجودة عليه. وتوجد مثل هذه النقود عند الصيارفة وبائعي الذهب من أجل استعمال النساء فقط. وربما تكون من النقود الإيطالية القديمة من البندقية، وقد شاهدت إحدى هذه القطع التي تعود إلى الدوق اللويز موسينغو الأول (١٥٧٠ ـ ١٥٧٧م)، وعلى أحد وجوه هذه القطعة صورة السيد المسيح، وعلى الوجه الآخر نجد الدوق ينحني أمام القديس مارك. وإنه لمن المؤسف أن تجد أن بعض هذه النقود ترمى على قبر الرسول ﷺ الذي لعن الذين يتخذون أنبياءهم أرباباً من دون الله، كما تجد أيضاً أن نساء المسلمين يبدين شغفا ومحبة عن غير دراية بما تحمله هذه النقود التي تحمل صور السيد المسيح، وأحد مؤلفي الأناجيل الأربعة، وهذا مؤسف حقاً؛ لأن الإسلام يمقت صورة الآدميين، كما يعدّ أن الذين يعبدون السيد المسيح مشركين حقاً.

وخلال وضع الحناء، وتزيين العروس، فإن الحاضرات من النساء يقمن بالغناء على أنغام الطار المصحوب بالتصفيق.

---

(١) المقينة: هي التي تقوم بتزيين العروس وتنسيق الحلي عليها. (المؤلف).

(٢) إن التاريخ المكتوب على المحموديات ١٢٢٣هـ (١٨٠٨ ـ ١٨٠٩م). والمحموديات يساوي الواحد منها أربعة دولارات، أما الغوازي فقيمة الواحد منها دولار واحد. (المؤلف).

ويستمر الحال كذلك إلى منتصف الليل، حيث تقدم لهؤلاء على فترات الشاي والقهوة والشيشة والشربات. وفي العادة تنصرف النساء المتزوجات أبكر من العذارى اللواتي يبقين إلى ساعة متأخرة من الليل.

الريكة

وفي صباح اليوم التالي يأتي أقارب العروس لتجهيز (الريكة)[1]، والأريكة عبارة عن كرسي يشبه المنبر، ويصنع في العادة من الخشب ويغطى بالقماش. وهذه الأغطية بالإضافة إلى الستائر المعلقة به هي من الحرير والأطلس (الساتان) الكثير الزخارف. ومعلق بها الحلي والجواهر والقطع الذهبية والفضية على أشكال النجوم والورود المختلفة. وتجهز الريكة في إحدى غرف المنزل في العادة حيث تفرش بالسجاد، وتعلق فوق الباب نجمة فضية كبيرة مزينة بالجواهر، وبجانبها الكثير من السرج المضاءة، وتوضع الأريكة في صدر الغرفة من جهة الخلف، ويعلق بالريكة ذاتها السرج التي توقد بالشموع فقط. إن تجهيز الريكة معناه أن كثيراً من أمور حفلة الزواج قد انتهى إعدادها، وفي ساحة الحي (البرحة) توضع الأعمدة الخشبية التي توصل مع بعضها بعوارض خشبية أفقية، يتدلى منها الكثير من القناديل، ثم تجهز المقاعد الخشبية التي تغطى بالسجادة، وتسوى أرضية البرحة وترش بالماء، وفي العادة يعدُّ يوم الريكة يوم عمل للجميع، لإنهاء الاستعدادات اللازمة لحفلة الزواج. ولا بد من عمل غداء للمشتركين في التجهيزات (الفزيعة)، وفي الغالب يكون الغداء من الأرز واللحم، وترسل (معشرة)[2] من الطعام إلى أهل العريس وأقربائه، وتكون المعشرة في العادة مغطاة بغطاء من نسيج مصنوع من سعف النخل يقال له: (المكبّة). ويغادر الرجال البيت بعد العصر، وتبدأ المزيد من النساء بالقدوم، حيث يحيين الليل كله تقريباً بالغناء والطرب، وتدعى هذه الليلة بليلة (الغمرة). وطوال اليوم التالي يكون أهل العريس وأهل العروس مشغولين بالترتيبات النهائية لحفلة الزواج الختامية ألا وهي (ليلة الدخلة)، حيث تقرع الطبول طوال النهار أمام البيتين، وتقوم الفتيات بالغناء

---

(١) إنّ هذه الكلمة مشتقة من الأريكة وهي مكان جلوس المؤمنين في الجنة. والأريكة في اللغة: مقعد منجّد.

(٢) المعشرة: صينية تحوي طبقاً من الأرز وتوابعه من السمبوسة والسلطة والحلوى. (المؤلف).

والزغاريد، وقد تقدم للحضور حفلة غداء يوم الغمرة. ونظراً لضيق المكان يفتح الجيران أبوابهم لاستقبال الضيوف وقت تقديم الطعام.

إن الغناء الذي تقوم به المغنيات في مكة يطلق عليه اسم دانا ـ دانا، حيث إن جميع الأغنيات تبدأ بهذه المقاطع على صور وأشكال كثيرة. وبعضهم يؤكد أن لهذه الكلمات علاقة بكلمة دنا التي تعني اقترب، وربما ترمز لدنو الحبيب واقترابه أو الطلب منه بالاقتراب والدنو.

إن الأغاني في العادة تقوم بها مغنية واحدة، ومعها الكثير من الجواري اللواتي يضرب بعضهن على الطبلة، وبعضهن الآخر يقمن بدور المرددات (الكورس) في ترديد اللازمة، بينما يقوم الحضور من النساء بالتصفيق.

غناء الأفراح

والأغنيات التي تغنى في الأفراح هي تعبير عن المشاعر الوجدانية، لكن أجزاء الأغنية الواحدة غير مترابطة تماماً، حتى إنه في بعض الأحيان تجد المغنية من العسير عليها فهم جميع كلمات الأغنية. إن الغناء أمر غير مسموح به في الإسلام إلا أنه مرخص به للنساء. وسنتحدث عن المعاني العامة لأغنيتين من تلك الأغاني التي تغنى في الأفراح، ففي الأولى يشكو العاشق إلى ربه حبيبته التي تشبه الغزال وذات العيون السود. لقد جرحته ليلى ويود لو أن الحبيب يبادله الحب بدلاً من الألم الذي سببه له. وأن واجبها الديني يقتضي أن تداويه، وأنه سوف يموت إذا لم يعالج من قبلها، ولكن الطب والعلاج لا يجديان ولا يشفيان جرحه. وبعد ذلك يصف محبوبته ذات العنق الذي يشبه الغزال، وذات الأثداء التي تشبه السفرجل، وهو يشبهها بالزهور العطرة، والنباتات الفواحة، وأحياناً كالجوز واللوز والفستق. إن عطرها أخاذ وله تأثير كالخمر. وهي الآن تسعد بنومها بعد طول انتظار، ويتمنى لو أنه طير حتى يستطيع الاقتراب منها وهي نائمة. وأخيراً يدعو الحبيب على محبوبته أن تصاب بألم الحب الذي يعاني منه؛ لأنها حينئذ تقدر موقفه.

وفي الأغنية الثانية يشكو أحد العاشقين إلى محبوبته ليلى أميرة السيدات الجميلات اللواتي ينعم الله عليهن بالسعادة. إن عقله قد ذهب وإنه سيموت

دون أن يعرف سبب مرضه. وليلى هذه معطرة، وشذاها يحوي جميع أنواع العطور، ثم يقول الشاعر (آه) ثلاثاً، ثم يسأل أولئك الذين يعرفون الحب أين يجد الدواء، إن قلبه ميت بالجميلة التي تشبه القمر ليلة البدر في منتصف شعبان. آه يا من تعرفون الحب، من يعرف كيف يداوي جروحي؟.

إن مثل هذه الأغاني تكون مصحوبة بالدقاقين (الذين يضربون على الطار) والمرددين (الذين يقومون بغناء اللازمة وبعض الكلمات الأخيرة). كما أن الجمهور الهائم يقوم بالتصفيق ويردد يا الله يا ربي.

الغمرة

وفي يوم (الغمرة) ليس هناك متسع من الوقت لسماع الموسيقى، إن جميع الأفكار مشدودة إلى ليلة (الدخلة). غير أن النساء يبدين الكثير من الزينة ويرتدين الكثير من الحلي الذهبية والفضية والجواهر المحفوظة لديهن. وقد يستعرنها أو يستأجرنها من الأخريات. إن من يحضر احتفال (الدخلة) من النساء بعد منتصف الليل ينقسم إلى قسمين: الأول من يأتي بدون دعوة من النساء (متفرجات)، وهؤلاء الأبواب أمامهن مفتوحة في تلك الليلة، لهذا نجد العديد من هؤلاء يحضرن بدون زينة أو ملابس ثمينة. أما القسم الثاني فيشمل النساء المدعوات (الحاضرات المحضرات والمتحضرات)، وهؤلاء هن قريبات العروسين، وهؤلاء يلبسن الملابس الجميلة التي تساوي آلاف الدولارات. وكل زوجة تحاول إظهار مدى ثروتها أو مقدار ما يجلبه لها زوجها.

لباس النساء في الأعراس

إن الأقارب وصديقات العروس يضفرن شعورهن ثمان ضفائر، تتدلى من كل ضفيرة قطع المحموديات. أما الرأس فليس مغطى بالمحرمة المعتادة، أو بالمحرمة العليا التي تسمى (المدوّرة)، ولكن بغطاء رقيق يسمى (الياشمك)، يلف حول الرأس كالعمامة، وهذه تكون في العادة مطرزة بخيوط ذهبية. وبالإضافة إلى غطاء الرأس هناك الصديري والسروال المصنوع من (الرزة)، (وهو نوع من الحرير السميك مطرز بخيوط ذهبية كما يحوي بعض الصفائح الذهبية المدورة). وفوق هذا تلبس النسوة في العادة ما يعرف بثوب البنغالا، وهو من الحرير الرقيق الشفاف «درابزون أو

بمبازار» الموشى بالذهب، وهذا الثوب في العادة لشدة شفافيته، يظهر ما تحته من الثياب. والنساء اللواتي لسن قريبات للعروس لا يلبسن (البنغالا)، ولكنهن يلبسن لباساً أقل قيمة من البنغالا يدعى (السيف المسلول)، وهو من الحرير المحلى بالذهب على أطرافه السفلى وعلى ساعديه. أما النساء اللواتي لا تربطهن أي صلة بالعروس وهن بعيدات عنها، فيلبسن ثوباً خفيفاً له أزارير فضية. وبالإضافة إلى اللباس هناك الخلاخيل الجميلة، وهي من النوع الواسع المزين بالجواهر، والذي يسمى (مطرقة الماس). وهناك أيضاً مجموعة كبيرة من الحلي التي تعلق في الرقبة. إن ما يوضع في الرقبة يطلق عليه أسماء مختلفة مثل: (موريه، لبّه، عقد لؤلؤ). وهناك ما يطلق عليه في العادة اسم (عنبر شاه)، وهو عبارة عن قطعة حديدية أو ذهبية على شكل قلب، وتعلق على الصدر بخيط حريري عرضه حوالي ثلاثة سنتيمترات، وهذا القلب مرصع بالجواهر وحبات اللؤلؤ المثبتة بالذهب. وفي وسط القلب هناك زهرة محاطة بخمس أوراق مصنوعة من الجواهر ومثبتة بالذهب أيضاً. أما أطراف القلب فمطرزة بحبات اللؤلؤ.

إن قريبات العروسين يمكن تمييزهن في العادة حينما يلبسن القلادة. وهي مكونة من مائة حبة من التفاح، ويمكن أن تمتد من العنق إلى الركبة. ولما كان التفاح متوفراً في الطائف فيمكن الحصول عليه في موسم التفاح ببضعة دولارات، غير أنه قد يرتفع سعرها إلى عشرين أو أربعين دولاراً في الأوقات الأخرى. وقريبات العروسين حريصات على الحصول على هذا النوع من القلائد، وقد لا تحضر الزوجة المناسبة كاملة، إذا لم تتمكن من الحصول على قلادة من التفاح. وتعطر المرأة نفسها بأنوع كثيرة من العطور مثل الزهر أو الكادي أو مزيج مصنوع من زيت العود (يدعى عودة مقطوعة) والماء المحلى بالسكر والقرنفل والهيل وبذر الليمون وماء الورد. وفي مساء يوم (الغمرة) تأتي النسوة إلى بيت العروس، حيث يجلسن في العادة في مكان يعرف باسم مجلس (الستات)، حيث تقدم القهوة والعطور وبعض أنواع الحلوى. وفي العادة تحضر بعض النسوة مبالغ من النقود، تكون

ملفوفة بمناديل حريرية لتقديمها إلى المغنيات، وفي حوالي الساعة العاشرة يتجمع كافة أقارب العروس وصديقاتها في غرفة المجلس، أما أقرباء العريس فيبقون في بيت العريس ريثما يحضر الشباب العريس إلى البيت.

أما العروس فتكون في تلك الساعة موجودة في غرفة الريكة، وهي مثقلة بالعباءة التي ترتديها، والتي تحوي الكثير من الجواهر والحلي والزخارف، حتى إنه ليصعب على بعض هؤلاء النسوة أن تتحرك بدون مساعدة من إحدى الحاضرات.

وفي حوالي الساعة العاشرة يبدأ الرجال بالتوافد إلى بيت العريس، ويتجمع هؤلاء حول البيت؛ لأن المكان في الداخل لا يتسع، كما أن النساء في هذا الوقت يكن في الداخل. ويحضر المرء في العادة عدداً من السرج (الأتاريك) لإضاءتها أمام العريس في شوارع المدينة. ويقابل الرجال في العادة بقرع الطبول، وبينما تغني النساء في الداخل أغنية دانا ـ دانا، وكلما تقدم إلى البيت مجموعة من الشباب يحملون القناديل سمعت صوت الزغاريد من الداخل على أنها نوع من التحية. وبعد شرب الشاي والقهوة، ينزل العريس مصحوباً بالنساء إلى أسفل الدرج وإلى البوابة، وتسمى هذه بـ(الزفاف). وتغني المغنيات بعض الألحان الخاصة بهذه المناسبة، في حين يكون العريس يتصبب عرقاً من الخجل لوجوده بين هؤلاء النسوة. وعند الباب يترك العريس النساء ويصحبه الرجال. ويتكون الموكب من قارعي الطبول وحاملي السرج، ويتقدم العريس رجلان يحملان شمعتين كبيرتين[1] سمك كل واحدة منها قدر فخذ الرجل، وبجانب ذلك هناك الكثير من الشموع، وبعضها من الكريستال الضخم ويحملها رجلان. وأمام العريس يسير المنشد (الجسيس) الذي يتبعه ٣ ـ ٤ مساعدين أو مرددين. وبجانب العريس يمشي أصدقاؤه الصغار والصبيان غير الملتحين، ويأتي الموكب

الـزفـاف

---

(١) إن مثل هذه الشموع تستأجر في العادة في مثل هذه المناسبات. وتدفع الأجرة أو الثمن على كمية الشمع المحروقة من هذه الشموع. وهذا ليس شراء كشراء الحاجات المختلفة. فالسعر ليس محدوداً، كما أنه ليس استئجاراً؛ لأن بعض هذه الشموع يستهلك وبعضها الآخر يبقى. (المؤلف).

خلف هؤلاء. وقبل أن يبدأ الموكب بالمسير يستدير المنشد إلى الجمهور، ويقرأ الفاتحة وبعض الأشعار في مدح الزواج.

ومهما كانت مساكن العروسين متباعدة فإن الموكب يطوف كافة شوارع المدينة الرئيسة ببطء شديد. وبعد كل ٢٠ ـ ٣٠ خطوة أو أمام بيوت الوجهاء يقف الموكب ويستدير المنشد، ويرنم بعض القصائد الشعرية. وفي الغالب يكون شيوخ الحارات التي سيمر بها الموكب قد أعلموا بأن طريق الموكب سيجتاز عدداً من الشوارع، ويتلقى شيخ الحارة مبلغاً من المال نظير ذلك، يحتفظ ببعضه، ويوزع الباقي على شباب الحارة، الذين يحاولون فرض النظام في أثناء عبور الموكب. وإذا لم يعط شباب الحارة نصيبهم سيكون هؤلاء أول من يثير الشغب.

إن هدف الموكب هو المسجد الحرام. ويكون الدخول في العادة من باب السلام، حيث تترك قناديل الزيت والكيروسين في الخارج، وتدخل الشموع فقط. والهدف من ذلك هو أداء صلاة العشاء مع العريس، الذي يحمل معه في أثناء هذا الموكب سجادة الصلاة التي يلقيها على كتفه. والسجادة من النوع الكشميري الذي يطلق عليه (سليمي).

وإذا كان والد العريس رجلاً متعلماً، أو أن العريس نفسه قد درس العلوم الشرعية، ففي هذه الحالة يلبس العمامة على هيئة العلماء. وهي أن يلف فوق الكوفية قطعة من القماش الأبيض الكثير من اللفات تتراوح بين ٧ ـ ١٢ لفة، ويترك طرفها الخلفي متدلياً على ظهره. وبعد صلاة العشاء التي يؤم الموكب فيها أحد الحضور؛ لأن موعد الصلاة يكون قد انتهى، يتجمع الناس عند أحد أبواب الحرم الذي يكون في مواجهة بيت العروس، ويتقدم الموكب القناديل المضاءة، وعلى أنغام قرع الطبول يتوجه الموكب إلى البيت الذي تكون ساحته قد أضيئت بالشموع، وأرضيته قد فرشت بالسجاد، وصفت فيه المقاعد. وحينما يقترب الموكب يبدأ قرع الطبول من ساحة بيت العروس في حركة تنافس مع قارعي طبول الموكب المتقدم. كما تبدأ النساء في الداخل بالغناء بصوت مسموع، وتبدأ الزغاريد من كل جانب. ويتقدم أحد أهل العروس

من العريس ويطلب إليه الجلوس على كرسي خاص يوضع عادة في الوسط. وتوضع أمامه الشمعتان الكبيرتان، وبعد أن يتناول الجميع القهوة والشربات يدعو (المباشرون) جميع الحضور إلى طعام (الوليمة) الذي سيكون في ظهيرة اليوم التالي في بيت العريس.

وهذه الدعوة هي إشارة إعلان إلى إنهاء الحفل، ولا يبقى مع العريس إلا أقرباؤه وأصدقاؤه المقربون، وتكون الساعة حوالي الواحدة بعد منتصف الليل.

أما النساء فيجتمعن في غرفة العروس. ويكون موعد دخول العروس إلى (الريكة) قد اقترب. ويسمع المرء صوت النساء يغنين بغناء (الخريط)، الذي يصف في الغالب كيفية تسريح شعر العروس، وتجميله وتضفيره، وهذا في الواقع إشارة إلى انتقال العروس من غرفة السيدات إلى غرفة (الريكة). وعلى أنغام هذه الألحان تتقدم العروس محاطة بالمدعوات إلى الغرفة المجاورة. أما النساء غير المدعوات فينتظرن في الخارج أمام غرفة الريكة، وبعض هؤلاء النسوة يقمن ببعض الحركات التي يراد بها تعكير صفو الفرح، أو استغلال المناسبة لأخذ بعض المجوهرات والحلي. وأخيراً تجلس العروس على الريكة بصعوبة بالغة؛ لأنها مثقلة بكافة أنواع المجوهرات والحلي والزخارف، وهي تجد صعوبة في تحريك يديها ورجليها وحتى وجهها؛ لكثرة الزينة التي عليها، وفي الحقيقة هي معرض متنقل للجواهر والحلي الثمينة.

ويكون الغناء في العادة مما يشيد بالعروس وأهلها، وتحيط النسوة بالريكة، في حين تبقى النساء غير المدعوات خارج غرفة الريكة، ويوضع بجانب الريكة كرسي مغطى بقماش ثمين يعد لجلوس العريس.

وتنزل بعض نساء أسرة العريس إلى أسفل الدار مع المغنيات، ويقمن بإحضار العريس على أنغام الموسيقى والغناء. ويشعر العريس في العادة بالكثير من الحرج، حينما يرى نفسه وسط جمع غفير من النساء. وهناك بعض الرجال الكبار في السن من أقارب العروس يمكنهم الدخول أيضاً،

وتبدو النساء هنا من غير حجاب، الأمر الذي يزيد من حيرة العريس الذي لم يعتد إلا على رؤية قريباته وجواريه. وتطلب النسوة من العريس الجلوس بجانب عروسه، كما تأمره قريباته بعمل أشياء كثيرة منها: انظر إلى عروسك، ارفع يدها بدون خجل، ضع يدك اليمنى على جبينها واقرأ الفاتحة، وبعد إنهاء الفاتحة تعطيه العروس سبع (غوازٍ). وفي القديم كان العريس هو الذي يحضر هذا المبلغ ويعطيه إلى العروس، أما الآن فإن المرأة هي التي تقدم هذا المبلغ، وتأخذ نظيره من العريس سبع قطع من الذهب.

وتطلب النسوة أن يضع إحدى الغازيات على جبهة العروس أو على خدودها، أو على أرنبة أنفها، أو على أحد خديها. وفي العادة تضع النسوة بعض المواد اللاصقة على هذه الأماكن السابقة من العروس، بحيث تلتصق بها الغوازي ثم يطلب إلى العريس أن ينزع هذه الغوازي بالترتيب، وقد تعاد الكرة مرة ثانية وثالثة. إن هذا الاحتفال يسمى (نصة)، وهي تعني رفع العريس لعروسه على المنصة، وهي سرير نوم العروسين، وقد استبدلت الريكة (المذكورة آنفة) بها. أما هذا الاحتفال فيسمى بـ (الدخلة). وبعد ربع ساعة من التجارب المريرة ينسحب العريس ليجلس مع أصدقائه، وبعد برهة تكون (التعتيمة)، وهي عبارة عن وجبة خفيفة مكونة من الشريك أو السخانة والمربيات والجبن والزيتون. وبعد تناول الطعام يتفرق الجميع حيث يذهب العريس وأصحابه إلى بيوتهم.

وقبل أن تغير الفتاة ملابسها يكون أمام البيت المهد (التخت) المغطى بالسجاد محمولاً على زوج من البغال. والتخت يستأجره العريس لهذه المناسبة. ويرافق العروس بعض أقربائها في موكب صامت إلى بيت العريس. حيث يجلس العروسان سوياً في غرفة خاصة ثم يتناولان الفطور معاً. والفطور في العادة مكون من (الزلابية والشيرة)، وفي هذه الأثناء تكون الشمس قد طلعت حيث ينتهزها العروسان فرصة للنوم والراحة كل في غرفة خاصة.

طعام الوليمة

وبعد صلاة الظهر يجتمع الناس في بيت العريس لتناول طعام الغداء (الوليمة) المكون من الزربيان والسمبوسك[١]، والزربيان لحم وأرز، يعد أمام البيت في قدور كبيرة. أما الحلوى فتشمل بالإضافة إلى الفواكه والمشبك[٢] والفالوذة[٣] والفني[٤].

وفي خلال الساعة التي تلي صلاة الظهر يتوافد المدعوون باستمرار، وكلما أتى نفر من هؤلاء أخذوا مكانهم في ردهات البيت أو في البيوت المجاورة لبيت العريس. وفي إحدى قاعات المنزل تقام حفلة المولد، وفي النهاية يعطر المدعوون بماء الورد أو البخور، ويودعهم أهل العريس وأقرباؤه على الباب، ليشكروهم على قدومهم بهذه المناسبة.

وفي مساء ليلة (الدخلة) يذهب الكثير من الحمالين يتجاوزون المائة في الغالب، يصحبهم ١٠ ـ ١٥ شخصاً من الرجال الموثوقين (الأمناء) إلى بيت العروس، لينقلوا الأمتعة والحاجات المختلفة كافة إلى بيت العريس. ويراعى أن يكون عدد الحمالين كثيراً، لإضفاء مزيد من الانطباع بكثرة الأغراض المحمولة. وعند وصول هؤلاء إلى بيت العريس يضعون الأمتعة، ويحتسي الأمناء القهوة وينصرفون.

الصبحة

إن غروب شمس يوم الدخلة يعني ليلة (الصبحة) حيث يجتمع العريس وعروسه سويّةً، ولكن هذه المرة في بيت العريس، حيث تقوم النسوة برفع العروس على كرسي عالٍ، وهي متزينة بلباس عادي، يظهر مفاتنها وسحرها. ويشاهد على رأس العروس إكليلٌ جميلٌ من الياسمين (تعميرة

(١) السمبوسك: ويطلق عليه أهل مكة اسم «السمبوسة» وتصنع في العادة من عجين رقيق مفرود يوضع فوقه قدر من اللحم المفروم الناضج مع مفروم البيض المسلوق وحبات من الصنوبر المحمر (سن العجوز عند أهل مكة) ثم تجمع أطراف العجين على شكل مثلث ويقلى بالسمن (محمد عمر رفيع، مرجع سابق ص٥٣).

(٢) المشبك: هو عبارة عن حلوى مصنوعة من الدقيق والسكر على شكل أقراص مشبكة تقلى بالسمن ويضاف إليها الشيرة.

(٣) الفالوذة: نوع من الحلوى.

(٤) الفني: وهو عبارة عن مهلبية من دقيق الأرز المطبوخ بالسكر مضافاً إليه ماء الورد والهيل مع الحليب المحلى. (المؤلف).

الرأس) ويجلس العريس بجانب عروسه على كرسي صغير، وبعد استراحة ربع ساعة يغادر العروسان إلى مخدعهما، حيث يغيران ملابسهما، ويدخلان غرفة نومهما وسط أغاني المغنيات بلحنهن المعهود دانا ـ دانا. وتوضع تحت السرير قطعة من القماش تضعها أم العروس ليمسح بها بعض الدم، دليلاً على عذرية العروس.

ويقضي العروسان ليلتهما بدون إزعاج، وفي الصباح حينما يغادر العروسان مخدعهما إلى الحمّام تسرع أم العروس لتأخذ قطعة القماش وعليها الدم لتعرضها على النسوة المجتمعات من الليل، فتقابل النسوة ذلك بالزغاريد والبهجة.

ويجلس العروسان سويّةً لتناول طعام الإفطار. وبعد الانتهاء منه يقدم العريس هدية الصباح (صبحة أو تصبيحة) التي قد تكون خاتماً ثميناً مرصعاً بالجواهر، أو غير ذلك من الحاجات النفيسة والثمينة، وتعول المرأة على هذه الهدية كثيراً؛ لأنه يقاس بها مقدار حب العريس لعروسه.

وطبقاً للأعراف السائدة فإن الزوج يجب أن يمضي ثلاثة أيام مع زوجته، أما إذا كانت عذراء فيجب أن يمضي معها سبعة أيام. ويكون اليوم السابع يوم حفلة إضافية. وطوال هذه الأيام وابتداء من الساعة التاسعة صباحاً وحتى المساء تستقبل العروس صديقاتها ومعارفها وقريباتها اللواتي يحضرن بملابس عادية، ويتبادلن الأحاديث ويشربن الشاي والقهوة. وتسمع بين الفينة والأخرى بعض الأغاني يقوم بترديدها بعض الحاضرات لإضفاء جو من المرح على هذه اللقاءات.

إن العرض السابق هو مجرد وصف لحفلة زواج عادية، والأثرياء في العادة يقومون بإنفاق مبالغ طائلة بهذا الخصوص. ولهذا نجد أن الزواج في مكة يمكن أن يؤدي إلى إفلاس محقق في أغلب الأحوال. والمكي بطبيعته يحب الاستدانة والاقتراض من الناس، على أن يوفي ويكمل نفقات الزواج ومتطلباته. وإذا أراد الاقتصاد في النفقات فإنه يلقى معارضة شديدة من أقاربه وخاصة النسوة منهم.

ونأتي الآن إلى مناسبة الوفاة في مكة المكرمة. فبعد الوفاة يحضر الذي يقوم بتغسيل الجثمان، فالرجل يغسله رجل، والأنثى تغسلها الأنثى. والتغسيل يتم بموجب إجراءات معينة لا داعي لذكرها. ويعلم الجيران في العادة بحالة الوفاة من بكاء النساء بصوت عالٍ. ولا يوجد في مكة نساء محترفات من أجل النواح على الميت، غير أن نساء العائلة يبكين ويتنهدن على الميت، آه (يا زوجي) الذي أخذني للحج وللزيارة، والذي كان يحضر لي الثياب، يا روح حياتي، يا نور عيني، يا جمل المحامل.

ويسأل أحد الجيران أين هذا البكاء؟ إنه في بيت فلان. إذن أخوه المريض أو زوجته أو أبوه قد انتقل إلى رحمة الله.

وتنتشر الأخبار بسرعة ويجتمع الأصدقاء والمعارف لأن الدفن سيكون بعد قليل، وينتظر الجميع بجانب البيت حتى تخرج الجثة (النعش) أو يذهبون إلى المسجد حيث ينتظرون قدوم الميت من أجل الصلاة. وبعض الناس يرافقون الجثمان إلى المسجد. والصلاة على الميت يمكن أن تكون في البيت أو في المسجد. وفي الغالب تكون في المسجد، حيث توضع الجثة بجوار الكعبة. والصلاة لا تقتصر على صلاة الميت الحاضر، وإنما تقام على الميت الغائب أيضاً، سواء في البيت أو في المسجد وقد يصلى على الميت أكثر من مرة[1].

وعند انتهاء الصلاة يبادر الجميع إلى الجنازة، حيث يحمل النعش من قبل ١٠ ـ ١٦ شخصاً، ويكون ذلك بالتناوب من جميع الحضور. وفي الطريق تتلى بعض الأدعية غير أن المسموع منها هو قول (لا إله إلا الله). وعندما تمر الجنازة من أمام الحوانيت أو المقاهي تسمع كلمة (وحِّدوه)، فيرد الجميع: (لا إله إلا الله)، ويلتحق بعض هؤلاء بالجنازة، ويحملون النعش بعض الوقت بالتناوب، إلى أن تصل الجنازة إلى مقبرة المعلاة.

---

(١) يقول الأزرقي: لقد كانت عادة قديمة أن يؤتى بالجثمان إلى المسجد ولكن ذلك لم يكن موجوداً في زمنه غير أن قطب الدين الحنفي الذي كتب تاريخ مكة في نهاية القرن العاشر الهجري، يذكر أن دخول الجثمان إلى الحرم أمر مألوف في عصره، ويضيف أن الشافعية يرون ذلك مستحباً، في حين يمنعها الأحناف، ويشير قطب الدين إلى أنه وجد نصاً عند الأحناف يبيح هذا العمل. (المؤلف).

وعند وصول الجثمان إلى المقبرة، يوضع في اللحد بدون أي إجراءات أخرى. ويقوم أقرباء الميت في العادة بتوزيع الخبز على الفقراء الموجودين في المقبرة. كما يقومون بقراءة بعض آيات القرآن على الميت. وبعد أن يغادر المعزون يبقى أحد الأشخاص ليقوم بالتلقين، الذي هو عبارة عن أجوبة للأسئلة التي سيسأل عنها في القبر من قبل الملكين الموكلين بذلك[١].

وبجانب مدخل المقبرة يقف الأقارب بانتظام لتقبل التعازي من جمهور المعزين. والمعزي في الغالب يقبل الكتف الأيمن لكل أقرباء الميت قائلاً: «عظم الله أجركم» والجواب: «شكر الله سعيكم». أو «جزاكم الله خيراً» ومن لم يستطع الحضور إلى المقبرة، فإنه يقوم بالتعزية في البيت، بعد عودة أهل الفقيد إلى بيتهم.

ويبقى العزاء بضعة أيام، حيث يتوافد الناس إلى بيت الفقيد، بدون دعوات مسبقة. وتقدم لهم القهوة فقط، ولا يقدم الطعام في هذه المناسبة طبقاً لفتوى تقدم بها مفتي الشافعية، ونشرت بواسطة السيد البكري في (إعانة الطالبين) حيث ذكر أن هذا العمل غير مرغوب، وبدل ذلك على جيران الميت وأصدقائه أن يحضروا الطعام لأهل الميت، حتى يتفرغ أهل الميت لواجب التعزية. وقد طالب المفتي السلطات بمنع هذه العادة السيئة. وبعد شرب القهوة يأخذ كل واحد من الحضور جزءًا من القرآن ويتلوه. في العادة يكون الحضور أكثر من ثلاثين، غير أن بعضهم لا يجيد القراءة، وتستمر التلاوة مدة ساعتين، تجمع بعدها المصاحف، ثم يتلى دعاء ختم القرآن، ويقرأ الجميع الفاتحة، ويرددون لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ. وهذه التلاوة يوهب ثوابها إلى روح الميت بقصد المغفرة له والتخفيف من سيئاته، وتستمر القراءة على هذا النحو في الليلة الثانية والثالثة. وبعد انتهاء القراءة في مساء اليوم الثالث، تقدم للقارئين قطعة من البسكويت (حلاوة فلاسي)[٢]. وقد يستمر الحضور بالقراءة مدة ثلاثة أيام

---

(١) عادة تلقين الميت منتشرة في الكثير من بقاع العالم الإسلامي، وهي بدعة لا أساس لها في الشريعة. وقد زالت كل هذه المعالم الآن.

(٢) هي عبارة عن قطعة من السكر المعقود على شكل أقراص صغيرة ملبسة بالسمسم ملفوفة في =

أخرى، غير أنها ليست إلزامية. وفي مساء اليوم السابع يكون هناك ختم للقرآن، يتلوه قراءة المولد، ويقوم بها في العادة عدد من الأشخاص المتخصصين في هذا الموضوع لقاء أجر معين. وبعد مرور ٢٠ و٤٠ و١٠٠ يوم من الوفاة، تقام حفلات ختم القرآن والموالد عن روح الميت. وفي نهاية العام الأول للوفاة تقام مناسبة أخرى مماثلة، حيث يقرأ القرآن ثم يتبع بقراءة المولد ثم يدعى الحضور إلى وليمة، ويستمر الحال كذلك عدة أجيال، حيث يحتفل بالذكرى السنوية للميت (الحول)[1].

وإذا علم المكي أن أحد أقاربه خارج مكة قد توفي، فإنه يفتح بيته للعزاء وتلاوة القرآن، حتى ولو حدثت الوفاة منذ زمن بعيد. والشيء المدهش حقاً أن العزاء لا يقترن بالبكاء أو الحداد، فالابن حال وفاة والده يبدأ بتحضير الحاجات اللازمة للمولد. ويبادر إلى إحضار بعض الشيوخ لقراءة القرآن، ويجب ألّا يقل عدد هؤلاء عن الأربعة في الغالب، وليس شرطاً أن تكون أصواتهم حسنة، بقدر ما تكون قراءتهم سليمة من الأخطاء.

لم نذكر شيئاً حتى الآن عن دور النساء في المآتم سوى البكاء عند حدوث الوفاة. والواقع أن النساء يقمن بكثير من الأعمال التي لا يجيزها الشرع.

إن الحداد على الميت هو من اختصاص النساء اللواتي تؤهلهن طبيعتهن العاطفية لهذا النوع من العمل. وبموجب الشرع على المرأة المتوفي عنها زوجها أن تعتد أربعة أشهر، وعشرة أيام لا يسمح لها خلالها بالزواج ولا تتزين، ولا تخرج من بيت الميت إلا لضرورة ملحة. وباستثناء الزوج فالحداد على القريب والصديق لا يجوز أن يكون أكثر من ثلاثة أيام.

إن النساء في مكة يقمن بالحداد على أقاربهن أكثر من ثلاثة أيام، وتختلف مدة الحداد تبعاً لدرجة القرابة، وتتراوح أحياناً بين شهرين وأربعة أشهر. وتلبس المرأة في العادة خلال هذه المدة الثياب البيضاء، كما تستعمل أحياناً

= قطعة من الشاش (محمد عمر رفيع، مرجع سابق ص٩٨).

(١) لقد زالت والحمد لله جميع هذه المظاهر البدعية، وأصبح العزاء يقتصر على ثلاثة أيام من المغرب إلى العشاء فقط.

الثياب الخضراء أو السوداء، لكن الألوان التي لا تلبس في الحداد هي الأحمر والبرتقالي والأصفر، وجميع ذلك ليس شرعياً وإنما من اختراع النساء أنفسهن. وعند الوفاة تجهش النساء بالعويل والصراخ والنحيب، ولا يقتصر ذلك على ساعة الوفاة وإنما يستمر لعدة أيام. وفي العادة يساعد وجود النساء على استثارة كوامن البكاء حيث تشارك الصديقات والزائرات في ذلك، غير أن ذلك لا يمنع بين الفينة والأخرى من وجود أحاديث مختلفة حول شتى المواضيع. وكلما قدم عدد من الزائرات يسمع المرء في العادة أصوات البكاء والعويل. ويتخلل ذلك البكاء، ذكر بعض مآثر الميت التي تختلط مع النحيب والعويل.

إن البكاء الذي يعقب الوفاة مباشرة أو عند إخراج الجثمان من البيت يسمى (بالصياح). وفي خلال الأيام الأولى من الوفاة يكون التعديد. وعلى الرغم من وجود الأسى والحزن الحقيقيين، فإن فترة (التعديد) أصبحت فناً خاصاً تختص به بعض النسوة في المآتم، تشبه إلى حد كبير الزغاريد في أوقات الفرح. فهناك اختصاصات في هذا المجال. ففي أي تجمع نسائي، تجد من تجيد (الغطرفة). وكذلك من تجيد (التعديد)، وعند كلا النوعين أصبح الأمر لا يعدو عملاً تمارسه الواحدة بدون أي شعور داخلي بالفرحة أو الأسى.

وفي بعض المناسبات تتصرف النسوة تصرفات غير شرعية، ومخالفة لتعاليم الدين، فعندما يتوفى أحد العلماء أو السادة أو الفقهاء تحاول النسوة أخذ شيء من ماء الغسيل الذي يغسل به الميت ويضعنه على أيديهن ووجوههن أو يشربن منه بقصد البركة. ولو كان هذا الرجل حياً لقال لهن: أنتن من ذوات الأخلاق غير الحميدة.

الفصل الثالث

التعليم في مكة المكرمة

إن بعثة الرسول الكريم ﷺ لم تقتصر على نشر العقيدة الإسلامية، بل تعدتها إلى وضع الأسس الأولية للمعارف العلمية عند العرب. وقبل الإسلام كان الشعراء هم أهل المعرفة. وبجانب الإنجازات التجارية التي امتاز بها العرب، نجد بعض فروع المعرفة التي تناقلها بعض أفراد المجتمع، مثل السحر والكهانة والتطبيب. وفي رأي المؤمنين بهذه الرسالة، فإن النبي الأمي قد وضع حداً للجاهلية، كما وضع حداً للمعارف التي كانت سائدة، والتي كانت عبارة عن خدع وحيل شيطانية. وعن طريق الوحي الإلهي فقد تلقى النبي الأمي آيات القرآن الكريم التي أصبحت مصدر التشريع لأصحابه فيما بعد. لقد كانت هذه الكلمات الموحاة عن الله تعالى بواسطة رسوله هي مصدر المعرفة الحق للتشريع.

إن القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ لم يكونا يحويان علوماً محددة بعينها، فإن مهمة الرسول ﷺ[1] لم تكن لهذا الغرض، وإنما هي أن يوصل إلى أمته الأمور التنظيمية[2] التي عرفت عند الأقوام السابقين، والتي كانت نمطاً من أنماط حياتهم السائدة. إن آيات القرآن الكريم حتى الهجرة كان

---

(١) مهمة الرسول ﷺ هي الدعوة إلى توحيد الله وتبليغ رسالة السماء وشريعة الله الخالدة، وليست مهمته إيصال الأمور التنظيمية إلخ... إلا بقدر ما ورد في الوحي لأهداف وحكم لا تخفى.

(٢) التشريع الإسلامي جاء بالقواعد الأساسية العامة لجميع متطلبات الحياة الضرورية وغيرها.. إما قرآناً يتلى أو سنة نبوية عن الرسول الكريم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝﴾ [النجم، الآية: ٤].

طابعها التهديد والوعيد للمشركين، والترغيب والتشويق بصور الجنة، وكذلك نقل قصص الأمم الأخرى للعبرة، وأما القوانين التفصيلية لأمور الحياة العامة فقد كان الاهتمام بها محدوداً في مجتمع المسلمين الصغير في مكة. أما بعد الهجرة فإن الرسول الكريم كان القائد والمشرع بين أصحابه، يرجعون إليه في كل صغيرة وكبيرة. وقد كان التشريع مقتصراً على الأمور الضرورية حتى لا يلزم الرسول أصحابه بقواعد ثابتة في أمور كثيرة التغير. إن معظم الأجزاء التشريعية في القرآن الكريم تنزلت على الرسول ﷺ خلال فترة طويلة وبحسب الظروف والمناسبات بوصفها وسيلة لفض النزاع الحاصل بين أفراد المسلمين.

لم يكن في القرآن نظريات وقوانين؛ لأنها لا تناسب طبيعة الرسالة السماوية، كما أنها تتنافى مع الحكمة في إرسال النبي، ولم يكن المؤمنون بهذه الرسالة واضعي نظريات، وبذلك استمرت ثورة الإسلام الهائلة لتكون قوية الجذور في الأرض العربية، ولم يقم المسلمون من جانبهم بمعارضة هذه القوانين الإلهية بدافع إيماني لكونها منزلة. إن كل مشكلة من مشكلات الحياة هي أمر ديني لا يمكن حله إلا بكلمة من الله ورسوله.

لقد كان الجيل[١] الثاني من الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ أشد تعصباً ضد الوثنية. ولقد طرأت مسائل جديدة نظرية وعملية في هذه الفترة. وقد كانت المدينة المنورة خلال ثلاثين سنة من وفاة الرسول هي مقر الحكومة الإسلامية، كما كانت المنتدى الذي نوقشت فيه الحلول العملية لهذه المسائل. ولم تكن هذه المشكلات بأقل أهمية للحياة العامة والعقيدة من تلك التي[٢] قررها الرسول الكريم وجاء بها الوحي الإلهي. وحينما انتقل

---

(١) ليس هذا الجيل أفضل من جيل الصحابة رضوان الله عليهم وأشد على الوثنية، وليس ذلك تعصباً بل هو تمسك بالحق ونبذ الشرك.

(٢) لقد كانت الأمور الجديدة تعرض على الكتاب والسنة أولاً. فإن لم يكن هناك مجال لحلها فكانت تحل عن طريق الإجماع أو القياس، وبذلك برز الإجماع والقياس مصادر جديدة للتشريع الإسلامي. وعلى العموم فإن الإجماع والقياس والمصالح المرسلة تعتمد في خطوطها العامة على ما ورد في الكتاب والسنة وهما مصدرا التشريع الأساسان.

الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى انقطع الوحي الذي كان يتنزل عليه. وقد رجع المسلمون إلى أحاديثه وسيرته يتلمسون الحلول للمشكلات التي لم ترد لها حلول في القرآن الكريم. وأصبحت السنة المصدر الثاني للتشريع توازي بأهميتها نصوص القرآن الكريم. لقد وجد في ثنايا الأحاديث بعض المنسوبات التي لم تثبت عنه ﷺ وقد استعملت للاستشهاد بها لدعم وجهة نظر معينة. وإن هذا الاتجاه يمكن معرفته عند مقارنة الأحاديث الواردة في موضوع معين، كما يمكن تلمسه من خلال مجريات الأحداث التاريخية في العالم الإسلامي في تلك الفترة. وكما هو الحال عند المذاهب المختلفة في المسيحية التي يدّعي أصحاب كل مذهب منها أنهم الوحيدون الذين يفسرون الإنجيل بالطريقة الصحيحة، وأن غيرهم غير مؤهل لهذا التفسير، نجد شبيه ذلك عند الفرق[1] الإسلامية التي يرى كل منها أنه على صواب وأن غيره على خطأ. إن كل فرقة من الفرق الإسلامية تنتسب إلى الرسول الكريم وإلى تعاليمه وأخلاقه، وإن هذه الانقسامات التي كان ينجم عنها خلافات كبيرة في الرأي تستمر قرونًا طويلة، سرعان ما تزول بحيث يمكن القول إن الغالبية العظمى من جمهور المسلمين لا تتأثر بها.

وخلال الثلاثين سنة الأولى بقيت المدينة المنورة قاعدة السلطة التشريعية والتنفيذية، وكانت القرارات التي اتخذت في هذه الحقبة على جانب عظيم من الأهمية. إن انتقال الخلافة الإسلامية إلى أيدي الأمويين كان يعني بداية فصل الدين عن الدولة[2]، حيث إن السلطة السياسية بدأت تتركز في دمشق، أما

---

(١) ليست الفرق الإسلامية في خلافاتها المذهبية كالمذاهب المسيحية. فاختلاف المذاهب المسيحية اختلاف جذري في أصول العقائد المتعلقة بالمعبود. أما اختلاف الفرق الإسلامية فهو اختلاف في الفروع الاجتهادية التي لا تمس العقيدة وأصولها المتفق عليها.

(٢) إن نظرية فصل الدين عن الدولة نظرية غربية أملتها الظروف التي أحاطت بالديانة النصرانية، أما في الإسلام فالدين والدولة شيئان متلازمان. والإسلام نظام شامل فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء وهو مادة وثروة أو كسب وغنى وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء ورحم الله القائل: «إذا قيل لكم إلام تدعون؟ فقولوا ندعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه فإن قيل =

النواحي الدينية فقد بقيت في المدينة المنورة. وقد كان هنالك صراع يظهر أحياناً ويختفي أحياناً أخرى بين أهل المدينة ورجالاتها وحكام المسلمين في دمشق، إلا أن خلفاء دمشق لم ينسوا أن يبقوا على سلطاتهم في المدينة، كما أن التابعين من أبناء الصحابة لم يروا في الجانب الدنيوي من الإسلام، والذي تبناه الأمويون أي خروج عن تعاليم الشريعة.

ولم تمض مدة حتى قصر رجالات المدينة المنورة اهتماماتهم على الجوانب الدينية مع اعترافهم بالسيطرة السياسية لخلفاء دمشق. وهكذا ظهر مذهب الإسلام الفكري الذي نما فيه العلم بعيداً عن التأثيرات السياسية، على الرغم من أن هذه التأثيرات السياسية والاجتماعية قد أخذت بعين الاعتبار. ولما كانت الأمور المهمة يبت فيها أحياناً دون رأي علماء الشريعة فلم يخف هؤلاء رفضهم للحكومة القائمة بوجه عام. ولقد نجم عن ذلك أن المدرسة الفكرية قد اهتمت كثيراً بالمسائل النظرية. ولقد ازداد الاهتمام بهذه المسائل من خلال النصارى واليهود الذين دخلوا في الدين الجديد، والذين أسهموا في سد بعض جوانب الثقافة التي لم تكن موجودة عند العرب من قبل.

علوم الحديث

إن مجموعات الأحاديث النبوية كانت المصدر الأساس للمعرفة في الموضوعات التي اشتغل بها رجال الشريعة في القرون الأولى للإسلام، وفي خلال هذه الفترة كانت جميع النتائج المهمة لهذه الدراسات منسوبة إلى النبي ﷺ.

إن المشكلات التي كانت تطرأ في المجتمع الإسلامي كانت تجد إجابتها في الأحاديث النبوية، إذ لم تكن العلوم قد تفرعت بعد إلى علوم تخص العقيدة والتاريخ الديني والأخلاقيات. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الفقه والتشريعات المنظمة للحياة الاجتماعية، مثل النظافة الشخصية، والمظهر العام، وأنواع اللباس، وغير ذلك من الأمور، التي كانت تبحث جنباً إلى جنب مع موضوعات أخرى مثل اختيار الخليفة وقوانين الخراج والجزية.

= لكم هذه سياسة فقولوا هذا هو الإسلام ونحن لا نعرف هذه الأقسام».

ولم يهمل هؤلاء الباحثون الموضوعات الطبية التي حلت محل العلاج القديم المرتبط بالسحر والشعوذة، وكذلك موضوعات الأدوية وأنواع الغذاء وكذلك أسباب انتشار الأمراض، أهي بالوراثة أم بعدوى الملامسة؟ وبالاختصار فإن كل الموضوعات السابقة مهمة يتلمس لها الحلول بما ورد عن النبي ﷺ من نصوص وأحاديث. وعلى الرغم من الخلافات الجانبية فإن الإجماع الإسلامي كان منعقداً على كتاب الله الكريم وعلى سنة رسوله ﷺ، أما الاختلاف فقد كان ذا أهمية قليلة أمام الإجماع على الكتاب والسنة، ويعدُّ هذا الخلاف رحمة للمسلمين.

لقد استغرق جمع الحديث النبوي الشريف قرابة مائتي عام، وفي أثناء ذلك تطورت المعارف العربية تطوراً كبيراً إذ دخلت إليها التأثيرات الإغريقية من غرب آسيا وشمال شرق أفريقيا، وشملت جميع المعارف الموجودة في ذلك العصر، وإذا تركنا جانباً النواحي الدينية فإن الطبقات العليا من المجتمع الإسلامي قد تأثرت تأثراً كبيراً بالحضارة الإغريقية. إن الحضارة اليونانية بمعارفها العلمية الواسعة لم تستطع أن تصمد أمام الغزو العربي في ظل الإسلام. ولقد تبع الانتصارات العظيمة للمسلمين دخول الكثير من الناس في الدين الجديد.. وقد أظهر سكان البلاد المفتوحة تفوقاً كبيراً في ميدان العلوم بمجرد أن تعلموا اللغة العربية.

ظهور المعارف العربية

لقد كان تعلم اللغة العربية بداية تمهيدية اقتضت مجهودات كبيرة قام بها غير العرب في إرساء قواعد البحث العلمي المنظم. ولقد اتبع هذا الأسلوب في دراسة الموضوعات الأولية كقواعد اللغة العربية والبلاغة والمنطق والعروض والشعر وتصنيف القواميس. وقد أبدى علماء الحديث تحفظات على الاهتمام الكبير الذي نالته مثل هذه العلوم بدرجة أكبر مما نالته العلوم الإسلامية، غير أنهم كانوا يرون ذلك ضرورياً تمهيداً لدراسة العلوم الشرعية. إلا أنّ الاهتمام تعدى ذلك إلى جعل هذه العلوم التي هي في الأصل وسائل لفهم العلوم الشرعية غاية تطلب لذاتها من قبل الكثير من أفراد الطبقة المثقفة في المجتمع الإسلامي. ولقد زاد الأمر سوءًا حينما طبقت أساليب المنطق اليوناني على العلوم الدينية في بلاد الشام والعراق.

ولقد انطلقت صيحات التحذير من المدينتين المقدستين مكة والمدينة لتجنب مثل هذه الأمور، غير أن تأثير هذه التحذيرات لم يكن ملموساً، وذلك لأن المدينتين المقدستين فقدتا سيطرتهما على بقاع العالم الإسلامي.

إن عدم رضا العلماء في المدينتين المقدستين مكة والمدينة لا ينفي الحقيقة الماثلة بأن علماء الشام والعراق يمثلون قطاعاً كبيراً من المجتمع الإسلامي. ولما كان الإسلام لا يعترف بفارق بين المسلمين القدامى والجدد، وبما أن هؤلاء العلماء يمثلون في الغالب وجهة نظر الشعوب التي يعيشون بينها، كل هذه الأمور أجبرت علماء المسلمين القدامى في مكة والمدينة على قبول التحديات الجديدة.

أما في ميدان تفسير العلوم الشرعية فقد كانت النتيجة لصالح علماء المسلمين التقليديين في مكة والمدينة؛ لأن الجهود التي بذلت في هذا المقام تمت في الجزيرة العربية ومن قبل العلماء العرب. وقد تلقى علماء البلدان المفتوحة ذات الحضارات القديمة أعمال هؤلاء بالرضا والقبول، إذا وافقت هذه الأحكام البيئة المحلية الجديدة. غير أنه كانت تعطى في بعض الأحيان تفسيرات مخالفة. كما كان لديهم الحق في حل المسائل الجديدة بطرق مستقلة عن الحلول المطروحة سابقاً. ولم يؤد ذلك على المدى البعيد إلى وجود خلاف كبير حول المبدأ الأساس المتبع. وعلى مر العصور كانت تنجم صعوبات جديدة في فهم نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكان الناس في كل عصر يرجعون إلى ما كتبه علماء العصور السابقة لمعرفة الأحكام التي استنبطوها والحلول التي وضعوها. واختفت المعارضة التي كانت قائمة حول فصل الفقه (العلم بالأحكام الشرعية) عن مصادر التشريع. إذ إن الغالبية العظمى من العلماء كان هدفها معرفة الأحكام الصحيحة المستنبطة من مصادر الشريعة. أما مصادر الشريعة ذاتها فقد أصبحت بعد هذا الفصل علماً خاصاً يتولى البحث فيه علماء أكثر دراية، كما أن موضوعات البحث فيه كانت ترفا علمياً.

ظهور المدارس الفكرية

لقد انقسم الفقه إلى عدد من الموضوعات التي أصبحت تدرس من قبل أناس متخصصين في هذا المجال. فقد وجدت ثلاث معارف هي: تفسير القرآن الكريم، وتفسير الأحاديث النبوية، ونظرية استنباط الأحكام، أو ما يعرف باسم علم أصول الفقه. وأصبحت هذه الموضوعات تدرس للطلبة بعد أن يأخذ الطالب شيئاً من المعرفة في العلوم التمهيدية أو الأولية التي سبقت الإشارة إليها. وبالإضافة إلى ما سبق فإن للفقه مجالات أخرى، ويحتاج إلى زمن طويل لإتقانه. ولم يكن للمنطق دور كبير في تفسير الشريعة. وتحت وطأة التأثيرات غير العربية، دخلت إلى العلوم الشرعية بعض الأساليب التي تعتمد على المنطق. غير أن علم المنطق قد تضاءل كثيراً أمام علوم الحديث.

وعبر القرون المتتالية كان المسلمون يبتعدون عن أخذ الأحكام من القرآن والسنة مباشرة. وقد وجدت وجهات نظر متعددة حول الكثير من القضايا المطروحة، الأمر الذي نجم عند الكثير من المدارس الفكرية التي أخذت تتضاءل في عددها إلى أن انتهت إلى أربع مدارس فكرية هي المذاهب الأربعة. ومن الجدير بالذكر أن كل مذهب من هذه المذاهب يعترف بالمذاهب الأخرى. وإذا استثنينا المذهب الشيعي وبعض الفرق الصغيرة، فإن على المسلم أن يتبع أحد هذه المذاهب، وأن يلتزم بأحكامه وشروطه، وإذا أراد دراسة مصادر التشريع وجب عليه أن ينظر من خلال منظار مذهبه ومن خلال علماء المذهب القدامى.

إن دراسة القرآن الكريم لأغراض التعبد تلقى عناية كبيرة وتأخذ وقتاً وجهداً كبيرين من طلاب العلم، فقراءة القرآن في المدرسة لا تكفي بل يحتاج طالب العلم إلى تحصيل معرفة واسعة بأمور التجويد، ذلك الفن الصعب الذي يعالج الترتيل وطريقة النطق ومختلف أشكال القراءات.

المعتزلة

لم تكن العلاقة بين القديم والجديد في أمور العقيدة كتلك التي رأيناها في أمور التشريع والفقه، فالإسلام قد قرر ميلاد نظرية جديدة في العقيدة مخالفة لما كان عليه العرب في الجاهلية. ولقد أبدى المعتزلة مهارة فائقة في مناقشة أمور العقيدة، غير أن أهل السنة في دفاعهم عن العقيدة كانوا يلتزمون بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في الرد على هؤلاء المعتزلة. وإذا كانت أمور

التشريع قد تبنت المنطق الجديد في الأمور السطحية لا الجوهرية، فإن ميدان العقيدة قد شهد استخدام المنطق الجدلي في الرد على الخصوم، في المناقشات والصراعات التي كانت تدور حول العقيدة. والكتب التي خلفها هؤلاء كانت تناقش وتدحض الآراء الإلحادية بالسلاح الجديد وهو المنطق الجدلي. غير أن النتيجة لم تكن وجود نظام واضح يعتمد على المنطق في الرد على الخصوم، وإنما كانت النتيجة وجود صراع شديد بين السنة والمعتزلة ارتبط بهذا الموضوع.

لقد وضع دارسو العقيدة شروحاً مطولة في الدفاع عن العقيدة أمام الإلحاد مستخدمين المنطق التقليدي وبعض المصطلحات الفلسفية. غير أن النتيجة السيئة هي أن المسلمين من خلال معرفتهم بالفلسفة الإغريقية قد تسربت إليهم الكثير من الأمور التي كانوا يعتقدون أنها خاطئة. فلقد كان رجال الشريعة يؤكدون أن المنطق والفلسفة هي مجرد أدوات حالها في ذلك كحال اللغة العربية والأدب.

الإسلام والعلم

إن الإسلام كأي نظام ديني آخر ليس على وفاق تام مع العلوم الطبيعية والرياضية؟![1]، ومع هذا فإن الرجل المتدين لا يستبعد بالضرورة دراسة الفيزياء على الرغم من أنها لا تساعد في زيادة الوعي الديني لديه. ونجد علماء الشريعة في الغالب لا يحبذون الخوض في قوانين الخلق. فليس هناك قوانين في الطبيعة، وإنما هناك قدرة الخالق التي يمكن أن تغير طلوع الشمس من المشرق إلى المغرب، وعلى الرغم من كل ذلك فما زالت هذه العلوم الطبيعية تحتل مكاناً سامياً في الإسلام، ولم تكن في يوم من الأيام أداة تخريب لثقافة المسلم. إن العلوم التجريبية الخالصة لم تنسب مطلقاً إلى معارف الإسلام. أما الرياضيات فكانت الحاجة إليها لتطبيق قوانين

---

(١) إن الإسلام ليس كالأديان الأخرى التي تناهض العلم، فالدين والعلم لا تناقض بينهما في الشريعة الإسلامية؛ لأن الحقائق العلمية اليقينية لا تتنافى مع الحقائق الدينية، إذ كلاهما من مصدر واحد، أما ما يبدو من تناقض ظاهري في بعض الأحيان بين بعض الحقائق العلمية والدينية فمرده إلى أن بعض الأمور العلمية هي مجرد نظريات قد يثبت خطؤها بعد حين، أو أن بعض الحقائق الدينية من الأمور التي ليست قطعية الثبوت والدلالة.

الإرث، وكذلك تعيين مواعيد أوقات الصلاة، وتعيين اتجاه القبلة. غير أن هذه الموضوعات لم تكن لتدرس من خلال دوائر بحث تخصصية[1].

(١) علق الشيخ حمد الجاسر على الصفحات السابقة بقوله:
خصص «سنوك» الفصل الثالث من هذا الجزء للحديث عن «التعليم في مكة المكرمة» ويعد هذا الفصل من أوسع مباحث الكتاب وأغزرها معلومات، ففي الفصلين اللذين قبله يوشك أن يقتصر الحديث على مجرد وصف ما شاهد «سنوك» من مظاهر الحياة مع ملحوظات يسيرة عابرة، يضيفها إلى تلك المشاهدات.
أما في هذا الفصل فقد بدأه بتناول قضايا علمية يرتكز إدراكها على التفكير العقلي العميق، والمعرفة الواسعة بأصول المعارف والعلوم عند المسلمين، ويبدو أن هذا المستشرق مزجى البضاعة بهذه الناحية، ولهذا وقع في مقدمة ما كتب في هذا الفصل في بعض أمور دالة على قصور معرفته، وهذا مما لا داعي للتوسع في بحثه، وإنما أكتفي بالإشارة الموجزة إلى بعض ما عرض لي منه.
لقد تحدث عن علوم العرب في العهد الجاهلي فحصرها بقوله: «وقبل الإسلام كان الشعراء هم أهل المعرفة، وبجانب الإنجازات التجارية التي امتاز بها العرب نجد بعض فروع المعرفة التي تناقلها بعض أفراد المجتمع مثل السحر والكهانة والتطبيب».
كذا قال مع أنه فيما سبق من كلامه، عد التطبيب قائماً على أسس خرافية في الغالب، وكذا السحر والكهانة فهما من هذا القبيل، وما كانت المعرفة عند العرب تقتصر على ما يتصف به شعراؤها منها، بل كانت لهم معرفة واسعة في مختلف مظاهر الحياة المعروفة في بلادهم، ففي اليمن عرفت السدود لحصر مياه السيول، والاستفادة بها في الزراعة، وفي إقامة المحافد وهي القصور العظيمة المنشأة على قواعد هندسية بارعة، كما يتمثل هذا في آثارها وفيما استطاع علماء الآثار من كشفه مما يتعلق بجميع أحوال سكانها.
ولا تقتصر تلك الآثار الدالة على تقدم العرب في جوانب من هندسة العمران وإتقانه على ما عرف في جنوب الجزيرة، بل كشفت آثاراً أخرى في شمال الجزيرة ووسطها وشرقها، وليس المجال مجال توسع فيما للعرب من مختلف العلوم.
أما في العهد الإسلامي فقد أشار إلى أن بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام لم تقتصر على نشر العقيدة الإسلامية، بل تجاوزت ذلك إلى وضع الأسس الأولى للعلوم عند العرب.
وإنه بهذا يقرر ما سبق أن أشار إليه من ضحالة حظ العرب في العلوم، وكان الأولى أن يكون تعبيره أدق وأشمل، كأن يقول مثلاً: بأن تلك الرسالة المباركة قامت بوضع الأسس الأولى للعلوم الشرعية، مما وضع حداً لبعض ما كان متعارفاً في العهد الجاهلي من وسائل الخداع التي ينظر إليها بصفتها من العلوم كالكهانة والسحر وأمثالهما.
ولعل من هفواته، زعمه أن القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ لم يكونا يحويان علوماً محددة بعينها.
وهذا جهل منه بحقيقة الشريعة الإسلامية التي تكفل القرآن الكريم وسنة المصطفى عليه =

= الصلاة والسلام بإيضاح جميع أصولها وقواعدها، ولا يستغرب منه الجهل بمثل هذا، ففي عباراته يدل على أن نظرته إلى رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام نظرة يعتريها الشك، يتضح هذا من قوله: «وفي رأي المؤمنين بهذه الرسالة، فإن النبي الأمي قد وضع حداً للجاهلية، كما وضع حداً للمعارف التي كانت سائدة، والتي كانت عبارة عن خدع وحيل شيطانية». وقد قرر أن الأحاديث النبوية كانت المصدر الأساس للمعرفة لدى علماء الشريعة في القرون الأولى للإسلام، كما قرر أن المشكلات التي كانت تطرأ في المجتمع الإسلامي تجد إجابتها في الأحاديث النبوية، إذ لم تكن العلوم قد تفرعت بعد، ويمكن أن يقال هذا عن الفقه والتشريعات المنظمة للحياة.

وأضاف إلى ذلك علوماً أخرى ذات صلة باختيار الخليفة وقوانين الخراج والطب وأنواع الغذاء قائلاً: «وبالاختصار فإن كل الموضوعات السابقة يتلمس لها حلول بما ورد عن النبي ﷺ من نصوص وأحاديث».

ثم أشار إلى موضوع الاختلاف بين المسلمين قائلاً: «وعلى الرغم من الخلافات الجانبية فإن الإجماع الإسلامي كان منعقداً على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما الاختلاف فقد كان ذا أهمية قليلة أمام الإجماع على الكتاب والسنة، ويعد هذا الخلاف رحمة بالمسلمين».

ما دام الاجتماع منعقداً على كتاب الله وسنة رسوله، فلماذا الخروج عن هذا الإجماع، وقد أمر الله عباده بألا يختلفوا بعد أن أوضح لهم أن بالاختلاف أهلك الأمم السابقة، فقال جل ذكره: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة، الآية: ١٧٦]. وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران، الآية: ١٠٥]. وقال: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة، الآية: ٢١٣] إلى غير ذلك من الآيات، وهذا المستشرق عاش في عصر جمود فكري سيطر على العالم الإسلامي فانتشرت الضلالات والبدع والخرافات وضعف العلم، فتصدى الجهال للقيام بما كان مختصاً بالعلماء المحققين من أمور التوجيه والإرشاد، فضلوا وأضلوا حتى شاعت هذه الفكرة التي تمجد الاختلاف، بل تنسب إلى المصطفى ﷺ ما لم يقل: «اختلاف أمتي رحمة» وكيف يكون الاختلاف رحمة وهو سبب الفرقة التي هي سبب كل شر.

ومع أن «سنوك» قرر فيما تقدم أن الشريعة الإسلامية قامت على قاعدتين هما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إلا أنه أضاف إلى هذا إضافات ينبغي الوقوف عندها فقد قال: «لقد استغرق جمع الحديث النبوي قرابة مائتي عام، وفي أثناء ذلك تطورت المعارف العربية تطوراً كبيراً، إذ دخلت إليها التأثيرات الغربية وشملت جميع المعارف الموجودة في ذلك العصر».

قد يصح القول بتأثر بعض العلوم العربية التي لا صلة لها بالعلوم الشرعية بالأفكار الإغريقية من حيث منهج التدوين، وتنظيم قواعده في العلوم اللغوية، وفي طرق التأليف.

ومع أنه استدرك في آخر الكلام قائلاً بعد الإشارة إلى تأثير المنطق اليوناني على العلوم الدينية في الشام والعراق: «ولقد انطلقت صيحات التحذير في المدينتين المقدستين مكة والمدينة =

المعارف العلمية

يتطلب الأمر منا في هذا الكتاب أن نذكر بعض فروع المعرفة الأخرى، التي تعهدها المسلمون وخاصة في المدينة المقدسة، قبل أن ندخل قاعة المحاضرات الضخمة في مكة (المتمثلة في الجامع الكبير - الحرم) لنسمع أساتذة العلوم الدينية المذكورة سابقاً، ولنعرض بعض الأمثلة خارج هذه الدائرة العلمية[1].

الطب، الفلك

الطب كما سبق وصفه مجرد حرفة وليس علماً، وقد يعمد بعض الهواة لكتاب طبي قديم إذا تطلب الموقف ذلك، أما في الفلك فالريس (رئيس

= لتجنب مثل هذه الأمور، غير أن تأثير هذه التحذيرات لم يكن ملموساً، وذلك لأن المدينتين المقدستين فقدتا سيطرتهما على بقاع العالم الإسلامي».

ولكنه أضاف بعد ذلك أن هذه الأمور أجبرت علماء المسلمين في مكة والمدينة على قبول التحديات الجديدة.

أراني قد استرسلت فيما طرقه المستشرق «سنوك» من البحث في موضوعات ذات صلة عميقة في نشأة العلوم والمعارف الإسلامية لألفت النظر لأن في آرائه ما هو جدير بالرفض، ومنها ما يستدعي التعمق في بحثه، ولن أطيل بذكره، وتكفى الإشارة إليه.

وتحدث بعد ذلك عن ظهور المدارس الفكرية الناشئة، عن تجدد آراء وأفكار حول تفسير القرآن الكريم، وتفسير الأحاديث النبوية وطريقة استنباط الأحكام أو ما يعرف بـ «علم أصول الفقه» مشيراً إلى أن تلك المدارس انتهت إلى أربع، هي المذاهب الأربعة المعروفة، وأشار إلى ظهور المعتزلة قائلاً: «فالإسلام قد قرر ميلاد نظرية جديدة في العقيدة مخالفة لما كان عليه العرب في الجاهلية، ثم أثنى على المعتزلة في مناقشة أمور العقيدة مع التزام أهل السنة في دفاعهم عنها بنصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية في الرد عليهم»، وتوسع في الحديث في هذا المبحث.

ومن جهله بحقيقة الإسلام زعمه «أن الإسلام كأي نظام ديني آخر وليس على وفاق تام مع العلوم الطبيعية والرياضية أن المعرب الكريم أبطل هذه الفرية، فذكر أن الإسلام ليس كالأديان التي تناهض العلم، فالدين والعلم لا تناقض بينهما في الشريعة الإسلامية، لأن الحقائق العلمية اليقينية لا تتنافى مع الحقائق الدينية كلاهما من مصدر واحد، أما ما يبدو من تناقض ظاهري في بعض الأحيان فمرده إلى أن بعض الأمور العلمية هي مجرد نظريات قد يثبت خطؤها بعد حين، أو أن بعض الحقائق الدينية من الأمور التي ليست قطعية الثبوت والدلالة. «انتهى» (انظر المجلة العربية عدد شعبان، ١٤١٦ ص١٠٠ - ١٠١).

(١) لقد ظهرت ترجمة الصفحات العشر التالية في مجلة العرب تحت عنوان «التعليم في مكة مطلع هذا القرن» وقد استفدنا من نص الترجمة السابق مع بعض التعديلات الطفيفة التي اقتضتها ضرورات الصياغة. انظر العرب ج٧، ٨ س١٣ (١٣٩٩هـ) ص (٥٣١ - ٥٤٢).

المؤذنين وأيضاً فلكي المسجد) وبعض راغبي المعرفة هم الذين يعرفون التقويم، وتفسير بعض الظواهر السماوية.

الكيمياء

الكيمياء القديمة هي مادة الدراسة العقيمة لمختلف فئات أهل مكة. ولقد عرفت أشرافاً كانوا يأتون من وقت لآخر إلى الطبيب المذكور سابقاً، ومعهم مواد صفراء ناتجة عن محاولاتهم (الكيميائية) ليكشف لهم بواسطة وسيلة اختبار لديه أنه ليس كل ما يلمع ذهباً. وقد عرفت رجلاً مهتماً بالأدب أنفق كل أمواله على كيمياء تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة. وبعد ما فقد كل موارده وفقد رغبته في الدنيا كرس نفسه لدراسة العلوم الدينية. وأعرف شيخ السادة كان من الباحثين عن الذهب. ولذلك فإنه لا وجه للاستغراب في مطاردة هذا العمل العلمي الذي يتم في الخفاء. إن مسألة النفع من الكيمياء تجد استجابة ترضي معظم الناس. فالأتقياء يعرفون أن الله قادر على أن يغير من خلقه وأن يحول عنصراً إلى عنصر آخر، كما فعل في عصا موسى حينما تحولت إلى ثعبان، ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه، الآيتان: ١٩، ٢٠]. ولكن الرجل من أهل مكة يرفض استخدام نتائج العلوم الحديثة قائلاً: لقد أتت هذه الاكتشافات بالشر أكثر من الخير. وبالنسبة للطب الحديث يقول الرجل من أهل مكة: إنه لم يحقق شيئاً ضد الموت.

الجغرافيا

الجغرافيا موضع اهتمام من جوانب عملية متعددة، حيث يبحث أهل مكة في البلاد الأصلية للحجاج وتجارتها وحكوماتها واحتمالات الربح المأمول مع أهلها، ولم يعيروا بالاً لموقع لندن وباريس، فقد سمعت مرة رجلاً مرموقاً قرأ عن الأندلس في كتب التاريخ يسأل: إن كان هناك ثمة اتصال بري بين روسيا وأسبانيا، وكم تستغرق القافلة بين البلدين، وكان ذلك إبان نشوب الحرب التركية ـ الروسية. إن من يسافر من أهل مكة هو الذي يستفسر عن مثل هذه الأشياء.

التاريخ والسير

منذ الأزمنة القديمة، وقبل ارتباط التاريخ بالدعوة المقدسة كالسيرة النبوية وتراجم الصحابة، كان التاريخ مقبولاً وجذاباً لما فيه من عظة

وعبرة، مع أن كتّاب التاريخ تدفعهم عوامل أخرى مثل: كتابة تاريخ موطنهم لتسلية الناس، وكتابة تاريخ الأسر الحاكمة أملاً في مكافأة من الأمير الحاكم.

وفي مكة ومنذ القرن الثالث بعد الهجرة أصبحت الكعبة والبيئة المحيطة بها مركز اهتمام للباحثين في تاريخ البلدة، ومنذ القرن السادس أصبح مقر حكم الأشراف المركز الثاني لاهتمام المؤرخين. وحتى يومنا هذا يوجد رجال مثقفون يشغلون وقت الفراغ في كتابة الحوادث المهمة في حياة البلدة المقدسة. ويمكن أن يقال بصفة عامة: إن الرأي العام الإسلامي له تأثير قوي في المؤرخين مشابه لما له من تأثير في القضاء.

في كل عصر من العصور تدرس حوادث الماضي دراسة جيدة من خلال وجهة نظر العصر الحالي. وخلافات الماضي التي كانت تتشكل أساساً لوجود طراز من الفكر الموحد الجامع لم يعد لها وجود. وهكذا أصبح يطلق على معاوية وعلى عبد الله بن الزبير اللقب الواحد نفسه، وهو «سيدنا» على اعتبار أنهم آباء المسلمين. أما أجداد سيدنا محمد من الوثنيين فهم يعدّون في السيرة النبوية التي وضعها أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية في مكة (عام ١٣٠٣ هـ ـ ١٨٨٦م) من المسلمين المؤمنين وهم على ملة إبراهيم. ومما هو جدير بالذكر والشكر أن مؤرخي أحداث مكة مع عدم الإقبال على مؤلفاتهم، فإن تسجيلهم لأهم أحداث مكة لم يكن يعتريه نقص، مع قلة الرجال المثقفين المهتمين بهذه المؤلفات التي من الخطورة انتشارها لما تحويه من نقد شؤون الدولة وكبار الشخصيات.

المؤلفات المطبوعة والمتداولة

عندما كنت في مكة كان كتاب (تاريخ ابن الأثير) الشهير موجوداً في مكتبات بعض المثقفين، وأيضاً كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان، وبعض كتب التاريخ الأخرى التي تحوي حياة مشاهير الرجال تقرأ كثيراً وتستخدم في إظهار المعرفة في الأوقات المناسبة.

أما كتب التاريخ والسيرة المتعلقة بالعقيدة فإن الإقبال عليها أكثر، مثل سيرة الرسول محمد ﷺ وتراجم الصحابة، وكذلك مؤلفات مؤسسي الطرق

الصوفية والمذاهب المتميزة. وبصفة عامة كتب سير الأولياء. ومثل هذه الكتب تقرأ في مجالس الأصدقاء بغرض التثقيف والاستنارة أكثر مما هو لغرض التعليم.

ومن الأمثلة المميزة كتاب (السيرة النبوية) نقرأ في مقدمته عن وجود الكثير من المؤلفات المطولة في هذا الموضوع، غير أن هذا الكتاب قد نقل المسائل التي تهم هذا العصر. وقد كان الإقبال الفائق على هذا الكتاب، والذي هو عبارة عن سرد للأخبار على نطاق كبير، يبين كيف أن المؤلف قد فهم روح هذا العصر. وعلى الوتيرة نفسها أيضاً ظهر كتاب (تاريخ الفتوحات الإسلامية)[1] وهو مجموعة نصوص ووثائق حكومية، وقد تم طبعه في أثناء إقامتي في مكة في مطبعة الحكومة، التي كانت قد افتتحت حديثاً.

وقبل أن تبدأ المطبعة العمل في مكة كانت معظم المطبوعات العامة تأتي من القاهرة، وفي القاهرة أيضاً كانت تطبع مؤلفات كتّاب مكة، وبخاصة الكتب ذات الطابع الديني، على سبيل المثال كتاب (الأحاديث الستة) للكاتب المكي الشيخ حقي، والمطبوع في القاهرة في عام ١٨٨٢ ميلادية، والذي يبحث في موضوعات كثيرة، ولكنه يركز على التحذير من العادات غير الشرعية، والثقافة الملحدة الحديثة. وخاتمة الكتاب تظهر مضمون الكتاب كله حيث يقول: «من الأشياء التي تؤدي إلى عذاب النار والموجودة في عقول المسيحيين والملحدين، أنهم يضعون على السلع والبضائع التي يستخدمها الناس صوراً للكائنات الحية، حتى إنه أصبح لا يوجد منزل أو متجر أو سوق أو حمّام أو قلعة أو سفينة تخلو من هذه الصور، ربما يكون هذا إشارة إلى الصورة غير المحتشمة الموجودة على غلاف علب الثقاب (الكبريت) المصنوعة في بلاد النمسا، بينما لا يوجد مكان لملائكة الرحمة لينزلوا فيه عدا المساجد، وبعض أماكن قليلة أخرى. وحتى المساجد فإن الصور تدخلها مع المصلين

(١) تاريخ الفتوحات الإسلامية. هذا الكتاب يحتوي على تاريخ شامل من وجهة النظر الإسلامية من عهد محمد حتى عام ١٨٨٥ ميلادية. ومؤلفه أحمد زيني دحلان (المؤلف).

الذين يأتون وفي جيوبهم علب السجائر والدخان التي يوجد عليها مثل هذه الصور. لذلك فأنا أحذركم أيها الأخوة»[1].

وفي الكتاب نفسه يذكر طريقة معينة لقراءة السورة السادسة والخمسين من القرآن الكريم بصفتها وقاية مضمونة ضد الفقر أو عدم الإنجاب ويقول أيضاً: إنه إذا علقت امرأة محتشمة هذا الجزء حول رقبتها فسوف يسبب تحقيق رغبتها في عدم الإجهاض.

وهناك مجموعات صغيرة من الحكايات والنوادر مثل كتاب (ألف ليلة وليلة) أو سيرة (عنترة) مألوفة لدى الناس، تقرأ في الأمسيات وفي المقاهى مقابل بعض المال. أما الرجال المثقفون فهم يحتقرون مثل هذه التسلية.

أما أبناء مصر المتمدينون فهم يندهشون للذوق الأوربي في الإعجاب بالليالي العربية، والرجل المثقف قد يسمح لزوجته عند الضرورة القصوى أن تقص عليه مثل هذه القصص إذا كان مؤرقاً ولا يستطيع النوم. والنساء هن فعلاً المحافظات على هذه القصص القديمة، والتي يغيرنها باستمرار ولكن مع بقاء المضمون كما هو.

وبعض المهتمين باقتناء الكتب يحتفظون بمجموعات منها، حريصين عليها حرصاً شديداً، وقد اشتروها لندرتها. وقد عرفت أحد الأشخاص، وكنت قد أديت له خدمة خاصة وقد دعاني لمشاهدة جزء من مكتبته، وكان هذا الجزء من المكتبة يتكون من بعض كتب التراجم المطبوعة في مصر لبعض الكتيبات الأوروبية، وتعدّ من الغرائب نظراً لمحتوياتها الغريبة. وقد شاهدت مخطوطاً قديماً ذا حواش قيمة عن القرآن ذلك هو كتاب «الفوائد

(١) إن التقاليد ضد صورة الكائنات الحية واسعة الانتشار وصانعو هذه الصور سوف يعذبون عذاباً شديداً يوم الحساب. وملائكة الرحمة لن تدخل بيتاً توجد به هذه الصور. ويقول المؤلف: لقد رأيت أحد الأشراف حضر من السفر وأحضر معه صوراً من شرق الهند. وقد أجاب الشريف على لوم وتأنيب أخيه المؤمن الذي لم يسبق له السفر خارج مكة بأن قال له: إنه لم يقم بنفسه بصنع هذه الصور ويمكن للملائكة أن تؤدي واجبها خارج الباب. وهذا الشريف مثل باقي الأشراف قد قام بجمع كثير من المال من أمراء شرق الهند المسلمين ولو لم يكن غنياً لطرده أقاربه من المنزل لهذا الكلام الذي يقوله. (المؤلف).

والعوايد والزوائد»، وهو فعلاً عمل أدبي يدل على القوة والبراعة، حيث يمكن قراءته بمعان مختلفة من اليسار إلى اليمين ومن اليمين لليسار ومن أعلى إلى أسفل. وإني لا أستطيع أن أحكم، هل هذا الرجل يعرف قيمة هذا المخطوط؟ وعلى الصفحات الأولى توجد بعض أبيات الشعر في مدح محتويات الكتاب وتصفه بأنه يساوي وزنه ذهباً وأن صاحبه الذي يعيره لأحد من المؤكد أنه مجنون. لقد كان هذا الرجل غنياً جداً، وكان يتفاخر بأنه استطاع أن يحصل من صديق له على أحسن ما عنده من الكتب، على الرغم من أنه أيضاً من هواة جمع الكتب. فبعد سنين من الاستعطاف أعاره هذا الصديق مخطوطاً نادراً جداً ليلة واحدة حتى يكون من الاستحالة عليه أن ينسخه في هذا الوقت القصير، ولكنه بعد أن أخذ المخطوط قام بفكه إلى أجزاء وأعطاها إلى عدد من الكتبة الذين قاموا بنسخها، وتم إكمال نسخ المخطوط في اليوم التالي وأعاد المخطوط الأصلي إلى صديقه بعد إعادة تجميعه بعناية كما كان قبل فكه، ولو لم يكن المخطوط يخص صديقه لكان قد ذهب به بعيداً ولم يعده قبل استنساخ نسخة منه. وهو الآن يبحث في الحصول على نسخة من (شرح الإحياء) للغزالي تقع في أربعين جزءًا، حيث يوجد عدد قليل من نسخ هذا الكتاب في بلاد المغرب.

الشعر

يقوم معظم المثقفين بدراسة مجموعات من الشعر العربي مع شرحها وتفسيرها، وأيضاً دراسة كتب الأدب مثل كتاب (العقد الفريد) وبصفة خاصة (مقامات الحريري) ومعظم هذه الكتب أصبحت الآن محفوظة في الذاكرة.

وهذه الدراسات لها أهمية كبيرة لكونها لها فائدة بطريق غير مباشر في دراسة العقيدة. كما أن من علامات الثقافة للرجل قيامه بتلاوة بعض الشعر في المجالس (القيلات). وليس هناك سن معين لبدء هذه الدراسة، حيث يتوقف ذلك على درجة المعرفة لرب الأسرة.

الخط

ويمكن أن يقال مثل هذا عن فن (الخط العربي). ودروس الكتابة التي يقوم بها معلمو القرآن تكفي الأغراض العادية، ولكن الذي يرغب في أن

يعلم ابنه تعليماً راقياً عليه أن يعهد به إلى خطاط ماهر. وهناك من الأطفال من يتعلم الخط مباشرة بعد أن ينتهي من مدرسة الأطفال، وهناك من يؤجل ذلك. وعندما ينتهي الطفل من الدراسة الكافية يقوم بكتابة لوحة اختبار جميلة طبقاً لأحد أشكال الخطوط، وهذه اللوحة توضع في إطار مزين ومحلى، يتكون عادة من بعض الآيات والأحاديث القدسية، وفي الإطار نفسه تتكرر أسماء الله والرسول والخلفاء الأربعة.

الترتيل والتجويد

وهناك أمر مهم يبدأ بعد الانتهاء من مدرسة تحفيظ القرآن، ألا وهو فن تلاوة القرآن (التجويد). والعرب أنفسهم يجدون صعوبة في تحقيق النطق السليم المتناغم الأصوات في الصلاة. وكذلك الحروف الأنفية. وبعض التفاوت اليسير في الأنغام المنصوص عليها في كتب التجويد. والشخص الأوروبي الدارس، والمدرب جيداً على أداء الأصوات سوف يأخذ في أحسن الأحوال أسبوعاً لكي يتعلم بدرجة معقولة قراءة السورة الأولى من القرآن (الفاتحة) والتي تتكون من سبع آيات فقط.

وإنني لن أنسى أول يوم جمعة لي عندما حضرت في المساء في منزل المفتي التلاوة الأسبوعية لأجزاء من القرآن لأشهر المقرئين. فقد سمعت قبل هذه الليلة تلاوات كثيرة على درجات متفاوتة من حسن الأداء. حتى إن التلاوة كانت مألوفة بالنسبة لي. لقد كان هناك الكثير من القراءات لهذه التلاوة. وفي العادة يقصر المقرئ نفسه على نوع واحد من هذه القراءات التي اعتادها منذ الصغر. إن ما سمعته تلك الليلة كان مزجاً لمخارج الكلمات الصعبة النطق مع أكثر الأنغام صعوبة وتعقيداً، بالإضافة إلى تغير نبرة الصوت مع مضمون النص القرآني، حيث تكون نبرة الصوت هادئة مع الأجزاء القصصية، ولكن عندما يدعو الله الكفار يكون الصوت هادراً أو باكياً، بحيث يؤثر بسرعة في المستمعين. ويكون الصوت هازئاً ضاحكاً في الجزء الذي يتوعد الله فيه الماكرين الأشرار يبشرهم بجهنم. ولكي يمكن تمييز هذه التلاوات يحتاج المرء إلى خبرة طويلة. والمستمع الذي لا خبرة له يندهش لتمايل جسم المقرئ، وللنبرات المرتفعة جداً، بحيث إن المقرئ

نفسه أحياناً يضرب على أذنيه من صوته الصارخ، وعندئذ تكون عروق رقبته قد انتفخت إلى حد الانفجار.

وإنني على قناعة تامة من أن أي شخص أوروبي حضر تلاوة، مثل التي سبق وصفها، سوف يعود بانطباع أن هذه الضجة الرهيبة ضجة عصبية. ولكن المقرئين أبعد ما يكونون عن العصبية، وهم كالمغنين ومطربي (الأوبرا) يظهرون انفعالات لا يشعرون بها أنفسهم، وهؤلاء المقرئون يتميزون بالخيلاء والغرور والغيرة والنزوات، مثلهم مثل الفنانين في أوروبا. وعندما لا يرضيهم الأجر المدفوع لهم، أو عند المساس بكبريائهم، فإن أداءهم يكون مشوباً بالإهمال، وقمة السعادة عندهم عندما يوصف أحد مشاهير القراءة من زملائهم بالخطأ في التلاوة. والناس عموماً لا تعزو التأثير الساحر للتلاوة في قلوب البشر إلى مهارة المقرئ، ولكن إلى أن القرآن هو المعجزة الكبرى، والذي عرّفه البدوي عندما سمعه أول مرة بأنه صوت السماء الذي تلين له القلوب المتحجرة بالأنين والبكاء عند سماعه، وتهتف الحناجر عند كل وقفة (يا رب) (الله أكبر) ومثل هذه الهتافات تصاحب كل التلاوات، ولو كان القارئ غير ماهر، وهذه الهتافات تعدّ تشجيعاً للقارئ، مثل التصفيق للمغني في أوروبا[1].

والرجل الذي يتمتع بموهبة الصوت الجميل، والذاكرة المناسبة، قد يصبح من مشاهير القراء، وما عليه إلا أن يقوم بحفظ بعض أجزاء من القرآن وترتيلها بطريقة صحيحة. أما بالنسبة لطلبة الدراسات الشرعية فإن دراسة تجويد القرآن مادة أساسية، كما أن حفظ القرآن كله هدف أسمى للجميع.

---

(١) ذكر الجاسر أن ما كان يحدث بمكة في ذلك العهد، كان يحدث في غيرها حتى عهدنا الحاضر من بعض المقرئين الذين يصرفون انتباه المستمع إلى أصوات المقرئين المنغمة. وكذلك ما يقاطع القراءة من الهتاف مما ليس مشروعاً عند تلاوة القرآن الكريم التي أمر الله عند سماعها بالإنصات ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف، الآية: ٢٠٤] (المجلة العربية، عدد شعبان ١٤١٦هـ ص١٠٢).

وفن التجويد يتم تعليمه بطريقة خاصة فردية في منازل المدرسين، ويتم تطبيقه بواسطة الطلبة كل بمفرده، وخاصة في الصباح في الأماكن الخالية من ساحة المسجد. وأحياناً تجد في المسجد بعض هؤلاء الطلبة يمارسون التلاوة تحت إشراف المعلم، ولكن هذا لا يتبع الدراسة الرسمية التي تتم في المسجد تحت إشراف شيخ العلماء، لذلك تجد أحياناً كثيرة معلماً رسمياً يقوم بإلقاء محاضرة عن نظرية التجويد ثم يقوم بقراءة نص قرآني بالطريقة الصحيحة، ليبين مخارج الحروف والنطق والترنيم وطول الحروف الأنفية مع تفسير للنص القرآني. وبصفة عامة فإن هذا النوع من التعليم يتم عادة في المنازل.

المصدر المعيشي لطالب العلم

إن ريشة الكتابة والحبر والورق ما زالت منذ القدم هي الوسائل المتبعة في التعلم للطالب المسلم، والمكتبة تعدّ ميزة ولكنها ليست ضرورية، وإملاء المدرس سواء كان من تأليفه أو من كتاب آخر يعدّ كافياً جداً للتعليم، بينما الكتاب يمكن شراؤه أو استعارته، والرجل الذي يختار طريق حياة الدراسة والعلم قد يضطر إلى إعانة نفسه على المعيشة ببعض أعمال التجارة أو الحرفة. وهذا ليس شيئاً صعباً؛ لأن احتياجات مثل هذا الطالب ليست كثيرة التكاليف. وغالباً ما يعاونه على إشباع هذه الرغبة ما يكون لديه من ميراث أو من هبات ومنح من الأقارب، الذين يمارسون مهناً أخرى أكثر ربحاً، أو من الأصدقاء الذين يعتقدون أنه من الواجب المشاركة في شرف التعليم الديني. وكثير من هؤلاء الطلبة يظهرون نبوغاً في الجمع بين الدراسة مع ممارسة العمل أو التجارة. والإسلام دائماً يقدّر ويعظم هؤلاء الذين يحافظون على إحياء العلوم والتعليم وخاصة دراسة الشريعة؛ لأن هذا يعدّ من وجهة نظر العقيدة دعامة الحياة والمجتمع. والأشخاص الذين يكرسون أنفسهم لهذه الدراسة يعفون من الاشتراك في الحروب، والذي يموت في أثناء تأدية رسالته يصبح في منزلة الشهداء. ومن هنا فإن طلاب العلم لهم ثواب كبير في الآخرة بالإضافة إلى المكانة الرفيعة في الدنيا[١].

---

(١) نهاية النص الذي نشر في مجلة العرب.

إن العلماء النزيهين والمخلصين لم يغيبوا عن الساحة الإسلامية في أي عصر من العصور. وفي خلال القرون الأربعة أو الخمسة الأولى تطورت العلوم الشرعية تطوراً وصل إلى القمة. وقد صاحب هذا التطور جدل مستمر. بيد أن هذا الجدل بين المدارس الفكرية المختلفة لم يكن له أهمية تطبيقية في الحياة الواقعية. وإنه لمن الخطأ الفادح الافتراض بأن الشرع الإسلامي كان مطبقاً بالكلية أو أنه بقي على اتصاله الوثيق بحاجات المجتمع منذ أن انفصل العلم عن شؤون الحكم، فمنذ هذا الانفصال تطور جزء كبير من المعارف الفقهية التي لم يكن لها سوى أهمية تشريعية ضئيلة.

لقد شارك جمهور كبير من عامة الناس في الجدل والمناظرات الدينية، مما أثر وشجع العلماء المتحمسين لمثل هذه المناظرات. ولقد كان من المفروض أن ترنو نفوس العلماء إلى مناصب عليا في مؤسسات الدولة الشرعية، غير أن الصفوة من هؤلاء العلماء قد ابتعدوا عن العمل في المناصب الحكومية، حتى لا تضطرهم الظروف إلى مجاراة الحكام وتحقيق رغباتهم، والابتعاد عن تطبيق أوامر الله. غير أنه منذ القرن الرابع الهجري أصبحت مثل هذه الوظائف تعطى لمن يدفع الثمن الأكثر، حتى ولو كان جاهلاً. إن المراكز النبيلة التي ترضي طموحات رجال العلم، قد فقدت أهميتها حينما انتهى عصر المناظرات والجدل، حيث أصبح عمل العلماء مقصوراً على حفظ المعارف الموجودة وإيصالها إلى الأجيال التالية.

إن النزعة الشمولية للإسلام، والتي ساعدت على إيجاد الاتفاق على الموضوعات التي كانت مثاراً للجدل السابق، لم تكن بذات فائدة للمعارف الإسلامية. وإنه ليس من قبيل الصدفة أن يتزامن اتفاق المذاهب الأربعة مع ضعف الإسلام السياسي.

لقد كان الكثير من الولايات الإسلامية يحكم بصورة سيئة، وكان هناك بعض الحكومات المستبدة، الأمر الذي لم يساعد على إيجاد التنافس العلمي الذي كان موجوداً بين المدارس الفكرية في السابق. لقد كان ينظر إلى كل حركة فكرية من وجهة نظر سياسية، ولهذا كان يقضى عليها في

مهدها. وحتى العلماء الذين لديهم مثل هذا الحماس يجبرون على أن يعملوا بصورة أكثر حذراً. فاضطراب الأوضاع العامة جعل تصرفهم الحذر هذا أكثر قبولاً من النزعة الحماسية الموجودة لديهم.

إن القضاة ورجال الإفتاء يجدون أنّ إعطاء «ما لقيصر لقيصر وما لله لله» أمر صعب جداً. والعالم الذي يريد الوصول إلى مرتبة رفيعة، لا بد له أن يتغاضى عن وخز الضمير، وأن يقنع نفسه بمجال نشاط متواضع وهادئ. إن بعض هؤلاء العلماء قد ماتت لديهم روح البحث والتقصي، وما بقي لديهم هو التعالي والكبر الذي يتيهون به على العالم أجمع.

المدارس في مكة

وإنه ليس من قبيل الصدفة أيضاً أن يتواكب الضعف السياسي مع ظهور المدارس بصفتها مؤسسات تعليمية في عالم الإسلام.

إن تاريخ القطبي[1] يفيد «أن أول مدرسة بنيت في الدنيا مدرسة نظام الملك في بغداد (٤٥٧هـ ـ ١٠٦٥م)، فبلغ علماء ما وراء النهر هذا الخبر فاتخذوا للعلم مأتماً، وحزنوا على سقوط حرمة العلم، فسئلوا عن ذلك فقالوا: إن العلم ملكة شريفة فاضلة لا تطلبها إلا النفوس الشريفة الفاضلة، لجاذب الشرف الذاتي والمناسبة الطبيعية ولما حصل عليه أجرة، تتطلبه النفوس الرذيلة وتجعله مكسباً لحطام الدنيا، وتتزاحم عليه لا لتحصيل شرف العلم، بل لتحصيل المناصب الدنيوية السفلة الفانية، فيرذل العلم برذالتهم ولا يشرفون بشرفه، ألا ترى إلى علم الطب فإنه مع كونه علماً شريفاً تعاطته أراذل اليهود بشرف علم الطب، وهذا حال أكثر طلبة العلم في هذا الزمان الفاسد، وهذا شأن طلاب هذه العلوم المتداولة الآن في هذا السوق الكاسد».

ويضيف قطب الدين الحنفي أن مخاوف هؤلاء العلماء لها ما يسوغها، لأن هذه المدارس إن لم تكن نتيجة انحطاط الحركة العلمية، فإنها على الأقل مؤشر لمثل هذا الانحطاط.

---

(١) لقد رجعنا إلى النص الذي اقتبسه المؤلف من القطبي فذكرناه (انظر تاريخ القطبي ص١٥٧ ـ ١٥٨).

إن هذه المدرسة التي تحوي الكثير من قاعات المحاضرات بالإضافة إلى مكتبة عامة، لم يكن الهدف من إنشائها زيادة وسائل المعرفة، بل كانت تهدف إلى تشجيع الناس على طلب العلم، وذلك عن طريق تأمين المأكل والمسكن لهم. إن طلب العلم هو فرض عين على مجموع الأمة. وعلى الحكام أن يجدوا الوسائل الكفيلة لتحقيق ذلك، إذا لم يوجد المتطوعون لطلب العلم. كما أن على الأغنياء الإسهام بأموالهم لتحقيق ذلك أيضاً.

لقد أقام نظام الملك هذه المدرسة الكبيرة التي تحوي الكثير من الحجرات الصغيرة لسكن الطلاب والمدرسين، وكذلك بعض قاعات التدريس. ولقد وضع بمساعدة الكثير من أصدقائه العلماء ومشورتهم الحلول لعدد من الموضوعات: مثل عدد المدرسين، وعدد الطلبة، ونوع الموضوعات التي يجب تدريسها، وعدد ساعات الدراسة، والشروط الواجب توافرها في المتقدمين، والأشخاص الذين سيتولون إدارة الوقف المخصص لهذه الدراسة، والدخل ومدى كفايته لصيانة المدرسة والإنفاق على متطلباتها.

في مكة لا توجد حاجة ماسة إلى قاعات للمحاضرات؛ لأن مكان المحاضرات هو صحن المسجد في ساعات النهار الباردة، وفي الأروقة عندما يشتد الحر، والمحاضرات من النادر أن تتوقف نتيجة هطول الأمطار. ومع هذا فإن لكل مدرسة من مدارس مكة قاعات للمحاضرات وجدت نتيجة للعادة أو لأغراض الاستعمال الإداري.

ويحدثنا قطب الدين عن مدرسة بنيت عام ١٢٣٣م (٦٤١هـ) وكانت تحوي مكتبة كبيرة بناها أحد خدم الخليفة المستنصر بجوار باب السلام[1]، كما يحدثنا عن مدرسة أخرى بجانب باب السلام أيضاً بناها السلطان المملوكي قايتباي عام ١٤٧٧م (٨٨٢هـ). وكانت تحوي قاعة محاضرات

---

(١) يذكر القطبي في تاريخه (ص١٦٠) أنه من جملة خدام المستنصر بالله الأمير شرف الدين إقبال الشرابي المستنصري العباسي بنى بمكة مدرسة على يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام ووقف فيها كتباً كثيرة في سنة إحدى وأربعين وستمائة.

جميلة واثنتين وسبعين خلوة (غرفة معيشة صغيرة) ومكتبة تحوي كتباً على المذاهب الأربعة[1]. وهناك مدرسة ثالثة بناها السلطان العثماني سليمان القانوني[2]. عام ١٥٦٥م (٩٧٢هـ) إلى الجنوب من المسجد الحرام[3]. ولقد كان قطب الدين نفسه مدرساً بهذه المدرسة. وقد أعطى وصفاً مسهباً لها في تاريخه.

وبجانب هذه المؤسسات الكبيرة هناك الكثير من المدارس الصغيرة التي أنشأها أمراء من الهند أو من مصر أو بعض الحجاج الأثرياء. ولقد كان هؤلاء المتبرعون يرصدون أموالاً للإنفاق على هذه الدروس من طلبة ومدرسين بالإضافة إلى تخصيص بعض المبالغ التي ترصد لقراءة القرآن في أوقات معينة بهدف زيادة الثواب. وإن الإدارة السيئة وعدم استغلال الأموال في المناحي المخصصة لها ساعد على اضمحلال هذه المدارس، إذ لم تنقض

---

(١) ذكر القطبي (ص١٩٧ ـ ١٩٨) ما ملخصه: في سنة ٨٨٢هـ أمر السلطان قايتباي وكيله الأمير سنقر الجمالي أن يبني له مدرسة يدرس فيها علماء المذاهب الأربعة، ورباطاً يسكنه الفقراء فاشترى وكيله رباط الدرة ورباط المراغي وداراً لإحدى نساء بني الحسن وهدم ذلك جميعه وجعل فيها (٧٢) خلوة ومجمعاً كبيراً مشرفاً على الحرم والمسعى ومكتباً ومأذنة. وصير المجمع المذكور مدرسة قرر فيها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة. وأرسل خزانة كبيرة وقفها على طلبة العلم، وجعل مقرها المدرسة، سنة ٨٨٤هـ على يد الأمير سنقر الجمالي.

(٢) تسمى بالمدارس السلطانية أو المدارس السليمانية. ويذكر قطب الدين الحنفي أن سبب بناء هذه المدارس الأربع أن الأمير إبراهيم الذي تولى إصلاح عين عرفات عرض على السلطان سليمان أن يكون له بمكة أربع مدارس على المذاهب الأربعة يدرس فيها علماء مكة علم الفقه ليكون سبباً لإحياء علم الشريعة فأجابه السلطان إلى ذلك. وصدرت الأوامر السلطانية بالعمل وعين لذلك الأمير قاسم أمير جدة وطلب إليه أن يبادر بالعمل في أحسن الأماكن اللائقة لهذه المدارس بالجانب الشمالي من المسجد المتصل به من ركن المسجد إلى باب الزيادة.
وقد وضع قاضي مكة حجر الأساس وتبعه من حضر من العلماء والسادات وأعيان الناس ووضع كل منهم حجراً فيه وكان يوماً مشهوداً عام ٩٧٢هـ. (انظر القطبي: ص٢٩٣ ـ ٢٩٤) وكذلك: مدارس مكة لناجي معروف (ص٢٤ ـ ٢٨) المترجم.

(٣) لقد نقل المؤلف عبارة القطبي القائلة: إن البناء كان بالجانب الجنوبي، وليس ذلك صحيحاً لأنها كانت بين باب الدريبة وزيادة المعتضد التي زيدت بإدخال دار الندوة إلى المسجد الحرام وهي تقع في الضلع الشمالي (انظر: مدارس مكة لناجي معروف ص٢٦).

سنوات قليلة على إنشائها حتى بدأ الخراب يتسرب إلى هذه المؤسسات، فسوء الإدارة ساعد على تقليص دخل هذه المؤسسات، لدرجة أصبحت معها عاجزة عن دفع مرتبات المدرسين ومجريات الطلبة، وحتى عن صيانة البناء نفسه. وحينذاك يعدّ المسؤولون هذه المؤسسات من الأماكن المهجورة، وربما يتخذها بعضهم سكناً له، أو يقوم بتأجيرها للحجاج الأثرياء، أو لأهل مكة الذين يفضلونها على غيرها لقربها من الحرم الشريف. ويقول قطب الدين بهذا الصدد: «لقد أصبحت هذه المؤسسات بأيدي هؤلاء الأشرار يديرونها ولم يبق إلا بعض الغرف القليلة التي يستوطنها بعض المدرسين والطلبة. أما باقي الغرف فيتصرف بها المالك الثري الذي آلت إليه، والذي يقوم بين الحين والآخر بترتيب إقامة بعض المحاضرات في القاعة تخليداً لذكرى المؤسس. لقد وصل الحال إلى أن كلمة مدرسة أصبحت تعني داراً جميلة بجوار الحرم، دون أن يتكون لدى الغالبية العظمى من السكان فكرة واضحة عن المعنى الأساس لهذا التعبير.

أقدم جامعات مكة

إن أقدم الجامعات في مدينة مكة هو الحرم الشريف، ويتلقى مدرسو الحرم الدعم المالي من مصادر مختلفة. أما رجال الإفتاء فباستثناء مفتي الحنفية الذي له صلاحية إصدار الفتاوى للسلطات الرسمية التركية، فكلهم مدرسون، وهم مشغولون دائماً بإعطاء المحاضرات. من المفروض أن تكون مرتباتهم أقل من مرتبات المفتي، إلا أنهم يتحصلون على مرتبات عالية، وبعضهم يقوم بالإضافة إلى التدريس بأعمال تجارية. ويتلقى بعضهم الآخر هدايا ثمينة وقيمة من تلاميذه الأثرياء، ومن المعجبين بعلمه وتدريسه.

ويمكننا القول: إن جميع المدرسين يحصلون على بعض العائدات المالية من المؤسسات الإسلامية الدينية. والاستثناء الوحيد هو الشيخ رحمة الله(١)

---

(١) ولد الشيخ رحمة الله بن خليل العثماني بالهند عام ١٢٢٦هـ. وقد تلقى علومه العقلية والنقلية عن أشهر علماء الهند في عصره، ثم شرع في نشر العلم ومقاومة المبشرين، وفي عام ١٢٧٠هـ ناظر الشيخ رحمة الله مع بعض رجال العلم في الهند رئيس البعثة التبشيرية بالهند واسمه (فندر) فأفحمه وهزمه شر هزيمة. وعندما احتل الإنكليز الهند ثار الشيخ رحمة الله ضد هذا العدوان، وأعلن الجهاد، لكن قوة الإنكليز ألجأته إلى الفرار، فوصل =

الذي عرف بمناهضته للنصرانية، وهو يعيش الآن في منفاه في مكة. وكان يقطن مستعمرة الهند الإنكليزية. وهذا الرجل يعدّ خدمة العلم في سبيل الله، ولذلك فهو يدرس الطلاب في بيوتهم دونما أجر يتقاضاه.

إن جيران البيت العتيق يعتمدون في حياتهم على مختلف بقاع العالم الإسلامي وخاصة بلاد مصر. فالمرتبات السنوية للأشراف وعمالهم، وكذلك الحبوب تأتي من مصر. ولقد حذا سلاطين بني عثمان حذو مصر في هذا الشأن، والسلطنة العثمانية قد تفقد منزلتها في العالم الإسلامي كله إذا توقفت هذه الأعطيات السنوية لمكة والمدينة. وعلى الرغم من الإرباكات المالية التي تمر بها الدولة العثمانية إلا أن هذه التكاليف ليست كبيرة. وفي الأحوال العادية تتقاضى كل أسرة مقيمة في مكة ما يعادل أردباً من القمح (٢٠٢ رطل) في كل عام. ويستثنى من ذلك في العادة التجار الأثرياء، والفقراء المعدمون الذين يحرمون من ذلك. وفي العادة لا تعطى كل الكميات المخصصة إذ يقتطع العاملون الموظفون شيئاً منها لأنفسهم.

لجميع موظفي مكة ـ ابتداء من المفتي، وانتهاء بخادم المسجد ـ مبالغ مقررة سنوياً تصرف من خزينة الدولة. إلا أنه في السنوات الأخيرة أصبح

= مكة عام ١٢٧٤هـ. وقد زار إسطنبول بدعوة من السلطان العثماني، وأنعم عليه السلطان بالخلعة السلطانية ووسام المجيدي ورتبة فايا الحرمين (ركن الحرمين).

أخذ الشيخ يعقد حلقات تدريسه خلف المقام الحنفي في المسجد الحرام، وكان من طلابه الشريف الحسين بن علي والشيخ أحمد أبو الخير مرداد شيخ الأئمة والخطباء بالمسجد الحرام والشيخ عبد الرحمن سراج مفتي الأحناف والشيخ سعيد بابصيل مفتي الشافعية وغيرهم من علماء المسجد الحرام.

لقد تولى الشيخ إنشاء المدرسة الصولتية التي نسبت إلى المحسنة (صولة النساء) التي اشترت أرضاً بالخندريسة وأوقفتها لبناء هذه المدرسة بواسطة الشيخ، فشرع في بنائها حتى أتمها عام ١٢٩٢هـ.

لقد ذكر صاحب كتاب سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر ثلاثة عشر مؤلفاً للشيخ رحمة الله من مخطوط ومطبوع وأهمها «إظهار الحق» الذي رد فيه على المستشرق فندر. وقد ترجم لمعظم لغات العالم، وقد توفي رحمه الله بمكة عام ١٣٠٨هـ وعمره ٧٢ سنة (انظر: عمر عبد الجبار، سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر الهجري ص١١١ ـ ١١٢).

من الصعب صرف هذه المبالغ كاملة، فهي تباع لوسيط بأقل من نصف القيمة. وبجانب جرايات القمح والمبالغ المالية المقررة سنوياً، يتقاضى مدرسو الحرم والأئمة والخطباء وأهل الفتوى مبالغ مالية من مصادر أخرى. فالأغنياء الذين يفدون إلى الحج، وخاصة من بلاد الهند، يقدمون الهدايا والأعطيات لهؤلاء العلماء، ولجميع موظفي الحرم عموماً. ومصادر الدخل هذه تستدعي وجود إدارة خاصة لهذا الموضوع يشرف عليها مدير وموزع يقوم بتوزيع هذه المبالغ من المال. غير أنه لا يوجد نقابة أو رابطة لهؤلاء العلماء كالحرف الأخرى. كما أنه لا يتوقع أن يكون هناك رئيس لمثل هذه الرابطة.

ليس هناك ما يمنع أي فرد من أن يجلس حيث يشاء في المسجد الحرام. فبعد صلاة الجماعة يتوزع الأفراد في صحن المسجد، بحيث يصلي بعضهم منفرداً، ويجلس بعضهم الآخر طلباً للراحة. ونجد بجانب هؤلاء المصلين عدداً من الأطفال الذين يتجمعون لقراءة القرآن بحركة إيقاعية تجمع بين الصوت وحركة أجسامهم. وبجانب هؤلاء يمكن للمرء أن يشاهد عصبة من مريدي إحدى الطرق الصوفية، ينشدون بعض الابتهالات بألحان رتيبة. وتتوزع في أرجاء المسجد حلقات الطلبة الذين يستمعون إلى المدرسين في أثناء محاضراتهم.

المدرسون في الحرم المكي

إن هذه الصور توحي بأن كل من يستطيع جذب أفراد يستمعون له يمكنه حينئذ إلقاء محاضرات في صحن المسجد أو قاعاته، إلا أن الأمر ليس بهذه السهولة. فالمحاضر غير المؤهل يعرض نفسه للسخرية. وكذلك فإن مساحة المسجد قد تستلزم ألا يقوم المدرسون البارزون أيضاً بإلقاء محاضراتهم في وقت واحد. ومن جهة أخرى قد يكون الحياء الذي يعتري بعض المدرسين مانعاً لهم من التدريس في المسجد. فبعضهم يعتقد بأنه صغير السن، وبعضهم الآخر يظن أنه غير مشهور ليستمع إليه الناس. وكذلك نجد آخرين كالجاوي مثلاً يعتقدون أن مستواهم أقل من مستوى العلماء العرب. ولهذا نجد فرقاً ملموساً بين أساتذة المسجد وزملائهم الآخرين الذين يعملون في أماكن أخرى. والذي يحدد الفرق بين هؤلاء وأولئك هو العرف التقليدي. غير أنه في بعض الأحيان يحدد بنظام خاص

من شيخ العلماء، الذي يجري تنصيبه من قبل الحكومة. ومن مهامه توزيع عوائد العلماء وتعيينهم طبقاً لوجهة نظره الشخصية. ويكون شيخ العلماء في الغالب من رجال الإفتاء، ويفضل على العموم مفتي الشافعية لهذا المنصب.

إجازة التدريس

إن كل مدرس يمكنه أن يتقدم بطلب الإذن من شيخ العلماء للتدريس في الحرم، وليس له الحق في أن يتقاضى أجراً في البداية. وبعد فترة وحسب المقاييس الموضوعة لنظام الإذن بالتدريس، ينال حصة من الأعطيات، أو يصرف له راتب سنوي مقرر. ويعتمد حجم هذا الراتب على قناعة شيخ العلماء ممثل الحكومة الرسمي في هذا المجال.

لقد عرفت عالماً تكرورياً (تكرونياً) بائساً. شكر مفتي الشافعية، الذي أجاز حصوله على الأستاذية العادية للتدريس. بينما أساتذة آخرون متعطشون لمثل هذا المنصب(هم أكثر علماً منه قد سعوا إليه دون جدوى). والامتحان بالنسبة للجامعة يشبه إلى حد بعيد (المعلمية) بالنسبة لطوائف الحرفيين. يقوم شيخ العلماء بتحديد موعد الامتحان. أما مكانه فهو في الغالب في الحرم قرب باب الزيارة. ويكون الامتحان في الغالب قبيل الظهر أو بعد صلاة العصر. والممتحن في العادة هو شيخ العلماء أو نائبه مع عدد من الأساتذة الذين يجلسون على هيئة حلقة دائرية يحضرها بعض الأصدقاء والمهتمين. ويجلس هؤلاء في الخلف عادة. وهناك أربعة أو خمسة من الأساتذة يعملون مراقبين لعملية الامتحان، الذي يقتصر أحياناً على البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم)[1]. وبعد انتهاء الامتحان يدعو الحاضرون

---

(١) لقد كتب علماء المسلمين شروحاً وتعليقات مطولة في شرح البسملة، والتي لا يمكن فهمها بدون معرفة وثيقة بالقواعد والمنطق وعلوم الفقه والشريعة، ويمكن القول بشيء من الثقة: إن نصف العلوم الدينية على الأقل له ارتباط وثيق بالبسملة. وقد يبدو الامتحان سهلاً للوهلة الأولى، غير أن هناك أموراً صعبة جداً تثار من خلال هذا الاختبار.
والواقع أن الاختبار له أهمية رسمية بصورة أساسية إذ إن مادة الاختبار موجودة بين ثنايا كتب التفسير المختلفة. والمتقدم بدون شك يستطيع الإجابة على الأسئلة القليلة التي تقدم له بدون أدنى تردد. أما النتائج الحقيقية فتظهر عندما يبتدئ مهنته الجديدة بصفته مدرساً. تلك المهنة التي يبدأها في العادة بقول: «بسم الله الرحمن الرحيم» تلك العبارة التي مدح الله بها نفسه ووصفها بما تستحق من أوصاف. (المؤلف).

بالتوفيق لزميلهم الجديد، ثم تدار القهوة بعد ذلك. وحينما يكون الشيخ ميسور الحال يدعو الجميع لتناول طعام العشاء في بيته.

واجبات شيخ العلماء

وإلى جانب ما ذكرناه آنفاً من واجبات شيخ العلماء، سواء بتعيين المدرسين الجدد، أو توزيع الموارد المالية، فإن على الشيخ أن ينظم جميع أمور هذه المؤسسة الدينية القائمة في المسجد الحرام، وأن يمثلها في علاقاتها مع العالم الخارجي، وخاصة مع السلطات الحكومية. وفي الأحوال العادية تلجأ الحكومة إلى مفتي الأحناف إذا أرادت استصدار أي حكم، حتى لا تقع في مخالفة مع النظام الإسلامي العام. أما حينما تريد الحكومة دعم وجهة نظرها، وأن تنال موافقة كافة المذاهب على ذلك، فإنها تلجأ إلى شيخ العلماء الذي يعرض القضية المطروحة، ثم يقوم بإصدار فتوى حول الموضوع، ثم يأخذ موافقة جميع العلماء على ذلك. إن موضوعات هذه الفتاوى الخاصة هي تقديم تنظيمات ولوائح جديدة لا يحبذها الجمهور في العادة!!. أو إزالة ظلم ورفع حيف معين أو زيادة عائدات الحكومة، وقد يلجأ إلى الفتوى عندما تتخذ إجراءات ضد شخص معين ذي مكانة عالية، وخاصة حينما تثار قضايا مهمّة ضد هذه الشخصية الكبرى.

كان الشيخ حسب الله[1] من أعظم الناس علماً في مكة، وهو ينحدر من أب قبطي قد اعتنق الإسلام. لقد وزع الشيخ المذكور رسالة خطية ذكر فيها أن شرب الدخان حرام[2] فانتهز الفرصة أحمد دحلان، وقد كان يحقد

---

(١) هو محمد بن سليمان حسب الله (١٢٤٤ ـ ١٣٣٥هـ) الشافعي المكي الإمام الشهير. ولد بمكة وأخذ العلم من معظم علمائها، ورحل إلى المدينة ومصر لطلب العلم، ثم تصدر للتدريس بالمسجد الحرام. ألف تآليف حسنة منها حاشية على منسك الخطيب الشربيني، والرياض البديعة في أصول وبعض فروع الشريعة، وقد شرحه تلميذه الشيخ نواوي الجاوي. وكتاب مسمى بفيض المنان شرح الرحمٰن كلاهما له. وعرض عليه والي مكة عثمان باشا منصب مفتي الشافعية بعد عزل أحمد دحلان فلم يقبله. وتوفي رحمه الله بمكة ودفن بالمعلاة (انظر: عبد الله مرداد أبو الخير، المختصر في كتاب نشر النور والزهور، الجزء الثاني ص٣٦٩ ـ ٣٧٠).

(٢) يروي الشيخ عبد الله غازي في كتابه (إفادة الأنام) أن شرب الدخان بدأ في مكة ١١١٢هـ =

على حسب الله، فاصدر رسالة خطية أخرى مضمونها إذا كان التدخين معصية، فإن المدخنين الذين يشكلون غالبية سكان مكة هم عصاة، وبالتالي لا يصلحون أن يكونوا شهوداً على عقود الزواج، وهذا يعني فيما يعنيه بأن عقود الزواج غير صحيحة، وتلك نتيجة خاطئة. لذلك فإن فتوى الشيخ حسب الله غير شرعية، وهي بالتالي سخيفة[1].

ليس توقيع الجزاء من صلاحية هؤلاء العلماء الذين يتصدون لأمور الفتوى، لهذا لم يستطع شيخ العلماء توقيع عقوبة على الشيخ حسب الله، وقد وقف بجانبه بهذا الخصوص أحد رجالات بني شيبة سدنة الكعبة.

لقد كان من المقرر أن تقام قبة فوق ضريح أبي طالب عم الرسول الكريم الذي مات على غير دين الإسلام[2]. فما كان من الشيخ حسب الله إلا أن أصدر منشوراً ضد هذا العمل متهماً فيه شيخ العلماء أحمد دحلان بالإهمال وبالسماح بذلك. وقد رد الشيخ أحمد دحلان على هذا المنشور بأن أجداد الرسول ﷺ بما فيهم عمه الطاهر كانوا من المسلمين[3]. ولذا وضع الشيخ حسب الله في مأزق؛ لأن شيخ العلماء يمثل وجهة نظر السلطة، ومن ثم صدرت فتوى بحق الشيخ حسب الله أبعد بموجبها عن الجزيرة العربية مدة ستة أشهر، عاد بعدها إلى مكة. وحينما كنت في مكة كان الشيخ يقوم

= وانتقل إليها من مصر، ثم تبعه شرب التنباك (انظر السباعي: ص٣٩٩).

(١) إذا صحت هذه الرواية فالفذلكة اللفظية واردة في فتوى أحمد دحلان. وهذه الاستنتاجات التي بناها على شرب الدخان لا تؤكد وجهة نظره في التحليل والتحريم. وكون جميع سكان مكة يدخنون لا يمنع النظر في كون التدخين حلالاً أم حراماً. الذي يلحظ أن معالجة موضوع التدخين من قبل المفتي ليست المعالجة الصحيحة سواء أكان التدخين حلالاً أم حراماً أم مكروهاً.

(٢) لقد كان القبر الموجود في المعلا لأحد أشراف مكة المسمى بهذا الاسم. وقد ولي شؤون مكة مدة عامين (١٠١٠ ـ ١٠١٢هـ) وليس قبر أبي طالب عم الرسول ﷺ. غير أن الناس بمرور الزمن نسبوا القبر إلى الأخير.

(٣) الثابت أن أجداد الرسول لم يكونوا من المسلمين... وأن عمه أبا طالب على الرغم من مناصرته للرسول الكريم إلا أنه مات على غير الإسلام.

بالتدريس فيها كما كان في سابق عهده. وهو يتمتع بالاحترام والتقدير الذي كان له في السابق. غير أنه قد خلد إلى السكينة قليلاً[1].

(١) ذكر الجاسر في تعليقه على هذه الحادثة ما يلي: لا بد من وقفة قصيرة حول أبي طالب، الذي كان ذا قبة في مقبرة المعلاة، اعتقاداً أنه عم المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد أوضحت بطلان هذا في محاضرة لي ألقيتها على طلبة (جامعة أم القرى) في ليلة الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢هـ بعنوان (الآثار الإسلامية في مكة المكرمة) فكان مما قلت حول القبور: (وفي عصرنا ـ بل قبله بنحو ستة قرون ـ عرف قبر أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ معرفة قائمة على أساس من الجهل، إن صح أن للجهل أساساً، فشيدت قبة عظيمة تحمل ذلك الاسم الطاهر، ثم أقيم بجوار تلك القبة في أول القرن الحادي عشر قبتان تحمل إحداهما اسم (عبد المطلب) وتعرف الأخرى باسم قبة (أبي طالب) وارتباط هذه الأسماء الثلاثة بحياة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أضفى عليها هالة من الإجلال، حتى اعتقد كثير من الجهال صحة وجود قبر خديجة وقبر عبد المطلب جد النبي ﷺ، وقبر أبي طالب عمه، وهو اعتقاد خاطئ. كما أشرت إلى ذلك في كلمة لي بعنوان: (خرافة قبة اليهودية) قلت فيها: من الأمور التي لا حقيقة لها ما يصبح بمرور الزمان ذات تاريخ تتناقله الأجيال، حتى يعد بطول الزمن ويتناقل ذكره بين الناس، من الأمور الثابتة التي لا يسوغ إنكارها.

فقبر أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ كان مجهولاً لدى مؤرخي مكة حتى القرن التاسع الهجري أي مدّة ثمانية قرون بل تزيد، ثم أصبح معروفاً محدد المكان، في القرون الخمسة الماضية حتى يومنا هذا، بعد أن رأى أحد العارفين في المنام ـ كأن نوراً ينبعث من شعبة النور، في (مقبرة المعلاة) ولما علم أمير مكة في ذلك العهد بخبر تلك الرؤيا أمر ببناء قبة فوق المكان الذي زعم ذلك (العارف) أن النور ينبعث منه، جازماً ذلك الأمير أن ذلك المكان ما هو سوى قبر خديجة رضي الله عنها.

ويدور الزمان فيصبح المكان وما حوله مقبرة للعظماء من أهل مكة، فيقبر فيه في القرن الحادي عشر في سنة ١٠١٠هـ عبد المطلب بن حسن بن أبي نمي، ثم في سنة ١٠١٢هـ يموت أحد أمراء مكة ـ ممن عرف بالظلم والجبروت ـ وهو أبو طالب بن حسن ابن نُمَيّ، وتبنى فوقه قبة تعرف بقبة أبي طالب، بجوار قبة خديجة الخرافية، وقبة عبد المطلب، ويدور الزمان، فيجهل أمر صاحبي القبة، فتنشأ خرافة قبة عبد المطلب جدّ الرسول ﷺ، الذي مات في زمن الفترة، وقبة أبي طالب بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، الذي مات مشركاً بنص القرآن الكريم.

ويدون التاريخ تلك الخرافات الثلاث على أنها حقائق تاريخية، وتتناقلها الأجيال إلى يومنا هذا، بل تزداد رسوخاً وقوة حين تصدى عالم جليل من علماء العصر، بكتابة سفر نفيس دعاه «في منزل الوحي» إذ تطغى عاطفة التدين على ذلك العالم حين يشاهد مقبرة مكة (المعلاة) فتنتابه الذكريات عمن ضمت من أجساد عظماء الأمة خلال الثلاثة عشر قرناً وما فوقها من =

لقد قام جدل عنيف بين شيخ ذي سلطة كبيرة يدعى سليمان أفندي[1] وكان شيخاً للطريقة النقشبندية، وبين منافس له يدعي خليل باشا[2] وكان

= السنين، وتنطلي عليه خرافة قبر عبد المطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام، وقبر أبي طالب عمه وقبر أم المؤمنين خديجة زوجته، فيتقبل القول على علاته، ويريح نفسه من عناء البحث والتحقيق، فيجري يراعه السيّال بكتابة الصفحات التي يعدد فيها أمجاد السادة الذين ضمَ تراب تلك المقبرة رفاتهم، ويخص بالذكر منهم أولئك الثلاثة، وينحي باللائمة على من أزال تلك القباب الخرافية.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، بل إن الباحثين ممن جاؤوا بعد ذلك العالم اتخذوا كتابه مصدراً يعتمد عليه في آثار مكة وأخبارها، بحيث إن إحدى المجلات الدينية تقوم بنشر كتيب عن الحج في كل عام منذ بضع سنوات، وتعدد فيه من آثار قبور المعلاة، ثلاثة القبور الخرافية). انتهى.

لا أراني خرجت عن الموضوع بتطلبه مثل ذلك التفصيل، أما ما كتب السيد أحمد بن زيني دحلان عن إسلام أبي طالب، فهو في رسالة بعنوان «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب»، والرسالة مطبوعة متداولة، والحق الذي لا مرية فيه حول أبي طالب هو ما أورده شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ في كتاب «التوحيد» وخلاصته أن أبا طالب مات على الشرك. وقد حضر المصطفى عليه الصلاة والسلام وفاته فلقنه الشهادة فلم يتلفظ بها وقال: إنه يموت على ملة عبد المطلب، فلما مات قال ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك» فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة، الآية: ١١٣].

لقد قدم الشيخ دحلان على ما قدم ولا يعني المرء منه إلا أن يكون على بينة من بعض الآراء التي بينها في مؤلفاته مما يخالف الحق، ويحسن لمن أراد التوسع في معرفة هذا الرجوع إلى كتاب «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» الذي ألفه العالم الهندي المعروف أحمد بشير السهسواني رحمه الله.

(انظر المجلة العربية عدد رمضان ١٤١٦ ص١٠٢).

(١) هو سليمان بن حسن زهدي الخالدي النقشبندي الحنفي المجاور بيت الله الحرام. قدم مكة وهو صغير ونشأ بها واشتغل في قراءة العلوم على مشايخها. واشتهر بعلم الفلك وتسلك في الطريق النقشبندية. ألف رسالة في الفلك، وأخرى تتعلق بالزكاة، ورسالة في العصر الثاني (يقصد صلاة العصر)، وتقويماً دورياً. وقد توفي بمكة عام ١٣٠٨هـ ودفن بالمعلاة (انظر نشر النور والزهر جـ١ ص١٦٧ ـ ١٦٨).

(٢) هو الشيخ خليل الجبرتي، نزيل مكة المكرمة ودفينها، قدم مكة مع والده صغيراً في نيف وسبعين ومائتين وألف، ونشأ بها وتوطنها وقرأ على أفاضلها، ولازم الشيخ جمال الحنفي، وقرأ عليه الحديث والتفسير والتصوف، ثم قرأ على الشيخ عبد الرحمن سراج الفقه والتوحيد، وكان يتلقى دروسه في الفقه في المسجد الحرام، وكان عالماً فاضلاً =

هذا الأخير يتمتع بشيء من النفوذ في الدوائر الرسمية العليا؛ لأنه كان يشغل منصباً حكومياً في السابق.

لقد عمل كلا الشيخين على زيادة عدد أتباعهما خصوصاً بين الأتراك وعناصر الجاوى، إلا أن صلات خليل باشا وارتباطاته لم تقف حجر عثرة لمنع سليمان من أن يكون الأكثر شعبية. إن نظام الطرق لا يجيز وجود شيخين في درجة واحدة بالطريقة نفسها في مدينة واحدة؛ لأن وجود الثاني يشكك في صحة عمل الأول. ولذلك تظهر المنافسة بين الطرفين بشكل ازدراء وعداوة واضحة وصريحة. وهذا ما حدث مع خليل وسليمان، فقد ادعى كل منهما أن الطريقة التي يتبعها الآخر لم تكن هي الطريقة النقشبندية السليمة. إن الأذكار ليست هي الأذكار الصحيحة، وبالتالي فهم ليسوا إلا ممثلين مزيفين للطريقة المذكورة آنفاً.

ولو حدثت مثل هذه المخاصمات بين هؤلاء في عهود سابقة، وقبل أن يطبع الغزالي تصوراته للتصوف لكانت النتيجة هي إدانة الطرفين سويّةً؛ لأن مثل هذا الموضوع لا مسوّغ لوجوده، ولا سيما أن العلوم الشرعية هي مناهضة لهذه الأمور الصوفية. وفي مثل هذه الحالة سيكون الحكم على هؤلاء من قبل لجنة من العلماء تفصل في مثل هذه الخصومات.

إذا حدث نزاع بين شيخين من شيوخ الطرق الصوفية تصبح سلطة كل منهما دونما قيمة. كما أن مستشاري الحكومة الرسمية في الشؤون الدينية مثل العلماء ورجال الفتوى ليست لديهم معايير خاصة لهذه الممارسات الدينية الاستثنائية. فهذه المعايير لا يعرفها إلا المتصوفة أنفسهم، وكل ما يستطيع عمله هؤلاء هو تطبيق المعايير التي أوصى بها الغزالي في هذا الشأن[1] دليلاً لطرق التصوف. ومن هذا المنطلق فإن العلماء ورجال

= مواظباً على الطاعة والجمع والجماعة وقد توفي بمكة ودفن بالمعلاة ولم يعقب (انظر نشر النور والزهر جـ١ ص١٥٠).

(١) علّق الجاسر على صوفية الغزالي بقوله:
الإمام الغزالي رحمه الله مع جلالة قدره له آراء من ناحية مزج الدين بالفلسفة، ويُعَدُّ كتاب «إحياء علوم الدين» من أشهر الكتب الدينية، إلا أن العلماء المحققين قد أوضحوا بأنه ـ فضلاً عن =

الفتوى يمكنهم الحكم على أي من هذه الطرق من خلال ما يظهر منها من عقائد وممارسات. فإذا كانت عقيدة هؤلاء وممارساتهم الشرعية مستقيمة فإنهم يتركونهم وشأنهم، لا بل يشكرونهم على ذلك. أما إذا كانت عقيدة هؤلاء وممارساتهم يبدو فيها الضلالة والزيف، فيسعى هؤلاء إلى حل مثل هذه الطريقة، أو يهاجمون الشيخ المضلل الذي يعمل على تغطية خطئه باسم التصوف والطرق الصوفية.

إن ما حدث بين خليل وسليمان من نزاع لم يستدع إيجاد مجلس علمي من رجال الفقه والشريعة لفض النزاع؛ لأن خليلاً كان صديقاً للوالي العثماني عثمان باشا، وكذلك لمفتي الشافعية. وقد جمعت فقرات غير مقبولة من بين النشرات الكثيرة التي كتبها سليمان لمريديه. ومن المعلوم أن الذي يتعرض لعقيدة المسلمين أو لعبادتهم يحكم عليه بالضلالة والكفر، كما أن من يلقي بالاتهام دون دليل على رجال العلم وأساتذة العقيدة يعدّ مفترياً تجب معاقبته. وقد حدث أن وصف سليمان خليل باشا ووالده يحيى بك بأنهما مغروران، وأن إدراكهما للصوفية أمر مشكوك فيه، لدرجة أن سليمان شعر بأنه ملزم بتحذير أتباعه في شرق الهند حيال ذلك كله. ومن الأمور التي اتخذها سليمان لدعم وجهة نظره في عدم صدق هؤلاء في طريقتهم الصوفية، هو الرقص والحركات العنيفة وغرابة التصرفات التي يتخذها هؤلاء وسائل للسمو الروحي من خلال التصوف. لقد وجد خصوم سليمان الدليل على أنه كان يتهجم على العلماء الأتقياء من جهة، كما أنه يهاجم أمراً يمارسه ويقره الكثير من المسلمين، وعلى هذا استطاع خليل أن يقنع الوالي بأن يتبنى وجهة نظره ضد سليمان، وأن يطلب من شيخ العلماء فتوى ضد أقوال سليمان المضللة. لقد قام مفتي الشافعية الذي كان له وظيفة شيخ العلماء بتدبيج الموضوع باسم الوالي، وصدرت فتوى بهذا

= احتوائه على أحاديث لا أصل لها ـ فيه أمور تحول دون الاستفادة منه، وخاصة من قاصري النظر بالأمور الشرعية.

وسبقت الإشارة إلى أن الطرق الصوفية المنتشرة في العهود الأخيرة جلها إن لم يكن كلها مبنية على أسس لا تتفق مع القواعد الشرعية.

الشأن تظهر بأن بيانات سليمان كانت مضللة وخطيرة، وطالبت الفتوى بإتلاف هذه البيانات وعقاب مؤلفها. وأيد هذه الفتوى ثمانية عشر أستاذاً من أساتذة الحرم، ووضعوا توقيعاتهم وأختامهم عليها. وكان من بين هؤلاء مفتي الحنابلة والمالكية. وكانت النتيجة هي إيداع سليمان السجن بأمر من الوالي عثمان باشا، وحتى يخرج سليمان من سجنه كان عليه أن يرضخ لمتطلبات منافسه، ويكتب لمريديه في جزر الهند الشرقية رسالة يستنكر فيها ما كتبه سابقاً عن خليل باشا. وأن العلاقة بينهما الآن أصبحت علاقة أخوة. وقد أرسل أربعة ممثلين لخليل باشا، رسائل مشابهة لحكام دلي ولانجكات Deli وLangkat في شرق سومطرة، يطلبون فيها منهم إعلان محتويات الفتوى السابقة بين شعوبهم. ولقد كان الهدف الرئيس من الصراع الذي قام بين الشيخين، هو رغبة خليل بأن تحظى طريقته بالأهمية نفسها التي يحظى بها سليمان أفندي في جزيرة سومطرة.

وحتى يكون انتصار خليل باشا معروفاً في العالم أجمع، فقد جمعت جميع الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع وطبعت في كراسة في المطبعة الحكومية بمكة (١٨٨٣م) تحت عنوان (رسالة لدحض رسالة سليمان أفندي) بقلم مفتي الشافعية وشيخ العلماء وموافقة رجال العلم وأهل الفتوى في مكة المكرمة. ولقد ألحق بهذه الفتوى التي تقع في ست صفحات جميع التقارير السابقة. ويأتي في الصفحة الأولى من هذا الكتيب إعلان من الوالي عثمان باشا مفاده: نما إلينا من مصادر معينة أن الشيخ سليمان أفندي قد نشر كتيباً يشوه فيه سمعة الطرق الصوفية ومشايخها. وقد امتلأ هذا الكتيب بالسخافات والتوافه، وأن هذا الكتيب واسع الانتشار؛ لذا فقد وضعنا هذا الكتيب بين يدي مفتي الشافعية وعدد آخر من علماء المدينة المقدسة. وقد نظر المفتي في محتويات الكتيب فقرأها وتفحصها وخلص منها إلى أن محتوياته تافهة وتتعارض مع الشرع الحنيف؛ ولذلك يجب إتلاف هذا الكتيب، ومحو كل ما يترتب عليه. وقد صدرت فتوى بهذا الموضوع تحمل اسم المفتي ووافق عليها علماء مكة المكرمة جميعهم. وقد تمت بالفعل مصادرة صور الكتيب المحفوظة في المخزن، كما تم

جمع النسخ التي في أيدي القراء وأحرق كل أثر لها. وبما أن الفتوى قد اشتملت على عقاب المؤلف الشيخ سليمان أفندي فقد قمنا بإيداعه السجن ليعلم الجميع هذه الوقائع.

في عام ١٨٨١م أقنع بعض أتباع المذهب الحنفي القاضي المعين من قبل الحكومة التركية، بأن يصدر قراراً بتأخير صلاة العصر إلى ما بعد موعدها المألوف، وقد استاء لهذا القرار معظم العلماء والكثير من عامة الناس. ولم يكن المعارضون من أتباع المذاهب الثلاثة الأخرى فحسب، بل كان معهم عدد كبير من أتباع المذهب الحنفي نفسه.. وقد طالب الجميع أن يعود موعد الصلاة إلى ما كان عليه في السابق؛ لأنه حتى في إسطنبول نفسها مركز المذهب الحنفي، كانت صلاة العصر تؤدى في وقت مبكر.. ولقد كانت الدوائر العليا في المذهب الحنفي تعتقد أن هذه الاعتراضات ستنتهي حينما يبدأ تنفيذ الحكم الذي أصدره القاضي.

لقد كتب مفتي الشافعية معترضاً على القاضي بقوله: إن القاضي الذي يصدر حكماً في قضية معينة عليه أن يلتزم بعدد من الشروط. ومثل هذه الشروط لم يلتزم بها قاضي الأحناف عند إصدار حكمه ذاك. ومن جهة أخرى فإن مهمة القاضي أن يصدر أحكاماً في قضايا تطرح عليه بصورة رسمية، والقضية المطروحة لم تعرض رسمياً على القاضي، وكل ما يستطيع القاضي عمله هو اقتراح بعض الوسائل والسبل لحل الموضوع، دون أن يصدر حكماً ملزماً بذلك. وقد أغرق المفتي القاضي بالكثير من المناقشات التي تدحض رأيه ذاك، الأمر الذي فرض سحب الفكرة الجديدة والتنازل عنها خلال بضعة أسابيع. وقد نشر هذه الفتوى عام ١٨٨٣م في القاهرة، في الوقت نفسه الذي نشر فيه كتابه عن أمراء مكة وأسماه «خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام».

لقد كان عمل مفتي الشافعية الأساس هو إصدار الأجوبة للاستفسارات التي تعرض عليه. وقد كان أمناء الفتوى يردون على الأسئلة ويستشيرون المفتي في الأحوال المهمّة فقط. ولما كان معظم أهالي مكة يتبعون

المذهب الشافعي، فلا يكاد يمر يوم دون أن تكون هناك استفسارات عن موضوعات الأسرة، وعن الشكل الشرعي لعقود معينة، وهلم جرا. . ولا يقتصر الأمر على أهالي مكة وحدهم، إذ يرد إلى المفتي عدد كبير من الاستفسارات من الشافعية في الهند وأرخبيل الملايو ومن داغستان. وعلى المفتي أن يبدي رأيه فيها خلال فترة وجيزة مثل التطعيم واستخدام مصابيح الكاز في المساجد والطلاء الصيني هل هو نجس أو طاهر. والقوانين الحديثة في الربا والأسلوب الجديد في الملابس. . إلخ.

لقد كانت إدارة التدريس في المسجد تسند إلى شيخ العلماء الذي يعمل عميداً للجامعة. وعليه أن يباشر كذلك إدارة إيرادات المسجد الحرام، والسماح بقبول المرشحين الجدد، وتمثيل رجالات العلم في المحافل الأخرى. وسلطة شيخ العلماء يحكمها العرف والعادات المرعية. وفي الأمور الإدارية يكون العرف أكثر قبولاً من الجميع.

ومن المعلوم أن رؤساء الطوائف الحرفية، وكذلك رؤساء الأحياء يستعينون بالسلطات الحكومية لممارسة صلاحياتهم، ولا يشذ عن ذلك تلك الصلاحيات المخولة لشيخ العلماء، إذ يقوم الأغوات حراس الحرم، أو شرطة الحكومة بإخراج أي متطفل بناء على طلب شيخ العلماء، ولا يسمح لأي متكلم بإلقاء الدروس في ساعات النهار، حيث توجد حلقات التعليم بعد كل صلاة. والاستثناء الوحيد يكون بعد صلاة العشاء؛ لأنه في مثل هذه الساعة لا يوجد إلا العدد القليل من محاضرات الأساتذة المدرسين.

طريقة التدريس في الحرم

إذا أراد المرء أن يكون صورة شاملة عن طريقة التعليم في مكة، فعليه أن يسير في الحرم خمس مرات يومياً خلال الشهور السبعة الأولى من السنة الهجرية؛ لأن الشهر الثامن وما بعده تحدث فيها تغييرات كثيرة. ويجب أن يكون السير في الحرم في جميع أيام الأسبوع عدا يومي الثلاثاء والجمعة؛ لأن المحاضرات في هذين اليومين لا تكون طبيعية ويحدث فيها بعض الانقطاع. وسبب الانقطاع في يوم الجمعة راجع إلى إقامة شعائر الجمعة. أما في يوم الثلاثاء فانقطاع المحاضرات فيه ليس له سبب معروف.

وبعضهم يذكر أن هذا اليوم يوافق يوم وفاة أبي حنيفة؟! وعلى أي حال فهناك بعض الأساتذة الذين يلقون محاضراتهم في هذين اليومين. ولكن هذه المحاضرات تكون في العادة في موضوعات صغيرة، أو لعلها تلقى في هذه اليومين لعدم وجود مكان لها في الأيام العادية.

مكان المدرس

إن الأساتذة الذين يلقون محاضراتهم بعد صلاة الصبح مباشرة يجلسون في صحن المسجد. وهذه الحال لا تستمر أكثر من ساعتين، حيث تبدأ الشمس بإرسال أشعتها فوق قباب الناحية الشرقية، فتنتقل المحاضرات إلى داخل الأروقة حيث يتجمع الدارسون. وقبل أن يبدأ الدرس بدقائق معدودة يضع خادم المدرس أو تلميذه سجادة في المكان الذي اعتاد المدرس الجلوس فيه، لتغطية الحصباء في صحن المسجد، أو الأرض الرخامية بين الأعمدة، وتواجه السجادة الكعبة، إذ ينبغي أن يواجه المدرس في أثناء تدريسه الكعبة، وكأنه في حالة صلاة. وفي العادة لا تكون هناك صعوبة في اختيار المكان. ويجد المدرس المكان المناسب له حسب رغبته. وقد يحتفظ بهذا المكان طوال العام وقد يكون مدى الحياة.

حلقة التدريس

يجلس الطلبة بشكل حلقة حول الأستاذ، وحينما لا يكون هناك تغيير بين صفوف الطلبة، يختار كل طالب مكاناً محدداً، إلا أن ذلك لا يلتزم به كثيراً. إن كل تلميذ يأتي ومعه سجادة صلاة، وقبل أن يجلس يوجهها ناحية مركز محيط الدائرة. وفي العادة يكون أولئك الذين يجلسون خلف المدرس، أقرب من الذين يقعون في المقدمة، وقد يسمعونه بشكل أفضل. ويترك في العادة شيء من الفراغ بجانب سجادة المدرس، لإعطائه مزيداً من السعة وحرية الحركة، وفي العادة يجلس الطالب على طرف السجادة ويضع أمامه حامل المحبرة النحاسي الذي يوضع فيه في العادة دواة الحبر وأقلام القصب وسكين خاصة لبري الأقلام. كما يضع التلميذ أمامه أيضاً بعض أوراق الكتابة وعدة صفحات من الموضوع الذي سيعالجه المدرس.

يطلب المدرس أحياناً في بداية محاضرته من أحد التلاميذ القدامى أن يجلس في مواجهته مباشرة، ويتلو ملخصاً للمحاضرة السابقة. وفي بعض

الأحيان يبدأ المدرس محاضرته بجمل نثرية مسجوعة تبين أهمية الدرس، ثم يطلب إلى تلميذه المذكور آنفاً تكرارها، ليسمعها التلاميذ مرتين زيادة في الأهمية.

المدرسون على المذاهب الأربعة

إن عشرات الحلقات التي تعقد بعد صلاة الفجر مباشرة، التي يكون قوامها من عشرة إلى ستين دارساً، تكون مخصصة لدراسة العلوم الشرعية. وإذا كانت المحاضرة عن التشريع يمكن للطالب أن يحضر لأي مدرس. أما عند دراسة الفقه فلا بد أن يختار الطالب المدرس الذي ينتمي إلى مذهبه، فالدروس الفقهية تقدم على المذاهب الأربعة.

الحنابلة والمالكية

إن أتباع المذهب الحنبلي قلة، وهناك مدرس أو اثنان من مدرسي الحرم يقومان بتدريس الفقه الحنبلي. ومعظم الطلبة الذين يتلقون الفقه الحنبلي، هم من وسط الجزيرة العربية. ويمثل المالكية عدد أكبر من الحنابلة. وعدد الحلقات التي تدرس الفقه المالكي أكثر عدداً. ويسود المذهب المالكي في شمال غرب أفريقيا. وإذا استثنينا مصر فإن سكان السودان والتكارنة ومسلمي الحبشة وجميع العناصر الزنجية التي تحولت إلى الإسلام، وكذا القبائل التي انتشر الإسلام بين ربوعها من خلال الحركة السنوسية، هم جميعاً من أتباع المذهب المالكي. وهناك عدد قليل من المالكية في سوريا والجزيرة العربية، ومعظم هؤلاء من أصول مغربية. ولما كان المذهب الحنفي هو مذهب الدولة العثمانية الرسمي فإن أتباعه كثيرو العدد. ولذلك كان في السابق يعين في كل منطقة من مناطق الدولة العثمانية قاضٍ للأحناف، بجانب القاضي الذي يمثل مذهب أهل المنطقة. إلا أن هذا القانون غير معمول به الآن. إن معظم أهل مكة هم أتباع المذهب الشافعي، غير أن الصفة العالمية التي للمدينة المقدسة لم تساعد على سيادة هذا المذهب.

لقد كانت الحكومة العثمانية في السابق تعين أربعة قضاة، كل واحد منهم يمثل أحد المذاهب الأربعة. أما الآن فلا يوجد إلا قاضي الأحناف، الذي أصبح يقوم بتصريف الشؤون الدينية وأمور الأحوال الشخصية فقط، بينما

الأمور الأخرى كافة يحكم بها بموجب قانون جديد يسمى (القانون المنيف) وقد حل محل (الشرع الشريف). ولم تكن مهمة القاضي تطبيق هذا القانون. فقد كان من اختصاصات رجال الإدارة الذين يقومون بتطبيقه طبقاً لرغباتهم وميولهم.

إن هذا التنظيم الجديد لم يهمل المذاهب الأخرى. فلكل مذهب مفتٍ خاص. ويلتزم القاضي الحنفي بما يصدره هؤلاء المفتون من أحكام، فيما يتعلق بأمور الزواج وغيرها. وهناك اتجاه لدى السلطة العثمانية بأن تقصر مجالات المذاهب الأخرى غير الأحناف على أمور العبادات فقط. أما الأمور الأخرى فيحكم بها بموجب المذهب الحنفي.

الأحناف

من الطبيعي أن يكون للمدرسين الأحناف النصيب الأوفر من المرتبات في مكة المكرمة. ففي تقويم الحجاز عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٥ ـ ١٨٨٦م) قائمة بالمدرسين ومرتباتهم. غير أن هذه البيانات الرسمية ليست دقيقة؛ لأنها تحوي الكثير من أسماء الذين يتقاضون مرتبات ضخمة، لا تتناسب مع عملهم. وهؤلاء يعطون صفة الأساتذة؛ لأن الحكومة تريد أن تمنحهم مرتبات من الاعتمادات المخصصة للتدريس. وإذا استثنينا هؤلاء فإن عدد المدرسين يتراوح بين ٥٠ ـ ٦٠ مدرساً حوالي ثلثهم من الأحناف. وبالإضافة إلى علماء مكة نجد علماء هنوداً وآخرين من آسيا الروسية، بالإضافة إلى علماء من مختلف مناطق الدولة العثمانية.

ومن الجدير بالذكر أن هناك الكثير من المهاجرين من مناطق أجنبية غير عثمانية. وهؤلاء يرون خليفة إسطنبول ملجأ يلوذون إليه. ويجد هؤلاء ترحيباً ودياً من قبل الدولة العثمانية. ويقوم الأحناف كغيرهم من أتباع المذاهب الأخرى بتدريس الفقه الحنفي، وكذلك تدريس المصنفات الحديثة التي تبحث في المذهب، والمأخوذة من فقه المذهب نفسه.

الشافعية

أما المذهب الشافعي فعلى الرغم من أن الحكومة العثمانية قد حددت تطبيقه في الأحوال الشخصية فقط، إلا أن له سيادة كبيرة في مختلف مناطق الدولة العثمانية. ويحظى هذا المذهب بالكثير من حلقات التدريس، وله

أهمية كبرى. ويعود سبب الانتشار الكبير لهذا المذهب إلى حماية[١] الدولة العباسية له في القرون الأولى. ولم يكن لهذا المذهب من منافس سوى المذهب الشيعي، الذي كان له بعض الأتباع في غرب وجنوب الجزيرة العربية.

كان أشراف مكة لا يلتزمون بمذهب معين فقد أبدلوا إعترافهم بالمذهب الشيعي[٢] لصالح المذهب الشافعي الذي هو مذهب السواد الأعظم من مواطنيهم. ولم ينتشر المذهب الحنفي، مذهب الحكام العثمانيين الجدد؛ فقد بقي سكان غرب الجزيرة يتبعون المذهب الشافعي. وبجوار مكة هناك بعض قبائل حرب التي تتبع الدعوة السلفية التي جاء بها الإمام محمد ابن عبد الوهاب. وفي اليمن ساعد إضعاف نفوذ الأئمة الزيدية ـ حكام اليمن ـ على انتشار المذهب الشافعي، وتوسعته على حساب المذهب الزيدي. أما في حضرموت فالمذهب السائد هو المذهب الشافعي أيضاً، وفي البحرين ينتشر المذهب الشافعي بصورة جزئية. وفي الوجه البحري في مصر تغلب المذهب الشافعي على جميع المذاهب الأخرى. وهناك انتشار واسع وسيادة للمذهب الشافعي في سواحل الهند (مليبار وكورماندل)[٣] وأرخبيل الملايو وداغستان[٤]. ويميل الحجاج من أتباع الشافعية إلى البقاء في مكة بقصد الدراسة والتعلم مدة أطول بكثير من أصحاب المذاهب الأخرى.

---

(١) هذا خطأ تاريخي فالدولة العباسية تبنت المذهب الحنفي مذهباً رسمياً لها بعد أن تولى أبو يوسف القضاء. ولم يكن المذهب الشافعي يحظى بتأييد العباسيين.

(٢) لقد كان استقلال الأشراف بمكة مشوباً بنفوذ دول الإسلام القوية، ويبدو ذلك في دعاء مكة للعباسيين مرة، وللفاطميين مرة أخرى، وفي الجمع بين دولتين في بعض الأحيان. ولقد بدأ مذهب الشيعة يمد ظله في مكة بتأثير الحكم الفاطمي، وبأمر الأشراف الذين كان بعضهم يميل إلى التشيع، وقد أضيفت عبارة «حي على خير العمل» إلى الأذان في منائر المسجد الحرام، وهو تقليد شيعي كان يعمل به الفاطميون، وبعض حكام مكة، وقد أبطل هذا التقليد صلاح الدين الأيوبي (انظر السباعي: ص٢١٣، ٢١٦، ٢٢٤).

(٣) مليبار وكورماندل: تقع على ساحل الهند الجنوبي الغربي.

(٤) داغستان: تقع بين جبال القوقاز وبحر الخزر، وتعني داغستان بالتركية بلاد الجبال، إذ تؤلف الجبال ثلاثة أرباع أراضيها، وسكان داغستان كلهم مسلمون مع اختلاف قبائلهم من (قوموقه) و (أندي) (وداغستاني) عددهم يقرب من ١،٥ مليون، ومساحة البلاد تزيد على ٥٠ ألف =

ليس من قبيل المصادفة أن يتولى مفتى الشافعية، أو أي أستاذ بارز آخر من ذلك المذهب، منصب شيخ العلماء، وأن يصل عدد الأساتذة الشافعية إلى ما يتراوح بين ٢٠ ـ ٣٠ مدرساً من مجموع الأساتذة في الحرم، والبالغ عددهم ٥٠ ـ ٦٠ مدرساً، وأن تكون الحلقات التعليمية لديهم هي المثل البارز للحياة الأكاديمية في المدينة المقدسة. يضاف إلى كل ذلك أن معظم علماء هذا المذهب هم مكيون مولداً ونشأة.

ومن أبرز العلماء المكيين: العالم الزاهد السيد عبد الله الزواوي ـ ابن العالم محمود صالح[1] المدرس الشهير، ذي السمعة الطيبة، والذكر الحسن، وقد قام الأب محمود بتعليم ابنه في بيته ليكون بعيداً بقدر الإمكان عن الغوايات الدنيوية. وما إن بلغ الابن عبد الله العشرين من عمره حتى حقق نجاحاً كبيراً في الدراسات الشرعية، الأمر الذي حدا بوالده لتعيينه مدرساً في الحرم. مما أثار عليه معارضة قوية مبعثها خرق العرف التقليدي، بتعيين مدرس تلقى تعليماً خاصاً لهذا المنصب الرفيع، لدرجة أنهم رموه بالحجارة من سطح المسجد. غير أن هذا العالم، حديث السن، استطاع أن يتغلب على هذه المعارضة بقدرته العلمية وبراعته وطبيعته

= كيلومتر مربع. وقد احتلتها روسيا وأعلنت فيها عن قيام جمهورية ذات استقلال ذاتي عام ١٣٤٠هـ (١٩٢١م) وجعلتها مرتبطة بها، وعاصمتها مدينة (محج قلعة)، وهي مدينة ساحلية، من أشهر مدنها (دربنت)، وتعنى بالفارسية (باب الأبواب)، وهو اسم أطلقه عليها المسلمون (انظر محمود شاكر وآخرون. البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ص٧٤٤ ـ ٧٤٦).

(١) لم نجد في المراجع التي أرخت لهذه الفترة عالماً باسم محمود، وقد ذكرت كتب التراجم اسم أحمد الزواوي، عاش في الفترة نفسها التي وجد فيها المؤلف في مكة، وخلف ولداً باسم عبد الله. ولذا نرجح أن الاسم هو أحمد صالح الزواوي بدلاً من عبد الله محمود صالح الزواوي. وقد جاء في كتاب نشر النور والزهر (ص٥٧ ـ ٥٨) عند ترجمة أحمد الزواوي أنه ولد بمكة سنة ١٢٦٢، ودرس بالمسجد الحرام، وقرأ على جملة مشايخ، وتوظف بمجالس الحكومة بها، ثم قام بها أتم قيام وأثنى عليه الناس والحكام ولم يشغله ذلك على الإفادة والاجتهاد في العبادة، توفي بمكة سنة ١٣١٦هـ، وعقب ابنين هما السيد عبد الله والسيد محمد وهما طالبا علم، والأول تولى الإمامة التي كان يقوم بها أبوه بمقام المالكي.

الهادئة. وقد استطاع الوالد وابنه أن يجمعا بين العلم والتقوى والعمل التجاري المربح، لذا فمن غير المستغرب ألا يخلّفا لنا آثاراً أدبية.

ومن العلماء البارزين من أتباع المذهب الشافعي السيد أبو بكر شطا، وهو رجل في خريف العمر، يطلق عليه المكيون، اسم السيد بكري[(١)]. وقد هاجر والده إلى مكة من دمياط مصر. وقد كانت حلقة السيد بكري تغص بالتلاميذ الدارسين. ومن المعروف أنه مؤلف خصب الإنتاج.

لقد تمتع الكثير من العلماء الذين درسوا في الجامع الأزهر بالقاهرة بشهرة واسعة وكبيرة؛ لأن الجامع الأزهر يعدّ قبلة الدارسين للمذهب الشافعي. ومن هؤلاء محمد بسيوني[(٢)]، وعمر شامي[(٣)]، ومصطفى عفيفي[(٤)]، ومحمد منشاوي[(٥)]، وقد علم المنشاوي الكثير من أبناء الجاوى

---

(١) هو السيد أبو بكر المشهور ببكري شطا الشافعي المكي، ولد عام ١٢٦٦ هـ بمكة وعاش يتيماً، درس العلم على شيوخ مكة واشتغل بالتصنيف والتأليف، وذكر له صاحب كتاب نشر النور والزهر (ج١ ص١٠٧ ـ ١٠٨) الكثير من المؤلفات. توفي بمكة عام ١٣١٠ هـ ودفن بالمعلاة في اللحد الذي دفن فيه والده وشقيقه.

(٢) هو محمد بسيوني الشافعي المكي (١٢٥٣ ـ ١٣٠٢هـ) أحد علماء مكة المشاهير ولد بها، وتتلمذ على علمائها، وتصدر التدريس بالمسجد الحرام. (انظر نشر النور والزهر ج٢ ص٣٦١ ـ ٣٦٢).

(٣) هو السيد عمر بركات الشامي البقاعي الأزهري المكي الشافعي، ولد في البقاع سنة ١٢٤٥هـ ثم ارتحل إلى دمشق، ودرس بها وانتقل بعدها إلى مصر، حيث مكث في الجامع الأزهر ما يزيد على ١٥ سنة، ثم هاجر إلى مكة سنة ١٢٧٦هـ، فاشتغل بالتدريس والإفادة والتأليف، إلى أن انتقل إلى جوار ربه عام ١٣١٣هـ (انظر نشر النور والزهر ج ٢ ص٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(٤) هو الشيخ مصطفى بن محمد بن سليمان. ولد ببلدة عفيف ـ إحدى قرى مصر ـ وإليها ينسب. ثم قدم مصر ودرس في الأزهر. ولما مات والده قدم إلى مكة المشرفة في نيف وستين ومائتين وألف. ودرس على مشايخ الحرم وأجازوه بالتدريس. فدرس في المسجد الحرام، وانتفع به الكثير من الناس وخاصة أبناء الجالية الجاوية. وكان فقير الحال يتعيش بالكتابة. وقد توفي عام ١٣٠٨هـ ودفن بالمعلاة. (انظر المرجع السابق ج٢ ص٤٤٤ ـ ٤٤٥).

(٥) محمد المنشاوي نزيل مكة، هاجر إليها من مصر، بعد أن درس في الجامع الأزهر، وبعد قدومه إلى مكة درس على مشايخها، وأذن له هؤلاء بالتدريس، فمكث يدرس بالمسجد الحرام في فنون كثيرة، وأغلب تلاميذه من الجاوات. وحين قدم مكة كان فقيراً ثم صار =

قراءة القرآن وتجويده. لقد كان المصريون في الماضي يتيهون فخراً بتفوقهم العلمي في مكة. غير أنه منذ الاحتلال الإنكليزي لمصر، ومحاولة إسماعيل باشا نشر الحضارة الأوربية في الوجه البحري، أصبح الناس ينظرون إلى مكة بصفتها الملاذ الحقيقي للإسلام.

المصريون في مكة

ففي مصر أصبح غير المسلمين هم الذين يتولون تعيين الأساتذة ورجال الفتوى. وفي الكثير من الحالات تصدر الفتاوى عن هؤلاء التي تخالف ما تكنه ضمائرهم. وعلى الرغم من أن بعض المعاملات في مكة يقوم بتصريفها بعض الأشخاص غير المتدينين، إلا أن هناك قدراً معيناً من حرية الحركة التي تمنح للعلماء في هذا المجال. وكأن لسان حال المكيين يقول: «من نعم الله علينا أن نحكم أنفسنا بأنفسنا». إن رجل الشارع التركي يعرف واجبات المسلم أكثر بكثير من أي إنكليزي رفيع المستوى.

لقد حدث مرة أن مزارعاً مصرياً كان يشكو بمرارة من غلظة الضباط الإنجليز وتطرفهم وغرور الكثير منهم. فما كان مني إلا أن ذكرته بالخدمات الجليلة التي تقدمها الحكومة البريطانية لمصر، فضلاً عن الصفات السامية التي يتحلى بها بعض الإنجليز.. لقد كان جوابه لي بالمثل القائل: كلب أبيض هنا.. وكلب أسود هناك، لكن النتيجة كلهم كلاب أولاد كلاب.

إن لسان حاله يقول: لا يستطيع أي كافر أن يدخل مكة. أما في مصر فقد دنس الإنجليز ـ ذكوراً وإناثاً ـ الأزهر الشريف. ونجد في مكة سوقاً للعبيد، بينما في مصر لا يستطيع المرء شراء العبد إلا بطريقة سرية وكأنه خطيئة. والمجتمع الإسلامي في مكة لم يختلط بالكفرة، وهذا أمر غير ممكن في مصر. والنتيجة هي أن المصريين الموجودين في مكة يظهرون خوفاً شديداً على بلدهم.

= ذا ثروة، وملك داراً، وكتباً عظيمة. وقد توفي بمكة عام ١٣١٤هـ (انظر المرجع السابق ج٢ ص٤٣٠).

الحضارم

يفد من حضرموت الكثير من الأساتذة المتفوقين. وقد كان من بين هؤلاء أستاذ قصير القامة يدعى: محمد سعيد بابصيل[1] وكان يشغل منصب أمين الفتوى لشيخ العلماء بوصفه مفتي الشافعية، كما كان يقوم بمساعدة شيخ العلماء في محاضراته. وسكان حضرموت مثل سكان وسط الجزيرة العربية يأتون من بيئة قاحلة جدباء، فيرون المدينة المقدسة وكأنها بابل الجديدة. والحياة العلمية في مكة لها جاذبية خاصة للذين يتذوقون طعم هذه الحياة. فالدراسة فيها تسمح بتبادل الأفكار والآراء، بالإضافة إلى ميزة التمتع بالماديات الغنية. ولذا فالحضارمة ينالون من بركات مكة وقدسيتها الكثير من الخير، الذي لا يتوفر لهم في حضرموت.. إن مهاجري حضرموت إلى مكة سرعان ما يتأقلمون مع العادات والتقاليد المكية. وهذا التأقلم يساعدهم على إحراز مزيد من التقدم والنجاح.

إن الحضارمة في أرخبيل الملايو لا يظهرون وداً للمكيين، ويقابلهم المكيون بالشعور نفسه. وهذا ناجم بالطبع عن التنافس الشديد بينهما، وخاصة في الأمور التجارية. وعدم الود هذا مرده لتضارب مصالح الطرفين. وهذه الأحكام المملؤة بالتحامل، مضللة للأجانب الأوربيين، الذين لا يعرفون الدوافع ورائها[2].

العلماء الأعاجم

لقد كان في مكة لفيف من العلماء الداغستانيين، والحفاظ القديرين، الذين أتوا مكة للدراسة. وكان أشهر هؤلاء: عبد الحميد الداغستاني[3]

---

(١) ولد بمكة ونشأ بها، وتلقى العلم من علماء المسجد الحرام، وبعد أن نال إجازة التدريس، وعقد حلقته في المسجد الحرام، عين أميناً للفتوى فاكتسب خبرة واسعة، ثم أسند إليه منصب الإفتاء. قام برحلة إلى صنعاء للتوسط بين الترك وإمام اليمن في إزالة أسباب الخلاف لكن المهمة لم تنجح، فرجع إلى مكة ومارس منصب الإفتاء إلى أن توفي عام ١٣٣٠هـ. (انظر سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر: ص١٤٤).

(٢) يقول الجاسر: لا أدري لماذا فرق المؤلف بين الحضارمة في الملايو والحضارمة في مكة. فوصف الفريقين بالتنافر. وعلل هذا التنافر بالتنافس الشديد بينهما في الأمور التجارية. لا أدري من أين أتى بهذا؟ (المجلة العربية، عدد شوال ١٤١٦ ص١٠٠).

(٣) هو الشيخ عبد الحميد الداغستاني الشرواني المكي، العالم الفاضل والمحقق الكامل، أخذ العلوم عن عدد من كبار عصره. درس في المسجد الحرام، وانتفع به عدد كبير من الناس =

الذي كان يعتقد الكثير من زملائه أنه أكثر علماً من مفتي الشافعية. لقد توفي عبد الحميد قبل وصولي إلى مكة، مخلفاً ابنه محمود، الذي كان يعدّ أحد الستة المشهورين بالقراءة في المدينة المقدسة.

إن المدرسين من مليبار ويدعونها هنا مينيبار هم قلة الآن عما كانوا عليه في السابق. وكذلك العلماء من بلاد الجاوى. فهؤلاء نادراً ما يقومون بالتدريس في الحرم. ولقد سألت في أثناء تجوالي في أروقة المسجد أحد المكيين عن سبب قلة المدرسين من أبناء الجاوى في الحرم. أشار لي بأصبعه على الشيخ زين الدين بن سومباوا، وأضاف أنه لا يوجد سوى هذا العالم في الحرم. إن السبب في قلة علماء الجاوى يعود إلى طبيعة هؤلاء وتواضعهم المتناهي من جهة، وإلى حاجات الطلبة الدارسين من بلاد الجاوى، والتي سنتناولها بالتفصيل لاحقاً من جهة أخرى.

دراسة كبار السن

وإذا نظرنا إلى حلقات الدروس ولتكن حلقات الدروس للطلبة الشافعية، فأول ما يصادفنا الفروق الكبيرة في الأعمار، إذ يجلس في حلقة واحدة الكهول، جنباً إلى جنب مع الشباب والمراهقين، وكبار السن من الرجال. وينقسم كبار السن إلى فئتين، جميع أفرادهما يحضرون الدروس من أجل البركة. والفئة الأولى يتكون أفرادها من أشخاص يعرفون سلفاً ما سوف يلقيه عليهم الأستاذ، إلا أنهم يجلسون أمام شيخهم باعتباره أستاذاً قديماً لهم، أو باعتباره زميلاً قديراً. والفئة الثانية جميع أفرادها ممن لم ينالوا حظاً من العلم في شبابهم، فيحاولون الآن تحصيل ما فاتهم. وجهود أمثال هؤلاء تكون ثمارها قليلة في العادة. وهم في الغالب يقنعون ببركة الحضور، حتى لو لم يفهموا إلا شيئاً يسيراً.

الأعاجم يتعلمون العربية أولاً

يتراوح سن الدارسين الحقيقيين بين ست عشرة سنة وأربعين سنة في الغالب. ويجلس هؤلاء سويّةً في حلقة تعليمية واحدة. إن الرغبة في التعليم ضعيفة بين صفوف المكيين. غير أن هذه الرغبة تنمو وتبرز مبكرة

= توفي بمكة عام ١٣٠١هـ (انظر إفادة الأنام لعبد الله غازي جا (مخطوط).

لدى أولاد العلماء، وتتأخر هذه الرغبة لطلب العلم في بعض الأحيان، بسبب بعض العوائق الأسرية التي لا يمكن التغلب عليها إلا في وقت متأخر.

يأتي السواد الأعظم من الدارسين من الخارج. فإذا كانوا من أصول غير عربية، كان عليهم أن يبدؤوا بدراسة اللغة العربية، حتى يتسنى لهم فهم المحاضرات التي تعطى في الحرم. بيد أن الكثير من هؤلاء الطلبة القادمين من مليبار والملايو وجزيرة جاوة يتعلمون العربية في بلادهم، الأمر الذي يمكنهم من متابعة دروس الحرم. أما أولئك الذين يفدون إلى مكة وهم صغار السن، أو الذين لم يتعلموا العربية في بلادهم، فعليهم قراءة القرآن أوّلاً، ثم يذهبون إلى إحدى المدارس التي يديرها أحد أبناء جاليتهم في مكة، حيث يتم تدريسهم اللغة العربية، بالاستعانة ببعض الكتب المكتوبة بلغتهم الأم. وفي هذه الحالة يشرح المعلم ويفسر لهم النصوص بلغتهم الأصلية. وبعد التغلب على المصاعب الأولى، يلتحق هؤلاء الطلبة بدراساتهم العلمية. وقد يبقى بعض هؤلاء مع مدرسين من أبناء جلدتهم؛ لأن الكثير من هؤلاء العلماء ليسوا بأدنى مرتبة من العلماء العرب في علومهم. إلا أن الرغبة الجامحة للطلبة بتلقي العلم في الحرم، بالإضافة إلى المسؤوليات الأخرى التي يقوم بها المدرسون من أبناء وطنهم، تفرض انتقال عدد من هؤلاء إلى الدراسة في الحرم المكي الشريف.

إن المحاضرات التي تعقد في الحرم تكون مفتوحة وحرة للجميع. ويمكن لأي شخص أن يحضر أي محاضرة ولو لمجرد حب الاستطلاع. وفي هذه الحالة يترتب عليه أن يجلس في آخر الحلقة، حتى يتسنى له الانصراف متى شاء، دون أن يراه أحد. وأما من يود الدراسة المنتظمة فإنه يختار مكاناً في الحلقة بين اثنين من معارفه أو ممن سيكونون معارفه في المستقبل ويجلس بينهما، وبعد عدد من المحاضرات يلحظ المدرس وجوده، فيكلمه في نهاية المحاضرة. وقد يقوم الطالب نفسه بزيارة الشيخ، ولو أن ذلك غير إلزامي، علماً بأنه ليس هناك تسجيل للدارسين.

إن نظام المحاضرات في العلوم الإسلامية قد تنوع كثيراً بمرور الزمن. ففي الفترة من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري، وهي الفترة التي شهدت نهاية الخلافات المذهبية، حيث حل الوئام بدل الخصام بين أنصار المذاهب المختلفة، ظهر بعض العلماء البارزين من أئمة الشافعية مثل أبو شجاع والرفاعي والنووي. وقد أثرى هؤلاء العلوم الشرعية بمعارفهم وعلومهم الغزيرة. وقد تطلع الخلف إلى مثل هذه الكتب بالاحترام والتقدير نفسها التي كان ينظر بها هؤلاء إلى كتب الشافعي وتلاميذه. وتحتوي هذه الكتب على مباحث ومقتطفات متنوعة، قام هؤلاء بشرحها وتوضيحها. وقد حفظها العلماء من بعدهم عن ظهر قلب، لتكون دليلاً لهم في أثناء إلقاء محاضراتهم.

وفي فترة لاحقة قام العلماء المتأخرون مثل ابن حجر والشربيني والرملي بوضع شروح وتعليمات على هذه الكتب. ولا زالت هذه الشروح حتى وقتنا الحاضر هي الأساس الذي تبنى عليه المحاضرات في الفقه الشافعي. ثم خلف من بعدهم جيل من العلماء كانت مجالات علمهم أضيق من سابقيهم، إذ اقتصر هؤلاء على تفسير لغة الكتب السابقة، وشروح المادة التي تداولها سلفهم، وترجيح أحد الآراء الذي يجب اعتماده من بين الآراء المتعدّدة الموجودة في قضية ما. غير أن هذا لا يمنع من وجود بعض العلماء الذين يأتون بكل جديد.

طريقة إلقاء المحاضرات في الحرم

إن المدرس في الوقت الحالي ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) يختار في تدريسه إحدى ثلاث طرق هي:

١ ـ قراءة أحد الكتب على تلاميذه مع إحدى التعليقات والشروح التي وضعها أحد العلماء السابقين. وبذلك يقتصر عمل المدرس على ضبط قراءة النص إلى جانب التفسير العرضي للتعبيرات الصعبة.

٢ ـ أن يجعل قراءة أحد الكتب أكثر فائدة وذلك بقراءة النص وإيراد مختلف وجهات النظر التي كتبها العلماء حوله. وفي العادة يقوم المدرس بتحضيرها من مراجع مختلفة.

٣ ـ أن يقوم المدرس بتجميع الشروح المختلفة ويستخرج منها مصنفاً يقوم بتأليفه وطبعه.

إن الطريقة الأولى هي أسهل الطرق المتبعة في التدريس؛ ولذلك يكثر عدد العلماء الذين يتبعونها في إلقاء محاضراتهم؛ لأنها لا تلقي عبئاً كبيراً على المدرس. ونجد من بين المدرسين في الحرم من يتبع الطريقة الثانية. ونذكر من هؤلاء الشيخ عبد الله الزواوي، الذي اختار لمحاضراته كتاب الإقناع للشربيني. وكان يعطي شروحاً لمادة الكتاب بالاستعانة بعدد من الشروح يختارها ويحضرها من مراجع مختلفة. وهذا الأسلوب يحتاج في العادة إلى براعة واتقان في علوم اللغة العربية، خاصة إذا سمح المدرس لطلابه بأن يقاطعوه بالأسئلة أثناء إلقاء المحاضرة. ومن الجدير بالذكر أن معظم المدرسين من زملائه لا يسمحون للطلاب بإلقاء أسئلتهم واستفساراتهم إلا في نهاية المحاضرة، وذلك لعدم تمكن بعض هؤلاء العلماء من اللغة العربية بصورة جيدة. وفي بعض الحالات النادرة ينهي بعض الأساتذة الحديثي العهد بالتدريس المحاضرة قبل وقتها، فيطلب الشيخ السماح من طلابه والابتسامة ترتسم على شفتيه قائلاً: لنتوقف الآن عن الدرس؛ لأنني بحاجة إلى تجديد الوضوء، غير أن واقع الحال هو أنه غير مستعد للمحاضرة تمام الاستعداد.

لقد كان السيد بكري أحد المدرسين القلائل الذين يعطون محاضراتهم، من معلومات جمعوها وصاغوها بأنفسهم. ولقد طبعت محاضرات السيد بكري في القاهرة عام ١٨٨٣م باسم (إعانة الطالبين)[١] في أربعة مجلدات. لقد كان هذا العمل الضخم هو شروح وتعليقات على كتاب زين الدين

(١) ورد في كتاب نشر النور والزهر «جا١ ص١٠٧» وفي مؤلفات بكري شطا «في الفقه حاشية على فتح المعين للمليباري زين الدين سماها بإعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين» ويذكر صاحب كتاب سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة (ص٨١) أن هذا الكتاب أعيد طبعه ولا يزال يدرس في المسجد الحرام والمسجد النبوي والشرق الأقصى وحضرموت وغيرها.

المليباري (قرة العين)[1] ومع أن ما قدمه السيد بكري من معلومات أضافها لا يتعدى واحداً في الألف من حجم الكتاب، إلا أنه نال شهرة واسعة في الأوساط العلمية. ولقد ذكر المؤلف بافتخار في مقدمة كتابه أنه كان يهدف إلى عرض أمين لمختلف أقوال الفقهاء الشافعية. ورب سائل يسأل: ما الذي يحدو مثل هذا العالم إلى أن يضع مصنفاً جديداً على الرغم من وجود كثير من المصنفات الشبيهة به، والتي وضعت في أزمنة سابقة؟ إن الجواب عن ذلك هو الرغبة في تقريب المعلومات القديمة إلى أذهان الطلاب المعاصرين، ومراعاة أساليب التدريس الحديثة. غير أن هناك أمراً آخر هو الرغبة في وضع أسماء هؤلاء بصفتهم مؤلفين على هذه الكتب.

ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه المؤلفات لا يختلف عن غيره إلا في بعض التفصيلات، وفي بعض الإضافات اليسيرة، الأمر الذي لا يثير كبير اهتمام بها.

ما مدى انطباق الشريعة على حياة الناس الحقيقية؟ إن أمور العبادات بالإضافة إلى أمور الحياة العائلية هي التي تطبق فيها أحكام الشريعة. وما تبقى من مختلف شؤون الحياة يطبق فيها العرف وأهواء الطبقة الحاكمة، الأمر الذي يحدد فعالية الأمور الشرعية الأخرى، ويجعلها موضوعات دراسية فقط، فإذا أخذنا الجانب السياسي من الشرع الإسلامي، نجد أنه نقد لاذع لا يقر الأوضاع القائمة في الأقطار الإسلامية. أما قانون الحرب فهو تصوير مثالي للفتوحات التي خاضها الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ. أما القوانين التي تبين علاقة المسلمين بغيرهم من اليهود والنصارى، والتي تضمن لهؤلاء الحماية في ظل الإسلام، فهي مستمدة من المعاهدات التي أبرمها الخليفة عمر بن الخطاب مع أهل الشام. أما قوانين المعاملات

---

(١) يبدو من كلام المؤلف أن «قرة العين» هو الكتاب الذي وضعه المليباري أولاً ثم كتب شرحاً لهذا الكتاب سماه فتح المعين. وقد قام شطا بوضع شرح له سماه إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين. ومن الجدير بالذكر أن (هورخرونيه) لم يتعرض لذكر فتح المعين، وإنما ذكر كتاب قرة العين فقط، مشيراً إلى أن هناك شرحاً لكتاب قرة العين هو الذي تناوله شطا بالشرح تحت عنوان إعانة الطالبين.

التجارية الإسلامية فهي من المثالية بحيث لو طبقت لألغت الكثير من الأعمال التجارية القائمة. أما التشريعات الجنائية فتتصف بالتشدد في قبول الأدلة من جهة، وبالطريقة الخاصة التي تطبق فيها العقوبات من جهة أخرى، بحيث تجعل إمكانية تطبيق العقوبة في أضيق الحدود[١].

إن الأمور لا توزن بميزان الإسلام، لذا نجد صرخات العلماء دائماً في كل صفحة من صفحات كتبهم «هذا ما يجب أن يكون عليه الحال لا ما هو كائن، فليساعدنا الله على تحقيقه». ما زال هناك بعض الناس الأتقياء الذين يلتزمون بقدر الإمكان بالأمور الشرعية. كما أن هناك بعض الحكام الذين يوافقون علماء الشرع على تطبيق بعض جوانب الشريعة الإسلامية. غير أنه من المؤكد أن القسم الأكبر من تعاليم الشريعة، لم توضع موضع التطبيق والتنفيذ. والعلماء مجمعون على ذلك، ومؤكدون أن التشريعات التي يتبنونها تناسب مجتمعاً أفضل من المجتمعات المعاصرة. وعلى رأي هؤلاء العلماء فقد شهد المجتمع الإسلامي خلال الثلاثين سنة الأولى من عهد الخلفاء الراشدين صورة هذا المجتمع. وسيشهد العالم مثل هذه الصورة فقط في آخر الزمن، حينما يظهر المهدي فيملأ الأرض عدلاً[٢].

لقد قصرت الحكومة التركية تطبيق الشريعة على أمور العبادات والأمور العائلية، وبخلاف ذلك فقد وضعت عدداً من القوانين تسير بموجبها كافة الأمور الأخرى، على الرغم من ادعاءاتها بأن للمسلمين الحرية بأن يطبقوا أحكام الشريعة على كافة أمورهم.

إن هذا الشرع المثالي له أهمية كبيرة في الحياة الإسلامية، وتطلعات العلماء وآمالهم العريضة موجودة أيضاً عند عامة الناس بهذا الخصوص.

---

(١) لقد حاول المؤلف أن يبرز ناحية هي جد خطيرة حينما قال: إن الشريعة الإسلامية هي مثالية جداً، وكونها مثالية، يعني أنه لا يمكن تطبيقها مع الواقع، كما أنه لا يمكن الأخذ بها في عصرنا الحاضر. وهذه السموم يجب الانتباه لها، لأنها تحمل السم في الدسم.

(٢) إن صورة المجتمع الإسلامي المثالي يمكن أن تكون في أي وقت من الأوقات، يلتزم الناس فيه بتطبيق أمور الشريعة في دينهم ودنياهم، ولا يقتصر وجودها فقط على فترة ظهور المهدي في المستقبل.

وتتضافر جهود العلماء في العادة مع كافة أفراد المسلمين في جعل الشريعة الإسلامية هي المحرك لكل الثورات السياسية، على أمل أن يكون هناك تطبيق لهذه الشريعة على الأرض في فترة من الفترات.

بداية المحاضرة ونهايتها

يجب ألا ننسى أننا ما زلنا في رحاب المسجد الحرام، حيث يقوم العلماء بإعطاء دروس الشريعة الإسلامية بصوت جهوري. ويبدأ الدرس في العادة كما يبدأ أي موضوع آخر مهم، بالاستعاذة والبسملة وشكر الله سبحانه وتعالى والصلاة على رسوله الكريم. ثم يقول معظم الأساتذة بدون تمهيد: «يقول مصنف الكتاب الذي بين أيدينا. . .» ويبدأ بقراءة الفقرة التي تلي النص الذي تحدث عنه في السابق. ثم يقوم بالشرح والتوضيح بإحدى الطرق التي تحدثنا عنها آنفاً. . وبعض المدرسين يقوم في بداية المحاضرة ببيان أهمية الدرس الذي سوف يتناوله. إن مدة المحاضرة الواحدة لمن عرف بالجلد والقوة من المدرسين لا تزيد على ساعتين. وفي نهاية المحاضرة يغلق المدرس الكتاب، ويقرأ بعض الأدعية، ويمسح على وجهه، معلناً انتهاء المحاضرة، يقف الدارسون بعدها ثم يقبلون على الشيخ وهو جالس فيجلس بعضهم عن يمينه ويقبل يده اليمنى والشيخ بدوره يقف للدارسين القدامى أو الكبار في السن، ولا يسمح لبعضهم بتقبيل يده بل يسحبها منهم. وبعضهم يقبّل الشيخ على جبينه. وأما الدارسون الجدد فإنه يدعو لهم قائلاً: بارك الله فيكم، فيجيب الطلبة شيخهم بعبارات تبجيلية مناسبة.

المحاضرات الاستثنائية في الظهيرة

ومنذ انتهاء محاضرات الصباح، حتى ما بعد صلاة الظهيرة، تتوقف المحاضرات في الأعم الأغلب، إلا من بعض المحاضرات التي يقوم بإلقائها بعض المدرسين غير الرسميين لبعض تلاميذهم، أو لبعض الطلبة الذين يتحدثون لمن هم دونهم في المرتبة العلمية، ممن يحضرون في المسجد في تلك الفترة. غير أن هناك محاضرات رسمية تعقد في هذه الفترة، لبعض الموضوعات التي لم تستكمل بشكل كاف في الوقت المحدد لها، أو التي لم يخصص لها ساعات معلومة، مثل دراسة الحديث وأصول الفقه. وفي دراسة الأصول ينقسم الطلبة الدارسون بحسب مذاهبهم، ولو أن مثل هذا التقسيم لا يكون ضرورياً إلا في الفقه؛ لأن دراسة منهج

الأصول ليس فيها تنوع كبير في الرأي مثل دراسة الفقه. إن دراسة الموضوعين السابقين لهما أهمية خاصة في معرفة استنباط الأحكام الشرعية.

الكتب المعتمدة في تدريس الحديث

ومثل هذه المحاضرات يجب أن يرتب لها مقدماً، حيث يقوم المدرس بالإعلان عنها لطلابه. وقد يقوم الطلاب أنفسهم بسؤال المدرس، بترتيب لقاء لهم في مثل هذه الموضوعات. وهناك بعض الكتب المؤلفة في موضوعات أصول الفقه. أما في الحديث فتدرس كتب مثل شرح القسطلاني لصحيح البخاري، وشرح النووي لصحيح مسلم. وهذه الأعمال كبيرة الحجم، لذا يستعيض عنها بعض المدرسين بكتب أخرى صغيرة الحجم، تحوي مختارات معينة من الأحاديث، مما له صلة بحياة الناس وواقعهم. وفي أثناء إقامتي بمكة أنهى أحد الأساتذة الأحناف، اسمه الشيخ عباس[1] الذي كان يعمل مساعداً لمفتي الأحناف قراءة كتاب القسطلاني في خلال ثلاث سنوات. ومن الجدير بالذكر أن ابن هذا الشيخ يحفظ صحيح البخاري غيباً عن ظهر قلب.

يصطحب الدارسون الآن معهم نسخاً مطبوعة من النصوص التي سوف يعالجها المدرس. لقد غيرت هذه الحالة طريقة التدريس. فقد كان المدرس فيما مضى يملي النص على الدارسين إملاء، ثم يقومون بكتابة تعليقات المدرس على هوامش النص. أما الآن فيقتصر الدارسون على ملحوظات المدرس. وبعض هؤلاء لا يحتاج إلى كتابة شيء مطلقاً.

الصرف والنحو والعلوم المساعدة الأخرى

بعد انتهاء صلاة الظهر يصبح صحن المسجد شديد الحرارة، فينتقل المدرسون مع طلابهم إلى الأروقة حيث الظل، لدراسة العلوم المساعدة على فهم العلوم الدينية، ألا وهي دراسة الصرف والنحو التي يجب أن

---

(١) هو الشيخ عباس بن جعفر بن عباس بن صديق، الحنفي المكي، المفسر الفقيه. ولد بمكة سنة ١٢٤١ هـ ودرس على مشايخها وأجيز في التدريس في الحرم سنة ١٢٩٩هـ. وحين غضب أمير مكة الشريف عون على مفتي الأحناف، عزله من منصب الإفتاء، وأقام بدله الشيخ عباس فمكث فيه نحو سنتين. توفي بمكة سنة ١٣٢٠هـ، ودفن بالمعلاة (انظر نشر النور والزهر ج١ ص١٨٦ ـ ١٨٧).

تسبق دراسة كافة العلوم الشرعية. وفي العادة يحضر دروس النحو والصرف الطلاب المبتدئون، حيث نجد الطلاب الدارسين من مناطق مختلفة من مكة وحضرموت واليمن، يدرسون جنباً إلى جنب مع الطلاب الآخرين، الذين قدموا من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي. وفي دراسة الصرف هناك جداول خاصة توضع فيها الكلمات حسب أشكال صرفها، ثم يقوم المدرس بشرحها وتحليلها. أما في النحو فتدرس الأجرومية، وألفية ابن مالك عن ظهر قلب. غير أن الواقع يظهر أن الطالب العربي بعد أن ينهي الأجرومية يكون أحسن بكثير من الطالب الملاوي أو الداغستاني، الذي يقرأ عدداً من كتب القواعد، وذلك بحكم أن العربية لغته الأولى.

وهناك بعض العلوم المساعدة الأخرى مثل العروض والشعر، وهي من العلوم التمهيدية. وكذلك المنطق فهو علم مساعد أيضاً. وقد كان شيخ العلماء يقرأ بعض فصول هذا العلم على تلاميذه المتقدمين بعد صلاة العصر، غير أنهم لم يكونوا ليستوعبوا الكثير منه. وقد تكون الحرارة الشديدة في تلك الفترة من النهار هي السبب في نعاسهم، الأمر الذي لا يساعد على متابعة المدرس وفهم كل ما يقول.

العـقـيـدة

يذكر الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) أن دروس العقيدة، يجب أن تعطى لأولئك الذين استوعبوا وتفهموا جزءًا كبيراً من الأمور الشرعية التي هي خبز الحياة، وأن الأساس الأول للعقيدة الإسلامية هو التوحيد. ويجب إعطاؤه للتلاميذ قبل إكمالهم دراساتهم الشرعية. ولا تناقض بين الأمرين؛ لأن دراسة التوحيد تقتضي معرفة الأمور الفقهية. ودراسة العقيدة يجتمع فيها طلاب الدراسة من مختلف المذاهب، ليدرسوا على شيخ واحد، شأنها في ذلك شأن العلوم المساعدة التي لا تقتضي المذهبية.

وفي مجال العقيدة نجد أن الجميع يتبنون عقيدة الأشاعرة. تلك التي وضع أسسها أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٩٤٥م. وكثير من العلماء يعلنون صراحة أنهم أشاعرة في عقيدتهم، شافعية في مذهبهم، وقادرية في طريقتهم الصوفية. وطلاب الدراسات العليا يستعملون كتب العقيدة المؤلفة

في القرون الماضية. أما الدروس العادية فتعطى من أحد الكتب الحديثة، التي تبحث في أمور العقيدة لمؤلفين معاصرين. ومن استعراض نشرات المكتبات المصرية في القاهرة، نجد عدداً من هذه الكتب تحت عناوين كتب العقيدة. والمعلومات الموجودة في مثل هذه الكتب ليست موزعة توزيعاً منظماً، بحيث تعالج جميع الموضوعات المطروحة، مما يجعل التناسق بين موضوعاتها مفقوداً.

إن كل فصل من فصول كتب الفقه، يشكل مع غيره من الفصول الأخرى، مجموعة من المبادئ والقواعد، التي ترشد المرء في كل خطوة من خطواته. أما العقيدة، فهي سلاح لتحطيم كل الأخطاء. ومن هذا المنطلق نجد أن المشتغلين بأمور العقيدة قد ساعدوا على توضيح بعض الأمور التي لم يكن بالإمكان توضيحها، لو لم يبرز هؤلاء المشتغلون بهذه الأمور.

إن ما يعرفه الطالب المجد أن المعتزلة أغبياء جداً؛ لأنهم قالوا: إن العقل الإنساني هو مقياس الحقيقة، وإن هذا هو نوع من الخرافة المزعجة. ولقد رأيت بسمة ساخرة على وجوه جميع الدارسين في إحدى الحلقات، حينما قارن الأستاذ بين جهل الوثنيين الذين عادوا الرسول الكريم، وبين جهل الفلاسفة الذين يؤمنون بالعقل البشري. وقد شاركهم المدرس بهز كتفيه استهجاناً بذلك. لقد كان يدور في أذهان الطلبة الصفات العشرين لله سبحانه وتعالى الواردة في كتب الطريقة السنوسية. غير أن هؤلاء الطلبة بعد دراسة الشروح والتعليقات والتفسيرات الخاصة بذلك، يدركون أن ما يعرفونه هو القشور من بحر هذه الأسرار الغامضة.

إن دراسة موضوع القضاء والقدر من الأمور التي تترك انطباعاً مؤثراً. وهذا الموضوع مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة سواد الشعب العام.

وفي موضوع الأنبياء والرسل، لا نجد اهتماماً كبيراً بين مسلمي الوقت الحاضر في الجدل القائم حول عصمتهم من الذنوب، كما كانت في السابق. والناشئة منذ نعومة أظفارهم توجه اهتماماتهم إلى أن الرسول هو

أعظم الأنبياء والرسل وآخرهم. ومن الطبيعي أن الأنبياء السابقين كانت لهم بعض مظاهر العظمة التي كانت للرسول محمد ﷺ.

من الأمور التي يتلقاها الدارسون أيضاً أن اليهودية والنصرانية من الأديان السماوية التي يعترف الإسلام بوجودها، غير أن هذه الديانات قد طرأ عليها التحريف من قبل أتباعها، الأمر الذي جعلها غير مقبولة في منظار العقيدة الإسلامية. وأتباع هذه الديانات لا يختلفون في شيء عن العرب في جاهليتهم الأولى.

لقد كنت مرة عند مفتي الشافعية، وكان بصحبته عدد من المثقفين، وقد تحول الحديث إلى الخمر، فقال أحدهم: إن الخمر لم يحرم في الشريعة النصرانية قبل تحريفها. وكان بعض المتدينين يشربونها. فأجاب الآخر: إذا كانت الخمر تشرب قبل تحريف الشريعة النصرانية، فإنها إذا ليست بطبيعتها من صنع الشيطان. غير أن الشيخ وضح القضية بقوله: إن جميع ما ذكر معروف من قبل العلماء، وإنما يكفينا أن نعرف أن الإسلام هو الحق وأن غيره هو الباطل.

لم تثر الكتب المقدسة التي كانت للأمم الأخرى اهتماماً كبيراً أيام عظمة الثقافة الإسلامية، وهي الآن أقل إثارة من ذي قبل. ولقد أثار هجوم الشيخ رحمةِ الله على المسيحية في بريطانيا انتباه محبي الاستطلاع في مكة، ولا سيما أن الشيخ يعيش فيها الآن. غير أن هؤلاء يدركون أن ما قام به الشيخ من إدانة علماء اللاهوت الإنجليز، وإظهار تناقضاتهم وأخطائهم إنما هو أمر سهل وميسور.

ويدرس الطلبة من خلال موضوعات العقيدة أمور البعث والحساب والحياة والبرزخ وظهور المهدي والدجال والمسيح المنتظر وغير ذلك من أمور كتب عنها الغزالي مفصلاً في كتابه (الدرة النفيسة). ومما يعتقده المسلمون، ويدرس للدارسين أيضاً، أن المسلم سيؤول في النهاية إلى الجنة، بعد أن ينال عقابه في النار فترة تطول أو تقصر، في حين لا يدخل الجنة غير المسلمين. ولقد سمعت أحد الأساتذة في الحرم يناقش ويرفض

الفكرة التي جاء بها بعض المتصوفة القدامى، من أن الأتقياء من غير المسلمين، يمكن أن يدخلوا الجنة بعد فترة من العقوبة يقضونها في النار. وقد استدل هؤلاء على ذلك ببعض نصوص القرآن التي تقول: إن جهنم هي مصير المذنبين من المسلمين، وإنّهم باقون فيها. وإذا علمنا أن جهنم ليست أبدية بالنسبة للمسلمين، يمكن أن تكون غير أبدية كذلك بالنسبة لغير المسلمين، وذلك بإرادة الله. وحينما قيل لهؤلاء: لقد ورد التأبيد للكافرين في جهنم. حينئذٍ أجابوا بأنه بمقدرة الله يمكن أن تذهب خاصية إحراق نار جهنم، ويصبح العيش فيها مقبولاً لهؤلاء. وقد اختتم الأستاذ حديثه قائلاً: سوف لا نضيع وقتنا في الإصغاء إلى المدافعين عن الكفر.

غياب المدرس

إن إلقاء الدرس في هاجرة الظهيرة يقل إلى الحد الأدنى. والمدرس في العادة يعطي محاضرة واحدة على الأقل يومياً. غير أن ذلك ليس أمراً ملزماً. فقد يتغيب المدرس إذا أنيط به عمل آخر. إن عدم الانتظام في إلقاء المحاضرات يجلب للمدرس اللوم من جمهور الدارسين. أما شيخ العلماء فلا يحاط علماً بالغياب إلا في حالات نادرة. فقد يمرض المدرس شهوراً طويلة، وقد يسافر مدة سنة، أو يوقف محاضراته فترة طويلة لأسباب خاصة، دون أن يكون لشيخ العلماء علم بذلك.

تبدأ المحاضرات ثانية بعد صلاة العصر بقليل، أي في حوالي الساعة الرابعة، وتكون معظم المحاضرات في العبادات بأنواعها، على عكس محاضرات الصباح التي يكون معظمها في مباحث العقيدة. ويقوم المدرسون الجدد، والذين يتلقون العلم في الصباح على مشايخهم، بتدريس أركان الإسلام الخمسة وبعض أمور العبادات الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك تدرس في هذه الفترة موضوعات العلوم المساعدة، وبعض العلوم الأخرى كالتفسير.

التفسير

إن الكتب المستخدمة في محاضرات التفسير هي تفسير البيضاوي وتفسير الجلالين (السيوطي والمحلي). ولقد سمعت مفتي الشافعية يدرس كتاب البيضاوي في التفسير عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م). ولم يكن المدرس ليضيف إلى ما في البيضاوي سوى تفسير بعض الكلمات والحواشي الخاصة.

ودارسو التفسير لا بد لهم من معرفة تامة بأمور التجويد. ويجب أن يكون الواحد منهم قد درس القرآن مرات متعدّدة، قبل أن يستمع إلى دروس التفسير، ومعظم هؤلاء يحفظون القرآن عن ظهر قلب.

ويمكن القول: إنه حتى بالنسبة لمن يحفظ القرآن عن ظهر قلب، فإنه لا يستطيع فهم معانيه، إلا إذا درس علم التفسير، أو سمع شرحه من أحد رجال العلم. والقرآن بالنسبة للمجتمع الإسلامي يشبه الترجمة اللاتينية[1] للكتاب المقدس بالنسبة للروم الكاثوليك، وخاصة في موضوع تلاوته وتجويده. إن اللغة العربية في القرآن غالباً ما تكون غريبة غرابة اللاتينية بالنسبة للإيطاليين، غير أن تلاوة القرآن الكريم قد حفظت الشعور الدقيق للغة، كما أسهمت في حفظ اللغة العربية القديمة.

وحتى عند الأوربيين نجد أن القرآن الكريم يساعدنا كثيراً في فهم اللغة العربية الدارجة. كما أن فهم العربية الدارجة يساعد أيضاً في فهم القرآن. ومن الملحوظ أن هذا الأمر غير موجود عند العرب. فالغربيون يقرؤون القرآن لفهم معانيه. ولكن المسلمين قد اعتادوا منذ الطفولة أن يعدّوا كلام الله ذا طبيعة خاصة للمرء. والطفل المسلم منذ نعومة أظفاره يلحظ أن المرء حينما يقرأ القرآن يقرأه بصوت خاص ونطق خاص. وحينما يذهب إلى المدرسة يبدأ بتقليد هذا الأسلوب في القراءة. والعلماء المسلمون يجب أن يتدبروا معاني القرآن في أثناء الصلاة أو التسبيح. بينما نجد العامة ينالون الثواب بمجرد قراءته دون فهمه. وحال هؤلاء العامة شبيه بما وضحه سبرنغر Sprenger من أن إحدى النساء الإنجليزيات في أثناء محاكمتها، قد استشهدت ببعض فقرات من الإنجيل، تدينها في القضية المطروحة أمام المحكمة. والفرق الوحيد هنا هو أن العامية العربية، أو العربية الدارجة ليست موجودة في كلمات القرآن الكريم، على خلاف الحال في العامية

(١) هذا التشبيه بعيد عن الحقيقة، فالقرآن بلغته العربية، يفهمه القارئ العربي، ويدرك مقاصده العامة. وإذا كان هناك بعض الجهل بمعانيه، فهو راجع إلى عدم معرفة اللغة العربية، وأين هذا من اللاتينية المندرسة بالنسبة لمن يقرأها.

الإنجليزية الموجودة في كتاب الإنجيل، ولهذا يعتقد المسلم بأن القرآن لا يمكن فهمه بدون دراسة شاملة للتفسير. وما أوصى به الغزالي في السابق من قراءة قليلة وتدبر كثير لآيات القرآن، ليس موجوداً عند معظم المسلمين اليوم. وهناك أمر متعارف عليه بين العامة والخاصة، إن دراسة التفسير ودراسة التجويد أمران مختلفان، فقد يجيد المرء التفسير، ولا يجيد القراءة والتجويد، والعكس بالعكس.

إن دراسة التفسير تعدّ من الأمور المهمة والخطيرة. وحدث مرة أن قدم إلى مكة من المغرب رجل معتد بنفسه، وقد أثار غضب الناس عليه لكثرة تخطئته الناس في اللغة العربية وتصحيحه لهم. وقد وقف مرة ليفسر قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة، الآية: ٢٢٣]. ففسرها تفسيراً غريباً أثار العلماء، الأمر الذي أدى إلى إبعاده إلى المدينة المنورة. وقد عاش هناك فترة من الزمن. وفي ذات يوم كان لفيف من أصحابه ينظرون إلى مشادة وقعت بين بعض البدو، وبعض الجنود الأتراك. واستشهد أحد الحضور بآية من القرآن. فما كان من صاحبنا إلا أن صحح له بعض الأخطاء التي أثارت حفيظته فقال له: إن تفسيرك وقراءتك صحيحة على مذهب أهل سدوم (قوم لوط) مذكراً له بما قاله في مكة في تفسير الآية السابقة، الأمر الذي رآه إهانة له، فما كان منه إلا أن ترك الحجاز نهائياً.

محاضرات المساء

هناك متسع من الوقت بين صلاتي المغرب والعشاء لإلقاء محاضرة واحدة، يحضرها الطلاب على ضوء القناديل التي يجلبونها معهم. وفي العادة يوضع أمام المدرس قنديل كبير؛ لأن إضاءة الحرم غير كافية. وهذه المحاضرات كالمحاضرات الأخرى التي تعقد في الصباح. وفي هذا الوقت نجد عدداً من الحضور من أبناء البادية. ومعظم هؤلاء من المكاريين من قبيلة حرب، يأتون مع أبنائهم لتعلم بعض المبادئ الأولى. ويقطن هؤلاء في القسم الجنوبي الغربي من المدينة. يحضرون في العادة لصلاة المغرب والعشاء، ويستمعون إلى بعض المواعظ في الحرم، بالإضافة إلى بعض الدروس التي يحضرونها في المساجد التي تقع بالقرب منهم.

ويتصف هؤلاء بذكائهم وفطنتهم وسلوكهم الحسن ومحبتهم للعلم، حتى ولو كان المدرس تلميذاً صغيراً. غير أن العيب الأساس في هؤلاء هو كثرة الجلبة والضوضاء، حيث يخيل إليك في حديثهم أنهم ينادون شخصاً من مكان بعيد.

تحين صلاة العشاء بعد ساعة ونصف الساعة من غروب الشمس، وعندها تنفض حلقات الدارسين، ثم تبدأ بعد الصلاة محاضرات أخرى في مواضيع العقيدة والعلوم المساعدة. ومعظم المدرسين من حديثي السن ممن يتلقون العلم في الصباح. ويخلو صحن المسجد تدريجياً من جموع المصلين والدارسين، إلا من بعض الأشخاص، حيث تجد رجلاً نائماً على حصيرته، وآخر يقوم ببعض الصلوات النافلة، وبعضهم يقوم بالطواف حول البيت. وعلى الرغم من أن المحاضرات الدراسية تعلق في يومي الجمعة والثلاثاء، إلا أن هناك بعض الاستثناءات للقاعدة، فنجد مثلاً العالم الحضرمي السيد بابصيل قد اعتاد في عام ١٣٠٢ ـ ١٣٠٣هـ (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م) أن يعطي بعض المحاضرات للنساء، ممن لهن رغبة في ذلك خلال هذين اليومين.

وقد كان الشيخ يلقي مقتطفات نافعة ومنتقاة من موضوعات كثيرة مثل: الفقه والعقيدة والأدب. وكان الشيخ نفسه يلقي محاضرات أخرى توجيهية في أمور العبادات في أيام أخرى من الأسبوع. وفيما عدا محاضرة الشيخ لا توجد محاضرات في يوم الجمعة صباحاً، حيث يذهب الناس إلى المسجد مبكرين لقراءة القرآن، أو لأداء الصلوات النوافل، أو للدعاء والتسبيح. وبعد انتهاء صلاة الجمعة تكون هناك بعض المحاضرات، غير أن الدارسين قلة والموضوعات غالباً ما تكون من المواضيع المساعدة مثل قواعد اللغة والشعر والمنطق وعلم البيان والحساب والتفسير والحديث وأخيراً التصوف.

التصوف والتأثيرات النصرانية والفارسية

يحوي القرآن الكريم والسنة النبوية بعض العناصر ذات المعاني الروحية، وقد تطورت هذه المعاني من خلال التأثيرات النصرانية والفارسية والهندية لتؤدي إلى ظهور علم جديد يقرب الأرواح البشرية من الاتصال بخالقها،

ذلكم هو علم التصوف. ولقد رأى معتنقو هذا المذهب أن العلوم الشرعية والفقهية إنما هي مقدمات أولية للوصول إلى مرحلة محبة الخالق. وفي الهند وجد الإسلام نظماً معقدة للتصوف، وقد تسربت إليه بعض صورها؛ لأنه لم يكن من الممكن القضاء عليها نهائياً.

إن جميع هذا التأثيرات الفكرية، كان ينظر إليها علماء الشريعة، على أنها ظواهر خطرة. ولم يكن مقبولاً لدى أهل العلم أن يؤلف هؤلاء المتصوفة جماعات تسعى إلى اكتساب التقوى والمعرفة الروحية الحقة، من خلال طرق بعيدة كل البعد عن العلوم الشرعية والمعتقدات الإسلامية. لقد وصل الحال ببعض هؤلاء المتصوفة إلى أنهم ينظرون بازدراء إلى الوسائل العادية المتبعة في التقرب من الله تعالى. ويرى هؤلاء التفسيرات المجازية المشتقة من طرقهم الغريبة وممارساتهم المتطرفة، أنها مستمدة من نصوص الكتاب والسنة.

إن علماء الإسلام التقليديين ينظرون إلى الحركة الصوفية على أنها حركة خطرة، ومع ذلك فقد وجدت لها طريقاً بين بعض العلماء المستنيرين، والأعداد الهائلة من المسلمين العاديين من أتباع هؤلاء. ومن هنا دخلت الصوفية ضمن المعارف الدينية، واحتلت بالتدريج مركز الصدارة في بعض الأوقات.

إن مؤلف الغزالي العظيم (إحياء علوم الدين) يعتبر موسوعة في كافة مباحث العقيدة المقدسة. ونطالع فيه رأي الغزالي القائل بوجوب دراسة كافة المباحث الأولية التي تساعد في فهم النصوص المقدسة مثل القواعد والشعر والبلاغة، بالإضافة إلى الحساب والمنطق والفلسفة. ولقد امتدح الغزالي وحث على قراءة القرآن. ومن خلال نزعته الصوفية طلب من القارئ أن يتمعّن في المعنى في أثناء القراءة، مشيراً إلى أن مثل هذا العمل الذي يسبق كافة الأعمال الأخرى مفيد للحياة الروحية. أما عن الفقه فقد صنف الغزالي المعلومات التي يحويها هذا العلم إلى جزء خاص يتعلق بالأمور التعبدية. وهذا الجزء مفهوم ولا يحتاج إلى الكثير من التعمق. وبجانب ذلك هناك فروع أخرى من الفقه تبحث في التشريع والقضاء. ونجد الغزالي يهاجم الاتجاه السائد في تلمس الفتاوى الشرعية. إن من

يشغل نفسه بأمور التفسير والتأويل للقرآن والسنة، يجب ألا يتعداها إلى غيرها؛ لأن مصادر التشريع يجب أن تكون من اختصاص علماء مدربين، لهم دراية واسعة بعلم أصول الفقه. أما جمهور الناس فالأسلم لهم اتباع تعاليم أحد المذاهب الفقهية من خلال مراجعتها من مصادرها. ويضيف الغزالي قائلاً: «وإذا كان الفقه بفروعه المختلفة هو عماد حياة المسلمين، فإن علوم العقيدة التي تشمل علم الكلام وعلم الأصول وعلم التوحيد هي دواء المريض الروحي. ولما كانت أمور الشرك والجاهلية موجودة في كل مكان، فإن المجتمع الإسلامي يعدّ مريضاً. وإن كل فرد من أفراده بحاجة إلى شيء من العلاج. ومثل هذا العلاج لم يكن معروفاً في السابق؛ لأن الناس لم تكن بحاجة إليه في عهد الصحابة وصدر الإسلام الأول، ويمكن القول: إن الإنسان العادي، وليكن صاحب حرفة مثلاً، ليس معرضاً إلى مرض الضلالة والشرك كالعالم مثلاً. وعلى هذا فيكفي للأول بعض أمور العقيدة التي تبعده عن هذا الشرك. أما من يعملون في دوائر أكثر خطورة، فعليهم أن يتسلحوا بأدوات الدفاع عن الدين. ومن مصلحة المجتمع على هذا الأساس أن يوجد بين صفوفه من يشتغل بالأمور المنطقية والفلسفية، ليقف في وجه من تسول له نفسه الهجوم على الدين».

إن الغذاء الروحي قليل يشبه في ذلك كمية الدواء التي تعطىٰ للمريض. وهذا القدر الضئيل من الغذاء الروحي هو الذي ينقذ هؤلاء الناس من الفساد الناجم عن الاشتغال بأمور الحياة الدنيا. إن الإخلاص الصحيح والمعرفة الحقّ لا يمكن الوصول إليها بغير طريق التصوف. علماً بأن معرفة الشريعة والالتزام بأصولها بالإضافة إلى أمور العقيدة هي أمور لا غنى عنها للمتصوف. والصوفي الذي لا يلتزم بأمور الشرع، أو الذي يعتقد بعقيدة أخرى غير العقيدة الإسلامية، إنما هو من الشياطين. إن التصوف الحق يقود الإنسان الذي أعد من خلال دراسة الشريعة بخطوات تدريجية إلى الطاعة التامة والمعرفة الحقّ لله تعالى[1].

---

(١) للإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من =

ويمكن الوصول إلى هذا الهدف عن طريق التدريبات الروحية المكثفة، والتي تتكون من أنواع متعدّدة من الأذكار بالإضافة إلى الصوم والمراقبة وغيرها. . يضاف إلى كل ذلك تركيز مستمر للشعور والقلب مع الله تعالى. والأسلوب المتبع يختلف باختلاف الخصائص الفردية والمؤهلات التي يحملها كل فرد، ولهذا لا يمكن وضع قاعدة عامة لهذا الأسلوب.

إن الهدف الأسمى للمتصوف لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال مرشد[1] قطع شوطاً بعيداً في طريق التصوف. وحينما وضع الغزالي هذه القاعدة كان يفكر في الطرق الصوفية المتشاحنة التي كانت منتشرة في عصره، والتي يدعي أهل كل منها أنهم هم أصحاب المرتبة الأولى. ومع أن الغزالي لم يكن راضياً عن حالة الاضطراب النفسي والفوضى المنتشرة بين صفوف الجماعات الصوفية، إلا أنه لم يجرؤ على القول بكفاية التدريب الفردي الذاتي للوصول إلى درجة الصوفية، ولذلك فهو مسؤول جزئياً عن مساوئ الطرق الصوفية الحالية. وكل ما عمله هو أنه كان يحذر المبتدئين بطريق التصوف من الشيوخ المشكوك بعقيدتهم. ويمكن القول: إن مقاييس التصوف ومعاييره قد وضعها الغزالي من خلال مؤلفه العظيم، دون أن يكون قد انتظم في سلك أي طريقة من هذه الطرق.

إن المحاضرات التي تلقى عن التصوف تكون أيام الجمع والثلاثاء وبعض الأيام الأخرى، ولا يكون الشرع هو البند الرئيس في برامجها، والدارسون هنا هم من كبار السن أو ممن وصلوا إلى مرتبة عالية من العلم. أما الكتب المستعملة فهي مقتطفات من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي. ومن قرأ كتاب الإحياء سوف لن يسمع جديداً في أي من هذه المحاضرات. ولقد كان الإحياء يقرأ بعد صلاة الجمعة، وفي بعض الأيام الأخرى عام ١٨٨٤ ـ

= عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه.

(١) لم يجعل الإسلام واسطة بين العبد وربه، ولذلك فإن وجود المرشد الذي يجب على المريد الالتزام بقوله بدعة لا أصل لها. وكل بدعة ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها.

١٨٨٥م. إن كلمات الغزالي التي تلقى على مسامع الناس في الحرم المكي تعدّ غامضة جداً. والموضوعات الغامضة فيها هي بعض العبارات المتداولة بين صفوف المتصوفة، والتي أعطاها الغزالي معاني أخلاقية خاصة.

إن التربية الأخلاقية العالية التي يجب أن تستمد من كافة فروع المعرفة، بهدف الوصول إلى رضا الخالق ومحبته، قد تقوقعت من خلال علم مستقل، أثار الكثير من الجدل كغيره من العلوم الأخرى، ذلك هو علم التصوف الذي يمثل صورة شكلية ميتة التصقت بالإسلام. وكلما حاول الناس إخراجها من الباب عادت مرة أخرى من خلال النافذة. فالغزالي لم يكن يفكر قط في فصل الشكل عن الجوهر. لقد فتح الغزالي الطريق التي من خلالها يستطيع المرء أن يصل إلى النجاة. وقد أضاف بعداً جديداً ألا وهو الصوفية المطبوعة بالطابع الأخلاقي. لقد كان التصوف في عهده قوة كبيرة طغت على الاتجاه الإسلامي القائل: إن الإنسان يمكنه أن يحيا حياة يرضاها الله تعالى دون أن يكون متصوفاً. لقد كانت تشيع في تلك الأوساط الفكرة القائلة: إن الرسول الكريم وخلفاءه الأربعة وصحابته الكرام وكل العلماء الصالحين كانوا من رجال التصوف (؟!).

والسؤال الذي يرد الآن هو هل يمكن الوصول إلى رضا الخالق من طرق أخرى غير طرق الصوفية؟ تلك الطرق تجعل من الشيخ هو الممهد لطريق الخالق. وهذا يعني بطبيعة الحال أن المرء لا يستطيع الوصول إلا من طريق رسمه الشيخ. وإذا افترضنا جدلاً أن الجواب عن السؤال السابق كان بالنفي. أي أن طريق الوصول إلى رضا الخالق لا تكون إلا من خلال التصوف، فإن النتيجة هي إعطاء قادة الصوفية دوراً خطيراً وتأثيراً بالغاً في المجتمع الإسلامي، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى خطورة بالغة على الشريعة وعلمائها؛ لأنه يلغى دور هؤلاء العلماء جميعاً.

ومن هذا المنطلق ينحصر دور العلماء بكونهم مفسرين وشارحين فقط لنصوص الأمور الدينية. ومن المعلوم أنه لا يجوز إضافة نصوص جديدة إلى النصوص الشرعية القائمة، بل يجوز الاستنباط والاجتهاد دونما إضافة

شيء جديد إلى ما هو موجود في نصوص الكتاب والسنة. بينما في الجانب الآخر نجد الطرق الصوفية تعطي للشيخ أو المرشد صلاحيات مطلقة في الإرشاد والتوجيه للمريدين. وأن الكلمات المكتوبة لهذه الطرق الصوفية هي عطاء قابل للتغيير والتبديل. ومن هنا نجد أن علماء الشريعة لا يقرون علماء التصوف في هذه الأمور جميعها.

لقد تجنب الغزالي إعطاء جواب صريح وواضح لهذه المسألة، فقد اعترف بأهمية الطرق الصوفية، غير أنه وافق علماء الشريعة على وجود الكثير من التوافه والقشور في بذرة التصوف. ونجده يحذر بشدة من أمثال هذه الطرق الزائفة والمضللة. غير أنه مع الأسف أوجد الأسس الأولى لمهام المرشد أو شيخ الطريقة. وهو يقول: إن وجود شيخ ضروري للطريقة الصوفية لا بد من الأخذ بتوجيهاته، غير أنه يؤكد كثيراً على أن يختار المريد شيخه بحرص وعناية فائقتين قبل أن يسلم أموره له. ومن مواصفات الشيخ عند الغزالي الالتزام بنصوص الشرع والقواعد الأخلاقية وفهم الأمور الدينية فهماً صحيحاً. أما الأساليب المتبعة عند الصوفية مثل التغني بالأشعار وعمل الحركات العنيفة التي تصاحب الرقص والإنشاد والتي تشبه الحركات التي يقوم بها من يتناولون المخدرات، أو من هم تحت تأثير الإيحاءات المغناطيسية، فإن الغزالي يقرها إذا كان الهدف منها تقوية العواطف الدينية والأخلاقية. أما أن تستعمل مثل هذه الأمور هدفاً لحد ذاتها، أو غطاءً يتستر به على الرذائل، فهذا مما لم يقره الغزالي ولم يجزه. ومن المعروف أن الغزالي من دعاة التصوف الذي لا يصاحبه أمثال هذا الصراخ والترنح[1].

---

(١) علق الجاسر على موضوع التصوف فقال:

«والواقع أن الشريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان، وبها صلاح المجتمع في أي عصر من عصوره، وما أصاب المسلمين الضعف إلاّ حين انتشرت فيهم بعض الأفكار الغريبة عن الإسلام التي منها التواكل، والضعف، والاستسلام لليأس، تأثراً بكثير من مبادئ الطرق الصوفية الغريبة مما لا يتسع المقام لتفصيله.

ولم يفت (سنوك) إيضاح ما للحكومة التركية من أثر في حصر تطبيق الشريعة على أمور العبادات والأمور العائلية، وقيامها بوضع عدد من القوانين تُسيِّر بموجبها كافة الأمور =

= الأخرى، على الرغم من ادعاءاتها بأن للمسلمين الحرية بأن يطبقوا أحكام الشريعة على كافة أمورهم، ثم وصف الشريعة التي وصفها بالمثالية وأن لها أهمية كبيرة في الحياة الإسلامية، وأن العلماء وعامة الناس ذوو آمال عريضة في تطلعهم لتطبيقها، وجعلها هي المحرك لكل الثورات السياسية على أمل أن يتحقق ما يطمحون إليه.

وعندما تحدث بعد ذلك عما يلقى في الحرم الشريف من دروس انتقل فجأة للحديث عن التصوف، فوصف القرآن الكريم والسنة النبوية بأنهما تحويان عناصر ذات معانٍ روحية، ولكن هذه المعاني تأثرت بمؤثرات أخرى، النصرانية والفارسية والهندية، وعن هذا نشأ (علم التصوف) قائلاً: هذه المعاني من خلال التأثيرات النصرانية الفارسية والهندية أدَّت إلى ظهور علم جديد يقرب الأرواح البشرية من الاتصال بخالقها، ذلك هو علم (التصوف).

ثم وصف نظرة معتنقي التصوف إلى العلوم الشرعية والفقهية بأنها مقدمات أولية للوصول إلى مرحلة محبة الخالق، وفي الهند وجد الإسلام نظماً معقدة للتصوف، وقد تسربت إليه بعض صورها؛ لأنه لم يكن من الممكن القضاء عليها نهائياً.

قد يكون هناك نوع من التصوف لم يكن في أوله متأثراً بما هو بعيد عن المعاني الإسلامية، فقد وجد أناس من عبَّاد المسلمين رأوا تفرغهم للعبادة وركونهم إلى الزهد، والتخلي عن الدنيا، وبصرف النظر عن مدى ما يوصف به هذا الأمر، إلا أن أولئك أرادوا الخير، ومن هنا عرف عدد من الصوفية بملازمتهم لتعاليم الشريعة وإنكارهم على بعض غلاة الصوفية، ومثل هؤلاء لا يسوغ وصف أفعالهم ما دامت مطابقة للتعاليم الشرعية بأنها متأثرة بأفكار بعيدة عن الإسلام.

أما أولئك الغلاة من الصوفية الذين بلغ بهم الأمر إلى أن تجاوزوا الحدود الشرعية، في الاعتقاد والسلوك فلا شك من تأثرهم بأفكار هي أبعد ما تكون عن تعاليم القرآن الكريم، ومن مشاهير هؤلاء ابن عربي صاحب «فصوص الحكم» وابن الفارض والسهروردي والحلاج وأشباههم ممن هم أبعد الناس عن الإسلام.

ومع سوء نظرة (سنوك) إلى كثير من أحوال الشريعة الإسلامية، إلا أنه كان على حق حين قال: إن جميع هذه التأثيرات الفكرية كان ينظر إليها علماء الشريعة على أنها ظواهر خطرة وهم يرون أن أولئك المتصوفة الذين يسعون إلى اكتساب المعرفة الروحية من خلال طرق بعيدة كل البعد عن العلوم الشرعية ليست مقبولة في نظر المسلمين، بحيث بلغ الأمر ببعضهم إلى ازدراء وسائل العبادة في التقرب إلى الله تعالى، وهم يرون في طرقهم الغريبة وممارساتهم المتطرفة أنها مستمدة من نصوص الكتاب والسنة، ومع نظرة علماء الإسلام إلى خطورة تلك الحركة الصوفية، إلا أنها وجدت طريقاً بين بعض العلماء المستنيرين، وبين أعداء هائلة من عامة المسلمين من أتباع أولئك العلماء.

وخلص ليتحدث عن كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، الذي أشار إلى نزعته الصوفية، =

وبالإضافة إلى الغزالي هناك متصوفة آخرون، فضلوا العمل في الظلام، واجتهدوا كثيراً في إدخال كثير من الأشياء الباطنية، من خلال مفاهيم ولغات رمزية، نشروها بين صفوف العامة غير المثقفة والمستنيرة. ويتمتع هؤلاء بتقدير كبير في الأوساط الصوفية، ومن هؤلاء ابن عربي والشعراني. وعلى الرغم من أن كتب هؤلاء العلماء لها شهرة في مكة إلا أنها لا تداني شهرة كتاب إحياء علوم الدين للغزالي.

لقد تعمقت المفاهيم الصوفية تعمقاً شديداً في بعض عصور الإسلام السابقة، لدرجة أنه لا الغزالي نفسه ولا أتباعه يستطيعون السيطرة عليها، أو ضبط انحرافاتها، إن أمر ضبط هذه الطرق والسيطرة عليها تقف أمامه الكثير من العقبات؛ لأن المرء لا يستطيع مراقبة الحياة الداخلية لأي من هذه

= وأنه حين حثَّ على قراءة القرآن طلب من القارئ التمعن في المعنى في أثناء القراءة، وأن هذا مما يفيد الحياة الروحية، واسترسل في وصف محتوى كتاب الغزالي.

ومن المعروف رأي العلماء المتقدمين في الإمام الغزالي رحمه الله وتأثره بالمباحث الفلسفية وأن كتابه «إحياء علوم الدين» لم يخل من ذلك، ولهذا كان محققو العلماء ينهون عن قراءة هذا الكتاب لمن لم يكن لديه من المعرفة ما يمتلكه من إدراك حقائق ما يحويه، وللشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله رسالة في هذا الموضوع منشورة ضمن رسائل الشيخ المعروفة، جمع فيها أقوال العلماء المحققين عن ذلك الكتاب، وأكتفي بالإشارة إليها عن الاسترسال في عرض البحث الطويل الذي تحدث فيه (سنوك) عن الغزالي وعن كتابه، وخلص من ذلك عن نظرة الغزالي للتصوف، ووصفه بأنه اعترف بأهمية الطرق الصوفية، غير أنه وافق علماء الشريعة على وجود الكثير من التوافه والقشور في بذرة التصوف، وحذر بشدة من أمثال هذه الطرق الزائغة والمضللة، ثم أبدى (سنوك) أسفه حين وصف الغزالي بأنه أوجد الأسس الأولى لمهام المرشد، أو شيخ الطريقة بقوله: إن وجود شيخ ضروري للطريقة الصوفية لا بدّ من الأخذ بتوجيهاته، ثم وصف ما يجب أن يتحلى به هذا الشيخ، وأن من ذلك الالتزام بنصوص الشرع والقواعد الأخلاقية وفهم الأمور الدينية فهماً صحيحاً.

ولا أدري أصحيح ما نسب (سنوك) إلى الغزالي من قوله: أما الأساليب المتبعة عند الصوفية مثل التغني بالأشعار وعمل الحركات العنيفة التي تصاحب الرقص والإنشاد، فإن الغزالي يُقرّها إذا كان الهدف منها تقوية العواطف الدينية والأخلاقية، أما أن تستعمل غطاء يتستر به عن الرذائل، فالغزالي لا يقرّ هذا ولا يجيزه، وإن كان من دعاة التصوف الذي لا يصاحبه أمثال هذا الصراخ والترنح». (انظر المجلة العربية، عدد ذي القعدة، ١٤١٦هـ ص١٠١).

الطرق. وإذا ما أساء رجال إحدى الطرق إلى شعور المسلمين العام، فإن المقاومة تبدأ من صفوف العامة. وبالإضافة إلى ذلك فإن رجال العلم يعرفون أن كثيراً من الأقوال والأفعال التي يقوم بها رجال الصوفية تستحق اللوم والتقريع. غير أنه من الصعوبة بمكان إثبات مثل هذه الحقائق والملابسات. والأمر الوحيد هو تدخل الدولة لإيقافها.

إن العلماء والمستنيرين يبدون دائماً عدم رضاهم عن الحركات الصوفية الشائعة، وخاصة ما يبديه هؤلاء من شعوذة ومواكب تكتنفها الضوضاء، ودراويش همهم التسول، وشيوخ رغبتهم في جمع حشود كبيرة أمامهم. غير أن الكثير من هؤلاء العلماء لا يجازفون بمعارضة هؤلاء العميان، الذين يقودون عمياناً مثلهم، ممن يحيط بهم من الأتباع والمريدين. فالاحتلال الأجنبي الغربي لبلاد الإسلام، يجعل العلماء ميالين إلى مجاراة هؤلاء، لأنهم يجدون لهم تأثيراً كبيراً في مقاومة حركات الغزو الأجنبي، ويمكن كسبهم لقضية المسلمين الكبرى، ألا وهي الاحتلال الغربي لبلادهم.

إن من يدخلون الطريقة الصوفية أول مرة (المريدون) يندفعون بجاذبية بركات أهل السلسلة، التي تنتقل من شخص إلى آخر، حتى تصل إلى الشيخ. ولا يستطيع المريد الحصول على هذه البركات، إلا إذا كانت أعماله متسقة مع الشرع الحنيف. وبعد محادثة الشيخ للمريد الجديد يبدأ بتلاوة ورد خاص يعطيه إياه الشيخ. وعليه أن يردده عدداً من المرات عقب أوقات إحدى الصلوات. وعلى المريد أن يحضر حلقة الذكر التي تعقد يومياً تحت قيادة الشيخ أو أحد مساعديه، حيث يقوم هؤلاء في أثناء حلقة الذكر بعمل بعض الحركات الجسمية الخاصة. وفي كل أسبوع يلتقي الشيخ مع الأفراد فرادى في الخلوة، حيث يقوم بإعطائهم وظائف خاصة. وكثير من هؤلاء المريدين لا يتجاوزون ذلك، وحينما يغادر أحد المريدين إلى جهة، فإنه يلتحق بأفراد طريقته في المكان الذي يذهب إليه، حيث يكون للشيخ ممثلون في تلك المناطق (خلفاء) يقومون بالمهمة نفسها. ويمارس المريد مع زملائه الجدد الأعمال السابقة نفسها، ويقوم المريدون بإطاعة ممثل شيخهم، ويساعد بعضهم بعضاً إذا اقتضت الحاجة ذلك.

إن الذين يستمرون فترة طويلة في الطريقة الصوفية، تحت مراقبة الشيخ، تصبح مفاهيمهم الصوفية أكثر عمقاً، وتصبح علاقتهم وثيقة جداً بالشيخ، وفي النهاية يعطي هؤلاء (العهد). ولا يستطيع القيام بعمل من أعمال الطريقة إلا إذا سمح لهم الشيخ بذلك، وحينما يغادر هؤلاء إلى جهة ما، فإنهم يتلقون تعليمات واضحة لما سيفعلونه. وقد يحيلهم الشيخ إلى أحد ممثليه في المنطقة التي سيذهبون إليها. والمتصوفة عموماً لديهم قسم الطاعة. ذلك القسم الذي يجعل المريد بين يدي الشيخ كالجثة بين يدي المغسل.

وفي معظم المجتمعات الإسلامية، هناك حرية الحضور في حلقات الذكر لدى المتصوفة، دون الالتزام بأوامر الطريقة. وعلى هذا يمكن للمرء أن يحضر لأكثر من طريقة دون الالتزام بأي منها. والمتصوفة يقولون: إذا كان الحضور من أجل البركة فقط، فلا حرج في تعدد المشايخ، أما إذا قرر المرء أن يلتزم مع شيخ واحد فلا يجوز له أن يحضر في غير مجلسه، وعليه أن يربط مصيره بشيخه الجديد إلى الأبد. فالنكوث بالعهد يؤدي إلى سخط الشيخ، وكذلك سخط الملائكة والنبيين، وأخيراً سخط الخالق سبحانه وتعالى (؟!).

إن نظرة سريعة تظهر الأهمية القصوى للطرق الصوفية في الحياة الدينية في مكة، وفي كافة الأراضي الإسلامية، التي تتزود بالغذاء الروحي من المدينة المقدسة. فعلى سفوح جبل أبي قبيس تقع الزاوية السنوسية التي أشرنا إليها سابقاً. وكذلك زاوية الطريقة النقشبندية التي أسسها الشيخ سليمان، والتي يسكنها الشيخ ومريدوه[1]. وتكاليف الزاوية النقشبندية قد تحملها مريدو الطريقة أنفسهم. ومن خلال تبرعات هؤلاء المريدين، كان الشيخ يقدم الطعام واللباس لبعض المريدين المعوزين. الأمر الذي ساعد على زيادة نفوذ الشيخ واحترامه، وفي الأيام المخصصة للقاءات العامة لأفراد هذه الطريقة، وفي بعض المناسبات الأخرى، يستضيف الشيخ كافة المريدين، ويقدم لهم الكثير من صنوف الأطعمة.

---

(١) لقد زالت هذه الأماكن الآن، وانتهت إلى الأبد هذه الطرق من المدينة المقدسة، وأصبح أهلها الآن ينعمون بعقيدة التوحيد الصافية، بعيدين عن هذه الخرافات الباطلة والشرك البواح.

وبالإضافة إلى الزاويتين المذكورتين، هناك أماكن أخرى متعدّدة يستعملها أصحاب الطرق الصوفية الأخرى، أمثال الطريقة القادرية والشاذلية وغيرها، وفي العادة يوجد خلفاء الشيخ وممثلوه ببيت الشيخ دائماً، بالإضافة إلى بيوتهم الخاصة التي يصرف عليها من جيوب المريدين.

إن حلقات الذكر والاحتفالات الأسبوعية والشهرية وتوزيع النقود على المحتاجين يتم كله في بيت الشيخ. أما اللقاءات اليومية لأفراد الطريقة، الذين لا تتوافر لديهم الأبنية الكبيرة، فتعقد في المسجد الحرام في العادة. وفي الغالب يتردد على مسامع المرء السؤال التقليدي، الذي يسأله أفراد الطرق لمن غاب منهم: «لماذا لم تكن في حلقة الإخوة هذا الصباح؟».

وإذا استثنينا الملحوظات التي يبديها الشيخ على الجوانب العملية لأفراد الطريق، فليس هناك إلا بعض الأمور المحدودة التي يقدمها لتلاميذه؛ لأن دائرة علوم هؤلاء المشايخ محدودة، ولا يخجل مشايخهم من الاعتراف بأن ما لديهم من علم ضئيل جداً. ولا يعرفون إلا الأمور التي تتعلق بالطريقة. غير أنهم يدعون أنهم يعنون بالربط بين المعرفة والحياة بصورة أكثر من رجال العلم الآخرين.

إن مشايخ الحرم وعلماءه يستاؤون كثيراً حينما يلتحق الكثير من طلبتهم بالطرق الصوفية، ولا سيما أنهم لم ينالوا من المعرفة إلا الشيء اليسير. وهذا بطبيعة الحال يؤثر سلباً في دراسة هؤلاء الطلبة. وغالباً ما يقول العلماء لهؤلاء: الطرق الصوفية مفتوحة أمامكم في أي وقت، والمهم الآن هو أن تنهوا رحلة العلم الطويلة. إن ما تريدون الوصول إليه موجود في المسجد الذي تدرّس فيه كتب الغزالي عن الصوفية. وبعد التزود من العلم والمعرفة، يمكنكم أن تختاروا الطريق الذي تريدون، والشيخ الذي تريدون، دونما كبير خطر.

إن الطرق الصوفية في الأعم الأغلب تصرف طاقات الطلبة النافعة وجهودهم في أمور أبعد ما تكون عن تلقي العلم والثقافة والمعرفة.

إنه لمن السهولة بمكان أن نرى المساوئ التي وصلت إليها الطرق الصوفية. إن كل من له مركز في هذه الطرق يتلقى في كل مناسبة الكثير

من الهدايا والأعطيات التي يكون بعضها مخصصاً له، وبعضها الآخر لأفراد الطريق الصوفية. وهذا الأخير هو أيضاً تحت تصرف أصحاب النفوذ. ولهذا أصبح الاهتمام في هذه الطرق منصباً على الجوانب المادية. وهناك الكثير من الجهود التي يبذلها المتنفذون لتحقيق مآربهم الشخصية، تلك الجهود التي كان من الواجب بذلها لإرشاد المريدين لمعرفة الشريعة، وإلى إحياء المثل والقيم الإسلامية في قلوب هؤلاء الأتباع. إن جميع النتائج الشريرة، التي تنجم عن السيطرة العنيفة، التي يفرضها الإنسان القوي على الإنسان الضعيف تتجلى في الطرق الصوفية، تلك السيطرة التي ليس لها داع.

إن مصطلح (السلسلة) في علم التصوف، يعني أن الخصائص الروحية الغامضة، والمعتقدات الصوفية، تعطى من المؤسس الأول إلى أحد تلاميذه، الذي ينقلها بدوره إلى أحد تلاميذه، وهكذا بحيث يكتسب كل من هؤلاء الخصائص الروحانية التي كانت لدى المؤسس الأول. وهذه الحالة شبيهة بعلم الأنساب لدى النبلاء، والذي من خلاله يستطيع المرء أن يثبت أن ما يجري في عروقه، هو الدم النبيل الذي كان لأسلافه. ويغالي بعض علماء التصوف فيوصلون السلسلة إلى الصحابة وإلى الرسول الكريم، وأحياناً أخرى إلى الخالق عز وجل.

تعتمد الصوفية على الإيحاءات التي يجب أن تصاحب الأدوار، فترديد الشهادتين أكثر من ألف مرة، على زعم هؤلاء، تجعل القلب يعمر بذكر الله. ولما كانت مثل هذه المفاهيم غير ممكنة بالنسبة للمبتدئين، يلجأ هؤلاء إلى إيجاد الوسيط، ألا وهو الشيخ. وعلى المريد أن يتمثل صورة الشيخ، حتى إذا استقرت في قلب المريد، أسهم الشيخ من خلال روحانياته بإعمار قلب المريد بأنوار الله تعالى. وهناك في الطرق الصوفية اهتمام كبير بالشيخ الذي يعدّ بالنسبة للمريدين هو ممثل الخالق الكريم سبحانه وتعالى[1].

---

(١) إن الكثير من هذه المظاهر فيها الشرك والعياذ بالله. ففي الإسلام لا واسطة بين الخالق =

إن علوم الشرع والعقيدة والتصوف أسهمت إسهاماً قوياً في إحياء القيم السياسية الإسلامية. كما أن البيئة المكية تساعد وتقوي الآراء والآمال الإسلامية، من خلال ما تطرحه من موضوعات دراسية مختلفة. ولا سيما أن معظم الدارسين يفدون من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي. وهؤلاء حينما يوجدون ويعيشون سوية، يزداد الوعي لديهم بسعة انتشار دينهم. وتتقوى لديهم الأفكار التي يطرحها الطلبة القادمون من البلاد التي يحتلها الأجانب الغربيون بأن المسلمين ملامون بخضوعهم فترات طويلة إلى هذه القوى الغازية.

إن ممثلي الدول العظمى لا يجرؤون على أن تطأ أقدامهم مدينة مكة، وينظر إليهم المكيون من بعد على أنهم مواطنون من جنس وضيع. وصحيح أن هؤلاء الأجانب قد ضربوا جدة بالمدافع، لكن هل باستطاعتهم مهاجمة مكة؟ إن لسان حال المكيين يقول: إن السلطان سيدافع عنها، وإن المولى - عز وجل - سيرميهم بصواعق من السماء. إن الأجانب لا يجرؤون على القيام بمثل هذا العمل. ولقد سبب لهم المهدي في السودان من الجانب الآخر من البحر الأحمر الكثير من المشكلات التي تكفيهم. نحن هنا في مكة من رعايا سلطان الإسلام. إن قراءة بعض الفصول عن الفتوحات الإسلامية، أو عن المعاهدات التي أبرمها المسلمون مع أعدائهم، أو عن انتصارات المسلمين على الديانات اليهودية والنصرانية، ليثير عقول الكثيرين هنا في مكة، بالقدر نفسه الذي يثيره في أحد مساجد الهند. إن مكة حقاً مركز العالم، والانتصارات المستقبلية يجب أن تبدأ منها. إن أكثرية الطلبة الدارسين ومعظم المجتهدين هم من الأغراب الذين يستقرون في مكة بضع سنين. وعندما يعود هؤلاء إلى بلادهم يبدؤون بنشر المعرفة والآراء التي تعلموها في المدينة المقدسة. وبالإضافة إلى حركة الإنعاش التي تعطيها مكة للطبقة المتعلمة، نجد أن الطبقات الشعبية لديها شعور

= والمخلوق، والعبد مرتبط بخالقه، ولا يحتاج إلى دليل أو وسيط ليدله عليه.. وكثير من مظاهر التصوف تسربت من عقائد أخرى لا تمت إلى الإسلام بصلة.

قوي بالتضامن مع المجتمع الإسلامي الكبير، من خلال ما تتلقى من دروس تعطى لمثل هؤلاء في المسجد الحرام.

وفي النهاية علينا أن نعطي صورة عن بعض الأمور التي تسبب عدم الالتزام بمنهج الدراسة بالحرم. ذلك المنهج الذي يطبق بدقة خلال السبعة أشهر الأولى من السنة. فبعد حلول منتصف شهر رجب يخصص المدرسون ساعة من المحاضرات لتلاوة قصة الإسراء، التي تحل ذكراها في السابع والعشرين من هذا الشهر. وكذلك الحال في الأيام الأولى من شهر ربيع الأول، حيث تقرأ قصة المولد. وفي شهر شعبان يشرع جميع المدرسين في قراءة موضوعات الصيام، لإعداد التلاميذ لمراعاة متطلبات شهر الصوم الذي بات وشيكاً، وترتب موضوعات الصيام بحيث تنتهي مع حلول رمضان.

الدروس

إن نهاية العام الجامعي تكون بحلول «الشيخ رمضان»، غير أن العلماء لا يتوقفون عن إعطاء محاضرات إضافية خلال الإجازة، التي بدأت في رمضان، حيث يقومون بالتدريس أيام الجمع والثلاثاء وبعض المناسبات الأخرى، حينما تسمح لهم الظروف بذلك. وفي رمضان تعقد المحاضرات بعد صلاة الفجر، وبعد صلاة العصر. أما وقت الظهيرة فهو وقت النوم والقيلولة. وبعد المغرب هو وقت الإفطار، ثم يليه صلاة التراويح، والموضوعات التي تعطى في رمضان هي تقريباً الموضوعات السابقة نفسها، وهي العقيدة واللغة العربية والتفسير والحديث. لقد استمر مفتي الشافعية في إعطاء برنامجه في التفسير، وكذلك استمر الشيخ عباس بقراءاته في صحيح البخاري. ويقوم بعض المشايخ بالتدريس في حلقات صغيرة بعض الموضوعات الدينية التوجيهية.

وعند انتهاء أيام عيد الفطر، مع بداية شهر شوال، تتهيأ الأذهان تدريجياً إلى عيد الأضحى الذي سيأتي بعد شهرين، ونجد الأساتذة الذين ينجحون في إيجاد مكان لهم لإلقاء بعض الدروس في المسجد، يخصصون معظم وقتهم للحديث عن الحج. وذلك بقراءة باب الحج من كتب الفقه أو قراءة بعض

كتب المناسك. ويستمر ذلك حتى نهاية شهر ذي القعدة. وبحلول ذي القعدة يتزايد عدد الحجاج، بحيث لا يمكن معه قيام المحاضرات الأكاديمية، التي تتوقف تماماً حتى منتصف شهر محرم الحرام من السنة التالية.

لقد ذكرنا فيما مضى أن هناك محاضرات يلقيها مدرسون أجانب بلغتهم الخاصة في أماكن إقامتهم، وليس في الحرم، وذلك لتدريس أبناء جلدتهم العلوم الشرعية. ويسير تدريس هؤلاء موازياً للتدريس في الحرم، من حيث تقسيم الوقت والموضوعات. وهذا ليس مصادفة؛ لأن مواعيد التدريس محددة بأوقات الفرائض الخمسة. والاستعداد للصيام وأداء فريضة الحج مطلوب من الدارسين في الحرم، كذلك من الدارسين خارجه. لهذا نجد أن نسق الدراسة ووقتها واحد في كلا الحالين.

ويمكننا أن نستنتج من كتب تواريخ مكة أن الحياة الثقافية في المدينة المقدسة كانت أكثر نشاطاً وازدهاراً فيما مضى من القرون[١]. وإنه لمِمّا يؤسف له أن رجلاً عالماً مثل بيركهارت، لم يذكر شيئاً من ذلك، لا بل نراه يصور قصور أهل مكة في الحضارة والعلم بصورة مبالغ فيها[٢]. وهذا دليل جديد يؤكد حقيقة ما قررناه سابقاً من أن مكة تبدو للحجاج بصورة مختلفة تماماً عن أولئك الذين يستقرون فيها[٣]. وسوف أضيف تعليقاً آخر على بعض ما قاله بيركهارت. يقول بيركهارت: حيث قال إنه في يوم

---

(١) انظر بيركهارت Travels in Arabia جـ١ ص٢٧٤، ٢٩٠ (المؤلف).

(٢) انظر المرجع السابق جـ١ ص٣٩٦. إن رأي بيركهارت هذا غير صحيح، والدليل على ذلك ما وصفناه من عرض تاريخي لواقع العلم والحضارة، هذا الواقع أنكره بيركهارت (المؤلف).

(٣) من الأمور الأخرى التي تؤكد الحقيقة السابقة ما يرويه بيركهارت في صفحة ٤٠١ من الجزء الأول حيث يقول: لا أستطيع أن أصف حفلات الزواج في مكة؛ لأنني لم أحضر أياً منها، كما أن المعلومات الضئيلة التي أوردها عن المناسبات المحلية معظمها خاطئ. وإنني أستطيع أن أكتب صفحات مطولة عن الكثير من مواطن الزلل في كتاب بيركهارت، غير أنني من جهة أخرى آمل أن يصدقني القراء إذا قلت: إنني قرأت كتاب بيركهارت قراءة شاملة لولاها لما تمكنت من كتابة كتابي هذا. ولهذا فإنني أبدي تقديري واحترامي الشديدين إلى سلفي السابق، على الرغم من وجود بعض الأخطاء التي استطعت أن أكتشفها في عمله الممتاز (المؤلف).

الجمعة، وبعد صلاة الظهر، اعتاد بعض الأساتذة الأتراك، أن يتجمعوا في المسجد، ويحيط بكل منهم حلقة من مواطنيه، حيث يلقي عليهم محاضرة بلغتهم الأصلية، وقبل أن ينصرف هؤلاء من المحاضرة يقبلون يد الشيخ، ويقدمون له هدية مالية. إن هذا التقليد موجود حتى الآن (١٨٨٥م)، غير أنه يجب أن يضاف إليه المعلومات التالية: وهي أن المسجد في أوقات الحج يزدحم بالحجاج الأتراك. فيقوم بعض الأتراك الذين يستوطنون مكة بإعطائهم مثل هذه المواعظ. وهؤلاء ليسوا بعلماء وليسوا من الأساتذة، ذوى الدرجات الرفيعة. الذين يخجلون من مثل هذه الأمور. وكل ما يمكن قوله: إن هؤلاء أساتذة موسميون لا يمكن لهم أن يعلموا في دائرة المسجد، حيث تنظم دراسة الفصول في أثناء العام الدراسي. ولقد شاهدت ظهور أمثال هؤلاء في شوال عام ١٣٠٢هـ (يوليو ١٨٨٥م) في رحاب المسجد الحرام. ولقد قال لي أحد المكيين، مشيراً إليهم بإصبع السبابة: (لقد ظهرت الضفادع). وحينما سألته عن ذلك أضاف أن الضفادع تبدأ في النقيق حينما تمطر السماء، مشيراً بالمطر إلى قدوم الحجاج إلى المدينة المقدسة. فهؤلاء يبحثون عن المنفعة المادية، وهم متطفلون على سوق العلم والمعرفة.

يظهر في مدينة مكة في كل قرن من القرون كثير من رجال العلم والثقافة. وقد امتازت مكة قرونًا طويلة بأنها مركز ممتاز للدراسات الشرعية والفقهية. ولقد تضافرت في الوقت الحاضر على المدينة المقدسة أسباب متعدّدة جعلت منها مركزاً فريداً للعلم والمعرفة لجميع بقاع العالم الإسلامي.

الفصل الرابع

السكان في مكة

عناصر السكان في مكة

لقد نشر أحد الضباط المصريين وهو باحث ومهندس رافق بعثة الحج، والمحمل المصري سنوات متعدّدة تقارير عن تجاربه وخبراته مع البعثة المصرية[1]. وقد ذكر في أحد تقاريره المطبوع سنة ١٨٨٦م[2] أن قطاع المهاجرين في مكة هم خليط من الجاوى والهنود والمصريين والأتراك والأفارقة (السود) واليمنيين والبدو يقومون ببيع مياه زمزم، ويتاجرون بالحناء وأعواد الأراك، وكان معظم العاملين بالتجارة من الأجانب المجاورين بمكة. وكان بعضهم يتعاطى الربا في تعامله، بحيث يسترد العشرة اثنتي عشرة أو أكثر، ويقوم باستغلال الحجاج، ولا سيما حجاج الجاوى؛ لأنهم كانوا غرباء وموسرين.

إن الباحث المصري السابق، ذا الثقافة نصف الأوروبية، قد لحظ بصورة سطحية الظروف السائدة في مكة، غير أنه من المهم أن نذكر أنه خص حجاج الجاوي بالاستغلال، دون أن يذكر أي مسوّغ أو سبب لذلك.

مناطق الجاوى

ويندرج تحت اسم الجاوى[3] في الجزيرة العربية، كل الشعوب التي تنتمي إلى السلالة الملاوية في أوسع صورها، شاملة البلاد الممتدة من سيام

---

(١) محمد صادق باشا دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٠٣هـ ص٦٠.

(٢) المرجع السابق ص٢٠.

(٣) إن المناطق التي يفد منها هؤلاء يطلق عليها اسم بلاد الجاوى، ويطلق المكيون على الفرد الواحد اسم جاوي، والجمع جاوات أو جاوى أو جاويين (المؤلف). وقد استعملنا في الترجمة لفظ «جاوي» (بفتح الجيم وكسر الواو والياء الساكنة في آخره) للمفرد كما استعملنا لفظ «جاوى» بفتح الجيم وفتح الواو والألف المقصورة لدلالة على الجمع، وقد =

(تايلند) إلى ملقا وغينيا الجديدة. وتشمل هذه التسمية في مكة المسلمين وغير المسلمين. وغير المسلمين يطلق عليهم في العادة اسم «عبيد». إن المسافرين والرحالة من أهل مكة لهم اتصالات في بعض الأحيان مع أفراد من الجاوى ممن يعتنقون الهندوكية أو ممن يدينون بالوثنية.

سكان رأس الرجاء الصالح

وهناك فئة من الجاويين تعيش خارج الحدود الإقليمية والجغرافية لمناطق الجاوى في جنوب شرقي آسيا، حيث يستوطن هؤلاء منطقة رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا. إن هؤلاء في السنوات الأخيرة كانوا يقومون برحلات الحج إلى الديار المقدسة، وهؤلاء هم من السلالة الملاوية، وقد أحضروا إلى منطقة الكاب (رأس الرجاء الصالح) من قبل الهولنديين. ونجد بين صفوف هؤلاء بعض الاختلاط بالدماء الهولندية. ولقد تسربت بعض العبارات الملاوية إلى لغة البوير، وهي لغة محلية غريبة، مشتقة من إحدى اللهجات الهولندية يتكلم بها أهل المنطقة. كما أن هؤلاء قد تركوا لغتهم الأصلية إلى لغة الكاب الهولندية، محتفظين بعدد من الاصطلاحات الملاوية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الأسماء الهولندية الأصلية التي يحملها هؤلاء، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن بعض الأجيال الهولندية المولدة، قد اعتنقت الدين الإسلامي من خلال هؤلاء الذين يطلق عليهم في مكة اسم (أهل الكيف)[1].

وإذا استبعدنا موضوع الاختلاط مع العناصر الهولندية، فإن هؤلاء لم تكن لديهم الإمكانية بتقوية الروابط الدينية فيما بينهم، لولا قدوم بعض العناصر المتدينة إلى بلادهم. ولست على يقين متى أو من أين قدم هؤلاء الذين أذكوا الحماس الديني في المنطقة. وعلى أي حال فإن بناء المساجد قد نشط خلال العشرين سنة الأخيرة أكثر من أي وقت مضى، كما أن الناس

= استعملت كلمة «الجاويين» للدلالة على الجمع أيضاً. كما استعملنا كلمة «جاوة» بالهاء للدلالة على الجزيرة الأندونيسية المعروفة بهذا الاسم.

(١) إن كلمة أهل الكيف هي تحريف لكلمة أهل الكاب Cape والتي تعني منطقة رأس الرجاء الصالح، في جنوب القارة الأفريقية.

قد بدؤوا يتجشمون المصاعب في سبيل تعلم أمور الدين، يضاف إلى ذلك أن بعض هؤلاء أصبح يسافر إلى مكة لأداء فريضة الحج.

وباعتبار أن هؤلاء ينتمون إلى الأصول الجاوية، فقد أعد لهم المكيون مطوفاً خاصاً بهم من مطوفي الجاوى. ولما كان غالبية هؤلاء من موسري الحال، فقد نالوا اهتماماً أكثر من غيرهم من أفراد الجالية الجاوية. ولقد سافر بعض العلماء الأتراك والمكيين إلى مقاطعة الإسلام الحديثة. ونجحوا في تحويل هؤلاء عن المذهب الشافعي إلى المذهب الحنفي، كما أنهم أحيوا في تلك البلاد التقاليد الإسلامية التي كادت أن تنسى، ولهذا عُدَّت هذه العملية وكأنها ولادة ثانية للإسلام في تلك الربوع.

وفي القسطنطينية شجعت السلطات طباعة بعض كتب الشريعة الإسلامية باللغة الهولندية السائدة في منطقة الكاب (رأس الرجاء الصالح) بحروف عربية. وهذا يظهر تعلق المسلمين بالإخوة الجدد في الجزء الجنوبي من أفريقيا، وجعل ذلك نجاحاً للحركة الإسلامية.

اهتمام أهل مكة بالجاوى

كان شيخ المؤذنين صديقاً لي، وقد سعد بأهل الكيف لدرجة أنه اهتم بلغتهم. ولقد حضر إليّ يوماً ومعه بعض الأوراق عليها عبارات عربية وترجمتها بلغة الرأس، وطلب مني أن أخبره عن أقرب اللغات الجاوية شبهاً بلغة الرأس. وقد ذكر لي عبارات مثل كيف حالك الآن؟ أتفضل شرب الشاي الأخضر أم الأسود؟ وغيرها، وقد كتبت جميعها بلغة الرأس الأفريقي. وعلى أي حال هناك ظاهرة ملموسة هي أن الحجاج القادمين من منطقة الرأس يغيرون أسماءهم الهولندية إلى أسماء عربية حال وصولهم إلى مكة. ومن المهم أن نذكر أنه ليس ثمة اختلاط بين سكان رأس الرجاء الصالح الذين يفدون إلى مكة وبين أبناء عمومتهم من الجاويين.

صفات العناصر الجاوية

إن الباحث المصري السابق قد أكد على أهمية الجاوى من بين الجاليات الأجنبية في المدينة المقدسة. وإن هذا التأكيد لا بد أن يكون وراءه سبب ما. على الرغم من أن المؤلف المصري لم يذكر لماذا كان ذلك. ولعل نسبة القادمين إلى مكة من أرخبيل الملايو، لا يدانيها نسبة أخرى في مختلف

بقاع العالم الإسلامي. فبينما نجد الكثير من المتسولين يفدون إلى مكة من المستعمرات الهندية البريطانية، لا نجد فقيراً قادماً من بلاد الجاوة، وإذا وجد أحد من هؤلاء فإنه يكون خادماً أو رفيقاً لأحد الأغنياء الذي يقوم بإعالته. ومعظم السكان الجاوى متواضعون بطبعهم. إن تقاليدهم الوطنية في مختلف دول جزر الملايو تتضاءل أمام وعيهم الإسلامي، فعلى الرغم من عظمة أصولهم الهندية والوطنية فإنهم يرون أن حضارتهم الحقيقية بدأت عند اعتناقهم الدين الإسلامي.

انتشار الإسلام في بلاد الجاوى

وفي الكثير من جزر الملايو هناك بعض الأساطير التي تقول: إن الإسلام دخل إلى هذه البلاد منذ عهد الرسول ﷺ، في حين يعتقد بعضهم الآخر أن الإسلام انتشر نتيجة اعتناق بعض الأمراء هذا الدين، على أيدي دعاة قادمين من الغرب. إن المؤرخين الوطنيين يمنحون اللقب السلطاني لأمراء الملايو الذين ينحدرون من أصول مكية. إن الشريف الأعظم أو (راجا مكة) قد منح هؤلاء قوة كبيرة على منافسيهم. إن كثيراً من أساطير الملايو القديمة فيها ذكر حميد لسلطان الروم (تركيا)، غير أن السكان الحاليين لديهم معرفة أشمل عن السلطان الأعظم في إسطنبول. ومع هذا فإن مكة لا تزال في نظرهم هي بؤرة الإسلام ومركزه. وعلى عكس الشعوب المصرية والتركية والفارسية والهندية التي لعبت دوراً بارزاً على مسرح الإسلام فإن الجاوى يعلنون بتواضع وتحفظ أنهم لم ينالوا حظاً كبيراً من نعم الإسلام.

إن الجاوى في السابق كانوا أحسن حالاً مما هم عليه الآن. والمرء يدرك بسهولة كيف أن المكيين قد يتنازعون فيما بينهم حول المكاسب التي يجنونها من شعب يسهل استغلاله كهؤلاء. وإنه لمن المؤسف حقاً أن المكيين والجاويين لم يعطونا تفصيلات عن تطور العلاقات بين مكة والشرق الأقصى. ويمكن أن نتصور بسهولة أن السفن التجارية التي انتشرت في العقود الأخيرة، قد ساعدت على الحركة بين المنطقتين. وكان أهل الملايو في السابق يعتمدون على ربابنة السفن العرب الذين كانوا يملؤون

السفن وسيلة الاتصال بين مكة وأرخبيل الملايو

سفنهم في آشيه (آكيين)[١] وسنغافورة[٢] بأعداد كبيرة من المسافرين. أما الآن فإن السفر يتم على قوارب بخارية هولندية أو إنجليزية من بتافيا[٣]، بادانج[٤] أو سنغافورة، إما إلى جدة مباشرة أو إلى جزر الكرنتينة (الحجر الصحي)[٥]. إن ترتيبات الحجر الصحي ليس لها من هدف سوى استغلال هؤلاء. وترتيبات الحجر الصحي قد نظمت من قبل السلطات العثمانية لإقناع السلطات الطبية العليا في الغرب، التي لا تعرف شيئاً عن الظروف الحقيقية في الشرق، بهذا النظام الذي ليس له من هدف سوى ابتزاز الأموال. إن كل من يشاهد ذلك عن قرب يصيبه اليأس والقنوط، وعلى أي حال فإن الحجاج بدؤوا يعتقدون تدريجياً أن هذا من ضمن ترتيبات الحج، وأن هذا معمول لصالحهم، حيث يجب عليهم قبل دخولهم جدة، أن يمضوا بعض الوقت في جزيرة غير صحية، يدفعون فيها سعر كل شيء مضاعفاً، بالإضافة إلى رسوم الحجر الصحي. وربما تنتابهم عدوى بعض الأمراض أيضاً. وبالرغم من كل ذلك فإن رحلة الحج في الوقت الحالي (١٣٠٢هـ) أكثر أماناً وراحة مما كانت عليه قبل ثلاثين سنة.

لقد انتُقدت الحكومة الهولندية بغير وجه حق لحمايتها مصالح شركات الملاحة الهولندية. فهي بطريقة لا مباشرة شجعت على زيادة الحجاج الذين يمكن أن يخشى جانبهم بصفتهم أناساً شديدي التعصب. وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل لاحقاً. وما يمكن قوله الآن رداً على هذا الاتهام هو أنه إذا

---

(١) أتشيه: وينطقها أهل مكة أشيه والنسبة إليها آشي، وهي منطقة تقع شمال سومطرة، والآشيون أحد شعوب أندونيسيا العريقة ويتكلم هؤلاء لغة خاصة بهم تدعى الأشية.

(٢) سنغافورة: مستعمرة إنجليزية في جنوب شبه جزيرة الملايو، وكانت تمثل نهاية الخط البحري الإمبراطوري الواصل بين بريطانيا وجنوب شرق آسيا.

(٣) بتافيا: ميناء جاكرتا الحالي.

(٤) بادانج: ميناء يقع في غرب جزيرة سومطرة.

(٥) في مكة يتحدث سكان الملايو عن «مرض قمران» نسبة إلى جزيرة قمران حيث كانت ترتيبات الحجر الصحي في تلك الجزيرة. انظر: VerhanlungenL: der gessell aschaft fyr erjubde «Berlin Vol. xiv P. 146, 147». (المؤلف).

سحبت الحكومة دعمها لشركات الملاحة، فإن النتيجة لا تكون تقليل عدد الحجاج، وإنما ستكون انخفاض عدد ركاب شركات الملاحة الهولندية فقط.

إن المكيين لا يتركون أي فرصة لزيادة العائد الذي يجنونه من بلاد الجاوى. إن المطوفين يرسلون نوابهم إلى جميع الاتجاهات لزيادة عدد الحجاج القادمين في الموسم التالي، ويقوم هؤلاء في العادة بدفع مبالغ معينة لمن يترددون على مكة، عن كل حاج يرسلونه إليهم. كما يستأذن هؤلاء جميع الحجاج قبل مغادرتهم ليبعثوا لهم بأكبر عدد ممكن من مواطنيهم في العام القادم.

العرب في أرخبيل الملايو

إن أبواب جزر الهند الشرقية مفتوحة أمام الأشراف والسادة وبعض أفراد أسرة بني شيبة، وكذلك مشايخ الطرق الصوفية، ورجال العلم من أهل مكة. وهؤلاء في العادة يحلون ضيوفاً على الأمراء حيث ينالون الحفاوة البالغة ويعودون إلى أوطانهم بجوائز وهدايا ثمينة. ولما كان بعض هؤلاء من العلماء، أو من مشايخ الطرق الصوفية، فيمنحون عطايا كثيرة من طبقة العامة من شعب الملايو، الذي ينعم بتعليماتهم الدينية أو ببركات دعواتهم. ولولا أن الحكومة الهولندية تضع جميع أنواع العراقيل أمام هؤلاء، فإن جزر الملايو سوف تفيض بأعداد كبيرة منهم. وقد يكون ذلك خطيراً من وجهة نظر سياسية؛ لأنه على الرغم من أن غرض هؤلاء هو المال[1]، فإنهم سرعان ما يرون في الحكومة الأوربية والتأثير الإفرنجي قوة عدائية، يقاومونها سراً وعلانية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وحتى يتسنى لهم القدوم في الوقت الحالي، يجب أن يكون هؤلاء أو من يزورونهم على جانب عظيم من القوة والنفوذ؛ لأنهم يخضعون لرقابة شديدة من قبل السلطات الأجنبية، التي تشك بنواياهم دائماً. وعلى كل حال فإن حسن نية الجماعات الملاوية، يساعد المسلمين الأجانب، على إغراء هؤلاء بالقيام

(١) لم يكن غرض الكثير من هؤلاء هو المال، وإنما كان نشر الدعوة، وتثقيف أبناء البلاد، الأمر الذي كان يراه الهولنديون خطراً على وجودهم.

بحركات دينية وسياسية. وحينما يكون هؤلاء الأجانب من العرب، فإن نجاح مثل هذه الحركات يكاد يكون مؤكداً بدرجة كبيرة. إن المهاجرين الحضارمة أقل خطراً؛ لأن الأغراض الدينية لا تلعب دوراً رئيساً في رحلاتهم إلى جزر الملايو، غير أنه يمكن القول: إن جميع الجاليات العربية في الملايو تشكل دائماً في طراز حياتها وعملها نمطاً خاصاً يجب ألا يترك بدون رقابة[1].

إن الظروف الحديثة جعلت حركة الحجاج إلى الديار المقدسة أكثر من ذي قبل. غير أن زيارات العلماء ومشايخ الطرق الصوفية والمغامرين قد قلت عما كانت عليه في السابق نتيجة انتقال السلطة إلى أيدي الأوربيين. إن وصول هؤلاء وأمثالهم إلى جزر الملايو غالباً ما يعني ثورات دينية ضد الوضع القائم الأمر الذي فرض تحديد عدد القادمين منهم. وقد أصبح هؤلاء يغطون هدفهم الحقيقي وهو إثارة الحماس الديني للسكان بهدف آخر بعيد هو ادعاء الأعمال التجارية خوفاً من السلطة القائمة.

إن الفترة التي زاد فيها عدد الحجاج الجاويين إلى بضعة آلاف هي فترة حديثة نسبياً، غير أن سيل رحلات الحج إلى الديار المقدسة لم ينقطع خلال القرنين الأخيرين. إن المكيين لم يحتاجوا إلى وقت طويل لمعرفة خصائص الجاوى أو لمعرفة الفروع والأجناس المختلفة التي تنتمي إليها هذه المجموعة من البشر. ومعارف المكيين وملحوظاتهم على سكان الجاوى شاملة ودقيقة في النواحي التي يجنون من ورائها الفوائد المادية،

---

(١) يظهر من خلال كلام المؤلف أنه يخاف كثيراً على الحكم الهولندي في جزر أرخبيل الملايو (أندونيسيا) من خطر وجود الجاليات المسلمة القادمة من مكة والبلاد العربية الأخرى؛ لأنها تساعد على قيام الثورات ضد المستعمر. لقد برزت هذه المخاوف بوضوح في تقرير رفعه المؤلف بوصفه مستشاراً للشؤون الإسلامية في وزارة المستعمرات الهولندية إلى الحكومة يطالب فيها بتحديد هجرة الحضارمة إلى أندونيسيا وتشديد الرقابة على القادمين من البلاد الإسلامية، ومنع السكان من تقديم الإعانات لخط سكة حديد الحجاز، وغير ذلك من الأمور التي تبعد الشعب الأندونيسي عن الأمة الإسلامية، لقد كانت أسوأ توصية رفعها هي القضاء على الثورة في إقليم اتشي التي كان يذكي أوارها العلماء المسلمون في تلك الديار.

غير أن ملحوظاتهم الأخرى العامة لها قيمتها أيضاً؛ لأنها تحدد خصائص المجتمع الجاوي في مكة.

التقوى والأمانة لدى عناصر الجاوى

إن لعناصر الجاوى صيتاً كبيراً في الورع والتقوى، على الرغم من أن الكثير منهم تنقصه المعرفة الدينية الكاملة. وهذا مما يتغاضى عنه في العادة، طالما ليست لديهم دوافع خفية من زيارة المدينة المقدسة. فهم لا يحملون معهم أي بضائع بقصد التجارة ينافسون بها غيرهم، بل على العكس فهم يفدون إلى المدينة المقدسة، ومعهم الأموال الوفيرة، بقصد إنفاقها في مكة. وإذا ما نووا الإقامة فترة أطول فإنهم يجلبون أموالاً أخرى من الوطن الأم، بصفتها دخلاً سنوياً ترسله لهم أسرهم.

إن كبار السن من أفراد الجاوى المقيمين في مكة إقامة دائمة، أو الذين رحلوا إليها منذ بضع سنوات، يرغبون في تكريس بقية حياتهم للعبادة في الديار المقدسة. أما حديثو السن فهم يكرسون أنفسهم لطلب العلوم الشرعية. إن ضيوف الرحمن المجاورين بمكة، وكذلك الحجاج الذين يؤدون فريضة الحج، ويقومون بزيارة المدينة المنورة حينما يعودون إلى بلادهم يتميزون عن غيرهم بالإخلاص والاستقامة في التعامل. وإن أمانة أفراد الجاوى في مكة هي مضرب الأمثال. فبينما نجد المكي حريصاً كل الحرص عند إعطاء بضائعه دون ضمان إلى غريب، ليأخذها ويجربها، فإنه لا يتردد في ذلك إذا كان ذلك الغريب هو أحد أفراد الجاوى «إذا كان جاوى معليش».

إذا اشتكى خادم جاوي مثلاً لرئيس شرطة السوق من أحد البائعين المخادعين أو الذين يرفعون الأسعار، فإن الحاكم غالباً ما يصدق كلمة الخادم ثم يجلد المتهم حتى يعترف بذنبه. ولهذه الأسباب نجد أن الطبقات الفقيرة من المجتمع الجاوي مطلوبة خدماً في البيوت، وخاصة من كان من جزيرة جاوة ذاتها، فهؤلاء قابلون للتعلم بشكل خارق للعادة إلى جانب أنهم مجتهدون في أعمالهم. إن رجالات الجاوى المشهورين يصحبون معهم في رحلتهم إلى مكة عدداً من الأشخاص الفقراء، يقومون على

خدمتهم مقابل الطعام والسكن. وأمثال هؤلاء يعملون في مكة خدماً في البيوت أو مساعدين في أعمال الحج.

إن التقوى والورع في السنوات الأخيرة أخذ في التضاؤل بين صفوف الجالية الجاوية، والسبب في ذلك زيادة حركة الهجرة إلى مكة. إن حديثي السن من أفراد الجاوى يسمعون من المواطنين العائدين من الديار المقدسة كيف أن الحياة مريحة في مكة، وكيف يمكن للإنسان هناك أن يشتري حبشية جميلة أو أن يتزوج مصرية. وكيف يمكن للإنسان في مكة أن يحيا حياة مواطن حر مستقل بمئات قليلة من الجيلدرات (وحدة النقد الهولندي)؛ لهذا زاد عدد القادمين إلى مكة من الشباب الطامحين بتحقيق مثل هذه الأمور. ولما لم تصل إليهم في مكة الحوالات النقدية التي وعدوا بها من الوطن الأم، أو أن هذه الحوالات لم تكف طريقة عيشهم الغالية التكاليف، فقد قدم لهم المرابون المال بغير تردد، فهؤلاء قد اعتادوا إقراض المال لقاء الربح الوفير. ولما كانت ثقة الدائنين بأفراد الجاوى عالية، فإن كمية الديون كانت تزداد باستمرار، على أمل الوفاء والسداد، ولما لم تصل الحوالات النقدية فقد كان الدائن يزج بالمدين في السجن، وفي مثل هذه الأحوال يرسل أصدقاء المسجون إلى أقربائه متوسلين لإنقاذه سريعاً. ونتيجة لتكرر مثل هذه الحوادث، فقد أدت إلى الأثر السيء لسمعة بعض أفراد الجالية الجاوية، حيث أصبح بعض هؤلاء المدينين يلجؤون إلى الهروب إلى جدة ثم يسافرون سراً بالسفن إلى بلادهم. فهم على الأقل في بلادهم يجدون المأوى والطعام من قبل أقربائهم. أما الدائنون الذين يرسلون الخطابات التهديدية لمثل هؤلاء، لا تصلهم في العادة سوى رسائل رقيقة، تحمل عبارات دينية تعلمها المدينون في مكة.

لقد كان المكيون يغضون الطرف عن هؤلاء، حينما كانت لديهم الأموال الوفيرة، فشجعهم ذلك على التبذير والفخفخة وارتكاب الغواية، ولم يدرك المكيون هذا الجانب المظلم من حياة بعض أفراد الجالية الجاوية، إلا حينما نفد ما بأيديهم من أموال. إن الكثير من أفراد الجالية الجاوية قد أهملوا واجباتهم الدينية، وكان اختلاطهم بالنساء بشكل طليق جداً، وبدا

واضحاً أنهم مزهوون وأغبياء ويفتقدون الشعور بالكرامة، ولم يكونوا يلتزمون بوعودهم التي قطعوها لأصدقائهم، وكانوا يهربون من دائنيهم كاللصوص. وبعبارة أخرى لقد كان لدى هؤلاء خيبة أمل، وليس انحطاطاً خلقياً، فقد كان نصف سكان مكة مدينين. ولم يفكر أحد كثيراً برد ما عليه، فما هو المسوّغ الذي جعل بعض هؤلاء يقلدون مثل هذه النماذج السيئة؟

وثمة شكاوى أخرى أضيفت إلى ما تقدم. وهي أن الكثير من الجاويين الذين استقروا في مكة، قد أصابهم حب الاستغلال، متأثرين بالروح الاستغلالية الموجودة لدى بعض أفراد المجتمع المكي، بينما آخرون قد اضطرتهم ضرورات الحاجة إلى البحث عن وسيلة للعيش، غير أن معظم هؤلاء كان يعوزهم الدهاء والاحتمال الذي تستلزمه مثل هذه المشاريع في هذه البلاد. لقد كان الجاوي الوحيد الذي رأيته يعمل مساعداً في متجر، هو رجل من آتشي، وكان الجميع يشيرون إليه بتعجب.

بعض مصادر الدخل للجاوى

إن بعض الجاويين الذين عادوا إلى وطنهم، بعد أن نفذت أموالهم أصبحوا يقومون ببيع المسابح، والكتب العربية، والعطور وغيرها، بينما بعضهم الآخر كان يحاول الكسب مما تعلمه في مكة من حكمة وصوفية، أو حتى من مجرد كونه في تلك البلاد. وهناك نفر ثالث كان يقوم بتصنيع أشياء رخيصة بمساعدة أسرهم المكية، ويبيعونها لأقربائهم في وطنهم الأصلي بأثمان عالية؛ لأنها من مكة. فقد عرفت شيخاً كانت زوجاته وأولاده يقومون في أوقات فراغهم بتطريز الطواقي البيض التي تلبس تحت العمامة، وتلبس أحياناً في الدار بدون عمامة، لقد كانت الواحدة من هذه الطواقي لا تكلف سوى أربعة بنسات، غير أنهم يبيعونها بدولار أو دولارين.

إن أغلب مصادر الدخل للفرد الجاوي الذي يعيش في مكة هو بالطبع العائدات التي يقبضها من مواطنيه نظير أعمال الطوافة، فهو ينعم بمميزات كثيرة من حجاج منطقته. فهؤلاء يعطونه بعض المبالغ النقدية لإنفاقها على الدارسين، أو يدفعون إليه الأموال التي يرسلها بعض الورثة لتدفع أجراً لمن يقوم بأداء فريضة الحج عن موتاهم. إن أمثال هؤلاء قد جاؤوا إلى مكة

خدماً لأحد أبناء بلدهم، وبسبب الحاجة المادية، عملوا لدى أحد المطوفين بالأجرة. غير أنه بمرور الزمن قد اكتسبوا الخبرات بالتدريج، وتعلموا العادات المحلية، فأصبحوا مطوفين لأبناء جلدتهم ووطنهم. وعلى الرغم من أن أمثال هؤلاء تنقصهم الحنكة والخبرة التي لأهل مكة، إلا أن معرفتهم الدقيقة لشؤون أبناء وطنهم تساعدهم على ذلك. يضاف إلى ذلك أن لدى هؤلاء ارتباطات مختلفة تسهل لهم حشد أعداد كبيرة من الحجاج.

ويمكن القول: إنه قبل أن يطلب إلى مطوفي الجاوى أن يحصلوا على تصريح بالطوافة «تقرير» لمنطقة خاصة من وطنهم الأم، فقد كان هناك عدد من الجاويين يحملون مثل هذه التصاريح، التي تخولهم بأن يكونوا مطوفين لأبناء بلادهم. وقد عرف هؤلاء كيف يستفيدون تماماً من مواطنيهم بهذا الخصوص.

قد يختلف الوضع الاجتماعي لمرشد الحجاج (المطوف) في مكة اختلافاً كبيراً. فعند الأشراف مثلاً تعدّ هذه المهنة وضيعة، وعند الطبقة الدنيا من المجتمع هي مهنة راقية جداً، وبين هذا وذاك هناك الكثير من الطبقات التي يمكن أن يصنف على أساسها المطوفون. فإذا كان المواطن غنياً، ويمت إلى طبقة اجتماعية عالية، فإنه لا يعاني من صعوبات في الحصول على تصريح بأعمال الطوافة. وإن نجاحه في الحصول على لقب مطوف قد يجلب له النفوذ والاحترام. ولكن إذا لم يلق نجاحاً في مهنته الجديدة، فإن لقب المطوف أو شيخ الحجاج سوف لن يفيده بشيء. إن أبناء الأمراء أو الحكام من أفراد الجاوى، لا يقبلون العمل في منصب الطوافة، كما لا يتباهى رجال العلم بمثل هذه المهنة حتى إذا حصلوا عليها. غير أن الأمر مختلف بالنسبة لعامة الشعب، فالحصول على تصريح بالطوافة أمر مرغوب فيه ومحبب بالنسبة لهؤلاء القادمين من مناطق نائية، والذين لديهم الولع الواضح بالنعوت والألقاب. ونجد ذلك أيضاً لدى من نالوا حظاً وافراً من الثقافة العالية تماماً، كما هو الحال لدى مثقفي جنوب أوروبا، الذين ينظرون إلى مثل هذه الألقاب على أنها مؤشّر كمؤشر لجلب الرزق. فهم يعلمون حقيقة أنها أمور مالية، ومع ذلك ينظرون إليها بوصفها أمراً محبباً إلى النفوس.

لقد دخل أفراد الجالية الجاوية في منافسة مع أهل مكة، لذلك اكتسبوا كثيراً من العادات المكية ـ السيئ منها والحسن ـ ومع ذلك نجد نوعاً من الكراهية لهم من قبل بعض فئات المجتمع المكي، وهذا بالطبع له تأثير سلبي في حكم المكيين عليهم وتقييمهم لهم، ونجد حالياً الكثير من أنواع النقد والتهجم على الضيوف القادمين من الشرق الأقصى.

وعندما تصل إحدى قوافل الجاوى إلى مكة. فإن المرء يسمع في الغالب أطفال الشارع وسائقي البغال يصيحون ساخرين (مالاوي لص، توان سيد). وهذا بطبيعة الحال يسبب الضيق للقادمين الجدد، ويظهر الحقد عليهم، غير أن هؤلاء يتصرفون تجاه ذلك بطريقة سلبية غريبة.

وإذا وصلت القافلة الجاوية فإن المطوفين يحذرون من معهم من حجاج الجاوى، ألاّ يغيب المرشد عن عيونهم في أثناء الطواف حول الكعبة، حتى لا يقعوا في أيدي المتطفلين والمتسكعين. وعلى بالرغم من ذلك، فإن هؤلاء المتطفلين غالباً ما ينجحون في إخراج بعض الحجاج من جماعتهم، حيث يمسكون بالجاوي الجاهل، ويتمتمون وكأنهم يتلون الأدعية، فإذا ما رفض الجاوي ذلك فإنهم يقولون له باللغة الملاوية: إنهم خدم للكعبة، ويؤدون الخدمات بدون مقابل مرضاة لله. فإذا ما انتهت مناسك الطواف، فإنهم يوضحون لفريستهم دون تهديد أن مآله إلى النار إن لم يكافئ المرشد بسخاء. إن أمثال هؤلاء المتطفلين غالباً يدمجون في الدعاء عبارة قسم يتلوها الفريسة بخشوع، بأن يعطي هذا المرشد أربعة دولارات، ثم يهددون هذا المسكين بالوفاء بأول قسم أقسمه أمام الكعبة.

بساطة حجاج الجاوى

يقوم الحاج الجاوي بعد فترة قصيرة من وصوله إلى مكة بشراء حلة مكية، وهذه يرتديها الحاج بعد عودته من مكة دلالة على أداء فريضة الحج. ومن السهل جداً تمييز هؤلاء حتى لو ارتدوا الملابس المكية (العنتاري والجبة والعمامة المكية) ويعرفهم صبيان الحواري بسهولة، حيث يقومون بمتابعتهم، ويتحينون فرصة ينفردون بها بالحاج، وخاصة في إحدى الشوارع غير المأهولة، فينقضون عليه ويمزقون عمامته المكية الجديدة،

ويلوذون بالفرار. وحدث مرة أن اشترى أحد الحجاج الجاويين من سوق الحراج طربوشاً (عمامة) ممزقاً يلبسه أغوات المسجد الحرام في العادة، وهذا النوع من العمائم ملفت للنظر ويختص به هؤلاء دون غيرهم. وقد لبس الحاج هذا الطربوش وسار به في شوارع مكة، وسط سخرية المارة وضحكهم المتواصل. إن هؤلاء الحجاج القادمين من جزر الهند الشرقية والذين لم يروا في حياتهم سوى حقول الأرز والبن، يظهرون من التصرفات، وهم يتجولون خلال حشد المدينة العالمية، المتعدد الألوان والأجناس، ما يحمل المكيين على الاستخفاف بهم، فعلى سبيل المثال إذا تولى أحد المرشدين قيادة نفر منهم، فإنهم يتبعونه في جماعات كل منها اثنا عشر جاوياً. وأما الذين يخرجون للنزهة فقد يكونون في جماعات أيضاً وأحياناً يخرجون فرادى. وإن الناظر إلى هؤلاء بأفواههم الفاغرة، وخطواتهم غير الثابتة، يشعر أن هؤلاء قد فقدوا صوابهم، وسط زحمة المدينة المقدسة. فمثلاً يحدق أحدهم بعيونه المفتوحة في كومة من الحبحب (البطيخ) فينظر إليه البائع الذي يعرف في العادة بعض الكلمات الملاوية وخاصة الأرقام، ويقدم له بطيخة قائلاً له باللغة الملاوية ٥٠ ديواني يا سيدي، إنها جميلة وحلوة المذاق، غير أنه لا ينجح في استخلاص أي صوت من هذا المخلوق المندهش الصامت المحدق الذي لا ينبس ببنت شفة. يمكنك أن تذوق البطيخ قبل الشراء يا سيدي. إلا أن الجاوي يستمر في إخفاء مشاعره ويلوذ بصمته. فيأخذ البائع سكيناً قائلاً: سأقطعها، مؤملاً أن يحظى بكلمة نعم أو لا على الأقل؛ ولأن الجواب لم يصدر عن الجاوي، فقد يعزو البائع ذلك إلى حياء الرجل، الذي يديم التحديق والنظر في كومة البطيخ، فيشق البائع البطيخة ويضع قطعة منها في الفم الفاغر المحدق، فيمضغها الجاوي ويضحك ويمضي إلى حال سبيله دونما كلمة، وما أن يدير ظهره حتى تنطلق بعض التعابير خلفه: لعن الله الجاوي، عد إلى حقلك، الله يلعن أصلك. إن هؤلاء يسيرون ببطء وسط الشوارع المزدحمة دون التفات لكلمات التحذير من سائقي البغال والجمال الذين يرددون كلمات تحذيرية بقصد إبعاد المارة مثل احترس، ظهرك طريق

يا جاوة، طريق يا أمي (لتحذير المرأة) وبعد أن ينفذ صبر هؤلاء يضربونهم على ظهورهم بالعصي قائلين: ابعد يا جاوي يا ملعون.

إن العناصر التقليدية التي تمثل أخلاق الجاوي المعقولة قليلة العدد. لذلك يأخذ عامة الناس انطباعاتهم عن العنصر الملاوي، من خلال الفئات الفقيرة الريفية المقيمة في المدينة المقدسة. وما يعلق بأذهان الناس ليس هو الصورة الحقيقية، وإنما هي أعمال هؤلاء الجاويين وتصرفاتهم في الطرقات، بالإضافة إلى هروبهم وخيانتهم لدائنيهم على النحو الذي وصفناه سابقاً، فعلى الرغم من صلة المودة (العيش والملح) بين هؤلاء المدينين ودائنيهم، إلا أنهم يلوذون بالفرار، تاركين ديونهم دون تسوية، مما يضفي انطباعاً بأنهم لا يلتزمون بالقواعد المرعية، لدى أفراد المجتمع المكي. وعلى العموم فإن انطباع المكيين العام عن هؤلاء هو الشعور ببساطتهم وتواضعهم حينما يفدون حجّاجاً، أما عندما يستقر هؤلاء في مكة، فهناك شعور عام بأنهم سوف يلوذون بالفرار إذا أصبحوا مدينين، غير آبهين بأنواع السباب المختلفة، التي تلحق بهم بعد رحيلهم.

إن تعليقات وأحكام الجمهور الموضوعية منها وغير الموضوعية تجمع على أن العناصر الجاوية كانت مستغلة. ومن بين جميع حجاج العالم، فقد قسم هؤلاء إلى فئات متعدّدة بحسب المناطق التي قدموا منها، ولقد كان للأموال الطائلة التي أخذتها الحكومة من مطوفي الجاوى، حتى قبل وصول هؤلاء الحجاج أثر في استغلال هؤلاء. فالإجراءات التي اتخذتها الحكومة كانت صارمة، وتقضي بتوزيع الحجاج حسب مناطق معينة دونما أخذ رغبات هؤلاء الحجاج، ثم سوق هؤلاء كالقطيع للمطوف الذي حصل على التصريح بالطوافة لمنطقة هؤلاء[1].

---

(١) لقد حدث في فترة حكم الشريف عون (١٢٩٩ ـ ١٣٢٣هـ) أن ألغي جميع ما لدى المطوفين من تقارير (تصاريح) من الأمراء السابقين، وأعاد تقسيم الممالك الإسلامية التي يرد منها الحجاج. وقدر لكل بلد ثمناً. فمن أراد من المطوفين ناحية أو بلداً دفع المبلغ الذي فرض ثمناً لها. وأصبح من يرد من ذلك الإقليم أو البلد أو الناحية ليس له حق الاختيار، =

إن الاستغلال الذي يتعرض له الحجاج يبدأ في جدة، لا بل في جزيرة الحجر الصحي. فالرقابة الجمركية تطلب منهم جميع أنواع الهدايا، وتفرض عليهم الكثير من الغرامات، إذ يجب عليهم أن يدفعوا بدل حمال جواز سفر تركي، وعلى كل فرد أن يدفع مبلغ دولار واحد تبرّعاً لخدمات محطة المياه للمدينة المقدسة وميناثها، بالإضافة إلى أجور الحمالين والنوتية التي يتسلمها وكيل المطوف، الذي يقوم في العادة باستقبال هؤلاء في جدة. وفي العادة يزداد الترحيب من قبل الوكيل بأولئك الذين لديهم المتاع الكثير والذي يدل على شرف المنزلة، وكذلك بأولئك الذين يتوقع منهم الهدايا والأعطيات. وأول ما يبدأ به في العادة هو زيارة قبر حواء، حيث يقوم الوكيل أو ممثل المطوف بقراءة دعاء خاص يردده الحجاج خلفه، وقبل الانصراف يرمي كل واحد بجوار القبر دراهم قليلة، ثم يطلب إلى الحجاج لبس ملابس الإحرام، وعمل النية لأداء فريضة الحج.

حج البدل

ويحضر الحجاج الجاويون معهم رزماً من الأموال، كل رزمة مفردة ومعروف مرسلها والجهة التي ينبغي أن ترسل إليها. فعلى سبيل المثال تجد رزمة نقود بـ ١٠٠ جلدر، يرسلها أحد الآباء الفقراء لابنه المدين في مكة. أو قد تكون هدية لعالم من أحد مريديه. وفي معظم الأحوال تكون بين ٥٠ ـ ١٥٠ جيلدراً. وقد يرسل أحد الورثة مبلغاً من المال خصصه قريبه لأداء حج البدل عنه بعد موته. إن جميع المبالغ السابقة تعرف بالأمانات، إلا أن المال المخصص لأداء الحج عن الغائب يطلق عليه (بدل الحج). وفي العادة يكلف الحاج أحد مواطنيه المعروفين في مكة أو أحد أصدقائه بأداء حج البدل. إن الكثير من المكيين يتطلعون إلى القيام بهذا العمل؛ لأنهم في العادة يحجون باستمرار؛ ولأن الشخص سوف يتقاضى أجراً على ذلك. وإذا ما أنيط ترتيب أمر حج البدل للمطوف، فإنه يطلب من أقربائه القيام

= بل يكون مطوفه القائم على شؤونه من اشترى الناحية التي هو منها. وقد انتهز رؤساء المطوفين، وحاشية الشريف من الكتاب وغيرهم، فرصة هذه العملية واختصوا بمبالغ يفرضونها على من يلتزم بالشراء، فأثروا من ذلك وبنوا الدور والقصور (محمد عمر رفيع، مرجع سابق، ص٢٤٠).

بهذا العمل، وفي المقام الثاني يأتي مساعدوه (صبيانه) وما يتبقى بعد ذلك فإنه يعطيه لأصدقائه. وفي جميع الأحوال لا بد للمطوف أن يقتطع بعض المال لنفسه، ويعطي ما تبقى للآخرين. ويجد بعض ضعفاء النفوس أن هذه وسيلة سهلة لأخذ المال، لدرجة أنهم يتقاضون عن الحجة الواحدة عدة بدلات، كما أن بعض المطوفين ينسون أو يتناسون أن يرتبوا أمر حج البدل لبعض من يأمنهم على ذلك من حجاجهم.

إن المطوف في العادة يضع جميع الاحتياطات لمنع اختلاط الحجاج بغيرهم، فهو يضع سياجاً حصيناً لمنع تسرب الأموال المخصصة للبدل إلى أشخاص آخرين، وكأن لسان حاله يقول: هذا جميل، أدفع ثمناً باهظا للتقرير. كما أدفع جميع المصاريف المتعلقة بمتطلبات الحجاج، وأحصل أخيراً على ما يتبقى بأيدي الحجاج من مال؟ في حين الآخرون (الذين يأخذون البدل من الحجاج) يحصلون على الغنيمة بسهولة! لذلك يبادر المطوف بسؤال الحجاج عن الأموال المخصصة لحج البدل، وما هي قيمتها، وما هو عدد من يراد الحج عنهم، ثم يحث الحجاج على إيداع أموالهم الخاصة بالبدل لديه، لحفظها في مكان أمين؛ لأن اللصوص قد يدهمون القافلة في الطريق، وقد يحدث السطو حتى في المدينة المقدسة، ومثل هذه الأمور تجعل المطوف يحظى بالثقة القلبية من قبل الحجاج. ويقوم المطوف في العادة بالرد على بعض الاستفسارات والاعتراضات التي قد يقوم بها بعض الحجاج. فقد يقول قائل: لقد أرسل البدل الذي بحوزتي إلى شخص معين. فيرد المطوف يمكن ترتيب ذلك بعد الوصول. وقد يسأل آخر أن من أرسل معي المال المخصص لحج البدل لا يعرف شخصاً موثوقاً يقوم بالمهمة، فيعده المطوف بأن يبذل قصارى جهده، لاختيار الشخص المناسب لهذه المهمة. ولا ينسى المطوف في النهاية أن يهدد صغيري العقول من حجاجه إذا ما خالفوا أوامره.

وفي العادة يحصل المطوف على معظم الأموال المخصصة للبدل. كما أنه يوالي جهوده للحصول على ما تبقى منها بعد ذلك. ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يتعداه إلى الحصول على ما لدى هؤلاء من أمانات (هدايا. مبالغ لتسديد

الديون. . . إلخ) لحفظها لديه، فإذا سارت الأمور على ما يرام فإن المرسل إليهم مثل هذه الأمور لا يأخذونها كاملة بل يقتطع المطوف لنفسه بعضاً منها. وعلى العموم هناك طرق مختلفة ومتنوعة يقوم بها بعض ضعفاء النفوس من المطوفين لاستغلال حجاجهم.

ختان حجاج الجاوى

إن عادات الختان معروفة عند سكان الملايو المسلمين وغيرهم، وفي بعض المناطق نجد أن من تحول من هؤلاء إلى الإسلام ما زال يجري عادات الختان وفق طقوس مختلطة من الإسلام والوثنية. وفي كثير من الحالات لا يكون الختان بحسب الأصول الإسلامية المرعية. لذا فإن الكثير من هؤلاء يحاولون عملية الختان ثانية في جدة، الأمر الذي يدر بعض المال على طائفة الحلاقين في المدينة.

سكن الحجاج الجاوى

وفي مكة يخصص المطوف لكل نفر من هؤلاء الحجاج مكاناً للسكن فيه، من حجراته الشاغرة أو من دور أصدقائه. وفيما يتعلق بالطعام والسكن، يعامل الحجاج الجاويون كغيرهم من أفراد الجاليات الأخرى، وقد ذكرنا ذلك في الفصل الأول. إن الفترة التي يقضيها الحجاج بين أداء العمرة، التي تكون في العادة أول ما يقوم به الزائر إلى مكة، وبين أداء فريضة الحج، يتراوح مداها بين بضعة أشهر وبضعة أيام، تبعاً للمدة التي يريد الحاج قضاءها في مكة. وفي خلال هذه الفترة ـ طالت أم قصرت ـ يقوم المكيون بتوعية هؤلاء الحجاج في مختلف مناحي عقيدتهم.

هناك أنماط متعدّدة من السلالات واللغات والعادات بين العشرين مليوناً[1] من المسلمين الذين يستوطنون جزر الهند الشرقية. ومن هذه الأنماط المتعددة نجد أعداداً كبيرة من الحجاج تفد إلى المدينة المقدسة. ولهذا لم يكن قرار تقسيم حجاج الجاوى إلى مناطق معينة اعتباطياً، فالبوغينيزيون

---

(١) يبلغ عدد سكان جزر الهند الشرقية (أندونيسيا وماليزيا) الآن (١٤١٥هـ) قرابة ٢٢٠ مليون وتبلغ نسبة المسلمين في أندونيسيا قرابة ٩١٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٠٠ مليون نسمة أما في ماليزيا فإن نسبة المسلمين تصل إلى ٦٠٪ من مجموع السكان البالغ ٢٠ مليون نسمة.

المشهورون[1] بالأعمال التجارية، قد لا يتلاءمون مثلاً مع الحجاج القادمين من جزيرة جاوة. وما ينطبق على المطوفين يمكن أن ينطبق على أولئك الذين يكسبون عيشهم من عملهم مع الحجاج. فلكل معلوماته الخاصة، ومهاراته التي يمكن استعمالها بنجاح مع فريق خاص من الجاويين دون فريق آخر.

إن معظم الذين يتعاملون مع الجاويين يتكلمون بعض مفردات اللغة الملاوية. إن اللغة الملاوية هي لغة التجارة والعلم ولغة الثقافة بين الكثير من اللغات واللهجات المحلية. وبغض النظر عن جزيرة جاوة، فإن لغة الملايو تسود في مناطق أخرى، مثل بورنيو وملقا، تلك المناطق التي تسهم بنصيب وافر في حركة الحج إلى مكة المكرمة. وفي سومطرة ولا سيما في مقاطعة آشية في الشمال، أو مقاطعة لامبونج في الجنوب، تدرس العلوم الشرعية باللغة العربية، ولا يكون التدريس في الملاوية، إلا إذا كان المتعلمون لا يحسنون إلا اللغة الملاوية، ولم يصل مستواهم في اللغة العربية إلى المستوى المطلوب للدراسة. وفي بتافيا تسود الملاوية أيضاً. وعلى العموم نجد في كل قافلة تفد إلى الديار المقدسة بعض من يتقن اللغة الملاوية. وينطبق هذا القول على معظم حجاج الجاوى، سواء من كانت لغته الأم هي المكاسريشية[2] Makasarish أو البوغينيزية Buginese أو المادوريسية[3] Madurese أو من اللغات واللهجات الأخرى الأقل شهرة في القسم الشرقي من جزر الهند الشرقية. إن كثرة من يعرفون اللغة الملاوية بين صفوف المكيين، تظهر الأهمية الكبرى لهؤلاء، بوصفهم عنصراً مهماً من العناصر الوافدة إلى مكة في مواسم الحج المختلفة، ونجد في اللغة المكية بعض التعابير الملاوية مثل (تروس وبوروم).

(١) البوغينيزيون: إحدى فرق السكان الأندونيسيين، الذين تواجدوا على السواحل الغربية من جزيرة بورنيو وكذلك في بعض مناطق جزيرة سلبيس، ويتكلم هؤلاء لغة خاصة بهم تعرف باسم البوغينيزية.

(٢) المكاسريشية: هي إحدى اللغات التي يتكلم بها بعض القبائل الأندونيسية التي تعيش في جزيرة سلبيس ويعرفون باسم المكاسريشيون.

(٣) المادوريسية: وهي اللغة التي تسود في جزيرة مادورة، والمناطق الواقعة شرقي جزيرة جاوة، ويطلق على المتكلمين بها اسم المادوريسيون.

إن تعبير بابور تروس يعني في العامية المكية سفينة بخارية تسير رأساً من جدة إلى باتافيا. كما أن تعبير ريال بوروم تعني دولاراً مكسيكياً. إن الأعداد باللغة الملاوية وبعض التعبيرات القصيرة يتقنها أبناء الشارع المكي جميعاً. فعندما تنتهي صلاة المغرب في المسجد الحرام، ويخرج المصلون من الأبواب الرئيسة للحرم، يسمع الإنسان أصوات التجار يقومون بترجمة النداءات العربية إلى اللغة الملاوية. فبدلاً من كلمة حار يا عيش أو سكر يا بطيخ نجد هؤلاء يطلقون نداءاتهم بترجمة هذه التعابير إلى اللغة الملاوية، مما يدلل على أهمية العنصر الجاوي في المدينة المقدسة.

إن مثل هذه المعرفة السطحية بلغة الملايو، لا تساعد أكثر من التعامل مع هؤلاء في الأسواق. إلا أن تكوين علاقات قوية مع هؤلاء الحجاج، يحتاج إلى معرفة وثيقة بلغتهم الأم أو وجود وسيط يتقن الملاوية ليقوم بدور الترجمة، وعلى أي حال لا يستطيع المرء كسب ثقة هؤلاء، إلا إذا اتقن معرفة اللغة الملاوية الأصلية، لا اللغة الملاوية الشعبية، التي يتكلم بها من هم خارج الملايو. غير أن المكيين لا يقتصر إلمامهم على الملاوية، بل يتعداه إلى لهجات أخرى، فعلى سبيل المثال نجد المكيين يعرفون لغة سكان أواسط جزيرة سومطرة. الذين لهم لهجة خاصة غريبة. وباختصار نجد من النادر أن تكون هناك لهجة يتكلم بها سكان جزر الهند الشرقية لا يتقنها أهل مكة، وخاصة المطوفين ومساعديهم وأصحاب البيوت والزمازمة وغيرهم. إن المكيين لهم نفوذ كبير في جزر الهند الشرقية، فقد استقر بعضهم في تلك الربوع بقصد التجارة فترات طويلة، ورحل بعضهم الآخر إلى تلك البلاد بقصد الزيارة. وربما تجد من هؤلاء من تزوج من نساء هذه الديار. وإذا استثنينا ذلك كله نجد أن بعض المكيين يتعلم لغة هؤلاء من أجل أن يستفيد منها في التخاطب معهم. وذلك بالعمل دليلاً أو مترجماً. إن كثيراً من أفراد الجاوى المولودين في مكة يتقنون اللغة الآشية واللمبونجية[١]

(١) اللمبونجية: هي اللغة السائدة في إحدى مناطق جزر سومطرة وهي منطقة لامبونج.

والصندانيسية[1] والجاوية (السائدة في بعض مناطق جزيرة جاوة) والمادوريسية والبوغينزية كلغتهم الأم (العربية) ويستعملونها في تعاملهم التجاري على أنها ناحية نفسية يتقربون بها إلى هؤلاء القادمين من جزر الهند الشرقية في مكان تشتد فيه المنافسة حول هؤلاء القادمين.

لقد أشرنا في فصل سابق إلى الطبيعة العلمية لدراسة الجغرافيا في مكة. فالعالم بالنسبة إلى المكيين ينقسم إلى مناطق مختلفة، ترتبط بعائدات الحج ومتطلباته. فهناك من المكيين من يعرف الكثير من أسماء المقاطعات والمراكز الإدارية والمدن في أرخبيل الملايو، أكثر مما يعرفه تلاميذ المدارس في هولندا. غير أن هؤلاء لا يعرفون بالطبع أين تقع هذه المناطق على خريطة العالم. إن السكان في جدة يعرفون أن السفن التي تتجه إلى أرخبيل الملايو تسير باتجاه الجنوب، أما من سافر إلى تلك الديار فيعرف بالطبع أبعادها بعضها عن بعض، كما يعرف المسافة بينها وبين جدة. وفي الآونة الأخيرة زادت معارف المكيين وخبراتهم عن مناطق جديدة خاصة بعد تنظيم عملية الطوافة تبعاً للمقاطعات الرئيسة المختلفة. وخلال عمليات التحضير للوائح الجديدة كانت تدور مناقشات طريفة. فقد حدثت مشادة قوية بين مطوفين من مطوفي الجاوى حول مقاطعة كروى Kroe في سومطرة، أهي تابعة لمنطقة بنكولين Benkulen أم لمنطقة لامبونج Lampong؟ والخلاف بالطبع على الحجاج القادمين من تلك المقاطعة، ولمن سوف يتبعون. والواقع أن كلا الطرفين كانا على صواب، فالمقاطعة المذكورة آنفاً من الناحية الأثنوغرافية (العرقية) تتبع لامبونج، غير أن الإدارة الهولندية ضمتها إلى بنكولين. إن الفصل في مثل هذه الخلافات سيؤول إلى شيخ المطوفين، الذي ليست لديه المعرفة التامة بمثل هذه الموضوعات، والذي سوف يصدر حكماً عشوائياً بهذا الخصوص.

وفي مناسبة أخرى خصص شيخ مشايخ الجاوى منطقة إلى أحد المطوفين، وهذه المنطقة يفد منها إلى مكة الكثير من البوغنيز المهاجرين،

(١) الصندانيسية: هي اللغة التي يتكلم بها مجموعة من السكان يعيشون في غرب جزيرة جاوة.

على الرغم من أن هذه المنطقة ليست من أملاك البوغنيز، ثم خصص لمطوف آخر البوغنيز الأصليين ـ غير المهاجرين من أبناء هذه المنطقة، وحينما اشتكى المطوف الأول قائلاً: إنه سوف لن يبقى له سوى السكان الوثنيين، أجابه شيخ الطائفة: إذا أراد الله سوف يتحول هؤلاء إلى الإسلام ويفدون إليك. والواقع، لقد كان المطوف ليس له نفوذ وإلا لما تجاهله شيخ المطوفين الجاوى. وعلى أثر ذلك حصل اتفاق بين المطوفين وشيخ الطائفة أن تضاف في التصريح عبارة تتضمن اسم المنطقة، بالإضافة إلى المواطنين الآخرين الذين ينتمون للمنطقة، نفسها، ولو أنهم من أجناس أخرى، بمعنى أن التصريح يكون لعموم سكان المنطقة، أصليين ومهاجرين.

تحريف الأسماء الجاوية

إن العرب المحدثين ليسوا بأقل من العرب الأقدمين في تصحيف الأسماء الجغرافية الأجنبية، فآتشه تصبح آشي وبادانج تصبح فادن، ولمبونج تصبح لمفون ودلي تصبح دلّي ولانجكات تصبح لنكات وبالمبانج تصبح فلمبان.

إن معرفة أسماء المقاطعات في مكة يعتمد اعتماداً كبيراً على القادمين من هذه المقاطعات. فعلى سبيل المثال مقاطعة راو الواقعة في منتصف جزيرة سومطرة أكثر شهرة من أي منطقة أخرى ذات أهمية بالغة لكن لا يفد منها حجاج كثيرون.

الاسم الجاوي مرتبط بالمكان الذي قدم منه

إن الأفراد في مكة يعرفون بأسماء مقاطعاتهم حيث ينسبون إليها فيقال: فلمباني فادني. وقد يضيف كلمة جاوى إلى ذلك حيث يقول: جاوى فونتيانا (جماعة من بونتياناك)، وكذلك جاوى سامباس، أو جاوى مارتاقورا (مارتابورا). ومن جزيرة بورنيو جاوى ماندورا، جاوى باويان، جاوى سمباوا، جاوى ميكاسار. والبوغنيز في الغالب يطلق عليهم اسم بوقس.

إن الجاوى المستقرين في مكة يعرفون بأسمائهم الأولى مع أسماء بلادهم دونما نسبة، فمثلاً تجد أسماء مثل عبد القادر كرنجي (من كرنتجي سومطرة) وحسن لمفون (من مقاطعة لامبونج) وأحمد بنتن وهلم جرا.

إن الولايات المتحضرة معروفة في مكة أكثر من غيرها؛ لأن الولايات الأخرى التي تبعث بعدد قليل من الحجاج غير المتعلمين لا يثيرون اهتمام

المكيين إلا في حدود ضيقة، ثم إن هؤلاء لا يستقر بعضهم في مكة. إن أجزاء جزيرة جاوة المختلفة معروفة جيداً لدى المكيين، وتسمع في غير موسم الحج الكثير من المناقشات عن كرم الحجاج وثرائهم الذين يفدون من هذه المنطقة أو تلك. أو تسمع تقديرات عن العدد المتوقع من الحجاج في موسم الحج المقبل. وفي العادة يقوم أهل مكة أو بعض ممثليهم في جزر الهند الشرقية بزيارات مختلفة لمناطق الجاوى، بهدف زيادة الأعداد التي تفد إلى الديار المقدسة، فإذا حالفهم الحظ فيرجعون بأعداد كبيرة من الحجاج.

إن الجاويين في مكة ينقسمون بحسب الولايات التي يفدون منها، وكذلك بحسب لهجاتهم الخاصة، فالقادمون من بتافيا والذين يتكلمون بعض اللهجات الملاوية يعرفون باسم (بتاويين)، أما سكان غرب جاوة الذين لم تختلط عقائدهم بالعادات الموروثة من حضاراتهم القديمة، يعرفون باسم (السوندا)؛ لأن لهجتهم تعرف باللهجة السندانية Sundanese. أما سكان جزيرة جاوة الأصليون الذين طبعت حياتهم بطابع وتقاليد إمبراطوريتهم القديمة (الإمبراطورية الماتارامية) وتقاليدها فيعرفون باسم غريب (مريكي Meriki). ومعنى مريكي بلغة جزيرة جاوة (تعال إلى هنا) في حين يطلق على هؤلاء باللغة الملاوية اسم ماري Mari وهي معروفة لكل مكي تقريباً.

وقبل الحج يقسم الجاويون إلى جماعات مختلفة بحسب مناطقهم، حيث يوزعون على المطوفين الخاصين بهم. وفي هذه الأثناء يقومون بزيارة بعض المناطق التاريخية مثل مقبرة المعلا أو يدخلون الكعبة حينما تفتح أبوابها في إحدى المناسبات، أو غير ذلك من الأماكن التاريخية التي يتجمع بجوارها الكثير من المتسولين الذين يطمعون بأعطيات هؤلاء، غير أن مرشدي هؤلاء ومرافقيهم يحاولون ما أمكن إبعاد هؤلاء عن حجاجهم. إن معظم أفراد الجاوى وسط هذا الحشد الإسلامي الضخم في مكة، يبدون الكثير من التواضع الجم، الذي قد يؤدي إلى إساءة فهمهم وربما إلى إساءة معاملتهم، فهم يوزعون بين المطوفين دونما تبصر، ولا يؤخذ رأيهم في ذلك. إن هؤلاء الحجاج يسلمون أمرهم كلية إلى المطوفين. ولسان حالهم

يقول: أليس هؤلاء المطوفون هم مشايخ في هذا البلد المقدس الذي تهفو إليه الأسماع؟ ولا يتردد بعض الحكام الجاويين وأبناء الأمراء أن يقبلوا أيادي أي خادم عربي، وهم لا يفعلون ذلك لأن مثل هؤلاء الناس أرفع منهم مقاماً، ولكن احتراماً لتلك البلاد الطاهرة التي يوجدون على أرضها. غير أن هؤلاء حينما يستقرون في مكة فترة ما يقلعون عن مثل هذه العادات، التي قد تضر بسمعتهم الوطنية.

إن هؤلاء الوافدين ينظرون إلى وطنهم نظرة أقل سمواً من النظرة التي ينظرونها إلى البلد المقدس، فأنماط الحياة المكية تقوي في نفوسهم الروابط الإيمانية، في حين لا يجدون في بلدهم سوى مظاهر الوثنية، وتبدو أمام ناظريهم الجوانب المظلمة لظروف وطنهم مقارنة مع الجانب المضيء للحياة المكية. إن هؤلاء على استعداد للتضحية بشعورهم الوطني، والابتعاد عن عاداتهم المحلية، من أجل زيادة الوعي والتضامن مع الإمبراطورية الإسلامية العظيمة.

وإذ استقر هؤلاء في مكة يندمجون مع الحياة المكية، ويصبحون أعضاء في المجتمع المكي، غير أن ذلك لا يخفف من غلوائهم تجاه موطنهم الأصلي. إذ تستمر النظرة الدنيا للوطن الأم، أمام الحياة التي يحيونها، على الرغم من أنهم لا يكونون على قدم المساواة مع أفراد المجتمع المكي، إلا إذا تنصلوا كلية من الآثار التي تربطهم بأصولهم الأولى.

يقوم الحجاج الجاويون بالاغتسال من ماء زمزم، وكأنهم يتطهرون من رجس جو الملايو وأرضها. ويكون ذلك بصب الماء المبارك عليهم. إن الذي يقوم بالعملية هو أحد الزمازمة، الذي قد يأخذ نظير ذلك مبلغاً من المال. ولما كان الجاويون يغتسلون بماء زمزم ثلاث مرات: الأولى عند قدومهم، والثانية عند ذهابهم إلى المدينة، والثالثة عند مغادرتهم؛ لذا فإن الزمزمي يتقاضى أجره ثلاث مرات متتالية، ولا ينسى الزمزمي أن يحث الحاج بالتبرع لشراء بعض الدوارق، أو لشراء حصيرة يفرشها الزمزمي للقادمين إلى الحرم لأداء الصلوات.

خرافات في جبل أبي قبيس

وهناك جبل مقدس[1] يزوره معظم الحجاج هو جبل أبي قبيس، وترجع هذه القدسية إلى أيام الجاهلية. ويعدّ هذا الجبل أحد مظاهر القداسة التي لم يتمكن الإسلام من اقتلاعها ومحوها من بين صفوف المسلمين، فقد هيئ لهذا الجبل جميع أنواع الخرافات التي تفرض على الحجاج وجوب زيارة هذا المرتفع، علماً بأن هذه الخرافات الموروثة تزداد بشكل متواصل في هذه الأيام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م)، ففي الزاوية الشمالية من جبل أبي قبيس مسجد صغير يشاهد فيه تكوينات صخرية، لها لون شبيه بلون الحجر الأسود، وعلى هذا تقول الأسطورة: بأن الحجر الأسود قد اقتلع من هذا المكان، أو الحجر حفظ في هذا المكان، عند حدوث الفيضانات. لهذا يطلب إلى الحجاج تقبيل هذا الأثر والصلاة ركعتين بجواره. وفي زاوية أخرى بارزة من الجبل وقف سيدنا إبراهيم عليه السلام، بعد أن انتهى من بناء الكعبة، ليؤذن في الناس بالحج، وتوجد هنا بقعة مغطاة بالرمل الأبيض، حيث يقف الحجاج يتلون بعض الأدعية، ويصرخون بأسماء أصدقائهم وأقربائهم وكل عزيز عليهم في الوطن الأم. فإذا استجاب الله لهذه النداءات الصادرة عن هذه الأراضي الطاهرة، فإن الأشخاص المنادى عليهم سيحضرون لأداء فريضة الحج في يوم من الأيام.

وأخيراً هناك حفرة مستطيلة مبنية بمستوى سطح الأرض قال عنها الإمام قطب الدين[2] «وفي أعلى الجبل (أبي قبيس) يوجد صهريج يزوره الناس على اساس أنه قبر آدم عليه السلام غير أن ذلك هو عبارة عن خزان حفر في العهود القديمة، لحفظ الماء حينما كانت هناك قلعة على قمة هذا الجبل. ويزعم بعض العامة أن أي إنسان يأكل رأس خروف في يوم السبت، على قمة

(١) لا يعترف الإسلام بالقدسية لمثل هذه المواضع فقد عدّ مظاهر التقديس هذه من الشرك. غير أن الناس قد استغلوا الكثير من الخرافات والأساطير التاريخية، وأوهموا الناس أنها من جملة الشعائر الدينية، والأماكن التي يجب زيارتها، والهدف هو استغلال السفهاء والجهلة من عامة المسلمين.

(٢) تاريخ القطبي المسمى «كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة» للعلامة قطب الدين الحنفي منشورات المكتبة العلمية بمكة ص٣٥٩.

جبل أبي قبيس، فإنه سوف لا يصاب بالصداع طوال حياته. لذلك يحتشد الناس على الجبل كل سبت صباحاً ليتناولوا هذه الوجبة».

وبعد أن كتب مؤرخ مكة هذه العبارة، أصبح الخزان هو المكان الذي استقرت عليه سفينة نوح، كما أصبح المكان المفضل لأكل رؤوس الخراف. ولقد عملت في الجبل بعض الدرجات المنحوتة بطريقة بدائية، لتوفر وسيلة سهلة لارتقاء الجبل. وتفرش كل جماعة لها حصيرة، ثم تقوم بتناول هذه الوجبات، التي لم تقتصر على أيام السبت بل تعدته إلى مختلف أيام الأسبوع. لقد كان الجاوى هم أكثر الناس إقبالاً على مثل هذه الأعمال، وكان من الطبيعي أن تفرض أثمان باهظة لرؤوس الخراف هذه[1].

خرافات على جبل النور

ومثال آخر عن بعض عادات الجاوى الجهلاء، في شمال شرقي مكة يقع جبل مخروطي يدعى بجبل حراء ويطلق عليه أيضاً اسم (جبل النور)، وقد حدثت أحداث على هذا الجبل منها:

١ ـ رأى محمد ﷺ طيف جبريل أول مرة على هذا الجبل حينما أوحي إليه القرآن.

٢ ـ كان هذا الجبل ملجأ للنبي ﷺ عندما كان أعداؤه يتعقبونه[2].

٣ ـ إن هذا الجبل حذر الرسول ﷺ من عدوه القريب منه[3].

وهناك أمور أخرى تلصق بهذا الجبل، منها أنه في هذا المكان أخذ ملكان قلب النبي ﷺ من جسده. وبعد غسله في طبق ذهبي أعاداه إلى مكانه مرة أخرى[4]. ويقوم بعض الفضوليين بإقامة حفل سخيف يقصدون

---

(١) في تقويم الحكومة الحجازية لعام ١٣٠٣هـ نطالع صفحة ١٥٥ أن القزويني ذكر في كتابه عجائب المخلوقات أن من بين خصائص جبل أبي قبيس أن من يأكل عليه لحم رأس مشوي لا يصاب بالصداع. وقد انتشرت هذه العادة بين جماعات الحجاج، وبخاصة الحجاج الجاوى (المؤلف).

(٢) لقد جانب المؤلف الصواب، فالجبل الذي التجأ إليه الرسول وصاحبه كان جبل ثور لا حراء.

(٣) ليس هناك من دليل على صدق هذه الرواية، وهي من الخرافات التي لا أساس لها من الصحة.

(٤) إن حادثة شق صدر الرسول المروية في كتب السيرة كانت في بني سعد، حينما كان الرسول ﷺ برعاية السيدة حليمة السعدية.

من ورائه الحصول على بعض المال. ذلك هو عملية تطهير القلب على غرار ما حصل للرسول الكريم. ويكون ذلك بأن يضع الفرد الفضولي قليلاً من التمر على صدر المراد تطهيره ثم يغطيها برغيف رقيق مستدير. ثم يقوم هذا الفضولي بقطع الرغيف إلى نصفين بعد أن يتمتم: «بسم الله الرحمن الرحيم». والتمر في هذه الخرافة يشير إلى القلب، وهذا يعني محاكاة ما حدث للرسول الكريم، دون تمزيق لقلوبهم ولا لأجسادهم. ويتقاضى أمثال هؤلاء المحترفين في العادة الخبز والتمر بالإضافة إلى بعض النقود، نظير قيامهم بهذه المهمة. ومن المهم أن أعداداً كبيرة من الجاويين تنطلي عليهم مثل هذه الحيل الخادعة، في حين يتجنبها بعضهم الآخر.

عادة تغيير الأسماء

إن إبدال وتغيير الأسماء الأصلية وتغييرها إلى أسماء أخرى سمة بارزة بين أفراد الجالية الجاوية القادمة إلى مكة. ذلك أن الغرباء الذين يستقرون في مكة يجب أن يغيروا أسماءهم التي لا يتسنى للشفاه العربية نطقها. وعلى أي حال فإن جميع الجاويين يتخذون أسماء عربية في مكة، سواء من قدم للحج فقط أو من أراد البقاء نهائياً في المدينة المقدسة. وربما يعزىٰ ذلك إلى عادات وطنية، تقضي بتغيير الأسماء في فترات معينة من حياة المرء، كالزواج أو الالتحاق بوظيفة معينة. لقد استفاد المكيون من هذه العادة وشجعوا عليها، وخصصوا أشخاصاً معينين، يقومون بتغيير الأسماء لهؤلاء لقاء مبالغ مالية معينة.

إن مهمة تغيير أسماء الجاوى كانت منذ مدة طويلة بأيدي ثلاثة أشخاص: مفتي الشافعية، ومن يحمل هذه المنصب يعدّ في نظر أفراد الجاوى أعلى سلطة دينية. ثم إمام الحرم الذي يتعلم الجاويون على يديه قراءة الفاتحة وتجويدها، ثم الريس (رئيس المؤذنين، وفلكي المسجد) الذي يقوم بالأذان من فوق المبنى الذي يعلو بئر زمزم (مقام الشافعي). إن هؤلاء الثلاثة ومن يخلفهم من أبنائهم يدعون أن لهم الحق في دعوة أفراد الجالية الجاوية إلى منازلهم بدعوى تغيير أسمائهم. وهؤلاء يعطون الشخص الذي يغير اسمه وثيقة موقعة منهم مفادها أن الحاج فلان من مقاطعة كذا، قد غير اسمه إلى كذا، وسيحمل هذا الاسم في المستقبل. إن مفتي

الشافعية لديه أوراق مطبوعة بهذا الخصوص، ولا تحتاج إلا إلى وضع الاسم القديم والاسم الجديد. وإن اختيار الاسم الجديد يعتمد على ذوق الفرد، وغالباً ما يكون الاسم أحد الأسماء الإسلامية التقليدية مثل محمد، أحمد، علي، حسن، حسين، أبو بكر، عمر، عبد الله... إلخ. ولأفراد الجاوى ولع خاص بأسماء رجال العلم المسلمين مثل الشافعي، رفاعي، نووي، سنوسي، غزالي، شربيني وغيره.

إن تغيير الأسماء التي أعطيت عند الميلاد، والتي تعود إلى لغة الوطن الأم، أو تلك الأسماء التي إذا نطقت بألفاظها، كان لها معان قبيحة في اللغة العربية أمر مقبول. غير أن الأمر تعدى ذلك إلى أن الأشخاص الذين أعطاهم آباؤهم أسماء عربية كأحمد مثلاً، كانوا يغيرون أسماءهم إلى غزالي أو نحوه، لا بل وصل الأمر ببعضهم أن يقوم بتغيير اسمه الجديد الذي حصل عليه في مكة، حين يقوم بزيارة المدينة. ولما كان مثل هذا العمل قد تحول إلى تجارة، لذا طلبت الحكومة ممن يقومون بتغيير الأسماء، أن يحصلوا على تصريح بذلك، نظير مبلغ من المال. ويوجد إشاعة مفادها أن السلطات ستوزع على هؤلاء الثلاثة استمارات مطبوعة وتحاسبهم عن كل استمارة يستعملونها في تغيير الأسماء.

كنت مرة في زيارة لمفتي الشافعية[1] عندما قدم إليه جماعة من حجاج الجاوى، يريدون تغيير أسمائهم. لقد أتوا بصحبة مطوفهم، الذي يحدد في العادة الشخص الذي يتولى التسمية. ويتقاضى على ذلك بعض المال منه، إن لمفتي الشافعية مزايا كثيرة ونفوذاً واسعاً بين صفوف الجاوى، لا يتمتع به نظيراه في العمل الشيخ أحمد فقيه[2] إمام الحرم، والشيخ علي الريس

---

(١) كان مفتي الشافعية في مكة في هذه الفترة هو السيد أحمد زيني دحلان.

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن جعفر فقيه الشافعية المكي الخطيب الإمام بالمسجد الحرام، ولد بمكة سنة ١٢٧٣ هـ ونشأ بها وحفظ القرآن وأحسن تجويده وصلى به التراويح بالمسجد الحرام واشتغل بالعلم وكان ميالاً للأدب من نظم ونثر ولم تذكر سنة وفاته (انظر نشر النور والزهر ج١ ص٧٦).

كبير المؤذنين[1]. ولهذا فإن المطوف في العادة يحصل على نصيب أكبر من أحمد فقيه وعلي الريس قد يصل إلى نصف المبلغ الذي يحصلون عليه نظير التسمية. لقد كان عدد الجاوى الذين قدموا إلى الشيخ: ثلاثة عشر رجلاً. وكانوا من مقاطعة كديري من جزيرة جاوة. وقد دخلوا على الغرفة الصغيرة، حيث كنت جالساً بجوار المفتي على كنبة (كرويتة) وقد وقف هؤلاء بالقرب من الباب، وجعل المطوف ينادي عليهم واحداً بعد الآخر، ليتقدموا إلى المفتي بتواضع واحترام، حيث لا يجسرون على رفع أعينهم إليه، ثم يقومون بتقبيل يد الرجل المسن. فيأخذ كلا منهم بيده ويلقنه الشهادتين ويسأله عن اسمه فيجيب. وعندما يكون الحاج لا يتقن العربية، يتولى المطوف الرد على ذلك. ولما كانت الأسماء جاوية في نطقها، فإن الشيخ قد لا يتقن كتابة بعضها. وقد صدف أن كان أحد الأسماء هو عبد مناف (التي تعني الإله مناف) تساءل المفتي فيما إذا كان الاسم عبد المنان، لكن الجواب كان عبد مناف، وليس عبد المنان فقال المفتي: لقد ارتكب الأب إثماً نتيجة لجهله.

وفي خلال عشر دقائق سمي هؤلاء بأسماء جديدة، ثم استأذن هؤلاء بالانصراف، وقام كل منهم بتوديع الشيخ، وتقبيل يده، وفي طريقه إلى الباب كان يضع دولاراً تحت المنديل أمام الشيخ. ولقد تظاهر المطوف بمغادرة المكان مع حجاجه، إلا أن المفتي ناداه وقال له: لقد علمت أن خمسة وعشرين حاجاً قد قدموا من كديري. والله يا شيخ يمكن أن يكون ذلك، فربما الاثنا عشر الآخرون، قد أعطوا لمطوفين آخرين. والله العظيم لم أستلم سوى هؤلاء الثلاثة عشر رجلاً! فأجاب الشيخ حسناً خذ هذا، ونقد المطوف دولارين من الثلاثة عشر دولاراً التي تحت المنديل، فما كان من المطوف إلا أن أخذ المبلغ قائلاً: الله يجزيك خيراً.

---

(١) علي بن عبد السلام الزمزمي الريس، رئيس المؤذنين على قبة بئر زمزم، الشافعي المكي العالم الفاضل. ذكر صاحب نشر النور والزهر تاريخ وفاته خطأ إذ قال: إنها وقعت سنة ١١٥٢هـ. وهذا ليس بصحيح (المرجع السابق ج٢ ص٣٠٩).

لقد بقي من الأعمال التي يقوم بها أفراد الجاوى، والتي تستحق الذكر، عدا الأعمال التقليدية التي يقومون بها، وهي أداء مناسك الحج، والطواف حول الكعبة، والصلاة جماعة في الحرم، ثلاثة أمور تجدر الإشارة إليها. وهذه الأمور تنطبق على الحجاج الذين يفدون إلى مكة قبيل حلول شهر رمضان أو بعده بقليل. أو على الذين يبقون في مكة فترة طويلة بعد أداء مناسك الحج.

تعلم المناسك

إن الذين يصلون إلى مكة قبل موسم الحج، يطلب إليهم ـ المطوف أو المرشد الذي يرافقهم أن يتعرفوا على كيفية أداء المناسك، من خلال قراءتهم لإحدى كتب المناسك المكتوبة باللغة الملاوية، أو بأي لغة أخرى يفهمونها؛ لأن الغالبية العظمى من هؤلاء الحجاج لا يعرفون الخطوات العملية لمناسك الحج والعمرة. فكثير من الحجاج يعودون إلى بلادهم دون أن يعرفوا كافة التفصيلات المتعلقة بذلك. لذلك يحث المكيون هؤلاء على إعادة هذه الأمور واستظهارها، وخاصة الأمور المتعلقة بالصلاة، والتي لا يعرفها بعض هؤلاء. لكن من يستطيع أن يوضح معاني كافة الترتيبات ـ ولو بصورة عاجلة ـ في مثل هذه الأوقات الحرجة؟ متى يدرك هؤلاء أيضاً أن زيارة الأضرحة والبيوت التذكارية ودخول الكعبة والاستحمام بماء زمزم وغير ذلك من الأعمال ليست من شعائر الحج؟

إن كثيراً من الحجاج ينالهم من هذه المجهودات التي يبذلونها في مثل هذه الأمور الكثير من الجوع والعطش، وسط هذا الحشد الصاخب المزدحم الكثير الجلبة والضوضاء.

قراءة القرآن

إن الفائدة الثانية التي يجنيها أولئك الذين يصلون إلى مكة قبل موسم الحج بوقت كاف، هي تحسين مستوى هؤلاء في قراءة القرآن وتجويدها. إن قراءة القرآن حسب أحكام التجويد من الأمور الصعبة على الشفاه الملاوية. يضاف إلى ذلك أنه لا يوجد في الوطن الأم المدرسون الأكفاء لهذه المهمة. غير أنه من الصعب إنجاز هذه المهمة في بضعة أسابيع. إلا أن هذا الوقت القصير قد يكون كافياً لتعلم قراءة الفاتحة حسب أصول التجويد.

إن المدرسين يتقاضون أجوراً على ما يبذلونه من جهد في عملية التعليم. إن المتخصصين في أحكام الشريعة الإسلامية لا يرون بأساً في أن يتقاضى المدرس أجراً على تعليم القرآن، أو على قراءته، وأمثال هؤلاء في مكة يقومون بالتدريس باستمرار. وهناك الكثير من المدرسين الذين تخصصوا في تعليم أبناء الجالية الجاوية، الذين تأخروا عن العودة إلى بلادهم، بعد موسم الحج. إن من يحالفهم الحظ قد يكملون جزءًا من القرآن، أو على الأقل مجموعة من السور القصيرة. أما الآخرون فيتقنون سورة الفاتحة حيث يأخذ هؤلاء كل صباح درساً مدة تقارب الساعة. إن من بين المدرسين ذائعي الصيت السيد أحمد فقيه المذكور آنفاً. وفي العادة يترك التلاميذ الدراسة بعد انتهاء سورة الفاتحة، حيث تكون الفرصة مناسبة لالتحاق أعداد آخرين. وفي العادة يتقاضى الشيخ بعض الهدايا نظير ذلك العمل.

أما الأمر الأخير الذي يقوم به حجاج الجاوى فيما تبقى لهم من وقت، هو الالتحاق بإحدى الطرق الصوفية. إن الالتحاق بهذه الطرق يقتضي شيئاً من الأوراد والذكر وبعض الأعمال الجماعية، وبعض اللقاءات مع الشيخ (التوجه). والمعلومات التي يحصل عليها المتعلم في المراحل السابقة ضرورية من أجل مبايعة الشيخ على الطاعة. إن الشيخ خليل باشا (القادم من داغستان) وكذلك سليمان أفندي، لهم الكثير من المريدين من أرخبيل الملايو. إن من لم يأخذ الطريقة على أيدي أحد هؤلاء، قد يأخذها من ممثليهم في جزر الهند الشرقية. إن الطريقة النقشبندية تنقسم في كل من غرب جاوة وسومطرة وجنوب بورنيو إلى ثلاثة فروع تبعاً لمشايخها في مكة. وبالإضافة إلى ذلك هناك في الشرق والجنوب بعض أنصار هذه الطرق، وقد قيل: إن هذه الطرق تنتشر أيضاً في منطقة المضائق الإنكليزية (مضيق ملقا وعبر شبه جزيرة الملايو) حيث يتجمع عدد من الأشخاص الذين طردوا من المستعمرات الهولندية، أو الذين لا يستطيعون الدخول نتيجة لقوانين الهجرة الصارمة المطبقة على القادمين من المشرق العربي، أو أولئك الذين يتوقفون في هذه المناطق في طريقهم من مكة إلى جزر الهند الشرقية. إن هذه المناطق لها أهمية كبرى في إذكاء الحركات الدينية في

جزر الهند الشرقية. وهذه ليست تعليمات دينية بقدر ما هي حروب ضدنا (نحن الهولنديين)، ويجب أن نأخذ من الحرب الآشية درساً نعيه جيداً.

إن الكثير من أفراد الجاوى المنتمين للحركات الصوفية، وخاصة أولئك القادمين من جزيرة جاوة، أو القاطنين في مكة، يفضلون العودة إلى حياتهم في الريف، حيث يعملون رؤساء روحيين لهذه الطرق في بلادهم. إن سليمان وخليل كان لهم عدد من المساعدين من أفراد الجاوى، الذين يقومون بنشر هذه الطريقة. وكانت لهؤلاء المساعدين سلطات واسعة في إصدار الأوامر التي تخص هذه الطريقة. ويشعر الجاويون بالارتياح التام لهؤلاء المساعدين الذين يتكلمون لغتهم الأصلية. وقد كانت مكة على نحو ما سنذكر لاحقاً هي الممول الرئيس لهؤلاء.

إن موسم الحج الأكبر يدوم حوالي ستة أيام. فالرحلة من مكة إلى منى تحتاج ما يقرب من ساعتين، ومن هناك إلى عرفات، يحتاج حوالي أربع ساعات. بشرط أن تكون شروط السفر مواتية، وفي الغالب هناك الكثير من الارتباكات، التي تحدث نتيجة فوضى الذهاب والإياب غير المنتظم، يضاف إلى ذلك أن الحجاج لم يكونوا قد اعتادوا على ملابس الإحرام. وفي العادة يدفع الحجاج الجاوى أجوراً مرتفعة عن الجمال التي تحملهم وأمتعتهم إلى وادي منى وسهل عرفات المقدسين. وكذلك يدفعون ثمن الطعام والشراب، بالإضافة إلى جزء من إيجار الخيم، التي تقام في هذين الموضعين. وفي العادة يطلب من الحجاج أن يقوموا بذبح هديهم وأضحياتهم في منى، كما يطالبون بالذبح أيضاً إذا حصلت منهم بعض الأخطاء في أثناء الحج. وقد يطلب إلى هؤلاء ذبح بعض الحيوانات عن أقربائهم وأصدقائهم كالعقائق التي لم تؤد في حينها. وقد يقوم الحجاج بدفع أثمان الأضاحي إلى المطوف الذي يقوم بشرائها لهم، غير أن بعض ضعفاء النفوس يقتطع بعض المال منها أو يقوم بذبح عدد أقل من عدد الحجاج. إن جلود الأضاحي في منى كثيرة جداً، ولا يجوز بيعها بموجب الشرع الحنيف. غير أن هذه الجلود تشكل مادة للتصدير إلى أوروبا.

إن ما سبق ذكره يكفي ليتمكن القارئ المتدبر من تكوين فكرة عن أهمية الحج للحياة الدينية في أراضي الهند الشرقية. وهذا ينطبق بصورة خاصة على القادمين لفترة وجيزة لأعمال الحج فقط. غير أنه لا يجوز أن نطلق أحكاماً عامة في هذا المجال. إن هذه الأمور التي تحدث للحجاج معروفة لدى خبرائنا (الهولنديين) بشؤون جزر الهند الشرقية، كما أنها معروفة للجميع.

الحجاج يشجعون الثورة ضد الهولنديين

إن المرء ليسمع في العادة قول بعض المقيمين من الهولنديين، والذين قد احتك بعضهم بالحجاج، ولم يجدوا منهم ما يسرهم: إن هؤلاء (الحجاج) هم طاعون المجتمع الوطني. فهم يشجعون السكان على الثورة والمقاومة، وهم شديدو التعصب والكره للأوربيين. وقد تسنح الفرصة لبعضهم الآخر بالاحتكاك بحجاج بسطاء سهلي العريكة، قدموا لهم خدمات جليلة بإخلاص، فما يكون من هؤلاء إلا القول: إن هذا هو ادعاء، وصورة غير حقيقية لهؤلاء الحجاج، إن كل من يعرف كيف يتعامل مع هؤلاء الحجاج، يدرك أنهم عاديون ومعتدلون. وسبب الخلط يكمن في أن المرء يبدأ بافتراضات خاطئة عن هؤلاء الحجاج، وأن لهم سمات خاصة دون غيرهم. إن القراء الذين يجهلون الظروف في جزر الهند الهولندية يدهشون كثيراً للأخطاء التي يرتكبها موظفو الحكومة الرسميون. غير أن ذلك من السهل معرفته هناك.

الحج له أهمية خاصة في بلاد الجاوى

هناك أسباب كثيرة تجعل لتسمية الإنسان بالحاج رنيناً خاصاً، لا يوجد في أي مكان آخر من العالم. لقد كانت المسافة الكبيرة بين شبه الجزيرة العربية، وبين جزر الهند الشرقية، قبل وجود السفن البخارية، تشكل عائقاً أمام حركة الحج. يضاف إلى ذلك أن دخول البلاد الجاوية في الإسلام جاء متأخراً، الأمر الذي فرض أن تكون الأجزاء الداخلية من البلاد ذات ثقافة دينية سطحية، نتيجة لجهل الناس بأصول تطبيق الشريعة. لذلك كان من يمضي فترة في بلاد الحضارة الإسلامية، يعامل على أنه مرجع ديني مهم. فإذا ما أضفنا إلى ذلك عادة معظم الحجاج ارتداء الزي العربي بعد عودتهم، ثم التزامهم وإخلاصهم في تطبيق مبادئ دينهم، أدركنا رفعة شأن الحاج وارتقاءه إلى مرتبة مرموقة عن باقي السكان، وخاصة في جزيرة جاوة والجزر المجاورة الأخرى. غير أن بعض هؤلاء يستغل هذه المرتبة الرفيعة

لتكون وسيلة للعيش ولو جزئياً على نفقة مواطنيهم، ممن لم تطأ أقدامهم الأراضي المقدسة. وإن الكثير من السكان الذين يؤمنون بالخرافات، يعتقدون بالتمائم والحجب التي يعدها هؤلاء، معتقدين أن هؤلاء قد حصلوا على هذه العلوم الغيبية من البلاد المقدسة.

هناك فرق بين أولئك الذين أدوا مناسك الحج فقط، وبين أولئك الذين عاشوا في مكة فترات طويلة، واشتركوا في الحضارة الإسلامية بصورة واضحة. غير أن هذا الفرق لا يدركه سكان الولايات الداخلية من بلاد الجاوى، وحتى موظفو الحكومة الرسميون (الهولنديون)، وهؤلاء في الغالب لديهم معلومات سطحية عن الحياة الدينية للسكان المحليين. فهم يرون أن كل من أدى فريضة الحج أصبح رجل دين (عالم)، ولهذا السبب اتهم الكثير من السكان الجاويين اتهامات باطلة، لا مسوّغ لها سوى أن هؤلاء يحملون لقب (حاج). إن مثل هذا الجهل قد قاد المسؤولين إلى ارتكاب أخطاء سخيفة مثل تفتيش الحجاج، والتضييق عليهم وإيذائهم.

من الواضح أن النمو الضخم في عدد الحجاج خلال القرن الماضي، يجب أن يؤثر في المدى الطويل على الهالة الكبيرة المرسومة للحاج. وهذه النتيجة أصبحت واضحة للمسؤولين الرسميين، الذين يتوقعون أن زيادة وفود الحجيج يمكن أن تؤثر بالتالي في إبعاد النفوذ الذي يتمتع به هؤلاء الحجاج، الذين يكرههم هؤلاء المسؤولون كراهية شديدة لنفوذهم القوي.

فإذا كانت الحكومة تنوي منع الزي العربي[1] فإن الإجراءات الأخرى يجب أن تكون تدريجية وبمرور الزمن. إن النتائج الخاطئة يمكن إرجاعها إلى الافتراضات الخاطئة التي وضعت بادئ ذي بدء. وهي أن الآثار التي تسببها مكة باعتبارها بؤرة الإسلام، والتي تؤثر بطريقة كلية أو جزئية في

---

(١) إن مثل هذا الإجراء يمكن تعميمه على كافة المواطنين في جزر الهند الشرقية، وذلك بارتداء الزي الوطني. غير أن العباءة المنتشرة في غرب الجزيرة العربية هي الآن رسمياً علامة مميزة للباس الحجاج الجاويين. ولذلك فإن مثل هذا القرار بتغيير اللباس قد لا يؤدي الغرض المطلوب (المؤلف).

أندونيسيا، ينعكس صداها على الحجاج فقط. وإذا أردنا أن نتفهم أهمية الحياة الإسلامية في جزر الهند الشرقية، فإن ذلك يتطلب دراسة عملية أعمق مما يتيحه موظفو الحكومة من فرص، وعلى سبيل الخصوص يجب الأخذ بعين الاعتبار أوضاع الجالية في مكة، والتي لا نعرف الكثير عن ظروفها وأوضاعها الحالية.

إن إنكار أهمية آلاف الحجاج وسط جموع مواطنيهم في جزر الهند الشرقية الهولندية هو من قبيل المبالغة والذهاب من الطرف البعيد إلى الطرف البعيد الآخر. فعلى الرغم من بضع مئات من الحجاج يعودون ولديهم أفكار غامضة عن شعائر الحج، غير أن كل الحجاج - وحتى الأغبياء منهم - يعودون ولديهم أفكار وانطباعات عميقة عن ذلك العالم المجهول لهم. إن القوة الدينية والسياسية للإسلام التي كان يسمع بها هؤلاء من خلال التراث الشعبي عن أيام الإسلام الأولى، وكذلك من خلال الأساطير عن أيامه المقبلة، تتجلى بوضوح في حقيقة واقعة أمام أنظار هؤلاء.

ارتباط الحجاج بالعالم الإسلامي

لقد سمع هؤلاء الحجاج في أوطانهم عن سلطان الروم العظيم في القسطنطينية (الخليفة العثماني) وعن السلاطين الستة غير المسلمين الذين يدفعون له الجزية. غير أن هؤلاء لم يشاهدوا خلال حياتهم أي أثر لمثل هذه القوة (القوة العثمانية). إن المواطنين في مكة من أبناء الجالية الجاوية، حتى بعد أن تتسع مداركهم، يروجون مثل هذه الأمور السخيفة عن الأوضاع الأوروبية[1]. لقد أدرك هؤلاء الآن أنه يوجد أكثر من ست دول كافرة. ولا يعرف هؤلاء فيما إذا كانت هذه الدول الكافرة تخضع للسلطان العثماني أو لا. غير أنهم لا يزالون يحملون انطباعاً بأن قوى الكفر قد حصلت على القوة والمنعة حينما أصبح لها تمثيل في القسطنطينية[2].

(١) إن قصة سلطان الروم تشير إلى الدولة العثمانية. أما السلاطين الستة الذين يدفعون الجزية فتشير إلى ست دول أوربية لا نعرف ما هي، ويبدو أنها أسطورة شعبية في جزر الهند الشرقية.

(٢) المقصود بالتمثيل هو التمثيل الدبلوماسي، بمعنى أن لهؤلاء سفارات وقنصليات في عاصمة الإسلام القسطنطينية.

إن أبناء الجالية الجاوية في مكة يظهرون للحجاج من أبناء وطنهم عظمة الإسلام الحقيقية. إن عدد الجنود هنا كعدد الجنود في الوطن الأم. غير أن هؤلاء يقومون بأداء الصلوات المفروضة. إن إطاعة الحكام في المقاطعات الداخلية أمر يخالف رغبات السكان[1]. غير أن الحكام هنا مسلمون ويخافون الله. إن كل من حولهم هنا سواء في الشوارع أو في المساجد تسيره مشيئة الله وإرادته. إن قوة الحكومة تظهر بوضوح في إسطنبول أكثر من مكة. وإن من سافر لتلك البلاد يتحدث عن هذه الأشياء الظاهرية ولسان حاله يقول: إن مكة هي المركز الروحي، لكن إسطنبول هي مركز القوة المادية في العالم. إن جميع أفراد الجاوى ينظرون باحترام إلى هذين المكانين من العالم.

تبادل الأخبار بين الحجاج الجاوى

وعلى طريق الرحلة البحرية الطويلة أو في مكة يتجمع حجاج الجاوى، وقد أتوا من مختلف مناطق أرخبيل الملايو - القاصية منها والدانية - يتبادل الجميع الأفكار فيما بينهم. تلك الأفكار التي تستدعي اهتماماً خاصاً. إن الجالية الجاوية في مكة قد أخذت زمام المبادرة، وقد أعطت لهؤلاء قيادة محددة واضحة. وفي هذا المجتمع المكي المختلط الذي يمثل مختلف مناطق الجاوى، نجد على سبيل المثال أحد الأفراد المقيمين يسأل أحد المواطنين القادمين من آتشي عن أوضاع بلاده.

والجواب يكون بالطبع قد أخرجنا جميع الهولنديين الملاعين، وسيأتي اليوم الذي ننهي فيه وجودهم.

إن أحد أفراد الجاوى الذي خدم فترة طويلة في إحدى الدوائر الحكومية، وقد خرج الآن على المعاش، قد رأى أن تصرفات الآشيين تجاه الحكومة غير حكيمة.

إن الأوربيين يجب أن يحكموا البلاد. إنها إرادة الله! لماذا تطردون الهولنديين؟ وتهدرون الدماء والأموال؟ والنتيجة هي خروج الهولنديين،

---

(١) يشير المؤلف إلى نقطة مهمّة وهي أن الحكام المحليين كانوا من الهولنديين، ولذلك فهم أجانب لا تجب طاعتهم.

ليحل محلهم الإنكليز. إن جواب الآشي على ذلك هو بالطبع: إن هؤلاء الجبناء المقيمين على الأراضي الجاوية، يزيدون من كبرياء الكفار وغطرستهم. إن الآشي يحارب لله، وعلى الرغم من الآلات الحربية الجهنمية، التي يمتلكها هؤلاء الكفار، فإن مصير آلاف منهم إلى جهنم بأيدي الآشيين. وربما يجيب أحد المقيمين في مكة إن هذا العمل يشبه ما فعله السودانيون بالإنكليز[١].

لقد قال الآشي متعجباً: إن مما لا يمكن إنكاره المعجزات التي يؤيدنا بها الله سبحانه وتعالى. ففي كيمالا Kemala هناك غلام له وجه ثان على صدره، شبيه بما على رأسه. فإذا كان هناك إجراء يجب اتخاذه ضد الهولنديين، يسأل الإنسان الوجه الثاني، فإذا فتح عينيه وقال: «منصور» يكون النصر مؤكداً، ولهذا تتم العملية. ولكن إذا أغلق عينيه، فلا يخرج أحد من بيته؛ لأنه سوف لا يصادف نجاحاً في مهمته تلك.

وكما هو معلوم فهناك بعض الهولنديين الذين يلبون دعوة الخير ويأتون إلينا مسلمين[٢]. فإذا أمسك بهم العدو فإنه يشنقهم، ويدير ظهورهم إلى القبلة. ولقد صدف أن أحد هؤلاء الهولنديين الذي اعتنق الإسلام قد قبض عليه وحكم عليه بالإعدام. ولم يكن يعرف أحدنا موعد تنفيذ الحكم، ولكن شيخنا سامان دي تيرو وجد نفسه يبكي باستمرار دون أن يعرف سبباً لذلك، فحدثته نفسه بأن السبب هو هذا الرجل الهولندي المسلم الذي يواجه الموت. ثم اتضح بعد ذلك أن هذا كان حقيقة. ولذا أنجز الله سبحانه وتعالى المعجزة الآتية وهي: ما إن دفن الجنود الشهيد على غير القبلة، حتى هبت فجأة ريح عاصفة، أدارت الرفات وجعلته يواجه الكعبة، فصاح الجنود الكفرة وقد أصابهم الرعب «سبحان الله».. ؟!.

---

(١) يشير المؤلف إلى الحرب الضروس والخسائر الكبيرة التي كبدها السودانيون الإنكليز بزعامة الحركة المهدية.

(٢) معظم هؤلاء الذين يعتنقون الإسلام هم من الأفراد الهاربين من القوات المسلحة الهولندية (المؤلف).

ويمضي الآشي في حديثه: وفي بلدنا أيضاً قال رجل من باليمبانج Palembang لقد أصبح أحد رجال الحكومة الرسميين يشك في تصرفات المواطنين. لقد نما إلى علم هذا المستوطن (الهولندي) أن الشرع الإسلامي يدرس في المسجد من كتاب (السبيل) وهو كتاب (سبيل المهتدين) ولما كان الهولنديون يعرفون أن كلمة برانج سبيل Prang Sabil تعني الحرب المقدسة، فقد اعتقد هذا الهولندي أن هناك حرباً مقدسة ضد الهولنديين قد أعلنت من خلال هذا الكتاب، الأمر الذي أوجب مصادرة الكتاب، ومنذ ذلك التاريخ عمل الموظفون الرسميون كل ما في وسعهم لمقاومة الوعظ والإرشاد في المساجد، ولكننا كرسنا أنفسنا للدين والعقيدة بشكل فعال. وإذا أراد الله فإن مخاوف هذا المقيم السياسي سوف يثبت خطؤها يوماً ما.

ورداً على حديث الآشي الذي قال مفتخراً: إن مواطنيه قد قتلوا في معركة واحدة ١٧٠٠٠ هولندي، قال الموظف الرسمي الجاوي المذكور آنفاً: إنه بحسب علمه المؤكد لا يوجد مثل هذا العدد أو ما يقاربه من الهولنديين في آشي. فما كان من الآشي إلا أن قال: هل كنت يوماً في آشية؟ لقد اصفرت وجوه جميع الجاويين الحاضرين بما فيهم وجوه مواطني هذا الموظف الرسمي، وقد وجهوا إليه تحذيراً قائلين: إن ملحوظاته القيمة ليس مجالها هنا.

وأستطيع أن أمضي وقتا أطول في سرد مثل هذه الأحاديث، التي كنت أستمع إليها في مكة من أولئك الحجاج، الذين قدموا إلى الديار المقدسة من جزر الهند الشرقية، وهم يتبادلون الرأي والحديث فيما بينهم. ومعظم هذه الأحاديث لم تكن ممتعة بالنسبة لي، غير أنني استفدت منها كثيراً.

وإذا لم يكن لدى الفرد (الأوربي) الفرصة بالاختلاط بالسكان المحليين باعتباره منهم، ودونما أي شك في أنه أوربي فإنه يقع في الكثير من المغالطات، معتقداً أن هناك جوانب معينة من المدنية الأوروبية، مقبولة لدى هؤلاء الشعوب، أو على الأقل تثير إعجابهم واهتمامهم. والواقع أن كل ذلك هو زيف وخداع. إن الفرد الجاوي حينما يحادث مسؤولاً حكومياً

أو تاجراً أو جندياً فإنه يظهر بغير مظهره الحقيقي الذي هو عليه، بحيث لا يدرك الأوربي ذلك. فهو يظهر وبدون تحفظ أسوأ جوانب شخصيته وأغباها.

غموض الفرد الجاوي بالنسبة للمستعمرين

ويمكن القول بسهولة: إن معرفة الطبيعة البشرية للإنسان الجاوي، هي أمر لا يمكن إدراكه بالنسبة للرجل الأوربي. إن الفرد الجاوي الذي يتعامل مع الأوربي فترة من الزمن، يحاول من خلال تعامله معه، معرفة الجوانب المختلفة لشخصيته، ويقوم بالتصرف معه بناء على الخبرات التي اكتسبها من خلال تعامله معه. وإذا وصل مثل هذا الفرد الجاوي إلى هدفه، فإنه يستغل بمهارة نقاط الضعف عند صديقه الأوربي. غير أنه يبقى دائماً مدركاً أنه لا يستطيع سبر غور الأوربي؛ لأن الجاوي تنقصه الكثير من الخبرات في هذا الصدد من جهة، ومن جهة أخرى فإن صديقه الأوربي، يظهر له الكثير من الأمور السلوكية المتناقضة. وإنني لم أسمع قط أن جاوياً ادعى أنه يعرف الأوربيين معرفة تامة. إن هؤلاء يحجبون ويخفون أفكارهم ومشاعرهم عن الصديق الأوربي بمهارة فائقة، ويضفون على أنفسهم صفة الرصانة، لدرجة يعتقد معها الأوربي أنه وصل تدريجياً إلى قلوب هؤلاء الوطنيين، بينما هو في الواقع لا يحتل من قلوبهم أي مكانة. إن الفرد الجاوي تراه شديد التكتم في المعلومات التي تتعلق بالدين؛ لأنه حينما يصارح الرجل الأبيض بهذه المعلومات لا يجد منه سوى التجاهل والاحتقار، وعدم الإيمان والتصديق. فإذا سأله أحد عن هذا الموضوع سواء أكان سؤاله من قبيل حب الاستطلاع، أو من باب حب المعرفة والاهتمام، فإن طبيعة مثل هذا السؤال تنبئ بجهالة السائل في أوليات هذه المواضيع، وتجبر المسؤول المجامل بطبعه أن يراوغ في إعطاء الجواب. وبعض هؤلاء السائلين قد تلقوا أجوبة شديدة اللهجة لأسئلتهم التي أسيء فهمها، مما حدا بالسائل إلى أن يغلق فمه، لأنه رأى أن المناقشة قد وصلت إلى حد لا يمكن التفاهم حوله.

وأخيراً ولسوء الحظ هناك الأغبياء من الأوربيين، الذين لا يبخلون على الوطنيين بآخر ما تجود به قرائحهم، حيث يوضحون لهؤلاء أن آخر

مكتشفات العلم الحديث أنه لا يوجد إله. ولقد أخبرني إمام متواضع من ملقا أن المندوب الرسمي في بلاده (هولندي) قد أخبره بهذا الأمر وهو في حالة وعي كامل؛ بمعنى أنه لم يكن في حالة فقدان وعي نتيجة للشرب، وإنه ليستغرب كيف أن أمثال هؤلاء الملاحدة يعيشون، وهم يغلقون عيونهم عن حقيقة وجود الله، وكيف أن مثل هذا الرجل تعهد إليه الحكومة بمثل هذه المناصب المهمّة. وقد يكون هذا الإمام قد جارى ذلك النصراني المتعصب؛ لأنه يعلم حقيقة أن هناك عقائد أخرى بجانب عقيدته. ولكن على أي حال فإن ذلك المندوب قد أضفى على نفسه بعمله هذا صفة الجنون.

إن السمات التي أسجلها لوصف الجاويين المقيمين في مكة للعناصر الأوروبية، قد تضفى بعض الحقائق عن الهولنديين الذي يعيشون في جزر الهند الشرقية بصورة مبالغة بعض الشيء. وسأغض الطرف عن بعض التفصيلات لأنها ستأخذ حيزاً كبيراً. إن سرد الحقائق والتفصيلات عن الآراء والانطباعات التي ينظر بها هؤلاء (الجاويون) إلينا تجعلنا نتلون خجلاً من هذه الحقائق المبعثرة هنا وهناك. غير أن عزاءنا ـ نحن الهولنديين ـ أن الصورة المطبوعة لنا في أذهان الجاويين، ليست بأسوأ من الصورة التي تحملها الشعوب الأخرى عن الفرنسيين والإنكليز والروس الذين يتولون السيطرة على هذه الشعوب.

النظرة إلى الدول الأوروبية المستعمرة

إن المشاهدة السليمة تختلط هنا بسوء الفهم. وفي كل مكان نرى أن الأوروبيين أنفسهم مسؤولون عن سوء الفهم هذا أولاً وأخيراً. ففي إنكلترا مثلاً توضع أدق تفصيلات البرامج الاستعمارية للمناطق المستعمرة. إن الإنكليز يدّعون أن حكمهم في الهند يحظى بموافقة السكان المحليين، غير أن المرء ليدهش بالحقائق التي تظهر أن المرء في مكة لا يسمع من شفاه هؤلاء الهنود، سوى الكلمات التي تظهر الكراهية المطلقة لهؤلاء الإنكليز. إن هناك ثغرة واسعة بين الجانب النظري والحقيقة. ومثل هذا موجود لدينا أيضاً. ويمكنني أن أقول على رغم ذلك، هناك بعض الجاويين القليلين، وخاصة من أولئك الموظفين، يظهرون لنا من خلال حديثهم أنهم يقبلون

بوجودنا. وقد سمعت مرة أحد أفراد الجاوى من بونتياناك (بورنيو) يدافع بشدة عن الوجود الهولندي في بلاده، على الرغم من امتعاض معظم المكيين من حديثه. لقد قال: لولا الوجود الهولندي الذي حمانا، لطردنا الصينيون بعيداً عن بلادنا. إن هؤلاء الحكام الكفار (الهولنديين) هم أكثر عدالة من الأتراك. إن ما يدمر الممالك هو الظلم، وليس ضعف العقيدة والإيمان. لقد كانت هذه الشهادة هي الوحيدة التي سمعتها من هذا الطراز. وفي الجانب الآخر نجد أن الهنود يكيلون اللعنات لأسيادهم الإنكليز. ومن خلال أحاديثي مع هؤلاء الهنود وجدت أنه لا النفور العرقي ولا التعصب الديني، هما المسؤولان فقط عن هذه الكراهية، وإنما الازدراء والاحتقار اللذان كان يبديهما الإنكليز لهؤلاء، لهي السبب الرئيس في هذه الكراهية. وفي المقابل فإن السوط الروسي كان أكثر فتكاً في ظهور الناس. لقد أعجب بعض شعوب وسط آسيا بالروس، وعدّوا ما يفعله هؤلاء رحمةً من الإرادة الإلهية لهم، فلقد كان المسلمون ينظرون إلى نصوص الدستور الروسي النظرية نظرة مقبولة، ويعدُّون الاعتراف الكلي بحقوقهم الدينية مكسباً كبيراً. على الرغم من الكراهية والتعصب ضد المسكوف خلال الحرب الأخيرة[1]. إن هذه الحرب كان يعبر عنها في مكة بحقد شديد. غير أنه حينما يتحول الأمر إلى تفاصيل الحكم الإداري لهؤلاء الروس، لا نجد أمة أوربية تنال مدحاً وثناء أكثر من هؤلاء. وحينما يتحدث الجزائريون

(١) توالى زحف القياصرة على المناطق الإسلامية في آسيا الوسطى خلال القرن التاسع عشر وما قبله. وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت لروسيا أطماع في أراضي الدولة العثمانية. وكانت مخططاتها ترمي إلى ضم بعض أراضي هذه الدولة إلى روسيا، ودخلت في حرب القرم، بهدف إنهاء الوجود العثماني، وفي هذه الأثناء خففت الضغط على مسلمي آسيا الوسطى وأعطتهم مزيداً من الحريات؛ لأنها لا تريد فتح جبهة أخرى في أثناء انشغالها بحرب الترك. لكن بعد أن تحقق لروسيا أنها لا تستطيع القضاء نهائياً على الدولة العثمانية، نتيجة لدعم الدول الغربية لها، بادرت إلى احتلال ما تبقى من مناطق آسيا الوسطى الإسلامية، بالإضافة إلى مناطق القوقاز، وأخضعت هؤلاء لصنوف التشريد والإبادة. وما كان يتردد على ألسن بعض المكيين من أن المسكوف كانت معاملتهم حسنة، فقد كان في الفترة السابقة لاحتلال آسيا الوسطى.

عن فرنسا يسمع المرء من خلال كل كلمة الازدراء الشديد للدستور الجمهوري. فالإمبراطورية الفرنسية هي مكان للمعتوهين. إن بعض الأشخاص كانوا يتحدثون عن البرلمان الفرنسي الذي يدير دفة الحكم بصورة نظرية. كما يتحدثون عن مقره في باريس جنة الكفر. ويشيرون إلى الألفاظ الفظة التي كانت تدور في مناقشات البرلمان، وكيف أن القرارات تؤخذ تحت تهديد السلاح، وعلى العموم فإن المكيين أكثر الناس دراية برغبة الشعب الفرنسي بالعودة ثانية إلى النظام الملكي.

التأثيرات الدينية على الحجاج الجاوى

لنعد ثانية إلى الجاوى والجاويين. إننا ندرك الآن التأثيرات الدينية والسياسية فيهم خلال الحج. إن مثل هذه التأثيرات لا تؤثر في جميع عناصر الجاوى بدرجة واحدة. فلبعضهم أشد تأثراً من بعضهم الآخر. كما أن بعضهم أقل تعصباً أو أقل تديناً من بعضهم الآخر. إن أولئك الذين درسوا في مدارس دينية في الوطن الأم، أو الذين درسوا في المساجد، أكثر انفتاحاً للتأثيرات والتيارات الإسلامية. وهناك نفر قليل من جمهور الحجاج غير المتعلمين، ممن تتطرق إلى نفوسهم بذور التعصب الديني الصرف. وعلى العموم فإن الأمور ذات الأهمية البالغة تنحصر في انخراط الحجاج في الطرق الصوفية التي تتزايد بمعدل كبير، ولو أنها أمر سطحي في الوقت الحاضر، ثم الاختلاط النشيط لهؤلاء الحجاج القادمين من مختلف جزر الهند الشرقية، بالإضافة إلى أفراد الجاوى المقيمين في مكة، الأمر الذي ينجم عنه تبادل الآراء والأفكار، التي تؤدي إلى إيجاد قوى وطنية، تتحدى جموع غير المؤمنين (الهولنديين). تلك القوى التي يبدو أن الإسلام ينشرها من مركزه الروحي في مكة. وأخيراً هناك حقيقة مهمّة هي أن الكثير من هؤلاء الحجاج، يتعلمون ويعتادون على أداء الواجبات الدينية في مكة، فإذا ما رحلوا إلى بلدهم عادوا شديدي التمسك بعقيدتهم.

اللباس العربي في جزر الهند الشرقية

يتحدث الناس في جزر الهند الشرقية في العادة عن أمرين هما: اللباس العربي الذي يرتديه الحاج بعد عودته، والاحترام والتقدير الذي يناله هؤلاء الحجاج في نظر مواطنيهم، ولو أن هذا التقدير بدأ يقل الآن. إن اللباس العربي واحترام الحاج ليسا هما السبب المباشر لدخول التيارات القادمة من

مكة بواسطة هؤلاء الحجاج. وإنما السبب ما ذكرناه سابقاً من اتصال هؤلاء بغيرهم في أثناء العيد الأكبر للمسلمين. لهذا نجد أنه لا مسوغ لتحذير الحجاج من لبس الزي العربي، إذ سوف لا يكون له أي مردود، سوى زيادة حدة التعصب. كما أن تقليل عدد الحجاج سوف لن يكون له من فائدة، سوى أنه يقلل من عدد المستغلين من هؤلاء الحجاج لمواطنيهم. وما دام الجهل متفشياً بين صفوف المواطنين، فلا يمكن لهم وقاية أنفسهم من محاولات الاستغلال التي يقوم بها بعض هؤلاء الحجاج. فحينما ينعدم الدافع الإنساني لفعل الخير، تظهر حينئذ جماعات جديدة غير هؤلاء تقوم بالمهمة نفسها.

إن الأهم من الحجاج الذين يعودون إلى أوطانهم بعد تأدية فريضة الحج، أولئك الذين يبقون في مكة، بعد موسم الحج، حيث يعيش هؤلاء في المستوطنة الجاوية في مكة، وربما يرزقون بأطفال ينتمون إلى المجتمع المكي فيما بعد. لقد رأينا آراء المكيين حول الجالية الجاوية في المدينة المقدسة، وخلصنا إلى الرأي القائل: إنه ليس كل من بقي من هؤلاء في مكة، كان دافعه التدين الخالص. فالكثير من الشباب يستغلون فرصة الدراسة للتلكؤ والتسكع، اعتماداً على أن ذويهم يمدونهم بالمال، أو أن دائنيهم يصبرون عليهم. وهناك الوافدون من الخدم مع الحجاج، والذين يقنعهم أفراد الجاوى المقيمين في مكة بالبقاء، والقيام بأعمال الخدمة، وإننا نرى مختلف الأعمار بين هؤلاء الخدم بدءاً من السنة الثامنة وحتى الثلاثين. إن أمثال هؤلاء الخدم لا يمكنهم أن يكرسوا أكثر من ساعات قليلة يومياً لدراسة الشريعة. وبعض هؤلاء يشعر أن هذه الساعات القليلة، هي مقدار من الزمن أكثر من المطلوب لهذا الغرض، حيث يخصص هؤلاء معظم وقتهم للمتع الدنيوية. وبين أولئك الراغبين في الدراسة، والذين لا يجدون الوقت الكافي، وبين أولئك العازفين عن الدراسة يقتصر تعلم العلوم الشرعية على تجويد القرآن وترتيله. ونادراً ما يدرس هؤلاء مثل هذا العلم مع أشخاص من مواطنيهم؛ لأن هذا النوع من الدراسة يتعلق بتطبيق قواعد النطق العربي بدقة بالغة.

إن المدرسين الذين ذكرناهم سابقاً، كانوا يتولون تدريس حجاج الجاوى. وهناك كثيرون غيرهم ممن يحضر دروسهم بعض أفراد الجاوى. ومن بين هؤلاء المدرسين للقرآن الكريم الشيخ محمد المنشاوي، الذي كان مشهوراً في هذا المجال (عام ١٨٨٥م) وقد كان أستاذاً في الحرم المكي الشريف. وكان معظم شباب الجاوى يحضرون درسه، إذا كانت ظروفهم تسمح بذلك. فالحضور إلى الدرس ليس إلزامياً، وإنما يعتمد على فراغ الطالب، كما أن عدم الحضور لا يستدعي الاعتذار من الشيخ. ويتقاضى الشيخ نظير هذه الخدمة مقدار جلدرين شهرياً، بالإضافة إلى بعض الهدايا في الأعياد. وكثير من أفراد الجاوى الذين يكرسون أنفسهم لطلب العلم، يبقون مع شيوخهم مدة تتراوح بين ١٠ ـ ١٢ عاماً، حيث يقرؤون القرآن بين أيديهم في الأوقات التي تسمح لهم ظروفهم بذلك.

إن الدين ليس له تأثير كبير في صنفين من أفراد الجاوى، هما الخدم والكسالى، فهؤلاء يتبعون المكيين في ممارسة الأمور السهلة. بل إن بعضهم ينقطع عن الصلاة جماعة في الحرم، بدعوى أنه شبع من ذلك. وغالباً ما ينتمي هؤلاء إلى إحدى الطرق الصوفية، حيث يقتنعون بالبقاء في مكان بعيد عن حلقة المريدين، ولا يقومون بالواجبات الصعبة التي تتطلبها الطريقة. إن مثل هذا الجهد المتواضع يصور لهم أنهم عملوا شيئاً جليلاً، كما أن حمل المسبحة وترديد الأوراد يرفع مقامهم بين أبناء جلدتهم.

وبالنسبة لفريق من هؤلاء، يبدو أن مثل هذا الأمر ثقيل، لا تحتمله نفوسهم. فلقد سمعت عن أحد هؤلاء أنه ترك الطريقة الصوفية؛ لأنه يشعر أنه لا يقوم بأداء واجباته الدينية. وإذا استمر ارتباطه مع شيخ الطريقة، فإن ذلك سيفرض عليه مزيداً من الواجبات الدينية، ولما كان لا يقوم بأدائها فإن ذنوبه ستزداد أكثر مما هي عليه الآن.

حب الجاوى للمناسبات الاجتماعية

إن ما يجذب هؤلاء الناس أساساً هو الحياة المرحة التي يقوم بها المكيون، خلال الأوقات الهادئة من السنة (البصارة). إن أفراد الجاوى لا يتعبون مطلقاً من الاشتراك في الأعياد الرسمية، وأعياد الزواج أو أي

مناسبات أسرية أخرى. وخاصة أن الطبقة المتوسطة من المكيين مولعة بالمهرجانات التي غالباً ما تكون يومية. إن المتدينين من مثقفي الجاوى مولعون أيضاً بذلك. يضاف إلى كل هذا كرم المكيين الغني عن البيان في مثل هذه الأمور. فعلى سبيل المثال كنت أعطي بعض أشخاص من الجاوى مبلغاً يتراوح بين ١٠ ـ ٢٠ دولاراً نظير خدمات يقدمونها لي، وأفاجأ في اليوم التالي أن الشخص قد عمل دعوة لي ولعدد من أفراد الجاوى تزيد تكاليفها كثيراً على ما دفعته له.

إن دعوة هؤلاء إلى الإنفاق بحكمة، وفي الوجوه المخصصة للإنفاق الصحيح، أمر خارج عن حدود إدراك معظم أفراد الجاوى. إنهم لا يشعرون بوطأة الدين إلا حينما يهددهم الدائنون، وإلا فهم يبتسمون دائماً حتى لو لم يجدوا ما يأكلونه، ولسان حالهم يقول: (إن اتكالنا على الله، وهو الذي يرزقنا بما يقيم أودنا).

الزواج غير المتكافئ لدى أفراد الجاوى

يجب أن توجد النساء في مثل هذه الحياة المرحة. فهناك بعض النساء اللواتي يضعن مفاتنهن تحت تصرف الجاويين. وتدور القصة التالية على ألسنة أفراد الجالية الجاوية في مكة: جاء إلى مكة جاوي أعور، قبيح الشكل ومعه ٢٠٠٠ دولار. فاستأجر داراً صغيرة لإقامة طويلة. وسرعان ما أتاه صديق وفاجأه بأن امرأة مصرية تسكن إلى جواره، وقد وقعت في حبه، وترغب في أن تكون زوجة له بأي ثمن. وهي تريد أن تمنحه فرصة للتعارف قبل سواه. فرأى الجاوي في ذلك نعمة هبطت عليه من السماء. فذهب إلى صديقه الذي أنجز له المهمة، وحقق له كل طموحاته. ولم تمض إلا أيام قليلة حتى كان الجاوي زوجاً سعيداً. وكانت المرأة الفاتنة الأنيقة تستقبله، كلما عاد من المسجد مبتسمة مقبلة عمامته، مرحبة بسيدها، ومعانقة له. ويكفي أن نقول: إن الزوج ظن أنه في الجنة، ولم يكن الزوج ليتمنى شيئاً إلا حبها العميق، وأبسط أنواع الطعام والشراب. وهي لم تخف شيئاً عن زوجها سوى حزنها لوضع والدتها المؤسف، التي ينقصها أشياء كثيرة، حتى الملابس الضرورية، وبسرعة سد الزوج هذا النقص، وبذلك جفف دموع الابنة التي كرست حياتها لإسعاده.

ولا تمضي إلا أسابيع قليلة حتى يكون هناك مصدر لحزن جديد للزوجة، بسبب حال شقيقاتها، وخالاتها وبنات شقيقاتها مما جعلها ترى إدخال زوجها الطيب في الصورة، وهو لا يسمح لنفسه أن تعاني قريباته مثل هذه الحالة التعسة. وبذلك احتوت جاذبية المرأة قلب الجاوي، الذي ما برح يوافق على جميع رغباتها، دون أن يلتفت إلى أن كيس نقوده يفرغ تدريجياً. وأخيراً لم يبق من المبلغ الذي بحوزته سوى دراهم قليلة. ولما عاد ذات يوم إلى البيت، فوجئ بعدم استقبالها له بالطريقة المعهودة، وتصرفت بطريقة أهملت فيها وجوده، وحدثته نفسه بأنها مريضة، فذهب إليها لملاطفتها ومعانقتها. فما كان منها إلا أن أبعدت نفسها عن الرجل المغفل قائلة: ما هذا؟ آه، إنك أعور، وما هذه الندوب في حاجبك؟ وفي الحال لمع ضوء الحقيقة المرة أمام الجاوي المخدوع، فقال لها: «أنت بنت كلب.. أنت طالق بالثلاث». ولقد عجب الرجل من البشر والسرور الذي علا وجه المرأة بعد طلاقها. ومن العجيب أن هذه المرأة قد لعبت الدور نفسه مع جاوي آخر بعد ثلاثة أشهر.

إن هذا المثال التحذيري يطرق مسامع الكثيرين من أبناء الجاوى. غير أنه لا يمنع الوافدين الجدد من الوقوع في المصيدة. إن الشباب الواعي غالباً ما يبحثون عن الزوجة الوسيمة، ذات الطموح المعتدل، غير أن مثل هؤلاء النسوة يجدن في مستهل حياتهن من هم أفضل من هؤلاء الجاويين. وعلى هؤلاء الرضا والزواج بما يتبقى من هؤلاء النسوة، وخاصة من فاته القطار منهن، وهؤلاء في العادة يتزوجن من يستطيع القيام بتوفير وسائل العيش لهن.

ومن هنا نجد حدوث بعض الزيجات غير المتكافئة. إذ يتزوج الشاب الجاوي ذو الستة عشر ربيعاً من امرأة تزيد على الثلاثين، وقد تكون من أمثال أمه في العمر. وقد يكون لها بعض الأبناء. وفي أحيان كثيرة ينفق الزوجان كل ما لديهما من مال، ثم يرتميان في الديون، الأمر الذي قد يحمل الزوج إلى العودة إلى وطنه، تاركاً زوجته وربما أبناءه الذين يعدُّون مكيين مولداً أو ثقافة. وفي بعض الأحيان يتعهد هؤلاء الأبناء بعض الجاويين الأغنياء من المقيمين في مكة. إن تأثير مثل هؤلاء الجاوى في

المجتمع المكي أو في الوطن الأم لا يمكن تقدير أبعاده بدقة إلا أن هؤلاء يشكلون نسبة عالية.

مطوفو الجاوى

إن كثيراً من مطوفي الجاوى ينتمون إلى هذه الدوائر، حيث يقوم بعض هؤلاء بشراء رخص الطوافة بأموال يقترضونها، على أمل استعادة رأس المال، بالإضافة إلى بعض الأرباح، من خلال خدمة مواطنيه في مواسم الحج. كما أن بعضهم الآخر يغريه لقب الشيخ «مطوف» الأمر الذي يدفعه إلى احتراف هذه المهنة. إن من يبدأ بعمل الطوافة دون أن يكون مديناً لأحد، وتكون له اتصالات حسنة مع أبناء بلده، تجلب له مزيداً من الحجاج، يجني ربحاً وفيراً. غير أن سوء الإدارة، واقتراض الأموال بالدين تسبب اضطرابات مالية كثيرة لهؤلاء المطوفين.

المجاورة في مكة

إن هؤلاء المطوفين ومساعديهم الذين ينتمون إلى العناصر الجاوية، يسافرون مرة كل بضع سنين إلى الوطن الأم، ثم يعودون إلى مكة. ويكون هذا السفر في الغالب لإنجاز بعض المهمّات المرتبطة بالعمل. وأحياناً يكون من أجل حمل بعض الأقارب على التبرع وبذل المال. وأحياناً أخرى تكون الرحلة من أجل نشر بعض تعاليم الطرق الصوفية في تلك الربوع.

إن الموظفين المحالين على التقاعد، بالإضافة إلى بعض الموسرين، وملاكي الأراضي، يفضلون البقاء في مكة في أخريات أيامهم، من أجل العبادة. فهؤلاء يؤدون صلواتهم في الحرم المكي الشريف. ويقومون بأداء عدد من شعائر الحج والعمرة. ويستمعون إلى الدروس والمواعظ التي تلقى في المسجد، على الرغم من عدم فهم الكثير من محتواها. وقد ينتمي بعض هؤلاء إلى الطرق الصوفية، ويعتمد نفوذ هؤلاء على ما لديهم من ثروة يسخرون معظمها من أجل خدمة أبناء جاليتهم في مكة. إن تأثير هؤلاء في الحياة الروحية للآخرين يكون بطريقة غير مباشرة.

الجاوى مشهورون بطلب العلم

إن الفئة المميزة لدى الجالية الجاوية في مكة، هم المدرسون وطلاب العلم، فهؤلاء أكثر الناس تقديراً بين مواطنيهم، وهم يتمتعون بسمعة حسنة بين الفئات القادمة للحج. وهؤلاء هم الذين يراقبون نمو الحركة الدينية في

بلادهم. ولقد ارتفع عدد العلماء من الأصول الجاوية الذين يقومون بالتدريس في المسجد الحرام، وينال هؤلاء شهرة بالغة بين أفراد المجتمع المكي ذاته. وتوجد في الحقيقة في أرخبيل الملايو الهولندي فرص عظيمة للدراسات الإسلامية، إلا أن الفرد الجاوي لا يجسر أن يأتي إلى مكة إلا بصفته طالب علم. إن المناصب التي يتقلدها هؤلاء العلماء تشكل جزءًا مهمّاً من تاريخ المستوطنة الجاوية في مكة، وتكسبهم صفات عظيمة متميزة بين مواطنيهم، الذين يجلسون بين أيديهم في حلقات العلم، يحملقون في وميض المركز العالمي الذي وصلوا إليه.

إن الظروف التي يبدأ بها أفراد الجاوى حياتهم العلمية في مكة تتنوع تنوعاً كبيراً. فقد يرسل أحد الحكام أو مساعده أو الأمراء الآخرون أحد أبنائهم الكثيرين إلى مكة، ليكرس حياته للعلوم الدينية باسم الأسرة كلها. وفي العادة يتعهده أحد أبناء الجاوىٰ المتدينين المقيمين في مكة. وترسل العائلة لهذا الطالب جميع المستلزمات الضرورية لحياته. وبالإضافة إلى هؤلاء، هناك عدد من طلاب العلم، من صفوف أبناء الموظفين الصغار، الذين يفدون أيضاً بهدف طلب العلم. ولا يقتصر الأمر على هؤلاء فهناك الشباب الذين قدموا بصفتهم خدماً إلى العاصمة المقدسة. إذ يبدي بعضهم قدرة خاصة وكفاءة عالية في التعليم، فيتعهدهم بعض الأصدقاء الطيبين بالمساعدة المادية لمواجهة متطلبات الحياة. إن هناك الكثير من الشباب من الأصول الجاوية يفدون إلى مكة وليس لديهم من شيء سوى الاعتماد على الله سبحانه وتعالى. وليس لديهم من هدف سوى تجشم المصاعب لاقتحام العلم العربي. إن عدداً من هؤلاء يسيطر عليهم بادئ ذي بدء الحماس الشديد لنيل السمو الروحي، إلا أن ذلك لا يحرزه إلا القليل من هؤلاء. إن بعض من يفد إلى مكة من أفراد الجاوى يكون قد قطع شوطاً بعيداً في الدراسة في الوطن الأم، ممن تولدت لديهم الرغبة في السفر إلى مكة، حينما شعروا بعدم كفاية وسائل التعليم في بلادهم، كما أنهم سمعوا قصص الدارسين العائدين من مكة، بأن الثروة الروحية والتعليم ميسر لجميع الناس بدون استثناء.

إن أمثال هؤلاء الطلبة لا يجدون صعوبة في الحصول على متطلبات الحياة من الطعام والشراب. فهم يتلقون المساعدة لتغطية احتياجاتهم بوسائل وطرق متعدّدة. فهؤلاء يعدّون أنفسهم في غاية السعادة، إذا طلب منهم أحد العلماء العرب، أن يلتحقوا بخدمته. حيث تكون لديهم الفرصة المواتية للتعلم.

الأربطة

إلى جانب ذلك، هناك الكثير من البيوت الموقوفة لمجاوري الحرم. وهي مخصصة لمناطق معينة في الوطن الأم. ومن بين هذه الأوقاف (الأربطة) ما قد أحسن تأثيثه وخصص لسكن فريق من الآشيين. كما أن بعضه الآخر للقادمين من بانتن. وهناك أربطة أخرى مخصصة للقادمين من بونتياناك (بورنيو). إن هذه الأربطة يقوم بتأسيسها في العادة رجال أثرياء أدوا فريضة الحج. وهؤلاء يتولون أيضاً الإنفاق عليها، ويعينون الوكلاء عنهم لهذه الغاية، فعلى سبيل المثال هناك الرباط الذي أقامه سلطان بونتياناك لمواطنيه، قبل بضع سنوات، حينما قدم إلى مكة لأداء فريضة الحج. وهناك رباط آخر أقامه أحد المطوفين من تبرعات قدمها له حجاج منطقته. ويعمل هذا المطوف ناظراً لهذا الرباط، ويخصص جزءًا كبيراً منه لسكنه ولسكن أصدقائه. وبمثل هذه الطريقة أقيم رباط جميل للأفراد الآشيين، وهذا الرباط ليس بعيداً عن داري القريبة من سوق الليل. فلقد جمع أحد المطوفين في سنوات متعدّدة، تبرعات من أبناء وطنه القادمين إلى الحج، كما أنه قد سافر إلى هناك عدة مرات لهذا الغرض. وقد تجمع معه المال اللازم فأقام هذا الرباط. ويقوم الآن على إدارته والإشراف عليه. وهو يسكن الآن في الطابق الأسفل من الرباط، ويشغل زوج ابنته جزءًا من الطابق الثاني. وما تبقى من الغرف الأخرى في الرباط، يسكنها فقراء آشية، الذين يتعهدهم بما تبقى لديه من أموال هذا الرباط، غير أنه يستغل بعضهم في أداء بعض الخدمات له. ولا يتردد أحياناً في إسكان بعض الأشخاص من غير مواطني آشية، نظير بعض الهدايا التي يقدمونها له. على أي حال فإن هذه المؤسسة الخيرية تعود بالنفع على أبناء منطقة آشية، على الرغم من استغلال هذا المطوف لها. إن المؤسسات الخيرية التي يقيمها أبناء جزر الهند الشرقية تساعد في راحة السكان، خلال المدة القصيرة التي يقضونها

في مكة. والخلاصة أن الدارسين في مكة من هذه الديار، لا يجدون مشقة في الحصول على السكن، وشيء من الطعام، في أي وقت من الأوقات.

علماء الجاوى يعودون مدرسين إلى بلادهم

إن أفراد الجاوى الذين حصلوا على مراتب علمية عالية، تنهال عليهم الأعطيات من مواطنيهم. أما الذين لا يصلون إلى مثل هذه المراتب فيعملون بصفتهم مرشدين وأدلاء للحجاج. وفي غالب الأحيان يعود هؤلاء إلى بلادهم، حيث ينالون أجراً عالياً؛ لأن المدرسين أمثالهم قليلون في الوطن الأم. وبعض هؤلاء يعملون أئمة مساجد ومدرسين في المدارس الكثيرة التي تقوم بتعليم مبادئ الشريعة الإسلامية. وفي العادة يقوم هؤلاء بالإشراف على الأوقاف التابعة لهذه المساجد أو المدارس، فينالهم شيء من الزكاة. كما يقوم هؤلاء بعمل إجراءات عقود النكاح، مما يعود عليهم ببعض الفائدة. ناهيك عن الهدايا التي يقدمها التلاميذ لهؤلاء، وكذلك بعض الخدمات التي يقدمها لهم بعض أفراد المجتمع، عند حرث حقول الأوقاف وزراعتها. ومن الجدير بالذكر أن المدرس القادم من مكة يأتيه التلاميذ وطلاب العلم من المناطق القاصية والدانية ليأخذوا العلم على يديه.

يتجمع في المدينة المقدسة آلاف من أفراد الجاوى، قدموا من مختلف مناطق أندونيسيا. وقد ارتبط هؤلاء بشعور وروابط مشتركة زادتها الأيام رسوخاً، الأمر الذي نجم عنه شعور قوي بوحدة هؤلاء الدينية. ولا شك أن ذلك لا يمكن رؤيته بين صفوف الحجاج القادمين لفترة وجيزة، بل يتجلى بوضوح في المستوطنة الجاوية في المدينة المقدسة. إن قوة الإسلام في أي منطقة من مناطق جزر الهند الشرقية يمكن قياسها عن طريق عدد المقيمين من هذه المنطقة في مكة، بالإضافة إلى القوة التي يتمتع بها هؤلاء. وإن المرء من خلال وجوده في مكة يستطيع أن يرسم خريطة لانتشار الإسلام ومدى نفوذه في مختلف مناطق أرخبيل جزر الهند الشرقية. وعلى أي حال فقد تكون هذه الخريطة دقيقة نسبياً بالنسبة لطلاب العلم، الذين يشكلون جانباً واحداً من جوانب الحضارة الروحية في أرخبيل الملايو. هذا وإن كنا نجد في الملايو بعض الوطنيين المتميزين، الذين يعدُّون أنفسهم منخرطين في الحياة الدينية، إلا أننا لا نجد أثراً للعناصر

الوثنية سواء من الوطنيين أو الذين ينتمون إلى الأصول الهندية. فمثل هذه الأواصر قد انقطعت صلة السكان بها.

إن بعض مظاهر الوثنية لا تزال موجودة في الكثير من بقاع العالم الإسلامي، على الرغم من أن الإسلام قد وضع الأسس الثابتة، لتغيير شروط الحياة، بموجب المعايير التي وضعها. إن أقطاراً إسلامية قد دخلها الإسلام قبل جاوة بثمانية أو تسعة قرون، ولا تزال فيها بعض الخرافات المنتشرة، بصورة ليست بأقل مما هي عليه في أرخبيل الملايو. فكثير من الأعياد الوثنية يحتفل بها تحت أسماء جديدة، وعندما يستعرض الإنسان كيفية دخول الإسلام إلى هذه المناطق، وأنه دخل تدريجياً وبدون قوة السلاح، من خلال إصلاحات داخلية محلية، يشعر المرء بالنجاح العظيم لهذا الدين، الذي غطى بدخوله هذه البلاد على أعظم الانتصارات الحربية في هذا الشأن.

إن انتشار التعاليم الإسلامية بين صفوف الجاوى القدماء، لم ينجم عنه ردود فعل مضادة، إذ لم تتكون فرق دينية من المعتقدات السابقة لوجود الإسلام، على الرغم من أن الحضارة التي كانت سائدة قبل وجود الإسلام، لا يمكن التقليل من شأنها. وأن الفرقة الدينية التي وجدت في هذه الديار كانت نتيجة لوجود بعض دعاة الشيعة، وقد زالت نهائياً بانتشار المذهب السني وسيادته فيما بعد.

ويمكننا القول: إن هناك بعض شواهد الماضي من الحضارات التي سبقت الإسلام، تؤكد حقيقة تاريخية، هي أن الناس لا يمكن أن يتحولوا جميعاً بين يوم وليلة إلى فكرة جديدة، مهما كانت قوية. إن الأعراف والعادات التي حرّمها الإسلام تستهجنها الطبقات المتعلمة، التي ارتبطت بالحضارة الأوروبية. إن هذه الطبقات المثقفة بالثقافة الغربية لم تقطع صلاتها نهائياً مع شعوبها، فما زال لها بعض الارتباط. غير أن أولئك الأشخاص الذين استطاعوا أن ينهوا الاعتقادات الوثنية السابقة من هذه الديار ينظر إليهم على أنهم هم السادة والقادة لشعوبهم. وفي بلاد الجاوى لا بدّ أن تكون كل

حركة روحية هي حركة إسلامية. وأن كل عداء يظهره الناس للأوروبيين أو كل عصيان مسلح ضدهم، لا بدّ أن يرفع راية الدين الإسلامي. وأن كل برنامج شعبي في المستقبل يستقى من منابع الإيمان بالغيب ويتخذ شعاراته وتوجيهاته من العلماء ورجال الدين.

لقد أفضت في ذكر بعض الحقائق والتفصيلات لإظهار أهمية المستوطنة الجاوية في مكة، ومدى تأثيرها في البلاد الجاوية نفسها. وإذا أردنا معرفة حياة الناس عن قرب لا يكفي لنا دراسة الماضي التاريخي. هذا الماضي التاريخي الذي ينكر على أولئك الذين ارتفعوا من الحضيض إلى القمة، وهم غارقون في أوحال الرذيلة. غير أن الحقيقة تشهد بارتفاع هؤلاء إلى تلك المراتب العليا على الرغم مما هم فيه. وسوف لا نعير بالاً لتفصيلات الحوادث بقدر ما نوجه اهتمامنا إلى الهدف الذي يسير التطور باتجاهه. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: ماذا يريد أهل الجاوى أن يكونوا؟ وليس ماذا كانوا. إن ثبات انتشار الإسلام فوق كافة ربوع جزر الهند الشرقية، يجب أن يكون درساً حتى لأكثر الناس جهالة. وفي البلاد التي اعتنق أهلها الإسلام أصبح العلماء ومشايخ الطرق الصوفية على سبيل المثال هم القدوة، وأصبحت الحياة الروحية هي الغالبة لدى سكان الجاوى[1].

إن هذا الانتعاش الروحي الذي تلقاه سكان الجاوى بطرق طويلة أو قصيرة مصدره مكة. وقد ساعدت وسائل الاتصال الحديثة على وصول هذه المؤثرات إلى بلاد الجاوى. ففي مكة يعيش بعض هؤلاء، ممن ألقوا بأنفسهم في منبع الحياة الإسلامية، ليتطهروا ويكتسبوا قوة في ربوعها. وإذا عرفنا أن الاتصالات قوية ونشطة بين مكة والوطن الأم، فهناك الاتصال المستمر بين الأساتذة الواعين في مكة، وتلاميذهم الجدد القادمين من الوطن الأم. ذلك الاتصال الذي يزيد من مشاركة السكان الوطنيين، الذين

---

(١) يعزو المؤلف من خلال جملة اعتراضية سبب كون العلماء هم القدوة إلى جهل الناس من ناحية وإلى أساليب التضليل التي يستخدمها هؤلاء العلماء مع الشعب من ناحية أخرى. وهذا حقد بارز على الإسلام. إذ ليس لدى المؤلف الجرأة على القول: إن عظمة الإسلام هي التي فرضت نفسها على معتنقيه.

يأتمرون بأوامر قادتهم الموجودين في مكة. يمكننا أن ندرك مدى هذا التأثير من خلال الكتيبات اليدوية المستعملة في المدارس الإسلامية في جاوة وسومطرة وبورنيو. وفي الغالب تحل المؤلفات الأدبية الجديدة التي ألفت في مكة محل المؤلفات المكية القديمة في المدارس الإسلامية في جزر الهند الشرقية عند صدورها. وتأتي الكتب القادمة من مكة في مقدمة الحاجات المستوردة، الواردة إلى بلاد الجاوى، وهذه الكتب يقوم على تأليفها إما علماء جاويون استقروا في مكة، أو علماء مكيون يحظون بتقدير سكان الهند الشرقية واهتماهم. وهناك الكثير من الأمور الفقهية التي يستفتي فيها السكان المحليون مفتي الشافعية في مكة. غير أن بعضهم الآخر قد يطلبون الفتوى من علماء آخرين غير المفتي، لاعتقادهم أن الفتوى تعتمد على سعة العلم والمعرفة وليس على المركز الرسمي[١].

أبناء لامبونج في مكة

إن المستوطنة الجاوية في مكة تمثل مستقبل الشعوب المختلفة التي قدم منها هؤلاء. وهذه المستوطنة هي في نماء وزيادة. ونجد أن مختلف فئاتها كل يعمل بطريقته الخاصة للإسراع في عملية التطور والنماء الذي ينتظر السكان في المستقبل.

فعلى سبيل المثال لقد أخبرني شيخ من لامبونج (جنوب سومطرة) عاش خمساً وعشرين سنة في مكة القصة التالية، التي تبدو حقيقية في سماتها الأساسية، على الرغم من أن بعض تفصيلاتها الخاصة بالوطن الأم بحاجة إلى تصحيح؛ نظراً لأنها حدثت منذ فترة طويلة في بلاده، التي لم يزرها منذ أمد ليس باليسير، فقد دخل الإسلام بلاده منذ فترة طويلة، غير أنه لم

---

(١) لقد انتشرت الأخبار في جزيرة جاوة عن منع استعمال القناديل الكاز في المسجد الحرام. وقد أدى ذلك إلى عدة استفسارات رفعت إلى مفتي الشافعية للسؤال عن مدى إمكانية استعمال هذه القناديل في مساجد جزيرة جاوه. ولقد كان الجواب بعدم منعها في المساجد في الجزيرة المذكورة. وسبب المنع في مكة، كان نتيجة لكثرة هذه القناديل التي يحضرها الطلاب في أثناء قدومهم للمسجد، الأمر الذي يسبب روائح كريهة منتنة في المسجد، مما دعا إلى منعها. ولم يكن سبب المنع هو الخوف من الحرائق، وإنما مبعثه هذه الروائح الفاسدة (المؤلف).

تكن هناك مظاهر قوية للحياة الدينية. وكانت أسرته تمثل إحدى الأسر ذات الشأن الكبير في المنطقة. فهي تنحدر من سلاطين بانتن Banten القدماء. وعلى الرغم من الأسباب الأخرى المتعددة، إلا أنه يعزو استعادة أسرته لمقاليد الحكم خلال الخمسين سنة الأخيرة إلى وقوف أبناء هذه الأسرة مع الحكومة الهولندية في حروبها مع البالمبانج Palembang وتشكيلها لحكومتهم في مقاطعة لامبونج Lampong.

لقد كان الحج أيام شباب هذا الرجل أمراً نادراً جداً. وقد كان أخوه الأكبر من أوائل من أدى فريضة الحج. ولقد أثار الطموح وشهوة التجوال الرغبة لدى شيخنا بأداء فريضة الحج. وذكر أن السلطات التي في الغالب ما تؤخر مثل هذه الأعمال قد أخرت الموافقة على إجراءات سفره سنة على الأقل، ولكنه حصل على مراده ووصل إلى مكة، واستقر بها ولم يغادرها ثانية. فقد أكمل دراسته المألوفة ثم ساعده خطيب سامباس[1] Sambas المبجل في الالتحاق بالطريقة القادرية. وقد حصل أخيراً على تقرير بممارسة أعمال الطوافة. ويعيش في بيته بعض الأشخاص من أبناء بلده. ومنهم امرأته الأولى التي قضت معه أحسن أيامها. وقد تزوج الشيخ من امرأة أخرى هي ابنة الشيخ المنشاوي الذي تقدم ذكره.

لقد كان شيخنا أول مطوفي بني قومه، الذين كانوا في السابق يشتركون مع البنقول في مطوف واحد. وهو يعمل بنشاط في المراسلات والاتصالات والوسائل الأخرى ليزيد من أعداد الوافدين إلى الحج من منطقته لامبونج. غير أنه الآن فقد السيطرة الكاملة على أبناء جلدته، إذ يشاركه الآن ثلاثة مطوفين بأسرهم ومساعديهم في الإشراف على شؤون حجاج لامبونج. فمطوفو هذه المنطقة هم أربعة: هو وشخص آخر من لامبونج واثنان آخران من مكة. وإن معظم من يساعده في إدارة أمور

---

(١) هو الشيخ أحمد خطيب سامباس، ويعرفه المكيون باسم أحمد خطيب الجاوه سنبس. وهو شيخ الجاوة الشافعي، نزيل مكة المكرمة، قدم إليها صغيراً، وقرأ على مشايخ عصره، ودرس في المسجد الحرام. وما زال مشتغلاً بالتدريس والاستفادة إلى أن مات. وكانت وفاته بمكة في نيف وثمانين ومائتين وألف (انظر نشر النور والزهر ج١ ص٥٣).

الطوافة هم من أبناء لامبونج، أو من جزر الملايو عموماً. ويعيش في مكة الآن الكثير من أبناء لامبونج وقد درس عدد من هؤلاء الشرع الإسلامي بنجاح كبير. ونظراً لما تحظى به مقاطعة لامبونج من زعامة دينية، ونظراً لوجود طلاب العلم منها بكثرة، فقد ازداد عدد أبناء هذه المنطقة في مكة زيادة كبيرة خلال الثلاثين عاماً الأخيرة.

لقد كانت الحركات الإسلامية التي تجتاح العالم الإسلامي ذات تأثير كبير في شيخنا وأبناء قومه من لامبونج المقيمين في مكة؛ فقد كان يغمر هؤلاء الأمل في نجاحها. وقد أقيمت الصلوات إبان الحرب التركية ـ الروسية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م) في منزل شيخنا لنصرة الإسلام، كما أنه كان أكثر المسهمين بالتبرعات لهذه الحرب. وفي بلده الأصلي لامبونج لم تكن الحركة الإسلامية تسير بقوة وحماس. وعلى الرغم من وجود المعارضين للحكم الأجنبي الأوروبي في بلاده لكن أسرته لم تكن على وفاق مع هؤلاء المعارضين. وكثيراً ما كان شيخنا يفكر ملياً كيف كانت الأمور ستسير لو لم يرحب السكان بالوجود الهولندي على أرضهم. وكيف لو أن السكان المحليين تخلصوا من النزاعات الصغيرة، واستجابوا لنداء الحرب المقدسة لنصرة الإسلام. وكيف لو اتحد سكان الجاوي تحت إمرة سلطان بانتن أو بالمبانج أو حتى سلطان آتشي، وتعاونوا لإخراج الغازي، لتكونت إمبراطورية كبيرة للمسلمين، يمكن أن تنضم إليها مناطق أخرى كثيرة.

غير أن هذه المشاعر تتغير حينما تصله بعض الرسائل من الوطن الأم، وخاصة من قريب له كان يعمل حاكماً إدارياً في إحدى المناطق. فقد كان الأخير يخبره عن التغيرات الإدارية المستمرة، كما يخبره عن الصلات الطيبة التي تربطه بالحاكم المفوض. وقد أرسل له مرة صورة وسام حصل عليه من الحكومة الهولندية نظير خدمات عظيمة استحق عليها المكافأة. لقد كانت هذه الرسائل مما يثير حفيظة الشيخ، غير أنها لا تجعل منه شديد الكره لقريبه هذا، على النحو الذي يكن فيه الكره لأحد أقربائه الآخرين، الذين سقطوا في حربهم مع الهولنديين ضد البالمبانج، فقد كان يصف القتيل بأنه (شهيد الشيطان)!!

وفي إحدى المرات تفجر الموقف بين شيخنا وقريبه الحاكم الإداري، فقد ذكر الحاكم الإداري في إحدى رسائله أن الهولنديين يسيرون من هزيمة إلى هزيمة في آتشي، بسبب صعوبات المناخ من ناحية، وبسبب خداع الآتشيين ومكرهم من ناحية أخرى. إن شعوره بالعزة فرض عليه التحرك في مثل هذا الظرف القاسي، فاقترح على الحاكم العام الهولندي (اللورد الأعظم) بواسطة رئيسه المباشر أن يخوض المعركة مع ٣٠٠ نفر من اللامبونجيين المدربين، ولهذا طلب ٣٠٠ بندقية لهذا الغرض من الحكومة الهولندية. غير أنه طلب من شيخنا المقيم في مكة أن يشتري له سيفاً إستنبولياً، ويغمسه بماء زمزم، وأن يدعو له بعض الأدعية في الحرم، لعل الله يجعله سيف نصر مؤزر. إن جواب الشيخ على رسالة الحاكم الإداري كان كالقنبلة الملقاة على بيته، فبدلاً من أن يبدأ رسالته بصيغة السلام المعروفة (السلام عليكم) بدأها بقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه، الآية: ٤٧]. وهذه الآية تقال في المواضع التي يشك فيها مرسل الرسالة بصحة عقيدة المرسل إليه وإيمانه، ثم أتبع ذلك بشرح عن العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، وكيف أن غير المسلمين يجب أن يكونوا خاضعين لسلطان المسلمين، وبيّن كيف أن المسلم إذا ترك أرضه للعدو دون أن يحاربه يكون مخالفاً لتعاليم الله سبحانه وتعالى، كما بين الأوضاع السيئة التي حلت بأراضي الجاوى، وأن سبب ذلك هو البعد عن تعاليم الدين الحنيف. وأنه كلما كان إيمان هؤلاء قوياً كانت لهم القوة والمنعة والوحدة، الأمر الذي يوصلهم إلى بناء إمبراطورية جاوية مسلمة، بدلاً من هذه الدولة الكافرة القائمة حالياً. ومنذ أن سمع شيخنا من قريبه الجاوي هذه الأنباء، نذر نفسه أن يدعو كل يوم أمام الكعبة، بأن يخذل هؤلاء الخونة، ويترك جثثهم عارية على تراب آتشي. هذا ما سمعته من الشيخ، بيد أنني قرأت الرسالة التي بعث بها الحاكم الإداري لقريبه الشيخ، وفيها يعترف بخطئه ويعتذر عن ذلك، بعدم معرفته بالأمور الدينية. ولقد وجد الوسيلة التي اعتذر بها للسلطات عن عدم قيامه بالمهمة المذكورة،

وأنه سوف يدعو الله لنصره المسلمين دائماً، ومن هنا نرى أن الحج عبارة عن قناة تجري فيها تيارات الحياة الإسلامية إلى أراضي الجاوى.

من خلال اختلاطي بعدد من أهالي لامبونج الذين قدموا إلى مكة، بقصد أداء فريضة الحج، أستطيع أن أقول: إن الفرد من هؤلاء يتلقى تدريبات كاملة في الفروع الثلاثة للطرق الصوفية، على الرغم من أن هذه المراكز العلمية، لا توجد كما هي موجودة في مرتفعات بادانج في بالمبانج وآتشة. وعلى العموم فإن العناصر المثقفة في المستوطنة الجاوية في مكة تلعب دوراً كبيراً، أكثر من الأفراد الذين هم على شاكلة المطوف اللامبونجي المذكور آنفاً. وإذا أردت بسط هذا الموضوع بالشرح والتفصيل سأجدني مضطراً لأن أعيد ما سبق وذكرته بكلمات مختلفة لها المعنى نفسه. إن وظيفة أفراد الطبقة المثقفة ونشاطهم لا تختلف كثيراً بين عالم وآخر، إلا في بعض التفصيلات غير المهمة. ولهذا فسنقصر حديثنا على بعض العلماء البارزين، ونتعرف على آرائهم وآراء أصدقائهم وتلاميذهم حول ماضيهم وأنماط حياتهم.

علماء الجاوى من بتافيا

إن أكبر علماء الجاوى وأكبرهم سناً هو العالم (جنيد)[1] وقد قدم من بتافيا قبل خمسين سنة، لم يعد بعدها إلى الوطن الأم، وفي خلال هذه السنين الحافلة اشتغل بالعلوم والدراسات المتعمقة. ولقد كان من أساتذته المفتي (جمال)[2] الذي لا يعرفه أبناء هذا الجيل إلا باسمه الأول. ومن الأشخاص المشهورين الذين ينتمون إلى الأصول الجاوية (الخطيب سامباس) من بورنيو، الذي يقدره الناس كثيراً لدرجة أنهم يضيفون كلمة المبجل قبل التفوه بذكر اسمه. وهو ضليع بمختلف العلوم، كما أنه شيخ طريقة. ولقد أسهم في إدخال عدد من أبناء الجاوى في الطريقة القادرية

---

(١) لم نجد فيما لدينا من مراجع ترجمة لحياته (المترجم).

(٢) هو جمال بن عبد الله بن شيخ عمر الحنفي المكي، مفتي بلد الله الحرام. كان شيخ العلماء ومرجع الفقهاء، ثم أضيف إليه أعمال الفتوى. وكانت وفاته سنة ١٢٨٤هـ، وقد خلفه في الفتوى الشيخ عبد الرحمن سراج كما خلفه في مشيخة العلماء.

التي ينتمي إليها. ومن هؤلاء أيضاً عبد الغني بيما[1] من سمباوا والذي كان أحد الأتقياء جداً. وكذلك إسماعيل مينانج كابو (منيكابو)[2] من سومطرة، الذي كان شديد التعصب عاطفياً ومتعلماً إلى حد ما، وكان شديد الاهتمام بآراء مواطنيه المتنوعة، وهناك غيرهم كثير ممن هم أقل شهرة ممن قدموا إلى مكة منذ وقت قديم. إن الجنيد ما يزال على قيد الحياة، كما أنه يشارك في المناسبات العائلية والدينية، حيث يعهد إليه في الغالب بتسمية الأطفال الذين ينتمون إلى الأصول الجاوية، كما أنه يتولى أمر الدعاء في نهاية قراءة القرآن، أو يتولى القيام بالذكر، على الرغم من أن صوته أصبح غير واضح، نظراً لكبر سنه، وسقوط معظم أسنانه. وفي الأيام الأولى كان يدرس القواعد العربية والفقه في بيته للطلاب القادمين من بتافيا ومن مناطق الجاوى الأخرى، ولا سيما القادمين من بالي وسمباوا الذين يستعملون لغة الملايو في التدريس، ولقد كان الجنيد حريصاً على تعليم طلابه قراءة الكتب العربية بأسرع وقت ممكن؛ لأن اللغة البتافية كانت أداة ثقيلة في التعليم. وكان يلقي دروسه في كافة المعارف، إما في بيته أو في الحرم الشريف. وقد كان من بين طلابه شبان الجاوى، الذين كانوا يستخدمون لهجات أخرى غير الملاوية والذين قطعوا شوطاً أكبر في دراستهم وتعلمهم. إن الشهرة العظيمة التي كان يتمتع بها هذا العالم، دعت السلطة إلى أن يدرج اسمه في قائمة المنتفعين من جراية القمح السنوية، التي تمنح لمدرسي الحرم المكي. وقد أجبر على اعتزال التدريس منذ عدة سنوات، وقد حل في منصبه من هم أقل منه كفاءة.

---

(١) عبد الغني بيما الجاوي: نزيل البلد الحرام، قدم مكة صغيراً، وقرأ على مشايخها، وانتفع بهم، ودرس بالمسجد الحرام، وتخرج عليه أكثر علماء الجاوى، توفي بمكة عام ١٢٧٠هـ ودفن بالمعلاة (نشر النور والزهر ج١ ص٢١٧ ـ ٢١٨).

(٢) هو إسماعيل منكابو، الخالدي الشافعي، ولد ببلده، وقدم مع والده مكة، ونشأ بها، وقرأ على مشايخ الحرم، وكان مواظباً على التدريس والإفادة، صالحاً ناسكاً، ملازماً للعبادة، وتلاوة القرآن، توفي بمكة في نيف وثمانين ومائتين وألف (انظر نشر النور والزهر ج١ ص٩٥).

لقد أنجب الجنيد ولدين من زوجة مصرية، هما سعيد وأسعد، وقد غنما قسطاً وافر من الدراسات العربية. فدرسا عناصر العلوم إلى جانب والدهما. كما أخذا العلم عمن عاصر والدهما من عناصر الجاوى، مثل السيد عبد الغني بيما. وقد درسا أيضاً في وقت لاحق على أيدي أساتذة من المذهب الشافعي، مثل مصطفى عفيفي وأحمد دحلان والمرحوم مداح[١] والنحراوي[٢]. وهؤلاء جميعاً كانت محاضراتهم تلقى عناية من الطلبة الجاويين. لقد خلف سعيد وأسعد أباهما في التدريس حينما خلد إلى الراحة. وقد توفي سعيد منذ بضع سنوات عن عمر يقارب الخامسة والأربعين، بينما لا يزال أسعد، الذي جاوز الأربعين عاماً، يدرس أبناء قومه من بتافيا ومن المناطق الأخرى. ولا يزال أكثر علماء الجاوى وأعلاهم مرتبة يقبلون يد شيخهم الأكبر الجنيد ويعدُّونه أستاذهم الأعظم.

لقد تزوجت ابنة الجنيد من أحد علماء بتافيا المدعو مجتبى، والذي قضى ما يزيد على نصف عمره في مكة. لقد بدأ مجتبى دراساته الشرعية قبل قدومه إلى الحج أول مرة. ويتكلم لهجة ملاوية أفضل وألطف وينقطها بمهارة تفوق حماه. وبعد أن تبحر في دراساته على يد الجنيد والأساتذة العرب من أمثال النحراوي، ومداح وحسب الله بدأ التدريس في مكة، غير أنه لا يزال يتحين الفرص لسماع أساتذته القدامى. ولقد كان لديه الكثير من طلاب العلم. وكان أصدقاؤه وأقرباؤه يرسلون إليه عائدات أملاكه في الوطن الأم، الأمر الذي وفر له دخلاً كبيراً. ولم تكن هذه الحياة الهادئة لترضيه بشكل دائم فكان كثير الهجرة والترحال كغيره من أبناء الجالية الجاوية. فقد كان يترك الجنيد ليقوم بشأن ابنته، ليزور زوجتيه الأخريين في بتافيا، حيث يمضي

---

(١) هو علي بن محمد المداح المصري الشافعي نزيل مكة المشرفة، قرأ العلوم بالجامع الأزهر، ثم قدم مكة وجاور بها، ومكث يدرس بالمسجد الحرام، كان كثير العبادة ملازماً على القيام والطواف والصيام. توفي عام ١٢٧٧هـ (انظر نشر النور والزهر ج٢ ص٣٢٤).

(٢) هو السيد أحمد عبد الرحمن بن أحمد الشافعي المكي الشهير بالنحراوي، طلب العلم بمصر وأجازوه في التدريس، ثم جاء للحج وجاور بمكة، وقد تخرج على يديه الكثير من العلماء، توفي بمكة سنة ١٢٩١ هـ ودفن بالمعلاة (انظر نشر النور والزهر ج١ ص٨٥).

سنة أو نحوها يشرف على تصريف أموره هناك، ويبيع بعض الكتب التي أحضرها من مكة، ويكرس ما تبقى من وقته في تعليم أبناء قومه الراغبين في طلب العلم.

لقد كان مسلكه في علاقاته الاجتماعية متواضعاً ورفيع المستوى. فقد كان يتردد لحظة قبل إجابته عن أي سؤال ثم يتقدم بجوابه، إما بلهجة ملاوية لطيفة، أو لغة عربية جميلة، آخذاً بعين الاعتبار اللغة التي يعرضها السائل. ولم يكن ليرفض طلباً قط، ولم يصحح رأياً لأحد.

لذا كانت أخلاقه الرفيعة تبهر أبناء جلدته، الذين كانوا شديدي التأثر به. غير أن رحلاته المتكررة وبعده عن مكة لم تسمح له بأن يحتل مركز الصدارة بين رجال العلم من أبناء الجاوى، ومع ذلك فقد كان شخصية شعبية مألوفة ومحبوبة من أبناء وطنه.

المناطق اللغوية في جزر الهند الشرقية

لنترك منطقة بتافيا، ونوجه أنظارنا إلى الجزء الغربي من جزيرة جاوة (منطقة الصوند اللغوية (Sundenes Linguistic Area) فهذه المنطقة لا نظير لها بين سكان جزر الهند الشرقية. في عدد الوافدين من الحجاج أو طلاب العلم إلى مكة. لقد وجد الإسلام عند بدء انتشاره في غرب جزيرة جاوة ظروفاً أكثر سهولة مما هو الحال في الأجزاء الوسطى والشرقية، فلم يصطدم هنا بالتقاليد، عميقة التأثير في نفوس الناس. لذا نجد أن أعظم رجالات العلوم الشرعية قد برزوا من سلطنة بانتن Banten غير أن بريانجان Priangan (Vulgo: Preanger) تعد أكثر المناطق تزويداً لمكة بالحجاج أو طلاب العلم.

إن لغة الصوندا لم ترتق إلى مستوى رفيع، تكون معه لغة الحضارة الإسلامية. ويمكن القول: إن اللغة الملاوية واللغة الجاوية هما الممثلتان للغة هذه الحضارة، يأتي بعدهما وعلى نطاق أضيق اللغة المادروسية Madurese واللغة المكاسارية Makasarish والبوغينيزية Buginese. وفي اللغتين الأوليين نجد الكثير من التعابير العربية المترجمة، وكذلك الكثير من المصنفات والتفسيرات والمؤلفات الدينية، مكتوبة بلهجة محلية مستقلة عن

العربية، بأسلوب طلي وناجح. أما اللغات الثلاث الأخرى فقد اكتست بحلة الإسلام بدرجة أقل من اللغتين الأوليين. لهذا كان يتوجب على أبناء هذه اللغات، إذا أرادوا طلب العلم، ولم يستطيعوا تعلم اللغة العربية، أن يتعلموا إحدى اللغتين السابقتين، وهما الجاوية والملاوية. إن لغة الصوندا ليس لها قيمة علمية كبيرة، وكذلك اللغة الأتشية واللامبونجية. وإن طلاب العلم في هذه المناطق لا يتعلمون بلغتهم الوطنية وإنما بلغة أجنبية. غير أنه يتوفر للمبتدئين منهم مذكرات قصيرة أو ترجمات صغيرة بلغتهم الأم، يقوم بإملائها مدرسون محليون من المنطقة نفسها.

إن الكثير ممن يتكلمون لغة صوندا لا بدّ لهم من تعلم لغة جاوة، إذا أرادوا طلب العلم. أما الآخرون من الأتشين واللامبونجيين والسمباوا فيتعلمون الملاوية، وهذا الخيار لا يقتصر على الوطن الأم، بل هو موجود في مكة أيضاً.

والاختلاف الرئيس بين طريقة المكيين والوطنيين في أساليب التدريس، هو أنهم في مكة يستخدمون اللغة الجاوية أو الملاوية، بشكل دائم على أنها وسيلة لإطلاع الدارسين على اللغة العربية، ولا سيما مبادئ القواعد، وبذلك يمكن لهم عبور هذا الجسر إلى الدراسة الفعلية لكتب اللغة العربية في موضوعات الفقه والعقيدة وغيرها. وتستعمل اللغة الوطنية لتفسير هذه الكتب وتوضيحها، حتى إذا ما اتقنت العربية بدا أن هذه اللغات ضحلة ولا تفي بالغرض.

أما في بلاد الجاوى فتستخدم الكتب المكتوبة باللغة الجاوية أو الملاوية، وفي بعض الأحيان يبدأ التحضير للدراسة باللغة العربية منذ وقت مبكر، من خلال تهيئة قصيرة للطالب في هذا المجال. وهناك مناطق محدودة مثل سامارانج Samarang وسورابايا Surabaya والمناطق الداخلية الأخرى، يقوم فيها المدرسون المتخرجون من مدارس عربية في مكة بتطبيق النمط المكي في التدريس. وينتشر هذا النمط في المناطق العليا من جزيرة جاوة الغربية، ويحل بالتدريج محل النمط الجاوي القديم.

قد يبدو غريباً أول وهلة تدريس اللغة العربية قبل أن تكون لدى الطلاب فكرة مسبقة عنها. غير أن هذا النمط من التدريس عملي جداً في ضوء متطلبات الدراسة المفروضة على الطلاب في مدارس جزيرة جاوة. فالطلبة في مكة يعانون مشكلات لا حصر لها في فهم تصريف الأفعال واستيعاب قواعد اللغة العربية؛ لأنه بدون ذلك لا يمكن فهم كتب الفقه وتحليلها. فعند تصريف فعل من الأفعال في اللغة العربية لا بدّ أن يكتب الطالب ترجمة هذا التصريف باللغة الجاوية أو الملاوية ليتمكن من فهمه، وبعد أن يستظهر الطالب صيغ الأفعال المختلفة، يقوم بتطبيق ذلك، حيث يبدأ بتعلم إعراب الكلمات المختلفة والجمل، من خلال كتاب في القواعد، ولا بد من الاستعانة هنا أيضاً بالترجمة إلى اللغة الأم، لفهم محتوى هذه الجمل، وإذا كان الطالب لا يجيد لغة الملايو أو اللغة الجاوية فعليه أن يترجم أيضاً هذه المصطلحات إلى لغته الخاصة ليفهم الملاوية أو الجاوية أولاً، ومن ثم يفهم اللغة العربية. وبعد أن ينهي الطالب مبادئ اللغة العربية، يتناول كتاباً في الفقه بالطريقة نفسها. وحينما لا يفهم الطالب بعض الموضوعات لا بد له من ترجمتها إلى إحدى لغتي الإسلام في بلاد الجاوى وهما اللغة الملاوية أو اللغة الجاوية.

إن مفردات اللغة العربية تكتسب تدريجياً من خلال القراءة بإرشاد المدرس وتوجيهها. وهناك ميزة يمتاز بها الدارسون في مكة عن زملائهم الدارسين في الوطن الأم، هي أن لغة الحياة اليومية، التي يكتسبها المقيمون في مكة، لا يمكن أن يعوضها شيء آخر، حتى لو كان الدارس في الوطن الأم يتعلم العربية من خلال مدرس عربي، أو من خلال مدرس يعرف العربية.

لو افترضنا أن الدراسة في المدارس الموجودة في الأراضي الجاوية بدأت كما تبدأ الدراسة بمكة من خلال كتب القواعد وتصريف الأفعال، فإن حماس الكثيرين من طلاب العلم سيخف، وسيغادر الطلبة المدارس، دون أن يتعلموا شيئاً من العلوم الشرعية. والأسلوب المتبع مع هؤلاء المبتدئين هو إعطاؤهم مع مبادئ اللغة العربية شيئاً من مبادئ الفقه والعقيدة، ويقوم المدرس بتفسير هذه النصوص، فيكتب الدارسون التفسير بين سطور النص، علماً بأن كثيراً من

العبارات المستعملة معروفة لدى جمهور الناس. والحقيقة أن ضبط الكتابة والقراءة السليمة أمر متعذر في كثير من الأحيان. وعلى الرغم من أن هذه الطريقة مرهقة في التعليم، إلا أن المرء ليصاب بالذهول أحياناً من النجاح الذي يحرزه بعض الطلبة في هذا المجال. لقد شاهدت في مكة طلاباً من بونوروقو Ponorogo وباشيتان Patjitan درسوا كتب الفقه بالطريقة المذكورة سابقاً، يترجمون بطلاقة تامة ودقة، وبصورة تشابه زملاءهم من سامارانج وسواربايا الذين درسوا بالطريقة العربية. والفرق الوحيد هو أن هؤلاء لا يجيدون القراءة بالعربية، ولا يعرفون مواضع الكلمات وصيغتها في الجملة، غير أنهم يعطون المعنى العام بصورة دقيقة.

إن جميع مدرسي الجاوى في مكة يدرسون بالطريقة العربية، غير أنهم يأخذون بعين الاعتبار طرق التدريس السائدة في الوطن الأم. فيبدؤون مع بعض الطلبة منذ البدايات الأولى، ومع آخرين يضطرون إلى مراجعة ما لديهم من معلومات سابقة، ثم بعد ذلك يقومون بتدريسهم أساليب اللغة المختلفة المذكورة سابقاً، ويقوم بعض المدرسين بفصل الطلبة المتقدمين، وهؤلاء في الغالب هم الطلبة الذين بدؤوا دراساتهم في مكة المكرمة، والواقع أنه لا ضير من سماع المحاضرات من قبل طلبة ذوي مستويات متباينة، لأن الطلبة يساعد بعضهم بعضاً، فالقوي يساعد الضعيف، وما ينقص عند بعضهم يكمله بعضهم الآخر. وفي بعض الأحيان فإن مدة الدراسة التي يقضيها المتعلمون بهذه الطريقة تختلف بين شخص وآخر، فبعضهم قد يستغرق في مرحلة دراسية مدة أطول من زملائه، غير أنه في المرحلة التالية ربما يتفوق على أقرانه بشكل كبير. والطلبة في الغالب يتعلمون من اجتماعهم ووجودهم مع بعضهم علوماً توازي ما تلقوه من المحاضرات.

علماء صوندا في مكة

بعد هذا الاستطراد سنتوقف هنيهة مع أهل العلم من جزيرة صوندا. لقد جلب انتباهنا إليهم عالمان بسبب العدد الكبير من التلاميذ الذين يحيطون بهم. ومعظم الطلاب هم من شباب البريانجاني Pringan. إن كلاً من محمد وحسن مصطفى معروفان باسم منطقتهما قاروت Garout في

بريانجان. إن محمد قاروت رجل كبير في السن، ولم يأت إلى مكة طالب علم، وإنما جاء عالماً متعطشاً لمزيد من العلوم، ولقد وجد ضالته في حلقات تدريس عدد من العلماء المصريين والداغستانيين. فنهل منها كما نهل أقرانه من قبل. ولقد كان النشاط الصاخب في مكة خلال أيام الأعياد والمواسم وانقطاع حلقات التدريس دافعاً له لزيارة موطنه الأصلي جاوة، وبذلك وجدت حلقة الاتصال بين مكة وموطنه الأصلي. ولقد كان يلقي محاضراته في مكة كما يلقيها في الوطن الأم في كل مجالات العلوم الشرعية، وكان يلقىٰ ثناء وشكر الجميع على ذلك. وفي خلال السنوات العشر الأخيرة استقر في مكة ولم يغادرها. ولقد جمع ثروة لا بأس بها، أسهم بها أقرباؤه وتلاميذه، مكنته من أن يقيم داراً له في سفح الجبل المطل على حي القشاشية. وفي خلال الأعوام الستة الأخيرة كان يلقي لطلابه محاضرتين يومياً في الفقه وقواعد اللغة العربية، غير أن اهتماماته الأولى كانت في التصوف. لقد كان مجلسه يحوي قرابة ستين أو سبعين مريداً من الجاويين والصوندانيين يطيعونه إطاعة لا نظير لها. أو على حد تعبير المتصوفة كالجثة بين يدي المغسل. كما يفد إلى مجلسه الكثير من الحجاج كل عام، ليحضروا مجلسه في أثناء وجودهم بمكة.

أما حسن مصطفى فهو تلميذ محمد في جزيرة جاوة، ولقد قدم إلى مكة منذ أربعة عشر عاماً بهدف طلب العلم والأخذ من شيوخ الجاوى في مكة، أمثال حسب الله ومصطفى وعبد الله الزواوي وغيرهم. وفي خلال السنوات العشر الماضية كان يقوم بالتدريس. كما أنه قد ألف بعض الكتب التي طبعت له في مصر، منها كتاب في علم العروض. لقد كان منزل الشيخ يعج بعد صلاة الفجر وبعد الظهيرة بعدد كبير من الجاويين والصوانديين الذين يفدون لسماع محاضراته. أما في الأوقات الأخرى فقد كان شيخنا يستمع ويدرس على أيدي شيوخ آخرين. وقد عاد منذ سنين قليلة إلى الوطن الأم لا ليستقر فيه، وإنما لينظم أعماله وممتلكاته هناك.

علماء بانتن في مكة

ننتقل الآن إلى مقاطعة أخرى هي بانتن Banten التي يمثل سكانها جميع فئات المستوطنة الجاوية في مكة. إن الرواد العظام في الحركة العلمية والفكرية

في مكة ينتمون إلى بانتن، ويأتي على رأس هؤلاء جميعاً أستاذ الشريعة الشيخ محمد نواوي المعروف باسم الشيخ نواوي بانتن. والاسم نواوي مأخوذ من اسم أحد أئمة الفقه الشافعي (وهو الإمام النووي). لقد كان أبوه عمر ابن عربي إمام مسجد في تنارا Tanara في بانتن. وقد علم الأب بادئ ذي بدء أبناءه الثلاثة العلوم الشرعية وهم نواوي وتميم وأحمد. ثم أخذ هؤلاء العلم من عالم شهير في بانتن هو الحاج سهل، ثم أرسلهم أبوهم إلى بورواكارتا Purwakarta في كراونج Krawang حيث درسوا على يد الشيخ رادين حاج يوسف، الذي كان يستقطب التلاميذ من مختلف مناطق جزيرة جاوة، وخاصة المناطق الغربية منها. ولقد أدى الأبناء الثلاثة فريضة الحج في وقت مبكر. مكث نواوي بعدها ثلاث سنوات في المدينة المقدسة، ثم غادرها إلى موطنه بالكثير من المعارف والعلوم الشرعية. ولقد اختمرت في ذهنه فكرة العودة إلى المدينة المقدسة، والإقامة الدائمة فيها، بجوار بيت الله الحرام، وقد سارع بتنفيذ الفكرة. وفي خلال الثلاثين عاماً الماضية كان شيخنا دائم التزود بالمعارف الشرعية في مختلف فروعها. وقد حاول في أثناء وجوده في مكة أن يمهد السبيل للطلبة الدارسين من أبناء جلدته في مكة المكرمة. لقد أخذ شيخنا العلم عن عدد من علماء الجاوى المشهورين القدماء مثل الخطيب سامباس وعبد الغني بيما وغيرهم، غير أن شيوخه الفعليين هم يوسف والسمبولاويني والنحراوي من مصر وعبد الحميد الداغستاني - توفي منذ فترة وجيزة - الذي لم ينقطع عن دروسه حتى نهاية حياته. لقد كرس النواوي كل وقته لطلب العلم في بداية حياته، غير أنه في الخمسة عشر عاماً الماضية، كان يدرس العلم في الصباح، حيث يقوم بالتدريس وإلقاء المحاضرات منذ السابعة والنصف وحتى الثانية عشرة، بمعدل ثلاث محاضرات يومياً، يعطي خلالها قواعد اللغة العربية للمبتدئين، ثم يقوم بتدريس بعض الطلاب المتقدمين ممن تلقوا بعض المعارف العلمية في الوطن الأم. ولقد كان هؤلاء بما فيهم أخوه الأصغر عبد الله الذي يبلغ من العمر ستة عشر عاماً، يخففون من العبء الثقيل الملقى على عاتقه، حيث يقومون بالتدريس لهؤلاء المبتدئين.

لقد كان نواوي مثالاً فريداً في تغلبه على الصعاب التي تعترض الفرد الجاوي، عند تعلمه اللغة العربية. ففي خلال الثلاثين عاماً المنصرمة، ومن خلال التعلم المتواصل استطاع أن يحفظ القرآن الكريم، وأن يرتله ترتيلاً دقيقاً. وكان عند قراءته لنصوص من اللغة العربية، يخرج الحروف الساكنة من مخارجها الصحيحة، لا يختلف في ذلك عن أي عربي. غير أنه حينما يتكلم باللهجة المحلية اليومية يخلط في حديثه بين لغته الجاوية واللغة العربية وعندها يصعب عنده التمييز بين حروف الحاء والخاء والعين والقاف. وهذه الحروف الأربعة يصعب نطقها والتمييز بينها من قبل أبناء الجاوى، الأمر الذي يثير ضحك المكيين في بعض الأحيان. وربما تعود عدم طلاقة لسان النواوي، على الرغم من صلاته القوية بالعلماء العرب، إلى أن زوجته جاوية من بنات الوطن الأم. ولقد كان لها نفوذ كبير عليه خاصة وأنها كانت تعارض زواجه من امرأة أخرى. وعلى العموم فإن مواهب شيخنا الوقادة لتبدو بالقلم أكثر من اللسان. لقد كان لدى شيخنا عيب بارز هو عدم اعتنائه بمظهره الخارجي. ولو لم يكن الإسلام قد جعل النظافة واجباً، لوجدنا أن هذا الرجل سيهملها تماماً. لقد كانت ملابسه غير نظيفة، وكذلك كانت عمامته في أثناء إلقائه دروسه في الطابق الأرضي من بيته، وحتى ثياب خروجه، حسب آراء المكيين، لا تتناسب مع كرامة مركزه الاجتماعي. وكان جسمه المحني يجعل شكله أصغر من الحقيقة، فيسير في الطريق كما لو كانت الأرض كلها كتاباً ضخماً يقرأ بين سطوره. وعندما سألته مرة لماذا لا يحاضر في الحرم؟ أجابني بأن ملابسه المتواضعة ومظهره الخارجي لا تتناسب والمظهر اللائق للأساتذة العرب. وعندما قلت له: إن مواطنين من أبناء جلدتك أقل علماً يلقون مثل هذه المحاضرات أجابني: إذا كانوا قد نالوا هذا الشرف الرفيع فقد فازوا بها بالتأكيد.

وهذا قد لا يحملنا على الاعتقاد بأنه متواضع حقاً، على الرغم من أنه قد عبر عن نفسه بقوله: إنه لا يساوي الغبار العالق على أقدام طلاب العلم. فقد كان يعدّ نفسه من هؤلاء العلماء. لقد كان مواطنوه يلثمون يده لكونه عالماً، كما أنه لم يرفض النظر في فتوى شرعية طلبت منه، أما في العلاقات

الاجتماعية، فهو يشترك في الحديث مشاركة لطيفة دون أن يستأثر هو وحده بذلك. ولم يكن ليبدأ نقاشاً علمياً دون أن تكون البداية من الآخرين. والعربي الذي لم يعرفه من قبل، قد تمر به أمسية في الاجتماع معه، دون أن يعرف أنه مؤلف لحوالي عشرين كتاباً من الأعمال العلمية في اللغة العربية.

وعلى الرغم من أن شخصيته ليست بالقوية، إلا أن تأثيره الخلقي كان ذائع الصيت والشهرة. لقد كان لوجوده الأثر الأكبر في اهتمام الكثير من أبناء صوندا وجاوة والملايو بدراسة الإسلام دراسة شاملة، بالقيم الدينية والمفاهيم السياسية بأرقى صورها. تلك المفاهيم التي يزداد انتشارها بين أبناء الإسلام. غير أن النواوي لا يظهر اعترافه بأنه وراء مثل هذه الحركات. وإنه لمن المؤكد حقاً أن الرجل قد أسهم في إيجاد المشكلات التي تواجه الحكومة (الهولندية) من قبل المواطنين الآتشيين. وعلى مستوى الحديث الشفوي تجده يخالف أولئك الموظفين الوطنيين الذين يرون ضرورة ارتباط أراضي الجاوى بالحكومات الغربية. ولقد كان يقابل بالترحاب فكرة إحياء سلطنة بانتن، أو قيام حكومة إسلامية مستقلة في جزر الهند الشرقية، سواء أكانت تقوم بتطبيق الشريعة الإسلامية أم أي نوع من الروابط الأخرى التقليدية غير النظامية. ولم يكن لدى شيخنا أي مطامع بأي دور سياسي ولم يرو أحد عنه ذلك. إن أمر خدمة الحكومة الكافرة مستحيل بالنسبة له، ولو أن أباه وأخاه الحاج أحمد كانا يعملان أئمة مساجد في تلك البلاد.

إن الطموح الشخصي لدى الشيخ النواوي ينصرف إلى الأعمال العلمية والأدبية. فقد قام في السابق بدفع عدد من كتبه للمطابع المصرية. أما في الآونة الأخيرة فقد قام بتفسير للقرآن الكريم طبعه في المطبعة الحديثة التي أقيمت في مكة. أما أعماله العلمية التي نشرت في القاهرة، فنجد منها شرحاً للآجرومية التي تعنى بحقل القواعد العربية عام ١٨٨١م. وكذلك رسالة في الأدب بعنوان لباب البيان عام ١٨٨٤م. وفي مجال العقيدة له كتاب دراية اليقين عام ١٨٨٦م وهو شرح لكتاب السنوسي المشهور. وكذلك كتاب فتح المجيب على الدر الفريد، وهو شرح لكتاب أستاذه

النحراوي عام ١٨٨١م. يضاف إلى ذلك ثلاثة كتب أخرى في العقيدة تبحث في أركان الإسلام الخمسة. وهناك شرحان لأشعار المولد للبرزنجي أحدهما في موضوع الإسراء والمعراج، والثاني في شرح أسماء الله الحسنى. كما كتب النواوي شرحين كبيرين في الفقه، وكذلك شرح مناسك الشربيني، وهو يتعلق بأمور الحج وطبع عام ١٨٨٠م، بالإضافة إلى رسالتين صغيرتين عن أعمال العلماء الحضرميين، وهما سلوك الجادة عام ١٨٨٣م، وسلم المناجاة عام ١٨٨٤م، وتبحثان في بعض القضايا المتعلقة بالشعائر الدينية.

وفي مجال التصوف كان شيخنا يتبع خط الإمام الغزالي، وكذلك كان علماء الحرم المكي كافة كما أوضحنا سابقاً. ولقد كان النواوي يقدم لتلاميذه أعمال المتصوفة، الذين تغلب العناصر الأخلاقية لديهم على أمور التصوف السرية. ولم يكن لينصح تلاميذه بالالتحاق بطريقة ما، ولكنه لم يحاول منعهم إذا صمموا على الانتساب لإحدى هذه الطرق. ومن المحادثات الكثيرة التي كانت بيني وبين النواوي، اتضح لي أنه وجد لدى مواطنيه الجهلة ولعاً كبيراً بالتصوف. ولعل هذه الظروف السائدة دعته إلى أن يكون أكثر تساهلاً في أخطاء الطرق الصوفية، مما هو عليه الحال لدى العلماء العرب من أقرانه وزملائه. وعندما أرسل له السيد عثمان بن يحيى أحد العلماء العرب خطاباً يتضمن هجوماً عنيفاً على الطرق الصوفية، التي تنتشر انتشاراً واسعاً في مختلف بلاد الجاوى، لم يكن من النواوي إلا أن وافق على مضمون ذلك الكتاب، كما دعم خطوات السيد بكلمات المدح والإطراء، وقد رأى ذلك نوعاً من التقارب في وجهات النظر بين الرجلين. لقد أخذ عثمان بن يحيى على عاتقه مناصبة العداء للطرق الصوفية، ولم يكن ليذكر ذلك صراحة، وإنما كان يتناول مثل هذه الأمور بالتلميح، من خلال خطب مليئة بالحقد على هذه الطرق. ولم يكن ليسع النواوي سوى الموافقة على ما يقوله السيد عثمان بن يحيى، على الرغم من اختلاف وجهتي نظريهما حول المعايير المختلفة، فيما يتعلق بأمور الطرق الصوفية.

ومهما يكن من أمر فإن الصوفية التي مارسها النواوي نفسه كانت صوفية معتدلة. وهي صوفية الغزالي الأخلاقية بما فيها من تمسك بالقيم

الدينية. وهذا الخط من الصوفية هو الذي انتهجه النواوي في أيامه الأخيرة. ومما يدلل على ذلك قيام النواوي نفسه بشرح لكتاب الغزالي بداية النهاية طبع عام ١٨٨١م وشرح آخر لقصيدة صوفية نظمها زين الدين المليباري[١] طبع عام ١٨٨٤م.

إن تميم الأخ الثاني للشيخ النواوي لم ينل شهرة واسعة في العلم كأخيه، غير أنه كان ذا أسلوب عربي جميل، ويتكلم اللغة العربية بطلاقة تامة. ولقد كان فيما مضى يمتهن أعمال الطوافة، وقد سبق له العمل في سنغافورة بصفته وكيلاً قدوم الحجيج إلى مكة، قبل استخدام القوارب البخارية. فجمع ثروة كبيرة من المال. ولست أدري لماذا تمنعه السلطات من الإقامة في موطنه بانتن. وفي الآونة الأخيرة تضاءلت ثروة تميم، وهو يعيش الآن في بينانج.

لقد عمل النواوي نفسه مطوفاً عدة سنوات، غير أن تلاميذه يعدُّون ذلك أمراً لا يتناسب ومرتبة الشيخ العلمية الرفيعة. ولقد روي أن أقرباء الشيخ قد حاولوا الحصول على تصريح (تقرير) بأعمال الطوافة بموجب قوانين صدرت مؤخراً لتنظيم أعمال الطوافة، مستفيدين من اسمه وشهرته، في الوقت الذي كان فيه الشيخ في زيارة للمدينة المنورة. ومن الجدير بالذكر أن الشيخ كان على علم بالدوافع الاستغلالية للتنظيم الجديد للطوافة. غير أنه لم يكن ليفكر قط في استغلال الحجاج القادمين، إذ ليس لديه الرغبة أو الوقت الكافي لذلك، كما لم تكن لديه الموهبة لاكتساب المال، ولم يكن يرنو لحياة رغيدة هادئة. وعلى الرغم من الهدايا والهبات الجزيلة التي تنهال عليه كالغيث المدرار، فقد كان يعيش ببساطة مطلقة، إذ كان يكتب كتبه ليلاً على ضوء مصباح زيتي صغير (مسرجة) لا يستعمله غيره إلا لإنارة الطريق للضيوف المغادرين من المنزل.

إن زوجة الشيخ النواوي كانت أكثر واقعية منه. إذ كانت تدير وتباشر بعض الأعمال المهمة. ويعود إليها الفضل في إعداد وجبات الطعام

---

(١) هو جد المؤلف زين الدين المليباري الحفيد الذي ورد اسمه سابقاً (المؤلف).

للضيوف الذين كان الشيخ يدعوهم أيام العطلات، وهي بهذا تستحق الشكر لعنايتها بهؤلاء الضيوف، بالرغم من أن الأستاذ نفسه كان يتصرف كما لو كان غريباً عن الدار.

لقد كان للشيخ النواوي قريب يدعى الشيخ المرزوقي[1]. وقد كان ذا مظهر متميز، ويجيد العربية أكثر من الشيخ النواوي. وكان يجلس في مكة إلى الأساتذة الذين كان النواوي يجلس إليهم، على الرغم من فارق السن القريب بينهما. وكان يحضر دروساً للنواوي. لقد كان المرزوقي كثير الترحال، وفي أثناء وجودي في مكة عاد المرزوقي من رحلته الخامسة، ويعيش الشيخ الآن في مكة منذ تسع سنين، ليس له من عمل سوى تدريس طلابه الكثيرين في بيته بعد كل صلاة من الصلوات الخمس المفروضة. ومن الجدير بالذكر أن المرزوقي يجيد اللغة الملاوية بصورة أفضل من الشيخ النواوي، وهو مدرس ناجح، على الرغم من أنه لم يطلع على نصف المصنفات التي اطلع عليها النواوي.

لقد كان المرزوقي أحد أتباع الطريقة القادرية، وقد سهل له هذا أمر التجوال والحركة. ولقد كان صديقاً حميماً للشيخ عبد الكريم الذي سيأتي ذكره فيما بعد. وبعد أن تركت مكة غادرها هو أيضاً. وقد قيل: إنه يقوم بزيارة أصدقائه كما يقوم ببعض الأعمال في وطنه. وأظن أن الرحلة الأخيرة كانت بغرض تهدئة الشائعات التي دارت حوله في الوطن الأم، من قبل موظفي الحكومة. ومن الجدير بالذكر أنه زار في السابق ـ بالإضافة إلى بانتن ـ كلاً من سيام وبالي حيث توجد أقلية من المسلمين هناك. ويشاع الآن أنه زار بينانج ودلي Penang And Deli حيث سلطان دلي الثري، يرحب بزيارات علماء الجاوى الأتقياء بالإضافة إلى أشراف مكة.

---

(١) هو مرزوقي الجاوي الشافعي، المجاور بمكة المكرمة نحواً من خمسين سنة. قرأ على السيد عمر الشامي والشيخ حسب الله وأجازاه في التدريس، فدرس بالمسجد الحرام، وانتفع به كثير من الجاويين، وكان عالماً فاضلاً تقياً مواظباً على العبادات، توفي بمكة سنة ١٣٣٢هـ (انظر نشر النور والزهر ج٢ ص٤٤١).

لقد اكتسب الشيخ إسماعيل في بانتن مركزاً مرموقاً نتيجة لنسبه. فهو أحد أحفاد سلاطين بانتن، الذين يعدّون أنفسهم من السادة. وكان أهل وطنه يطلقون عليه رجل كل شيء Tubagus. لقد كانت أخته زوجاً لنائب السلطان. وقد عين والد زوجه نائباً للسلطان في عهد الإنكليز. تلقى العلم في صغره على يد والده ساديلي، الذي اصطحبه معه إلى الحج منذ نعومة أظفاره. وبعد عودته من مكة تابع البرنامج نفسه الذي اتبعه الشيخ النواوي، حيث درس على الحاج سهل في بانتن ثم سافر إلى بورواكارتا Purwakarta في كراونج Krawang حيث تعلم على يد الحاج يوسف(١). ومن المعلوم أن معظم من نالوا شهرة في العلم من أهل بانتن قد درسوا في هذا المعهد.

لقد كان إسماعيل صغيراً عندما قدم إلى مكة في المرة الثانية. وقد تتلمذ على شيوخ النواوي، غير أنه درس العقيدة والتصوف على شيخ من الأحناف يدعى السيد الكتبي(٢). ولقد عاد بعد سنوات قليلة إلى الوطن الأم، ليقوم بتدريس الموضوعات المساعدة (النحو والصرف وخلافه..) والتي تعد ضرورية لفهم الفقه والعقيدة والتصوف. وحسب التعبير العربي لقد سار بخطى سريعة جداً نحو تحقيق هدفه. فقد اندفع بطبعه الجاوي نحو التصوف على الرغم من ضحالة علمه باللغة العربية. ولقد أخبرني بعض

---

(١) لقد كان هناك الكثير من رجال العلم ممن تتلمذوا على يد الشيخ يوسف منهم الشيخ أبو بكر، الذي درس في مكة قبل عشرين سنة، وهو يدير الآن مدرسة كبيرة في بونتانج Pontang (بانتن). والحاج حميم محمد أشعري في بوغور Bogor وكذلك الحاج عثمان في أندار أندير Andar-andir الذي عاش في مكة ما يقرب من ثمان سنوات. والذي كانت محاضراته تتوقف بين الحين والآخر نتيجة لانشغاله ببعض الوظائف الحكومية منذ تعيينه مرشداً Penghulu. ومن هؤلاء أيضاً محمد ساديلي في سيرانج Serang الذي كان يعول على مشورته كثيراً نائب السلطان. وقد روي عنه أنه كان يدرب تلاميذه تدريبات عسكرية، وكذلك محمود في تيرات Terate والحاج محمود قاصد بيدجي Bedji (Tjiilegon). ويطلق عليه أحياناً اسم واصد، وقد كان المحرك الأول للاضطرابات الأخيرة في (Tjitegon) (المؤلف).

(٢) هو السيد محمد حسين كتبي الحنفي، نزيل مكة المكرمة وفقيهها، قدم مكة سنة ١٢٥٥هـ تولى منصب الفتوى بمكة. وله عدد من المصنفات. توفي بمكة عام ١٢٨١هـ (انظر نشر النور والزهر ج٢ ص٤٢٢).

الطلبة القادمين من صوندا، والذين درسوا مع الشيخ إسماعيل في بانتن عن جهله بأصول العربية، لدرجة أنه كان في شرحه للفرق بين اسمي الإشارة للمذكر والمؤنث هذا وهذه يقول: إن الأولى تعني الشيء القريب، أما الثانية فتعني الشيء البعيد.

لقد ترك الشيخ إسماعيل التدريس في موطنه ثم رحل إلى مكة واستقر بها منذ ثلاثة عشر عاماً. ولقد كان لمزارعه في الوطن الأم، وكذلك لأقربائه الأثرياء، أثر بالغ في زيادة دخله في مكة. فلقد أهداه أقرباؤه ثلاثة مساكن في مكة، كان يعيش في إحداها. وقبل أن يعتل جسمه ويصاب بالمرض كان يحضر باستمرار دروس شيخين من مشايخ الحرم، كما كان يلقي محاضرتين في بيته يومياً لطلابه الذين هم أيضاً طلاب الشيخ النواوي. لقد أكسبته أخلاقه المتواضعة وتقواه وحبه لمساعدة المحتاجين شهرة توازي ما وصل إليه الشيخ النواوي من شهرة اكتسبها بالهيبة والوقار. غير أنه في السنوات الأخيرة أقعده المرض، ولم يكن يستطيع مقابلة أحد سوى أصدقائه المخلصين. ولقد كان بيته في شهر ربيع الأول حيث يقع مولد الرسول الكريم ﷺ يغصّ بالكثير من رجالات الجاوى، على الرغم من أن المولد يحتفى به في مكة بصورة أقل بهجة من الاحتفال به في جزيرة جاوة. وإنه لمن العسير على المرء هناك أن يستجيب للدعوات كافة، التي تقدم له بهذه المناسبة. إن سكان جاوة الذين يسافرون إلى الوطن الأم، ويحضرون احتفالات المولد، يتحدثون عن البهجة في هذا الاحتفال في بلادهم. ولقد نقل هؤلاء هذه المظاهر إلى مكة. وقلما يمر يوم في هذا الشهر إلا وهناك ٥ ـ ١٠ بيوت من بيوت الجاوى يقرأ فيها المولد، ويجتمع فيها الأصدقاء سواء من الجاوى أو من أصدقائهم المكيين من العرب. ولقد كان شيخنا إسماعيل نشيطاً في هذا المجال. فعلى الرغم من مرضه إلا أن شهر ربيع الأول لا يمر دون أن يقام في بيته عدد من الموالد على الرغم من عدم تمكنه من الإسهام فيها.

هناك الكثير من شباب غرب جزيرة جاوة ممن درس العلم وتتلمذ على يد الشيخ النواوي، هم مهيؤون لإعطاء الدروس في الحرم لعدد من أبناء جلدتهم

بالطريقة نفسها التي تلقى بها هؤلاء العلم من الشيخ النواوي، وأمثاله. فعلى سبيل المثال هناك أرشد بن علوان من تنارا Tanara الذي درس في مدرسة والد الشيخ النواوي، ثم تعلم على يد النواوي نفسه، وكذلك على يد أخيه تميم والشيخ المرزوقي. وفي بانتن حضر مجلس الحاج سمعون في باندج لانج Pandeg Lang، كما درس في مكة على عدد من الأساتذة العرب منهم المدرس حسب الله. ومن الأمور الجديرة بالذكر أن الشيخ أرشد قد درس الطب على يد رجل من حضرموت. ولقد كان خلال السنوات الأربع التي وجد فيها في بانتن يقوم بكتابة بعض الوصفات الطبية لمرضاه. كما عمل عضواً في هيئة المحكمة الإسلامية في سيرانج Serang. وحتى ١٨٨٥م كان قد أدى فريضة الحج ثلاث مرات، كان خلالها يعلّم ويتعلم، وقد علمت أخيراً أنه رجع إلى موطنه الأول.

وهناك شخص آخر يدعى أرشد بن أسعد من بانتن كان قد غادر مكة في الوقت نفسه الذي غادر به أرشد الأول. ولما كان والده قد استوطن بتافيا، فقد درس فيها أولاً، ثم رحل إلى مكة، حيث درس على يد الشيخ عبد الغني، ثم على يد الشيخ النواوي، وعدد من المدرسين العرب. وهو يتكلم الملاوية بطلاقة، غير أن لغته العربية غير سليمة. ولقد كان يحضر دروسه الكثير من سكان الملايو وصوندا وجاوة.

لقد كان من بين علماء الجاوى أحمد جاها البالغ من العمر ثلاثين عاماً. وكان شديد التواضع وغزير العلم والمعرفة وهو من أنيار Anyar في بانتن. وقد قضى ما يزيد على نصف عمره في مكة، وقد حاول جهده في أن يقضي فترة من الزمن في الأزهر الشريف في القاهرة، ولقد كان يختلط كثيراً بأقرانه ممن لم ينالوا حظاً كبيراً من العلم. وكان الطلبة الجاويون يجدون متعة في الدراسة معه. وكانوا ينعتونه بشيء من المبالغة التي تعتري الشباب أحياناً قائلين: إنه أكثر علماً من الشيخ النواوي.

لقد قادتني ذكرياتي في علاقاتي الشخصية إلى الإطالة في سرد الأسماء الكثيرة على القارئ، غير أنني أرى أن هناك شخصاً جديراً بالإشارة، ذلك

لأن له نفوذاً كبيراً يفوق من سبق ذكرهم، سواء بين صفوف الجالية الجاوية أو بين صفوف العرب الآخرين، ذلكم هو شيخ الطريقة القادرية عبد الكريم بانتن. الذي نال حظوة في صغره حينما أخذ بيده أحمد خطيب سامباس، ثم ارتفع مقامه عندما أصبح يخدم في بيت الشيخ ذاته. والخطيب سامباس يعد في نظر معاصريه عالماً متبحراً في كافة فروع المعرفة كافة، ويتفوق على أقرانه بأنه وصل إلى أعلى الدرجات في الطريقة القادرية. وقد أسهم في إدخال آلاف الحجاج والمقيمين في مكة في سلك هذه الطريقة. ولو لم يكن الحسد في نظر هؤلاء بغيضاً وخطيئة كبيرة لوجد الكثير من المريدين أنفسهم يحسدون عبد الكريم، الذي كان يمضي ليله ونهاره بجانب الشيخ الكبير سامباس، ويرافقه في كل خطوة يخطوها سواء إلى المسجد أو إلى أي مكان آخر في المدينة. ويعرف الكثير من أسراره الخاصة. وفي غضون بضع سنين أجاز الشيخ تلميذه ليعلم الطريقة الصوفية. وكان هذا كسباً ثميناً حصل عليه التلميذ، أسهم في رفع منزلته، وزاد من التقدير الكبير له على أوسع نطاق. وقد ارتحل الشيخ عبد الكريم إلى سنغافورة حيث أسهم في نشر الصوفية مدة ثلاث سنوات، غادرها إلى موطنه مدة ثلاث سنوات أخرى. ويقال: إن الشيخ سامباس قد أعطاه بعض التعليمات والنصائح في أثناء سفره من مكة مرشداً له ودليلاً في كل أعماله المقبلة. وقد علمت من طلبة عبد الكريم ومريديه بعض هذه النصائح دون أن أتحقق منه شخصياً حول حقيقة هذه النصائح، على الرغم من أني كنت أجلس معه، وندخن سويّاً الكثير من السجائر الجاوية، لاعتقادي أن مثل هذه الأسئلة عن حياته الخاصة قد يراها أموراً غير لائقة.

لقد كان من بين التحذيرات والنصائح التي وجهها إليه شيخه الابتعاد عن النساء والملوك. لقد كان المطلب الأول واضحاً، أما الثاني فلم يدرك الشيخ أبعاده. وربما كان المقيم الهولندي ورجال الحكومة الرسميون في جزر الهند الشرقية هم المقصودون بذلك. لقد كانت نصيحة الخطيب سامباس تعبيراً عن مدى إدراكه هذا البعد المهم، فقد كانت خطب الشيخ عبد الكريم ومواعظه مؤثرة في كافة أرجاء بانتن، الأمر الذي فرض عليه

الرقابة من قبل الحاكم الهولندي، مما قيد حريته وعاق تحركاته، وهذا ما أخبرني به هو نفسه، ثم استطرد قائلاً: إن المئات من أبناء وطنه كانوا يفدون عليه يومياً ليتعلموا أصول الذكر، ويسألونه عن مدى استمرار أو بقاء هذه الحكومة الكافرة في السلطة.

إن أفراد الجاوى يحبون العلماء بطبعهم، وخاصة أولئك الأتقياء الذين يقومون بتذكيرهم بشؤونهم الدينية والدنيوية، ولا شك في أن طبيعة حياة الجاوى وطراز تفكيرهم الذي تأثر فيما مضى بالهندوسية، يزيد من خضوعهم وخاصة الطبقة العامة إلى رجال العلم والمعرفة. ففي القرى النائية مثلاً يتقاضى من يكتب التعاويذ والتمائم، ويطلقون عليه اسم حجي، أكثر مما يتقاضى مدرس القرآن الكريم. أما في طبقات المجتمع العليا ذات الثقافة الجيدة فهناك تقدير عال رفيع للعلماء ولمناحي الحياة الروحية المختلفة. إن الفرد الجاوي لا يطرح سؤالاً مثل: متى تقوم الساعة؟ على أحد من رجال العلم؛ لأن هذا جوابه غير موجود في الكتب، وإنما أجوبة مثل هذه الأسئلة في الغالب تكون في دفاتر عراف القرية، أو من خلال شيخ واصل من أهل السلسلة[1]؟؟!!

إن عامة الشعب الجاوي متعطشون إلى المعجزات. وهم يرنون بأبصارهم إلى المرتبة الرفيعة التي وصل إليها الشيخ عبد الكريم مثلاً، ولسان حالهم يقول: أليس هو وليّاً؟ أو مقرّباً إلى الله؟ أو رجلاً صالحاً؟ ألم تذكر الكرامة في كتب التشريع بصفتها مظهراً من مظاهر الورع والتقوى؟ لقد ظهرت الكثير من الكرامات لكثير من مريدي الشيخ عبد الكريم في أثناء رحلته الأخيرة.

وهناك مثال واحد سمعته من عدد من مريدي الشيخ نستطيع الحكم من خلاله على مقدار انتشار الكثير من الأساطير الموجودة في مناقب الصالحين.

---

(١) ليس ثمة من يعلم متى تقوم الساعة إلا الله سبحانه وتعالى. وعليه فجواب هذا السؤال لا يقدر عليه عراف القرية ولا غيره من أدعياء المعرفة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف، الآية: ١٨٧].

كان عبد الكريم على وشك أن يبرح سنغافورة إلى بتافيا، فاشترى تذكرة على باخرة. وفي اليوم المقرر لسفر الباخرة حضر مريدوه بينما هو تأخر في وداع بعض أصحابه. وانطلقت آخر إشارة لتحرك السفينة دون أن يحضر الشيخ إلى الباخرة. وعلى الرغم من أن هؤلاء المريدين لا يعرفون عبارات الربان والبحارة إلا أنهم يرون أن القبطان كرر الأوامر بقرع أجراس الرحيل، إلا أن البحار المنوط به هذه المهمة لم يتمكن من قرع الجرس أو رفع يده أو إبداء أي إشارة للتحرك. وقد استمر هذا الاضطراب مدة نصف ساعة وصل خلالها الشيخ إلى السفينة. وبكل هدوء وتؤدة اقترب من السفينة وصعد إليها. وما هي إلا دقائق قليلة حتى قرع الجرس وبدأت السفينة رحلتها. وسرعان ما ارتفعت أصوات الدعاء بالشكر إلى الله من مريدي الطريقة القادرية لما حدث لشيخهم.

عاد الشيخ بعد رحلته تلك إلى مكة المكرمة، وقد مضى على وجوده فيها حتى الآن أحد عشر عاماً. وهو يسكن داراً فخمة مؤثثة جيداً، ويشاركه في المسكن فيها بعض أقربائه وأصدقائه، وبعض الطلبة المعوزين من أبناء جلدته. ويتلقى الشيخ الكثير من الهدايا والأعطيات والأموال، غير أنه يستعملها جميعاً في أغراض الطريقة القادرية. لقد كان أسلوب حياته متواضعاً دون تقشف. ولقد كان الشيخ لا يمنع مريديه من التدخين على عكس الكثير من شيوخ مكة، وكانت داره مفتوحة للجميع. كما كان يقدم الطعام الجيد لزائريه دون مغالاة في الترف.

وعندما عاد الشيخ عبد الكريم إلى مكة، كان الشيخ سامباس قد فارق الحياة، غير أنه أوصى وهو على فراش موته أن يخلفه في رئاسة الطريقة الشيخ عبد الكريم. وهكذا ارتفعت منزلة عبد الكريم ارتفاعاً ملموساً. ولم يكن أهل أرخبيل الملايو هم الذين يحتشدون عند بابه، بل كان هناك الحجاج المستقرون والمتعلمون وغير المتعلمين، وكذلك سكان مكة يطلبون بركة الشيخ ودعواته.

لم يكن الشيخ ليعلم من العلوم بأكثر مما يمهد له الطريق إلى الحياة التي يرضى عنها الله سبحانه وتعالى. ولا من قواعد اللغة العربية بأكثر من الضروري

اللازم لفهم العقيدة، ولا من الإفتاء بأكثر مما يصون ويمنع من الخطأ في الشعائر الدينية. وما كان عنده من علوم الفقه كان يمثل الحد الأدنى لمعرفة أي عالم. على أن المتعلمين كانوا يضعون منزلته بالدرجة الأولى. إن ما عند عبد الكريم قليل إلا أن العناية الإلهية حبته محبة الجميع. ولقد كان بدوره يوقر العلماء ويحترمهم، وكان يعدّ من هم أدنى منه مرتبة من العلماء نظائر له. وكان يقول إن اشتغاله بتعليم نفسه ومريديه، لم يترك له فرصة لتعلم العلوم الأخرى. وكان تلاميذه يدركون معنى ذلك، وهو أن على الإنسان أن يكرس حياته لنوال التقرب من الله أكثر من قضاء فترة الحياة القصيرة في تعلم موضوعات لا تحيي القلوب أو تطهرها. لقد كان الشيخ يشير على مريديه المتقدمين أن يتعلموا حقائق التصوف الدقيقة، من خلال التبصر والتروي في الكتب الصوفية. غير أن الجميع عليهم أن ينالوا علم الحقيقة من خلال الوظائف المختلفة الروحية منها والجسدية.

إن الحجاج في العادة تكون إقامتهم محدودة في مكة. وهؤلاء يأخذون الإذن بدخول الطريقة من الشيخ. وفي غضون الأسابيع القليلة تكون هناك بعض اللقاءات مع هؤلاء المريدين، حيث يقومون بتلاوة بعض الأوراد عقب كل صلاة. وبعد عودة هؤلاء الحجاج يتولى رعايتهم عدد من طلبة الشيخ ومريديه في الوطن الأم، الذين يساعدونهم في السير في هذا الطريق، حيث يحافظون على البذرة التي غرسها الشيخ فيهم في أثناء وجودهم في مكة.

وفي مكة يفد المريدون يومياً إلى منزل الشيخ بعد صلاة العصر، حيث يتلون الأوراد مدة تتراوح بين نصف ساعة وساعة. وفي اليوم الحادي عشر والثاني عشر من كل شهر هناك اجتماع كبير يدعى إليه أهل الطريقة وأناس من الخارج.

رأينا في الفصل الأول أن كلمة (الحول) يقصد بها الذكرى السنوية لوفاة نبي أو رجل صالح. غير أن مواعيد ذلك تحدد اعتباطاً، وربما تكون احتفالات جاهلية أعطيت صبغة إسلامية، من خلال أشخاص أتقياء نذروا أنفسهم

للعبادة. ومن الجدير بالذكر أن معظم احتفالات الحول في مكة ـ وكذلك الاحتفالات العالمية ـ تقام حينما يكون القمر بدراً. وإن هذه الاحتفالات تكون دورية، وفي كل شهر، لبعض الأشخاص البارزين، وفي هذه الحالة هناك أحد عشر احتفالاً في العام، يعرف كل منها بالحول الصغير. أما تاريخ الوفاة المحدد فيكون عادة الحول الكبير. فعلى سبيل المثال إن حول السيدة خديجة الكبير يكون في ١١ رمضان من كل عام؛ لأن هذا هو يوم وفاتها المتعارف عليه. أما الحول الصغير فيكون في الحادي عشر من كل شهر من أشهر السنة. إن وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية تصادف يوم ١١ ربيع الثاني، كما أن وفاة الرسول ﷺ تصادف يوم ١٢ ربيع الأول، لذلك فإن أتباع الشيخ عبد الكريم يحتفلون شهرياً بهاتين المناسبتين في اليوم الحادي عشر والثاني عشر من كل شهر.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مظاهر الاحتفالات الحولية للأولياء الصالحين، هي تعبير عن الإعجاب بالميت، ولقد أصبحت هذه من الأمور المتعارف عليها بين المسلمين. ونجد أيضاً انتشار عادة تقديم النذور والصدقات عن الموتى إلى مزارات هؤلاء الأموات وقبورهم[1]، لا لأن هؤلاء بحاجة إلى مثل هذه الهدايا، وإنما لاعتقاد الجهلة أنهم واسطة بينهم وبين الله تعالى. إن ما يقوم به عبد الكريم وأتباعه في أمسيات هذه الأعياد يهدف إلى تكريم الرسول ﷺ، ثم تكريم الشيخ الجيلاني، وهي دعوة أيضاً لتوثيق الروابط بين أفراد الجماعة القادرية. ففي الحادي عشر من كل شهرٍ تقرأ بعد صلاة العشاء مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني، ويكون ذكر المناقب في العادة متناوباً مع الذكر، وينتهي في الغالب بقصيدة في مدح الرسول ﷺ، وغالباً ما تكون البردة، ثم يتناول جميع الحضور من عرب

---

(١) لا أدري كيف دخلت مثل هذه العادات إلى المجتمع الإسلامي. فرأي الدين واضح وصريح، والميت لا يضر ولا ينفع، وهو بحاجة إلى من يدعو له ويطلب من الله الرحمة والمغفرة له، فهو عاجز أن يدعو لنفسه، فكيف يطلب منه أن يكون واسطة بين العبد وربه. إن مثل هذه الأمور هي من الشرك والعياذ بالله، وإنه لمما يثلج الصدر أن تكون هذه المظاهر الوثنية قد زالت نهائياً وإلى الأبد من أقدس بقاع الأرض مكة المكرمة وحل محلها الوحدانية المطلقة لله رب العالمين.

وملايو وغيرهم الطعام في بيت الشيخ والبيوت المجاورة. وفي اليوم الثاني عشر تعاد الكرة بالطريقة نفسها، غير أن قراءة قصة المولد النبوي تستبدل بمناقب الجيلاني.

إن الوظائف اليومية للمريدين تكون في العادة تلاوة الكثير من الأذكار والأوراد التي يعينها الشيخ عبد الكريم. وتتم قراءة هذه الأوراد في حلقات صغيرة. ويشاهد المرء بعض النوبات التي تحصل لبعض الأشخاص، من جراء الهوس الذي يعتري بعض المبتدئين. وكذلك يكون (الحال) عند بعض الأصفياء الخلص. غير أن هذا يكون في حلقات خاصة تحوي صفوة الصفوة من أتباع الطريقة. إن مثل هذه الأوراد التي يتلوها المريدون وعيونهم نصف مغلقة بالإضافة إلى أنها تقوي الروابط الأخوية بين المريدين فهي تجعل المرء يعيش وكأنه في النقطة الفاصلة بين الدنيا والآخرة.

إن أرقى درجات المثالية هي أن تمارس الحياة الأرضية بمشاعر وعواطف روحية، لا يمكن وصفها باللسان، وإنما يعيشها الإنسان، غير قادر على وصفها. وإنه لمن المهم جداً لكي نحكم على طريقة ما، أن نعرف ما هي الاتجاهات التي توجه إليها الطاقات البشرية، بهدف الوصول إلى النتيجة المطلوبة. ففي الطريقة القادرية التي يديرها الشيخ عبد الكريم هناك تركيز كبير على الالتزام الشديد بمبادئ الشرع الحنيف، عن طريق محاربة الآثام الخفية، أكثر من التركيز على الحركات الجسمية، وتدريب النفس تدريباً خاصاً يولد شفافية قلبية خاصة[1].

---

(١) وعندما ترجم المؤلف لأحد علماء الصوفية من الجاويين، وهو من أتباع الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني - توسع في الكلام عما يقيمه أتباع هذه الطريقة من احتفالات، وعما يقدم من نذور وصدقات عن الموتى إلى مزاراتٍ وقبورِ مَن يُعتقد فيه الصلاح من الأموات؛ لاعتقاد الجهلة أن هؤلاء هم الواسطة بينهم وبين الله تعالى، فهو يدرك أن هذه الأفعال مما لا يجيزه الدين الإسلامي؛ وإنما هي من أفعال الجهلة، ولكنه فيما عرض من أحوال المتصوفة بدا وكأنه يقرزها، ولا يدرك وجه الحق فيها، وأن الدين الإسلامي لا يقرُّ تلك الطرق؛ لما يحدث فيها من أمور تتنافى مع الأحكام الشرعية، ومنها مبالغة المريدين في تعظيم شيخهم بدرجة لا تليق بمخلوق. ومع محاولة (سنوك) تسويغ ما يفعله هؤلاء، إلاَّ أنه يبدو مدركاً لحقائق ما تنطوي عليه تلك الطرق من =

إن الطرق الصوفية تهيئ للفرد نزعة روحية، فبدلاً من التدريس العادي، الذي من خلاله يتعلم المرء ماذا يجب عمله أو اعتقاده، فإن هذه الجماعات تعمل بقوة كبيرة في إبراز القيم السياسية المثلى، أكثر من التدريس العادي. ناهيك عن الأعداد الكبيرة من مريديها. فالمدرسون العاديون يقومون بتعليم المرء في العادة العلاقة بين الإسلام والكفر من خلال كتب الشريعة، والنتائج التي تترتب على ذلك، وكيف أن هذه العلاقة قد انقلبت الآن رأساً على عقب، وذلك بسبب الابتعاد عن الدين. إن النتائج العملية لموضوع هذه العلاقة تؤخذ من مصادر التشريع المذكورة آنفاً، غير أن النظرة المستقبلية لمثل هذه العلاقة يقوم بتوضيحها شيخ الطريقة نفسه، الأمر الذي يوجد نوعاً من التعصب والبغضاء بين صفوف المريدين.

لقد كان من بين الشخصيات الغريبة صديق حميم للشيخ عبد الكريم، ذلك هو عيدروس أحد أبناء تجرنجن Tjeringin في بانتن. وقد حج إلى بيت الله الحرام منذ نعومة أظفاره ثم رجع إلى بلاده حيث تعلم العلوم الشرعية. وحين عاد عبد الكريم إلى بانتن التحق بالعيدروس بصفته مريداً

= أمور محرمة، فهو يقول: (وإنه لمن المهم جداً لكي نحكم على طريقة ما، أن نعرف ما هي الاتجاهات التي توجه إليها الطاقات البشرية، بهدف الوصول إلى النتيجة المطلوبة، ففي الطريقة القادرية التي يديرها الشيخ عبد الكريم هناك تركيز كبير على الالتزام الشديد بمبادئ الشرع الحنيف عن طريق محاربة الآثام الخفية أكثر من التركيز على الحركات الجسمية، وتدريب النفس تدريباً خاصاً يُوَلِّد شفافية قلبية خاصة. إن الطرق الصوفية تهيئ للفرد نزعة روحية، فبدلاً من التدريس العادي الذي من خلاله يتعلم المرء ماذا يجب عمله أو اعتقاده فإن هذه الجماعات تعمل بقوة كبيرة في إبراز القيم السياسية المثلى أكثر من التدريس العادي أهـ.

كذلك قال، مع أنه سبق أن ذكر أن الجهلة من أتباع الصوفية يعتقدون أن الصالحين هم الواسطة بينهم وبين الله تعالى، ولم يدرك أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد أهل الجاهلية القائلين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر، الآية: ٣] فكيف توصف الطرق التي تفضي ببعض متبعيها إلى ذلك الاعتقاد بأنها تهيئ للفرد نزعة روحية، يراها أبلغ من تلقي التعاليم الدينية الصحيحة عن العلماء؟!، فإن التوجيه القويم بالعلم النافع والأعمال الصالحة المشروعة هي أعمق تأثيراً في النفوس من تلك الطقوس التي اعتاد شيوخ الطرق أن يُكلِّفوا مريديهم بتعاطيها والأخذ بها، مما لا يتفق مع القواعد الشرعية الثابتة عن السلف الصالح.

في الطريقة القادرية. وعندما عاد شيخه عبد الكريم إلى مكة رافقه عيدروس وعاش بجواره منذ سنة ١٨٧٨م، وقد تلقى العيدروس العلم من مشايخ عدة من أمثال النواوي وإسماعيل، وتتلمذ على أيدي آخرين أمثال أحمد دحلان وحسب الله ومصطفى عفيفي وعبد الله الزواوي وغيرهم. غير أن الشيخ عبد الكريم كان أباه الروحي بلا منازع، ويمكن أن نقارن تحصيله العلمي بتحصيل أستاذه. ولقد كان في أوقات فراغه يقوم بتدريس الأطفال الصغار، وكذلك كبار السن الذين لم يلحقوا بقطار العلم في الصغر. ولقد كان في دروسه وأحاديثه يمثل الرجل المتصوف بكل أبعاده. وقد أعانه على ذلك ذاكرته الحافظة لمئات الأحاديث النبوية التي كان يلقيها كلما سنحت له الفرصة بصوت متواضع داعياً إلى الترفع والسمو وهجر الأمور الدنيوية، فإذا جلس معه بعض الأصدقاء وحاول بعضهم أن يغتاب أحداً أو أن يذكر أحداً بسوء بادر إلى تلاوة بعض الأحاديث التي تحرم الغيبة، وتظهر سوء فعلها وأضرارها. وإذا عرج الحديث على بعض الدعابات الساخرة ذكرك ببعض أقوال الرسول ﷺ التي توقف ذلك.

لقد سمعت مرة ـ والقوم جلوس معه ـ حديث غيبة عن أحد السادة ممن يعيشون في مكة، فحاول تغيير مجرى الحديث بأن ذكر حديثاً نبوياً معناه أن الكريم حبيب الله والبخيل عدو الله، وبذلك عطف النقاش في الموضوع السابق، وحوله إلى مجرى آخر بعيد. وقد كان يباغت بعض أصدقائه، وهم يزورونه في منزله، بأن يذكر بعض الأحاديث التي تذكر هؤلاء الضيوف ببعض جوانب النقص لديهم، طالباً منهم أن يحفظوا هذه العبارات الطيبة في قلوبهم، ويتصرفوا وفقاً لما تتضمنه من توجيهات. وإذا ما وجد رغبة لدى بعض الناس أو استعداداً روحياً لدخول الطرق الصوفية، بدأ بتنمية هذه الرغبة وتقوية هذا الميل، مؤكداً أن على المرء أن يبحث عن مرشد روحي يأخذ بيده نحو التصوف. ولا تلمس لديه تمييزاً بين شيوخ الطرق الصوفية المختلفة من أمثال خليل باشا أو سليمان أفندي أو أي شخص آخر. ففي كل منهم الخير والبركة. غير أنه من خلال تجربته الشخصية فإنه يوصي بالشيخ عبد الكريم ـ حفظه الله ـ بصفته مربِّياً روحِيّاً

كبيراً. لقد كان العيدروس متطوعاً لخدمة الصوفية، يحاول جهده أن يجند ما أمكن تجنيده من المريدين لشيخه القديم في بانتن.

إن الرؤساء الآخرين للطرق الصوفية في مكة ليسوا من عناصر الجاوى، بيد أنهم عناصر مهمة بالنسبة للجاويين. إن خليل باشا وسليمان أفندي لهم في المدينة المقدسة المترجمون والمساعدون من الجاويين والملاويين والصونديين، إلى جانب نوابهما في الشرق الأقصى وأرخبيل الملايو. وكانت المراسلات بين هؤلاء الشيوخ ونوابهم نشطة. وغالباً ما تتضمن تقارير النواب في أرخبيل الملايو استفسارات ينبثق عنها أن المشايخ يقومون بإصدار فتاوى شرعية في الأمور التي يثيرها سكان الشرق الأقصى. وقد سبق أن ألمحنا إلى أن قبول الفتوى يعتمد بصورة أساسية على من يطلبها. إن المذهب الذي يختاره السائل طالب الفتوى، هو الذي يحدد الجواب حول هذه الفتاوى.

لما كان هدفنا أن نبحث في الأمور المهمة المتعلقة بمختلف مناطق جزيرة جاوة فلم يبق من الأمور الأخرى التي يمكن إضافتها إلى ما سبق ذكره، سوى بعض الأمور الوجيزة. فهناك شيخ قدم حاجاً من شيربون Sheribon يقوم بتدريس أبناء منطقته مبادئ العقيدة والتشريع. أما منطقة سيمرانج Semarang فيبرز دورها العلمي من خلال شرح محمد المعصوم، الذي ينتمي إلى هذه المنطقة، للآجرومية، والذي طبع عام ١٨٨٦م. أما منطقة كندال فيبرز دورها العلمي أيضاً من خلال كتاب أبو حامد محمد في علوم الصرف والنحو، والذي طبع في عام ١٨٨٥م.

إن الشخصية الأخيرة التي تستحق الشرح والتفصيل من جزيرة جاوة هي الشيخ عبد الشكور من سورابايا Surabaya (إن أبناء قومه يعرفونه باسم عبد سكور على الطريقة الجاوية في نطق الحروف العربية).

لقد قدم هذا الرجل إلى مكة قبل أربعين عاماً، وهو صغير حدث السن، يحدوه الأمل في أن يأخذه أحد رجالات العلم العرب في خدمته ويعلمه لقاء ذلك، وقد كان أساتذة الحرم يقدرون ويحترمون ذكاء ودماثة خلق الخدم من

أبناء الجاوى. لقد دخل عبد الشكور في خدمة السيد محمد شطا، والد مؤلف كتاب إعانة الطالبين. وقد كان لدى الشيخ الذي توفي عام ١٨٨٦م جاويان في داره، أحدهما عبد الشكور الذي كان ملازماً لسيده، يعمل على تلبية جميع رغباته، عند أقل إشارة. ولقد بقي عبد الشكور يعتز بخدمته لأستاذه. وكان يكرس وقت فراغه كله في الدراسة. وقد تتلمذ عبد الشكور على عدد من الأساتذة العرب والجاويين من بينهم الشيخ النواوي وغيره.

إن كل جاوي في مكة يعرف قصة عبد الشكور مع سيده. لقد كان من عادة الشيخ أن يستيقظ ليلاً لأداء صلاة التهجد، وهو بذلك يحتاج إلى الوضوء. ولما كان عبد الشكور حريصاً على خدمة سيده، فقد آثر أن ينام بجوار الحمّام لئلا تفوته خدمة الشيخ. وما أن يسمع التلميذ خطوات أستاذه حتى ينهض ويحضر الماء لوضوء سيده، ثم يصلي معه، وقد تأخر مرة في نومه بجوار الحمّام، فكان أن تعثر به سيده لعدم رؤيته في الظلام، وهو في طريقه إلى الحمّام. فما كان من التلميذ إلا أن قبل قدميه ونهض وأحضر الماء لسيده. ولما اعتذر الشيخ عن ذلك، تقدم إليه التلميذ برجاء أن يوقظه كل ليلة إذا ما دعت الضرورة لذلك. فسر الشيخ من إيثار تلميذه وإخلاصه.

اكتسب عبد الشكور من سيده وغيره من علماء مكة مستوىً رفيعاً في العلوم الإسلامية، ولم يكن من بين صفوف الجاويين من يتكلم العربية خيراً منه، لعدم ممارسته اللغة الملاوية، وهو لا يستطيع الترجمة من العربية إلى الملاوية، كعادة مدرسي الجاوى بهذا الخصوص. وعند وفاة الشيخ محمد شطا[1] أوصى أن تتزوج إحدى بناته الشيخ عبد الشكور، ومن المعروف أن زواج ابنه أحد السادة من أحد أبناء العامة العرب الآخرين أمر غير مألوف، فكيف إذا كان هذا غير عربي. وعلى العموم فقد تزوج الشيخ عبد الشكور

(١) هو السيد محمد شطا زين الدين بن محمود بن علي الشافعي، ولد ببلدة دمياط، ونشأ بها وحفظ القرآن الكريم وأخذ العلوم عن أفاضلها ثم رحل إلى مصر، وقرأ بالجامع الأزهر، ثم قدم مكة وتوطن بها وتصدر للتدريس بالمسجد الحرام. توفي بمكة سنة ١٢٦٦هـ (انظر نشر النور والزهر ج٢ ص٣٩٦).

بنات السيد محمد شطا الثلاث. فعندما توفيت الكبرى تزوج من أختها، وحين لحقت الثانية بأختها، تزوج من الابنة الصغرى، وقد أنجبت اثنتين من البنات.

إن البيئة التي عاشها عبد الشكور قد منحته ريادة عربية طيبة، غير أنه لم يفقد اتجاهات أبناء قومه في ميولهم إلى التصوف. لقد كان يجيد القواعد العربية والمنطق والشعر، وقد درس جميع هذه الموضوعات بنجاح منقطع النظير. وكانت عنقه تشرئب إلى دراسة الفقه والعقيدة وكان في ذلك طالباً وتلميذاً مجتهداً.

إن نظرة الشيخ إلى هذه الموضوعات العلمية تتناسب والتصوف، لذلك كان يهيئ تلاميذه لقراءة كتب الغزالي أو كتب ابن عطاء الله. ونظراً لوجود عدد كبير من أبناء جاوة ممن رغبوا في أخذ العلم عنه، فقد عقد العزم على تدريسهم أسس الشريعة وعناصر العقيدة مع شيء من التصوف بصورة أكثر سهولة من الطريقة العربية المتبعة في التدريس.

لقد كان بيته الذي بجوار الحرم هدفاً لكثير من الناس من مختلف الطبقات، وكان له اختلاط كبير ونشاط واسع مع المثقفين والأساتذة العرب. وفي غضون بضع سنين كان تلاميذه لا يقلون عدداً عن تلاميذ النواوي، وكان الحجاج الجاويون يتعطشون لزيارته. وكان الشيخ المسن النحيل الجسم يحدث مستمعيه بوقار وأدب. فقد كان يتحدث إلى الحجاج ذوي الثقافة القليلة بلغتهم الأصلية بهدف إصلاح مناحي حياتهم. أما للمثقفين فقد كان حديثه باللغة العربية الفصحى يتناول موضوعات الأخلاق والتصوف، مستعيناً بذاكرة فذة، تحفظ الأحاديث الكثيرة في مختلف النواحي الدينية. وقد كان يدعو المتعلمين من أبناء جلدته لتناول الطعام في بيته. وكانوا جميعاً يلبون دعوة الشيخ، ومعهم هداياهم التي تتفق ومنازلهم.

لقد نال أقرباء الشيخ تصريحاً بأعمال الطوافة مستغلين اسمه وسمعته في هذا المجال. ولئن كان أقرباء النواوي يستغلون الحجاج القادمين من منطقتهم، فإن أقرباء الشيخ عبد الشكور يستغلون عدداً أكبر من مختلف المناطق، ممن

قدموا لنوال بركة الشيخ. إن الشيخ نفسه لا يعلم شيئاً من ذلك. ويروي أصدقاؤه أنه لو عرف هذا الاستغلال لامتنع عن ذلك والله أعلم.

علماء جزيرة سومباوا

لم تقدم جزيرة سومباوا شيئاً كثيراً للمستوطنة الجاوية في مكة، منذ شهدت مكة في الجيل السابق أحد رجال العلم من سومباوا هو الشيخ عبد الغني بيما، الذي سبقت الإشارة إليه. وكان الكثيرون لا يعرفون أن بيما تقع في تلك الجزيرة، أما في هذا الجيل فهناك مدرسان حديثا السن ينتميان إلى هذه الجزيرة، وبالذات إلى القسم الجنوبي منها، حيث مسقط رأسيهما، هما زين الدين سومباوا وعمر سومباوا.

إن زين الدين كان في ريعان شبابه، وقد عاش أكثر من ٢٥ عاماً في مكة. لقد تتلمذ في البداية على شيوخ النواوي، ثم أخذ العلم عن آخرين أمثال عبد الحميد الداغستاني وغيره. وكان يتكلم العربية بطلاقة، وكان يعطي كل صباح محاضرة في الشريعة الإسلامية، يحضرها عدد من أبناء الجاوى، من مختلف المناطق، مثل مناطق دلي (Deli) ولامبونج في سومطرا، ومناطق بنجارماسين Banjarmassin وسمباس في بورنيو. أما المحاضرة باللغة العربية فيحضرها الطلبة المتقدمون في العلم. غير أن الشيخ كان يتلقى بعض الأسئلة من بعض الطلبة يحتاج معها إلى الحديث باللغة الملاوية وسيلة الاتصال بالطلبة الجدد غير الملمين بالعربية. أما محاضراته في بيته التي كان يعقدها للمبتدئين فكانت كلها باللغة الملاوية.

أما عمر سومباوا فقد كان أصغر سناً من مواطنه الأول، ولم يكن على درجة كبيرة من العلم، غير أنه كان يتكلم العربية بطلاقة وبشكل نادر بين صفوف قومه. ولم يكن هذا سعيداً في حياته العاطفية. فقد كان قلبه مشغولاً بحب فتاة تنحدر من أب جاوي وأم عربية. وكان يطرق جميع الوسائل ليفوز بفتاته. غير أن خيبة أمله كانت قوية عندما علم أن زين الدين قد تزوجها. لقد كانت محاضرات عمر في بيته فقط ولأبناء بلده.

المؤلفات التي ألفها علماء الجاوى

في مستهل عام ١٨٧٦م وقبل أن تظهر فكرة إقامة مطبعة في مكة، ظهر مؤلف لزين الدين يحوي موضوعات تتعلق بأمور العبادة والشعائر الدينية طبع

في الملايو. أما الآن (١٨٨٥م ـ ١٨٨٦م) فهناك مؤلفان جديدان وجدا طريقيهما إلى المطبعة الجديدة في مكة هما سراج الهدى وهو شرح لمؤلف السنوسي في العقيدة المسمى أم البراهين. وكذلك منهاج السلام في العلاقة بين الإسلام والإيمان. والموضوع الأخير كتب فيه كثير من الكتب في جاوة ويدرس في المدارس الابتدائية هناك. إن العدد الكبير من الكتب التي طبعت في مكة لمؤلفين من الجاوى تظهر أهمية هذا الشعب في المدينة المقدسة. ولقد عينت الحكومة التركية السيد أحمد بن محمد زين من بتاني Batani مالاقا للإشراف على المطبوعات الجاوية. ومن المحتمل أن تكون أعمال العلماء الجاويين من بتاني هي أكبر نسبة من المؤلفات المطبوعة في مكة. ولقد استحق أحمد التقدير التام على عمله هذا. وفي عام ١٨٨٣م قام أحمد المذكور بطبع كتاب له في اللغة العربية بمدينة القاهرة. ويحوي المجلد الرابع من كتاب إعانة الطالبين للسيد بكري قصيدة شعرية قالها أحمد في مدح السيد بكري. ومن المحتمل أن تكون وظيفة أحمد قد حدت به إلى تأليف كتب مدرسية لتلاميذ بتاني، حيث قام بطبعها لهم، ومن هذه الكتب المطبوعة: (مقتطفات من الأحاديث النبوية المتعلقة باليوم الآخر) للمؤلف زين الدين بتاني، ومجموعة الأعمال الكاملة لداود ابن عبد الله بتاني، الذي ألف معظم كتبه بين عام ١٨١٥م ـ ١٨٤٠م والذي يتردد اسمه كثيراً في المخطوطات الملاوية في بتاني. ونجد في مكتبات مكة مجموعة من مؤلفاته منذ عام ١٨٨٠م منها كتاب عن الصلاة مطبوع في بومباي، وآخر بعنوان (كفاية المحتاج عن قصة الإسراء والمعراج)، وإنني أميل إلى الاعتقاد بأن هناك كتاباً آخر من تأليفه عن قوانين الزواج طبع في إسطنبول. ومن نتاج مطبعة الحكومة بمكة، نجد في مكتبات المدينة المقدسة عدداً من كتب داود بن عبد الله، منها كتابه الجليل في الأعمال الفقهية المسمى (فروع المسائل) والذي يستخدم بصفته مرجعاً مهمّاً في جزر الهند الشرقية، وكذلك كتابه (الدر الثمين) الذي يبحث في الفقه أيضاً. وكذلك كتابه (كشف الغمة) الذي يبحث في أمور الحياة الأخرى. وكذلك كتابه (جامع الفوائد) الذي يتضمن مجموعة من القصص المتعلقة

بالمتصوفة. ومن الكتب المطبوعة في مكة شرح من أحد علماء الجاوى على كتاب (جوهرة التوحيد) لصاحبه إبراهيم اللقاني[1] طبع من مخطوط كتب في سامباس، وكذلك شرح لمؤلف آتشي مجهول لحكم بن عطاء الله.

أما الكتب التي طبعت لعلماء من أصل جاوي خارج مطبعة مكة، فكان منها كتاب (بداية الهداية) لمؤلف آتشي، يدعى محمد زين، وهو شرح لمؤلف السنوسي المسمى (أم البراهين) وقد طبع في إسطنبول عام ١٨٨٥م. وكذلك كتاب (الدر النفيس) في الفقه، لمؤلفه محمد نفيس من بنجرماسين Bangermassin في بورنيو، وقد طبع في القاهرة عام ١٧٨٦[2]. والناظر في الكتب المطبوعة لعلماء الجاوى خارج مكة، يدرك أن عبارة أحمد دحلان الواردة في كتابه عن أمراء مكة، والتي تشير إلى أن المطبعة التي أمر السلطان العثماني بإنشائها تتفوق على المطابع الحكومية الأخرى، بأنها تطبع الكتب العربية والتركية والملاوية فيها شيء من المبالغة؛ لأن كثيراً من كتب الجاوى تطبع خارج مطبعة مكة. ومع هذا فإن ما يطبع من كتب لعلماء من أصل جاوي يشكل نسبة كبيرة من إنتاج هذه المطبعة، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار قصر حياة هذه المطبعة.

سكان بونتياناك

إن علماء الجاوى البارزين في مكة لا يمثلون مختلف مناطق أرخبيل الملايو. فعلى سبيل المثال مناطق سامباس وبنجرماسين بورنيو ليس بها علماء كبار، بل هناك عدد كبير من الشباب اليافعين، الذين ما زالوا طلبة علم أكثر منهم أساتذة. وهؤلاء يدرسون على مشايخ الحرم، وهم من مختلف مناطق سومباوا وبتافيا وبانتن، لأن هؤلاء يتكلمون لغتهم، في حين لا يستفيد هؤلاء كثيراً من المحاضرات التي تلقى باللغة العربية، ومن أساتذة عرب، لجهل هؤلاء بهذه اللغة.

---

(١) هو أحد علماء الهنود. وقد عدّه العامة وليّاً بعد وفاته، وبعد ذيوع مؤلفه جوهرة التوحيد، دعي بالجوهري ثم حرفه المكيون إلى الولي جوهر (المؤلف).
وجاء في الأعلام للزركلي ط٣ ص٢١ أن صاحب كتاب (جوهرة التوحيد) إبراهيم اللقاني عالم فاضل من مصر توفي عام ١٠٤١ هـ بالقرب من العقبة.

(٢) هكذا ورد في الأصل ويعتقد أن التاريخ الحقيقي هو ١٨٨٧م.

ويمثل السكان القادمون من بونتياناك Pontinak بورنيو وصفاً فريداً بين عناصر الجاوى في مكة. فمعظم هؤلاء هم أقارب وأصدقاء السلطان في تلك المنطقة. ولقد حج هذا السلطان إلى مكة منذ بضع سنين، حيث أوقف عدداً من البيوت في المدينة المقدسة. وهو يرسل سنوياً المبالغ اللازمة لصيانتها والأموال التي يحتاجها القاطنون فيها من أفراد الجاوى. ويبدو على هؤلاء بعض الملامح العربية؛ لأنهم ينحدرون من أصول عربية، غير أن لغتهم ليست العربية، وهؤلاء ينطبق عليهم المثل العربي القائل (إن الإنسان يرث ثلث ملامحه من خاله). وهؤلاء معروفون بصراحتهم وتواضعهم، وبسلوكهم الذي ينم عن احترامهم لأنفسهم. فهم لا يسمحون لأي عربي أن يهينهم. وقد شاهدت بنفسي كيف أن أحدهم انحاز بشجاعة إلى جانب أحد أفراد الجاوى ضد عربي سليط اللسان. ولقد ذكرنا سابقاً كيف أن أحد مواطني بونتياناك أعلن بكل شجاعة في وسط المجتمع المكي، أنه يفضل حكم الأوروبيين لبلاده. إن هؤلاء ينظرون إلى مثل هذه القضية (قضية حكم الأجانب لهم) من باب الضرورات التي يجيزها الشرع، لذا فليس لديهم التعصب الشديد ضد الحكام الأجانب[1] على الرغم من أنهم مسلمون متحمسون وأتقياء، ويتأثرون بعمق بالحركات السياسية في المجتمع الإسلامي، غير أنهم يدركون أن مثل هذه الحركات هي غير عملية ولا يمكن تطبيقها.

إن سكان بونتياناك في مكة يخضعون لنفوذ عائلة الزواوي. وقد ذكرنا فيما سبق عالمين كريمين من هذه العائلة. وهؤلاء تلقى عليهم مسؤولية تعليم القادمين من موطنهم، حيث يقوم هؤلاء بتدريسهم باللغة الملاوية إلى أن

---

(١) إن تصريح أحد مواطني بونتياناك بأنه يفضل الحكم الهولندي لبلاده لا يعني أن جميع السكان في تلك المنطقة يشاركون هذا المواطن مثل هذا الرأي.
وأظن أن المؤلف قد عمم هذا الرأي الفردي على جميع مواطني بونتياناك ثم حاول أن يفسّر ذلك بأن الحكم الأجنبي هو من باب الضرورة التي يجيزها الشرع، ومعروف أن الشرع لا يجيز احتلال أراضي المسلمين. والرسول الكريم ﷺ يقول: «إذا وطئت أرض المسلمين بات الجهاد فريضة على كل مسلم».

يتقنوا اللغة العربية. والزواوي الأكبر لا يسمح لأبناء جلدته بالدخول في الطريقة النقشبندية، إلا إذا أحرز هؤلاء بعض المهارات في العلوم الشرعية والعربية. ويتلقى بعض أهالي بونتياناك بعض العلم من الشيخ مظهر في المدينة، الذي كان يطلع بعض زواره الأتقياء على بعض الشعرات التي يقال إنها من شعر الرسول الكريم ﷺ محفوظة بالشمع[1].

ولا يقتصر الأمر على بونتياناك فهناك أحد العلماء من مكاساريس Makasaresa من جزر سلبيس الجنوبية. وهو يحاضر باللغة المكاساريسية واللغة الملاوية سويّةً. ويحضر طلابه المحاضرات المسائية في الحرم الشريف.

إن جزيرة سومطرة ترسل عدداً من التلاميذ إلى المدينة المقدسة، غير أن الأساتذة من هذه الجزيرة يحتلون المرتبة الثانية بين أساتذة الجاوى في مكة. وهذه الحالة لن تدوم طويلاً، ويمكن أن يتغير الوضع بالنسبة لهم في العقود القليلة القادمة.

إن الآتشيين الذين استقروا في مكة لم يكونوا مبجلين في وسطهم الجديد. فهم يعتزون كثيراً وبدرجة تثير الحقد من الأوساط العربية، بأن بلادهم هي إحدى مراكز الحضارة الإسلامية الكبيرة. يوجد في مكة عدد قليل من العلماء من بالمبانج. وقد ذكرنا فيما مضى المطوف اللامبونجي الذي كان يقوم بإرشاد أبناء قومه القادمين إلى الحج.

ومن الجدير بالذكر أن جميع مواطني سومطرة تقريباً ينتمون إلى الطرق الصوفية، إذ ينتمون إلى الطريقة القادرية أو النقشبندية، وشيوخهم إما الشيخ سليمان أفندي أو خليل باشا أفندي، وهؤلاء هم من الأتراك أو الشيخ عبد الكريم من بانتن.

لقد كان هناك مطوف من (راوة) في غرب سومطرة، يطلق عليه اسم المطوف زين. لقد كان عمله مطوفاً يبدو قليل الأهمية أمام ذكائه وفطنته.

(١) إن الشيخ أمين المدني قد حضر مؤتمر المستشرقين الذي عقد في ليدن عام ١٨٨٣م قد كتب فتوى ضد تقديس هذا الشعر، وعدّ ذلك من مظاهر الكفر. إلا أن أصدقاء مظهر يرون أن ما كتب في هذه الفتوى كان نتيجة الحسد الذي يلاقيه مظهر من جانب أمين (المؤلف).

بيد أن أعمال الطوافة كانت تدار من قبل زوجته لدرجة أنها عرفت بالراوية. وحينما كنت في مكة كان لديه قرابة ستين ملاوياً يقوم بإعطائهم المحاضرات اليومية.

إن الحياة العلمية لم تكن نشطة في مرتفعات بادانج وفي بالمبانج ونواحيها، الأمر الذي ساعد على رحيل عدد من هؤلاء لطلب العلم في مكة. فمنذ قرابة قرن عاش في مكة الشيخ عبد الصمد بالمبانج (فلمبان). ولقد كانت كتب هذا العالم من أحسن الكتابات الدينية، التي ظهرت في الملايو باللغة الآتشية. وهذه المنطقة زارها الكثير من العلماء العرب، ومن بينهم أحد أبناء ابن حجر. ويقود الحركة الفكرية اليوم في جزر الهند الهولندية عدد من علماء بانتن. وإذا عرفنا مقومات هذه المنطقة وحماس أبنائها إلى العلم ندرك أسباب وجود العدد الكبير من العلماء من بين صفوف هؤلاء. غير أنه في الآونة الأخيرة نجد انصراف عدد من أبناء هذه المنطقة إلى مهن أخرى غير العلوم الشرعية. وعلى كل حال نستطيع القول: إنه منذ ثلاثين سنة كانت مناطق بيما، وسومباس، وبتافيا هي المتفوقة في الأمور العلمية في مكة. أما الآن فنجد بانتن وسورابابا، أما قبل ذلك فكانت الشهرة لمناطق بنجرماسين وبالمبانج وآتشية.

وفي نهاية حديثي عن المستوطنة الجاوية في مكة أسمح لنفسي بأن أقول بضع كلمات عن الأهمية السياسية في الأمور المرتبطة بالحج من جزر الهند الهولندية.

الأهمية السياسية للحج

إن القارئ لما سبق لا يمكنه أن يقبل بآراء عدد من موظفي الحكومة الرسميين، الذين يرون أن الحجاج هم أعداء ألداء للحكم القائم. فالكثير من الحجاج الجاويين يعودون كما ذهبوا دون أدنى تأثر. أما مظاهر الاحترام والتبجيل التي يحظى بها القادمون من الحج، وخاصة حينما يرتدون الملابس العربية، فإنها تقل تدريجياً لسببين هما: زيادة عدد الحجاج من جهة، وظهور الوعي عند السكان المحليين من جهة أخرى. غير أنه في الوقت الحاضر ما تزال توجد بين صفوف الحجاج المنتشرين في طول

البلاد وعرضها المقومات المادية لإشعال الثورة، والتي يجب ألا نقلل من أهمية خطورتها، وخاصة إذا وجد أحد المتحمسين، الذين يرمون بالشرارة الأولى. إن قابلية إشعال الثورة بين صفوف الحجاج تعود إلى أن مصالح الحجاج مناقضة لمصالح الحكومة واهتماماتها. فالكثير من الحجاج يعودون من الديار المقدسة، وقد جلبوا معهم الإخلاص للرابطة الإسلامية التي تثير لدى السكان التعصب الديني بسهولة.

أثر المستوطنة الجاوية في الأمور السياسية في جزر الهند الشرقية

أما أولئك الذين طال بهم المقام في مكة فقد أصبحوا مدرسين للشريعة، ويقدرهم المجتمع تقديراً عالياً، أو أصبحوا أعضاء ناشطين في الطرق الصوفية. وهؤلاء وأولئك يقدمون القيم والمفاهيم الإسلامية لأرخبيل الملايو على خلاف الحجاج، الذين يثيرون صفوف العامة بالحركات المناوئة للدولة. وتأثير الحجاج محدود لا يتعدى تكدير صفو الأمن، في حين تأثير أولئك تأثير بطيء ثابت ومستمر على مشاعر الناس وعواطفهم السائدة، وهذه النتائج غير المباشرة للحج، هي في الواقع ذات الأهمية الكبرى. وإنه من المؤسف حقاً أنه لم تتخذ إجراءات لمجابهة مثل هذه الأمور في الماضي، وخاصة في المناطق التي لم يكن يخرج منها عدد من الحجاج. ويشعر المرء أن وضع الإجراءات لتغيير المسار قد انتهى الآن. إن تقييد السماح بالحج لمن يثبت أن لديه الإمكانات الخاصة بذلك، أمر له قيمته. غير أنه لا يمكن الذهاب بهذا التقييد بعيداً؛ لأنه سيؤدي في النهاية إلى وجود نوع من الاضطهاد الديني للسكان. وقد يستغل المكيون هذا الأمر بين صفوف الجاوى.

إن جميع الاعتبارات التي تنجم عن الحج تتضاءل في الأهمية أمام ازدهار المستوطنة الجاوية في مكة. إذ هنا يكمن قلب الحياة الدينية لأرخبيل جزر الهند الشرقية الذي ينبض بالدم الجديد ذي النشاط المتزايد إلى مختلف المناطق الإسلامية في أندونيسيا. فهنا في مكة تبدأ خيوط الطرق الصوفية المنتشرة في بلاد الجاوى. ومن هنا تؤخذ الكتب التي تستعمل في المدارس الدينية هناك. ومن خلال أقرباء الجاويين وأصدقائهم في مكة ينضم عدد من أبناء الجاوى ويسهمون في سلك الحياة الإسلامية. ولما كان

من غير المستطاع الآن وضع الحواجز أمام تيار الحج، فإن المرء لا يستطيع أن يمنع قدوم البذور العربية التي تترعرع وتنمو في مكة، وتعود إلى جزر الهند الشرقية، وقد أصبحت نباتات كبيرة تتكاثر وتزدهر وتنمو من جديد. لهذا فإن من الأهمية بمكان أن تعرف الحكومة (الهولندية) ماذا يجري في مكة وما هي الأمور التي تصدر عنها كل عام. وكيف يمكن الاستفادة من ذلك بطريقة ذكية تتضمن دعم الحكومة، أو على الأقل لا تسبب لها الأضرار والخسائر. ويمكننا ضبط الحياة الدينية في الملايو، وذلك بأخذ زمام المبادرة والتحكم بالموضوع وتوجيهه، كما توجه الريح الشراع، أو على الأقل جعل تأثير الحياة الدينية معتدلاً، وذلك إذا عرفنا التأثيرات الفكرية التي تنبعث من مكة قلب العالم الإسلامي. وإذا تجنبنا المقاييس الخاطئة المبنية على سوء الفهم لمثل هذه الأمور، والتي تعتمد على الكراهية المطلقة أحياناً وعلى التساهل الشديد أحياناً أخرى، فإننا سننجح في هذه المهمة. إن تصنيف السكان إلى حجاج وأتباع طرق صوفية ومتعلمين درسوا في مكة، ونعتهم بأوصاف مثل جماعات خطرة ومتعصبة وغير ذلك من الكنى أمور لا تجدي نفعاً. إن الفرق الثلاث السابقة تمثل العلاقات الثقافية التي تربط أرخبيل الملايو بعالم الإسلام. ويجب أن ينظر إليها بصورة أكثر عمقاً من قبل السلطات الإدارية الأوروبية، حتى لا تكون النتيجة هي تنفير العناصر المعتدلة من السكان، وذلك إما بالتعالي عليهم أو بضيق الأفق الناجم عن الجهل بأحوالهم، وبجانب ذلك يجب أن تعرف العناصر التي لا يمكن استمالتها، وأن يؤخذ بالاعتبار كل حركة جديدة، وأن تتخذ كافة السبل لتقدير أهميتها.

احتقار الهولنديين للحجاج

لقد قابلت في جدة قبطان سفينة هولندية ستقل بضع مئات من الحجاج في طريق عودتهم إلى أرخبيل الملايو. وقبل أن تبدأ رحلة العودة بيوم، سمعته يتحدث عن البدائيين والمتوحشين، الذين سيقلهم على ظهر باخرته، وقد أخبرته أنني أعرف عدداً كبيراً من هؤلاء، ممن ليس لديهم الثقافة، لكنني أعرف أيضاً أن عدداً آخر قد درس عدداً كبيراً من السنوات، الأمر الذي يؤهله لقيادة شعبه. وقد حذرته من أن يعدّ جميع الحجاج على باخرته كلهم

من نوع واحد؛ لأنهم يلبسون لباساً موحداً. ولقد ضحك ربان السفينة مبدياً شكوكه حينما قلت له: إن من بين هؤلاء من يجيد قراءة الكتب العلمية بلغتين أو أكثر. إن الربان ربما يجهل أن المواطن الجاوي العادي أكثر تفوقاً من الضابط الإداري الحديث في مختلف أشكال العلاقات الاجتماعية الدقيقة. وعلى الرغم من كل ذلك لقد كان جواب الربان، إن الحجي هو الحجي، ذلك الشخص البدائي على الرغم من علمه وثقافته.

لقد كان على هؤلاء الحجاج أن يبقوا تحت رحمة هذا الربان أسابيع قليلة على ظهر سفينة كبيرة. وعلى الرغم من حسن دعابة هذا الملاح، فقد كان يعاملهم جميعاً معاملة متساوية باعتبارهم بدائيين وهمجاً. إن معاملة الحكام لهؤلاء الناس الذين يلبسون لباساً موحداً، ويتسمون بأسماء متشابهة، يجب أن تكون مختلفة عن معاملة هذا الربان في ذلك الجزء من العالم، الذي أطلق عليه المؤلفون الموهوبون، في إحدى الفترات الحرجة، اسم (إمبراطورية الجزر الضخمة) (إنسولند Insulinde). إن الأخطاء التي يرتكبها هؤلاء الموظفون الرسميون مع الأسف يمكن أن تكون ذات نتائج أكثر خطورة من رحلة سريعة بين جدة وبتافيا.

وآمل أن تؤدي المعرفة المتزايدة بأمور الحياة الدينية لشعوب الجاوى «الهولنديين» إلى الإقلال من هذه الأخطاء الجسيمة بدرجة كبيرة[1].

---

(١) علق الشيخ حمد الجاسر ـ يحفظه الله ـ على هذا الفصل بقوله: ومن أمتع فصول هذا الكتاب وأوفاها ما تحدث عنه بتفصيل عما يتعلق بسكان الملايو، وعن نظرتهم إلى الدولة التي استعمرت بلادهم، وهو لا يقتصر على هذا؛ بل يتناول بإيجاز أحوال سكان الهند، وسكان بلاد الجزائر وغيرها من مستعمراتهم.

ولقد أفاض الكلام عن أمرين مهمين هما: إقبال بعض الحجاج الجاويين على طلب العلم إقبالاً مكن عدداً منهم بلوغ مرتبة تؤهله للقيام بالأعمال الدينية، ونشر تعاليم الدين الإسلامي في بلادهم حين يعودون إليها.

والأمر الثاني: عن انتشار الإسلام في تلك البلاد، والقضاء على معالم الوثنية فيها.

إن (سنوك) هنا ـ وهو من أرسخ علماء الاستشراق في الشؤون الدينية، ومن دعاة الاستعمار أيضاً الذين هم في ألفة مع أعداء الإسلام ـ يقرر بصراحة أن الدين الإسلامي انتشر في أرخبيل الملايو، ودخل بصورة تدريجية، وبدون قوة السلاح، وبتأثير ما يتصف به من عدالة ومن =

= دعوة إلى الإصلاح، مما تتقبله النفوس تقبلاً منبعثاً عن رغبة، بينما يتخذ كثير من أبناء جلدته وأشباهه من أعداء الإسلام الحكم عليه بأنه إنما انتشر بقوة السلاح لا بطريقة الحجة والإقناع والرغبة القوية من ذوي الفطر السليمة بالإقبال عليه.
ولقد تطرق بذكر قوة الصلة بين العلماء في مكة والعلماء في بلاد جاوة، وتأثير هذه الصلة تأثيراً عميقاً بين عموم سكان البلاد الجاوية من الناحية الروحية.
مشيراً إلى انتشار المؤلفات الدينية التي تأتي من مكة إلى هذه البلاد، مما ألفه علماء جاويون أو علماء مكيون، ممن لهم منزلة مؤثرة لدى سكان الهند الشرقية.
وأبرز أهمية من استوطن من بقايا الحجاج الجاويين، وتأثير هؤلاء في البلد الأم من الناحية الروحية.
وقد وصف الحج بأنه: (عبارة عن قناة تجري فيها تيارات الحياة الإسلامية إلى أراضي جاوة).
ولم يفته التحدث بتفصيل عن أشهر العماء الجاويين من حيث ماضيهم ومختلف أحوالهم، وقد أطال الكلام على أفراد منهم، من أشهرهم في عهده الشيخ محمد نواوي، فقد فصَّل الكلام عنه، وذكر مؤلفاته، ووصف كثيراً من أحواله، وحينما انتهى من التحدث عن شيوخ الطرق الصوفية - الذين أفاض في حديثه عنهم - عاد ليفصل الكلام عن العلماء الجاويين بالنسبة لمواطنهم، مع ذكر المؤلفات التي ألَّفها أولئك العلماء، وأن من أوائلها ما طبع في مكة، حيث أنشئت مطبعة في هذه المدينة سنة (١٨٨٥ - ١٨٨٦م) فطبع فيها عدد كبير من تلك المؤلفات، وصفها بقوله: (إن العدد الكبير من الكتب التي طبعت في مكة لمؤلفين من جاوة تظهر أهمية هذا الشعب في المدينة المقدسة).
وقد ذكر أن الحكومة التركية عينت السيد أحمد بن محمد زين من (بتاني) مشرفاً على المطبوعات الجاوية، وأن من المحتمل أن تكون أعمال الجاويين من (بتاني) هي أكبر نسبة من المؤلفات المطبوعة في مكة، وأورد أسماء مؤلفات جاوية أخرى طبعت في مطبعة الحكومة التي أنشئت في مكة إضافة إلى كتب أخرى طبعت خارج مطبعة مكة.
لقد كان مما كتبه (سنوك) عن هذا الشعب الكريم في جميع أحواله من أمتع وأوفى ما قرأت وخاصة ما يتعلق بالجانب الثقافي العلمي من ذكر العلماء بتفصيل في تلك البلاد.
وعن تأثر ذلك الشعب الكريم بصلة كثير منهم بعلماء مكة تأثراً كان له الأثر الطيب بانتشار الإسلام في بلاد جاوة، وإقبال السكان على اعتناق ذلك الدين الحنيف والتخلق بأخلاقه الكريمة.
ويختتم (سنوك) هذا الفصل - الذي هو خاتمة الكتاب - بالإفصاح عما أحجم عنه في مواضع أخرى، من تأثر الحجاج الجاويين في أثناء حجهم واختلاطهم بغيرهم في مكة المكرمة بالاتجاهات الفكرية المعادية للاستعمار، مما يصح القول معه بأن ما ختم به كتابه من ذلك هو الغاية من تأليف هذا الكتاب، فيقول ما خلاصته: (أثر المستوطنة الجاوية في =

. . . .

= الأمور السياسية في جزر الهند الشرقية. أما أولئك الذين طال بهم المقام في مكة فقد أصبحوا مدرّسين للشريعة، ويقدّرهم المجتمع تقديراً عالياً، أو أصبحوا أعضاء ناشطين في الطرق الصوفية، وهؤلاء وأولئك يقدمون القيم والمفاهيم الإسلامية لأرخبيل الملايو، على خلاف الحجاج الذين يثيرون صفوف العامة بالحركات المناوئة للدولة (هولندة) وتأثير الحجاج محدود لا يتعدى تكدير صفو الأمن، في حين تأثير أولئك تأثير بطيء ثابت مستمر على مشاعر الناس وعواطفهم السائدة، وهذه النتائج غير المباشرة للحج هي في الواقع ذات الأهمية الكبرى. وإنه من المؤسف حقاً أنه لم تتخذ إجراءات لمجابهة مثل هذه الأمور في الماضي، وخاصة في المناطق التي لم يكن يخرج منها عدد من الحجاج) اهـ.

ثم يستخلص مما تقدم قوله: (إن جميع الاعتبارات التي تنجم عن الحج تتضاءل في الأهمية أمام ازدهار المستوطنة الجاوية في مكة، إذ هنا يكمن قلب الحياة الدينية لأرخبيل جزر الهند الشرقية، الذي ينبض بالدم الجديد ذي النشاط المتزايد إلى مختلف المناطق الإسلامية في أندونسيا، ثم يندفع في إبداء ما يراه من آراء يوجهها لحكومته، فيقول: (ولما كان من غير المستطاع الآن وضع الحواجز أمام تيار الحج، فإن المرء لا يستطيع أن يمنع قدوم البذور العربية، التي تترعرع وتنمو في مكة، وتعود إلى جزر الهند الشرقية، وقد أصبحت نباتات كبيرة تتكاثر وتزدهر وتنمو من جديد، لهذا فإن من الأهمية بمكان أن تعرف الحكومة الهولندية ماذا يجري في مكة، وما هي الأمور التي تصدر عنها كل عام، وكيف يمكن الاستفادة من ذلك بطريقة ذكية تتضمن دعم الحكومة، أو على الأقل لا تسبب لها الأضرار والخسائر، ويمكننا ضبط الحياة الدينية في الملايو، وذلك بأخذ زمام المبادرة والتحكم بالموضوع وتوجيهه كما توجه الريح الشراع، أوعلى الأقل جعل تأثير الحياة الدينية معتدلاً، وذلك إذا عرفنا التأثيرات الفكرية التي تنبعث من مكة قلب العالم الإسلامي اهـ.

هذا هو كلام (سنوك) فكيف يصح إحسان الظن به من حيث نظرته إلى الإسلام. (المجلة العربية عدد ربيع الأول ١٤١٧هـ ص١٠١ ـ ١٠٣).

الملاحق

- ملحق رقم (١)
- ملحق رقم (٢)
- ملحق رقم (٣)
- ملحق رقم (٤)
- ملحق رقم (٥)
- ملحق رقم (٦) أشجار النسب
  ١ ـ شجرة النسب الأولى
  ٢ ـ شجرة النسب الثانية
  ٣ ـ شجرة النسب الثالثة
- ملحق رقم (٧) أشكال وصور مختارة
- ملحق رقم (٨) الصناعات التقليدية

نبذة عن الملاحق

إن الوثائق التالية المرفقة بصفتها ملاحق سوف تهم المستشرقين أولاً، ثم أولئك القراء الذين يريدون أن يسمعوا، لا من زائر أجنبي إلى مكة، بل من المكيين أنفسهم وهم يصفون ظروف مدينتهم، **فالملحقان رقم (١) ورقم (٢)** يعطيان صورة عن سوء الإدارة المرعب للشريف عبد المطلب في أثناء حكمه للمرة الثالثة (١٨٨٠ ـ ١٨٨٢م)، حيث نجد في **الملحق رقم (١)** تقريراً حول المعاملة القاسية التي عانى منها رجلان من عتيبة من قبل رجال الشريف، وكذلك عدم الاتفاق الناتج عن ذلك بين الشريف والوالي.

أما **الملحق رقم (٢)** فيعطي صورة طبق الأصل للنسخة الموجودة لدي عن الاستدعاء (المعروض) المقدم في آب (أغسطس) ١٨٨١م، من المكيين إلى السلطان لإقالة عبد المطلب والتي تمت فعلياً في العام التالي، وقد قمت بتصحيح بعض الأخطاء اللغوية لكنها لم تف بالمتطلبات المطلوبة.

الملحق رقم (٣) والملحق رقم (٤) يعودان بنا إلى أيام الحاكم العام القوي عثمان نوري باشا ١٨٨٢ ـ ١٨٨٦م (١٣٠٠ ـ ١٣٠٤هـ) الذي عزل الكهل عبد المطلب، ووضع مكانه الشريف الجديد عون، وكلا الوثيقتين يعود تاريخهما إلى فترة النزاع بين السلطتين. **الملحق رقم (٣)** يمثل رسالة وصلت إلى عثمان باشا من ضابط أرسله إلى ينبع للقضاء على البدو المعادين. إن ظهور هؤلاء البدو له علاقة بعمليات السطو على الطريق بين مكة والمدينة، ومنها نرى كيف أراد كل من الوالي والشريف عون أن يبيّنا لبعضهما كيف أنه عاجز عن المحافظة على النظام وحده، وتحت هذه الظروف فإن الشبهة تدور على أن أعداء عثمان قد تصرفوا بالاتفاق مع الشريف. رسالة الضابط (باللغة التركية) هذه، والتي يكتب فيها عن القضاء على البدو، أمر عثمان باشا بترجمتها إلى العربية وطبعها مع تحرير كتبه بنفسه بواسطة المطبعة التي فتحها في مكة، وذلك من أجل تخويف الحزب المعادي لشريف مكة.

الملحق رقم (٤) هو إعلان للثورة وقتل عثمان باشا، وقد علق على جدران المسجد عدة نسخ من قبل أيادٍ غير معروفة في عام ١٨٨٥م.

وقد تم صياغتها على ما يبدو من قبل أضعف أعداء عثمان، الذين يعود غضبهم بالدرجة الأولى إلى حرمانهم من حصتهم من القمح المصري.

أما **الملحق** (٥) فيضم قصيدة الرثاء التي قيلت عند موت الشريف عبد الله والتي كتبت من قبل الشاعر بديوي وذلك في الطائف بصفتها عينة لأفضل إنتاجٍ أدبي في الحجاز في الوقت الحاضر (١٨٨٥م/١٣٠٣هـ).

الملحق رقم (١)

ونعرفكم بالشريف والوالي، فالعلاقة بينهما متكدرة إلى أقصى درجاتها. وأسبابه من مادة الغزوة كان في السابق بينهم في الأنفس كما هو معلوم لكم والآن بهذه الواسطة انكسرت زيادة. وكان أسباب الغزوة هذا هو أن عيال الشريف لما توجهوا من مكة ومعهم الشريف دخيل الله العواجي ومحمد جابر اليماني، ولما وصلوا إلى السيل مرحلة قبل الطائف نزلوا هناك على بير، وكانوا نازلين بقرب البير عرب قبيلتين من عتيبة يقال لهم: القثمة والثبتة وفي أثناء النهار وردوا البير بأغنامهم لأجل السقية، ومنعوهم أتباع الشريف وصار بينهم مخاصمة فلما سمعوا الغارة ولد العواجي ومحمد جابر أمروا في الحال أتباعهم بالقبض عليهم وحوز الأغنام والذي كانوا مع الأغنام حريم وأولاد صغار ورجل واحد شيبة فقبضوا على الرجل وكتفوه بالحبال وأخذوا ما على الحريم من البراقع وحازوا الأغنام عندهم ففروا الأولاد والحريم هاربين إلى جماعتهم صايحين بما صار فبوقته تحزبوا الرجال بالسلاح وحضروا وكان ذلك الوقت بعد العصر وهم قد شدوا من السيل ودرجوا بالجمال وحصلت الملاقاة وصارت المحاربة بينهم بالبنادق وقتل من العربان واحد ومن جماعة الشريف واحد من بيته وواحد من العبيد البواردية وجملة مصاويب من الطرفين وكانت القوة للعربان فلما رأوا ذلك جماعة الشريف طلبوا الأمان من العربان وفكو لهم الرجل المكتوف وأعطوهم الأغنام وبراقع الحريم فأخذوها ومضوا إلى حال سبيلهم ولما وصلوا جماعة الشريف إلى الطائف وأخبروا الشريف بما صار غضب وأعلن في الطائف بمنادي على غزو هذه القبيلتين وكتب إلى قبائل العربان من ثقيف وهذيل وخلافهم بغزو هذه القبيلتين وأمر على أهل الطايف بثمانين نفر وعلى حضارم مكة بمائة نفر وفي حال تجمعهم وصلوا ثمانية أنفار من كبار العربان العاصيين منهم من المشاهير أسماهم اثنين واحد يسما ابن حريشم والثاني يسما ابن حامد ونزلوا في السلامة عند الوالي صايحين عليه أن يطلب لهم الأمان من الشريف وأن لا يغزوهم وأبدوا للباشا أن لم حصل منهم عصيان ولا اعتدوا على القافلة بل جماعة الشريف المعتدين بالقبض على رجلهم ونهب

أغنامهم فدافعوا عن مالهم وأنفسهم ونحن الآن تحت تصرف الدولة إن أردتم الآن نحضركم نفر رهاين توضعوهم في الحبس لأجل تأمين الطريق أو نحضر جميعاً بأهلنا ونخيم في السلامة بقرب الباشا فنحن تحت الأمر فأمنهم الوالي تلك الليلة وضيفهم عنده وأوعدهم بأخذ الأمان من الشريف وتوجه الوالي إلى الشريف في المتنا مع العربان وطلب من الشريف الأمان لهم وعدم غزوهم ينقعدوا (إن قعدوا) بجميع مطاليب الشريف فوافق الشريف على ذلك وخرج من عنده الوالي بالعربان ومن بعد مضي كم ساعة أرسل الشريف إلى الوالي عدم الرضا بالصلح وليس لهم عند الشريف إلا السيف فزعل الوالي كثير على اختلاف الكلام الذي صار وكيف ناس يطلبوا أمان الدولة يحاربوهم فأولاً أرسل بالشيخ المفتي يراجع الشريف فلم كان يقبل وثانياً أرسل الدفتر دار واللوا باشة العسكر يراجعوه فلم كان يقبل وهم هاولاي المذكورين الدفتر دار واللوا أسباب الفساد ما بين الوالي والشريف وهم ما يلين في جهة الشريف ومساعدينه في جميع أموره فلما رأى الوالي عدم قبول الصلح من الشريف زعل كثير ومنع عن إعطاء الشريف عساكر ومهمات للغزوة فراجعه باشة العسكر وأراد أن يجهز العسكر مع الغزوة فلم كان يوافق الوالي وصارت منافسة كبيرة مع باشة العسكر والوالي وتوقف الوالي على مساعدة الشريف ورجع الوالي الثمانية الأنفار العربان في الأمان مع الخيالة إلى محلهم وجهز الشريف الغزوة بغير عسكر وتوجهوا قبايل ثقيف وأهل الطايف وعليهم رايس ولد العواجي والشريف عبد المجيد أمير الطايف ومن مكة توجه الشريف حمزة ومعه قبايل هذيل وجحادلة نحو ستماية نفر من طريق الثنية والشريف علي بن سعد قائم مقام مكة نوجه من طريق السيل ومعه أهل مكة من حضارم وأهل المعابدة وجرول وخلافهم نحو خمسماية نفر وبلغنا الآن علي بن سعد وصل السيل وحمزة وصل ريحه محل فيه جماعة من العربان حرق ثلاثة بيوت لهم وقبض على خمسة عشر نفر من الثبتة ونفر عدد (١٠) من القثمة وجماعة الطائف لم صار منهم شيء وهذا الخبر الذي صار من حمزة وصل اليوم وبعده لم جاء خبر من جهتهم لزم إعلامكم وغالباً علماً (= على ما) بلغنا أن يصير الصلح بينهم علموجب (= على موجب) إشاعات الناس والله أعلم وحرر هذا بخصوص ما ذكر ١٨ رجب سنة ١٣٩٨.

الملحق رقم (٢)

وقايع حال ونصيحة إسلامية إلى عزتلو سليمان بيك ياور الدولة العلية ونعرض إلى المراحم السلطانية ونسأله أن يوفقه بجاه خير البرية سبحان من تفرد بالبقا وأجرا على عباده القضا وسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون وهو القاهر فوق عباده سبحانه من حكيم أعطا وأرضا فمنهم من طغى وتجبر ومنهم من أقام العل ورفع المنكر ومن حكمه الربانية يمهل من طغى في البلاد ودليل ذلك قوله سبحانه وتعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ألهم احمنا بعين حمايتك الربانية ووفقنا إلى طاعتك المرضية وشيد أمرديننا وحقن دمائنا وتامننا على أموالنا بعبدك الذي تختاره وترضاه ولا نولي علينا من لا يخافك ولا يرحمنا يا رباه دعونا لك ربنا فاستجب لنا كما وعدتنا أنك قلت وقولك الحق ادعوني استجب لكم وبعد ننهي إلى مراحم دولتنا العلية ما هو واقع علينا بعدم حصول الأمنية وذلك أننا من عام السابع والتسعين شرفت ركاب الأمارة إلى مكة المكرمة إلى هذا التاريخ ونحن في أشد الكرب من جهة المظالم الحالة علينا بوجوه متعددة فأول وجه أن مقدمين أهل مكة القاطنين بها وقعت علينا أمور عظيمة ومظالم جسيمة لم نعهد مثلها قط ولا أسلافنا من حين تناولتنا أيدي الدولة العلية وحفتنا بمراحمها العثمانية من جملة ما وقع علينا وظهر أمره عند كل أحد أن منا من انفرش بغير جناية ومات ومنا من أخذت أمواله ويجعلوا لها طريقة أما أنهم يشترو مشتروات ولم يدفعوا أثمانها وإلا يطلبوا فلوس نقدية من العالم جبراً وإن طلب منهم سند بما هو له ما يعطوه فحكم فلوسه راحت بوجه إن ما بيده سند وخزينة الإمارة تدخل ما تخرج وأيضاً منا من أخذت أماكنه بدون إقامة دعوى ومع ذلك لو ادعى فمن السامع ولو أراد أحد المظلومين أن يسترحم من الأمارة ما يجد عليها طريقاً ويمنعوه الخدم عن المواجهة ويجد من يعهد الخدمة يرد كل من له مادة متعلقة بدائرة الأمارة وهما أعوان الشريف هاروت وماروت أعني بذلك الشامي واليماني ومنا من أخذت معاوشهم الذي كانوا مستترين بها ووجهتها الأمارة لحيث شاءت ومنما وقع علينا معوشة رزق ألف نفر من المسلمين حرموهم منها وحكروها لرجل واحد

من أتباع الأمارة فانظر بالله عليك هذه العدالة الذي ما قط سمع بمثلها وليت شعري إن الذي وقع عليهم هذا الفرش وأخذت أموالهم واستولى على ما هو لهم بوجه من وجوه الحقانية أما شرعاً أو قانوناً الحاصل أن صفة الأحوال الواقعة علينا أن أخذ حقنا ما وجدنا من يخلصنا أو يمنع عنا الضرر وإن صحنا ما أحد مستمع لندانا فهو كما قال:

لـقـد نـاديـت إذا أسـمـعـت حـيـاً ولـكـن لا حـيـاة لـمـن تـنـادي

والضرر الخارج عنا ولحقنا أذاه ما هو واقع على العربان الجالبين إلى مكة أصناف الحب والسمن والغنم وما أشبه ذلك وهو أن جميع ما يقدم إلى مكة من العربان من ابتداء الأمر ومعه الأصناف المذكورة وهو قادمن وبعد أن يصل مكة ويبيع ما هو جالبه في سوق مكة ويستلم الثمن لم يشعر إلا وتكانفوه مراسيل الشريف ويستحضروه عند أحد الأعوان فمن حين يحضر يتهدد عليه ويظهر للحاضرين أنه من الفسدة ويأخذ منه الدارهم المتحصلة عنده أعني البدوي ثمن الأصناف الذي سبق ذكرها ثم بعد أخذ الدراهم يضعوه في الحبس يوم وبعده يفكوه بواسطة رجا أحد والحاصل أن كل ذلك تحصيل حاصل على فلوسهم ولو أن هؤلاء العربان معلنين بالعصيان أو مظهرين فساد ما جو إلى مكة بهذه الأرزاق كان قعدوا في ديارهم ووجه الضرر الذي يلحقنا أذاه إذا انفك هذا البدوي من أيديهم ووصل إلى جماعته وخبرهم بما وقع عليه من الأمارة أو من أتباعها تعصبوا وشرعوا في الفساد ولحقنا منهم ضررين يمنعوا المجلوبات من الأصناف الذي يجلبوها فإذا منعوا ذلك تزايدت أثمان الأصناف المذكورة وخلافها وثاني وجه أنهم يشرعوا في قطع طرق المسلمين والحاصل أن ما هو واقع على العربان لاحقنا أذاه يا أهل مكة وما هو واقع علينا فهو علينا ونحن صابرين ومتحملين لا لنا معرفة بالبدو حتى أننا نهيج من مكة ونسكن معهم ولا لنا مقدرة على مدافعة الأمر الواقع علينا ولا لنا ملجأ غير الله ثم دولتنا العلية ومؤتمنيها بهذا الطرف ومع ذلك أننا عمال نرفع كل ما يقع علينا من ابتدأ الأمر في مدة دولة أفندينا ناشد باشا كل ما وقع علينا من المظالم ولا رأينا نتيجة بأمر ما لا رفع عنا الضرر ولا خلصنا بما أخذوه علينا وناظرنا من دولته أنه يفعل أحد الحالتين أو أنه يرفع ما قدم له وما رآه علينا لحضرة مراحم دولتنا أنكان ما له مقدرة برفع ذلك ودولتنا أولا بنا فما رأينا إلا ظاهر الأمر الضرر ما ارتفع عنا وما ندري هل أن دولتنا سمعت بذلك أم لا رفعنا لحضرة أفندينا صفوت باشا ما وقع علينا في مدة دولته ولم نر إلا كل

ما نرفع شكية تتزايد علينا البلية ودولة أفندينا مشاهد جميع الأمور وما نرى من حضرة أفندينا ربنا يديم وجوده غير أخذ خواطر المظلومين وجلب خواطر المأخوذين فما ندري هل أن الأمارة مرخصة في هلاكنا وحضرة أفندينا ما له تعرض في رفع ذلك أو أن أفندينا أعرض لدولتنا بما هو واقع وأمرته الدولة أن لا يتعرض الأمارة فيما تجربه أو أن حضرة أفندينا ما رفع لدولتنا أمرنا فتحير أمرنا وحار فكرنا وما ندري هل أن دولتنا أطلعت على عرايضنا المقدمة إلى مؤتمنيها بهذا الطرف أم لا فإن كان ما اطلعت علينا فدولتنا في سعة من اللهو ولا تعاقب بذنوبنا وإن كان رفع لدولتنا بما هو واقع علينا من الضرر وصفحت عن رفعه فنقول حسبنا الله ونعم الوكيل ونصبر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ويهيء لنا بالفرج القريب أنه سميع مجيب وإنما بلغ دولتنا أمرنا فها نحن قد رفعنا هذه العريضة وننتظر عاقبة أمرها ونحن بذمة الله ثم بذمة الدولة العلية وهي المسئولة عنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وكل راع مسئول عن رعيته ونحن بذمة الدولة ما نحن بذمة أتباعها وترانا في أشد الكرب ووصلت الروح الحلقوم وضاقت علينا الأرض بما رحبت حتى أن بعضنا ألجئهم هذا الأمر الواقع أنهم يدخلوا في حمايات الدول الأجنبية لأجل حقن دماءهم وحفظ أموالهم فنترجا على دولتنا أن تنظر لنا بعين الرأفة والرحمة وترفع عنا الضرر كي لا يعاقبها المولا بذنوبنا ويكون سبب اضمحلالها وزوال دولتها هذا الأمر ونحن جيران البيت وحمدنا الله يا حضرة البيك الذي من علينا بمجيئك ونترجاك أن تحقق عن هذه المواد وترفع لدولتنا ما تراه علينا من خلاف وما رفع منا لك وأنت لسان حال عنا عند رجوعك بالسلامة إلى الدولة وتخبرهم بما رأيت من خلاف وما يبلغك وما يرفع لك وفوضنا أمرنا إلى أحكم الحاكمين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الملحق رقم (٣)

التقرير الرسمي حول تأديب البدو بالقرب من ينبع (مارس عام ١٨٨٦م) جمادى الآخرة ١٣٠٣هـ. هذه ترجمة للرسالة من قائد قوات المليشيا التي أرسلت إلى ينبع لبناء سور وحصن المدعو محمد لطفي بيه بتاريخ ١٣ مارس عام ١٨٨٦م الموافق ١٣٠٣هـ.

علمنا في ١٢ من الشهر الجاري بأن بدو بني إبراهيم وسكان ينبع النخل[١] وكذلك بعض البدو الذين يرتبطون مع قبائل الشيخ الأكبر إبراهيم بن مطلق وقبيلة الصراصرة من جهينة[٢] قد اتحدوا واتفقوا على محاربة قواتنا السلطانية وتحطيم باب ينبع البحر ومهاجمة المدينة ونهبها، وفي اليوم الثاني لوصول المحافظ المدينة وعندما نزل إلى البر ودخل إلى مبنى الحكومة، رأينا الأشرار المذكورين أعلاه مقابل الجهة اليمنى لمعسكر القوات السلطانية يتقدمون على بعد مسيرة نصف ساعة، وقد دخلوا في التحصينات التي عملتها سابقاً القوات المصرية، وبدؤوا يقومون بالإزعاج والتحديات، ثم بدؤوا يبنون سوراً وبعد أن رأيت ذلك بنفسي وتحققت بأن مكان إقامتهم يمكن إصابته بواسطة المدافع الموجودة على السفن في البحر أخبرت قائد القوات البحرية عن طريق الإشارات بأن يضرب القنابل عليهم وعندما يرى قواتنا تنقض على إمداداتهم عليه أن يوقف إطلاق النار، وقد كلفت البنباشي بكر أفندي مع ١٥٠ رجلاً، أي سريتين بالقيام بالهجوم، وأخذت تحت إمرتي سرية ومدفع لحماية ظهر القوات المرسلة في المعسكر، وللدفاع عن المدينة تركت ثلاث

---

(١) ينبع النخل تقع على مسافة ست ساعات إلى الشمال من ميناء ينبع البحر وتحتوي على عدة قرى وفيها مزروعات مثمرة (المؤلف) وهي تقع شرق ينبع البحر حيث ترتبط مع ينبع البحر بطريق معبد، وهي بلدة قديمة أما ينبع البحر فقد أسست أوائل القرن الرابع الهجري في عهد الدولة الأيوبية، وعرفت بهذا الاسم تمييزاً لها عن ينبع النخل. وهي مدينة ساحلية تبعد عن المدينة المنورة قرابه ٢٥٠ كم، وهي ميناء المدينة المنورة. وإلى الجنوب منها قامت مدينة ينبع الصناعية التي تنتهي إليها أنابيب النفط القادمة من المنطقة الشرقية وتضم العديد من المؤسسات الصناعية الخاصة بالبتروكيماويات.

(٢) حول هذا الشيخ انظر إلى الملاحظة في نهاية هذا الملحق (المؤلف).

سرايا وأمرتها بتقديم المساعدة عند الضرورة، وأخبرت نائب القائم مقام بكل ذلك، وعندما قمنا بإطلاق نيران المدافع والمهاجمة، تسللت بقواتي خلف القوات المهاجمة أنتظر الأوغاد، إلى أن أصبح المهاجمون على بعد ٣٠٠ خطوة من التحصينات، ثم هربوا مثل الجراد إلى المنشآت الواقعة على بعد ١٠٠٠ خطوة، وعندما رأيت البمباشي بكر أفندي قد اتخذ من التحصينات الأولية قاعدة لعملياته ووضع فيها سرية ونصف سرية أرسلت له تعزيزات مكونة من مدفع وسرية لمهاجمة الأبنية المحصنة التي هرب إليها الأوغاد، وعندما نفذت الخطة وتأكدوا من السقوط تركوا أيضاً الصف الثاني من التحصينات وهربوا دون أن يطلقوا أي رصاصة إلى السهل، وهناك كونوا صفوفاً مغلقة وانضم إليهم المشاة وراكبو الجمال، وكانوا على ما يبدو ينوون مهاجمة المدينة من تلك الأماكن حيث لا يوجد جنود لمقاومتهم، وعندئذ أرسلنا لهم سرية ونصف سرية من الجنود المختبئين وبعض قوات الشرطة تحت قيادة اليوزباشي عثمان أفندي لإعطائهم الانطباع بأننا نريد تطويقهم، وعندما رأوا ذلك اعتقدوا أن قوات هائلة تزحف نحوهم هربوا بأقصى سرعة، أما نحن فقد تتبعناهم حوالي ساعتين حيث وجد الكثير منهم الموت، ثم عدنا وصلينا للنصر المستمر للقوات السلطانية المجيدة، ولكن عندما رأيت جنودنا يسرعون إلى الجثث لضرب الرؤوس منعتهم من ذلك لأسباب واضحة، وقد عدنا بعد ذلك إلى معسكرنا دون أن يلحق أي أذى بقواتنا. وفي اليوم التالي علمت أن البدو قد عادوا إلى ميدان المعركة ليأخذوا القتلى على حمير، شهود العيان يقدرون عددهم بحوالي ١٥٠ رجلاً كما يقدرون عدد الجرحى أيضاً بحوالي ١٥٠ رجلاً.

آمر القوات

ميرالاي محمد لطفي

انتبهوا أيها الناس ماذا يكتب آمر القوات المذكور واعتبروا من ذلك! احذروا كيف أن أولئك البدو تعدوا الحدود، وكيف أن الحكومة العالية تهتم براحة مواطنيها وأمن أرواحهم وممتلكاتهم، وتطمح إلى تحقيق ذلك بكل الوسائل، والتي منها بناء الحصون والأسوار، وإن مسببي الضرر أولئك عملوا عكس ذلك، وأرادوا إفناء الجنود الذين أرسلناهم لحماية ينبع البحر عن طريق بناء جدار وإقامة أحد الحصون، وبعد أن عمل الجنود في هذه الأعمال ليل نهار، قام أولئك بما قاموا به (أي أنهم حاولوا تحطيم المنشآت التي من المفروض أن تستعمل بنجاح أفضل ضدهم). وهكذا حل بهم ما يستحقونه بواسطة

التحول بطرق سيئة السير في الضلال يؤدي إلى البؤس والزوال! وأن القتال كان بالنسبة لنا مؤلماً لأن الطرفين كانا مسلمين لكن البدو قد أجبروا آمر القوات المذكور على هذا التصرف وحصلوا بذلك على ما حصلوا.

ولا يشك أحد بأن كل من يعارض أمير المؤمنين (السلطان العثماني) سيلاقي نفس المصير وأن الواعين سيأخذون العبر من ذلك، أما الذين يقودهم الآخرون إلى الضلال فإن أسوأ النتائج تنتظر أفعالهم.

٢٤ جمادى الآخرة من عام ١٣٠٣هـ
(نهاية مارس من عام ١٨٨٦م)
الوالي وقائد الحامية في الحجاز
عثمان

ملحوظة بالنسبة للقبائل المذكورة في الرسالة أعلاه نلاحظ أن جهينة وحسب ما وصلت إلينا من معلومات قد تجزؤوا إلى ٢١ جزءًا وقبيلة، من أهمهم بنو إبراهيم بشيوخهم الستة: حامد بن محسن، أحمد المشدق، الشريف حمد العياشي، أحمد أبو رقيبة، عيد حلتيت، أحمد الشتيري أما العشرون الباقون فهم:

١ ـ صيادلة (صيدلاني)
٢ ـ مساوا (مساوي)
٣ ـ هبد (هبيدي)
٤ ـ رفاعة (رفاعي)
٥ ـ عقب (عقيبي)
٦ ـ محيا (محياوي)
٧ ـ نتافين (نتافي)
٨ ـ بديد (بديدي)
٩ ـ مراوين (مرواني)
١٠ ـ فوايدة (فادي)
١١ ـ حمادة (حمادي)
١٢ ـ حشاكلة (حشاكلي)
١٣ ـ قدهات (قدهي)
١٤ ـ نيزا (نزاوي)
١٥ ـ علاوين (علاوني)
١٦ ـ صياديدة (صيادي)
١٧ ـ حصينات (حصيناتي)
١٨ ـ دبيان أو ذبيان (دبياني)
١٩ ـ بني كلب (كلبي)
٢٠ ـ ثقيفة (ثقيفي)

ولكل واحدة منها شيخ باستثناء رقم (٤) لها شيخان.

وأن أسماء الشيوخ لها أهمية طالما أنه ينتج من بعضها أسماء بعض القبائل حيث إن بعض القبائل مسماة حسب اسم شيخها، ويعدّ الأمير شرف بن عبد المنعم أميراً لقبائل جهينة. وجهينة كونوا كما بينا أعلاه أقدم دعامة لقوة الحسنيين في غرب الجزيرة العربية وخاصة في مقر إقامتهم بين المدينة والبحر.

الشيخ إبراهيم بن مطلق والذي يذكر حلفاءه في الرسالة ينتمي إلى وحدة من قبائل حرب الكثيرة التي منذ ٩٠٠ عام قد زادت من المصاعب أمام كل الذين سادوا في غرب الجزيرة العربية، الأقسام الرئيسة التي انقسمت إليها كل قبائل حرب هي:

أولاً: بنو سليم وثانياً مصروح؟؟

بنو سليم يقطنون بالقرب من الطريق الرئيس أو طريق السلطان بين المدينة وينبع وبين المدينة وبدر، وهم ينقسمون قسمين:

١ ـ المراوحة (مراوحي) ومجموعات أصغر ينضمون إليهم تحت الشيخ الأكبر نصار ابن عباس أما المجموعات الصغيرة فهم بنو محمود، وأولاد أبي الحيا مع بعضهم يدعون (حوازم) ومع المراوحة يكونون ٢٦ قبيلة بزعامة ٣٦ شيخاً.

٢ ـ التسع مجموعات للقبائل (أحامدة، بني عمر، رحالة، محاميد، صراحه، بني يحيى، سعادين، تمام، صبح) والتي تدعى بعضها مع بعض قبائل ميمون، وهي ٢٣ قبيلة ولها ٤٠ شيخاً تحت زعامة حذيفة بن سعد، ومن بين أصحاب السمعة السيئة المحبين للسلب الأحامدة نجد الصخارنة (صخاري) الذين شيخهم إبراهيم بن مطلق المذكور أعلاه.

المصروح يكونون ثلاث مجموعات (زبيد، عوف وبني عمر) وهم ٢٢ قبيلة ولهم العدد نفسه من الشيوخ تحت زعامة الشيخ الأكبر عبد الله بن عسم. القبيلة التي تحكم مباشرة من قبل الشيخ الأكبر اسمها عسم (عسمي) ومقرها الرئيس خليص وهذه القبائل تقطن بالقرب من طريق الفرع بين مكة والمدينة إلى جانب الطرق الغربية وأيضاً بين بدر ورابغ وبين رابغ ووادي فاطمة. وقد ذكرنا سابقاً أن الشيخ ابن عسم قد أغلق في عام ١٨٨٦م مع البدو التابعين له طريق الحج بين مكة والمدينة أمام قوافل الحجاج وبذلك أفشل الزيارة إلى المسجد النبوي من قبل الحجاج.

الملحق رقم (٤)

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة، الآية: ٤٤].

لا يخفاكم ـ يا أهل مكة ـ أن هذا الوالي الملعون قصده إجراء التنظيمات في بلاد الله الحرام فأنتم انتبهوا من غفلتكم واصحوا من رقودكم ولا ترضون بتسريح القوانين لأنها هيا المبتداء كما لا يخفا على كل من له أدنا تأمل والدليل على ذلك أنه أعرض على أهل مجلس الإدارة بأن قصده في كل حارة ثلاثة أنفار اثنين مشايخ وواحد مختار المحلة وإمامها فقالوا أهل المجلس ما يسير (يصير) مثل هذا الأمر في مكة فقال الملعون مكة هل هي أحسن من إسطنبول نحن نجري لأمر (الأمر) هذا بالجبر فحينئذ قد تشكلت جمعية وسميت بالجمعية الإسلامية. فمن أراد الدخول فليبحث عنها. ومقصودها إتلاف هذا الوالي الملعون والقيصر لي. ومن لم يقدر على الدخول فليبتهل إلى الله عند بيته الحرام بتدمير السلامة في كون أبقا هذا الوالي الملعون إلى الآن أما حبلجرايه (حب الجراية) فما قصد هذا الملعون إلا التداعي فلا تسمعوا له دعوة مطلقاً، ولا تستلموا حقكم إلا وافياً، وانظروا يا أهل مكة في قتل الشريف وعبده، وقطع رؤوسهم وإحضارها إلى عند الوالي الملعون وهدامر (وهذا أمر) بتدوير الرؤوس في جميع أسواق مكة فداروا بها العساكر فما هذا الفعال التي هيا أشنع منما فعله الزير فحينئذ من قتل هذا الرجل يدخل الجنة بغير حساب والمقصود من مشايخ المحلة والمختار والإمام في محلة مراده يحصر الأنفار في كل حارة أخذ الوبركو والقرعة النظامية كما صرح به القرار في مجلس الإدارة.

من طرف الجمعية الإسلامية

الملحق رقم (٥)

صورة ما رثى به الأديب الفائق الندى الشيخ بديوي الوقداني السعدي دولتلو سيادتلو سيدنا السيد الشريف عبد الله باشا أمير مكة المكرمة وذلك سنة ألف وأربع وتسعين ومائتين رَحِمَهُ اللهُ رحمة الأبرار وأسكنه جنات تجري من تحتها الأنهار.

الملك لله والدنيا مداولة   وما لحيّ على الأيام تخليدُ

الناس زرع الفنا والموت حاصده   وكل زرع إذا ما تم محصودُ

وما يدوم سرور لا ولا كدر   وهكذا الدهر تصدير وتوريدُ

والناس ذا فاقد يبكي أحبته   وذاك يُبكى عليه وهو مفقودُ

وذاك أبدت له الأيام زينتها   وذاك أيامه همّ وتنكيدُ

تبّاً على الدهر والأيام لو ضحكت   تصفوا زماناً ويتلوا بيضها سودُ

إن سالمت غدرت أو أوهبت رجعت   ظل يزول وما تعطيه مردودُ

للدهر وجه عبوس في تقلبه   وللمنايا سهام صَيْدها الصيدُ

تصطاد من لا تكاد الأسد تنظره   وحبلها لاصطياد الكل ممدودُ

ما يمنع الموتَ أبراجٌ مشيّدةٌ   ولا دروع ولا بيض ولا خُودُ

لو يدفع الموتَ سلطانٌ بقوته   لكان حيّاً سليمان وداودُ

عزوا المعالي وعزوا الملك في ملك   عن جملة من ملوك الأرض معدودُ

وما يلدن الليالي مثله ملكاً   حتى يكون من الأموات مولودُ

دارت عليه المنايا كاسها سحراً   في محفل ليس فيه الناي والعودُ

فشدّ من دار دنيا دار آخرة   عند ابن عباس في الأحداث ملحودُ

أمسى وحيداً بقبر لا أنيس له   أنيسه فيه إحسان وتوحيدُ

تبكي عليه المعالي وهي لابسة   ثوب الحداد وما لم يلبس الغيدُ

وكم عيونٍ له تبكي وأدمعها ... سيل ومنها على الخدين أخدودُ
لموته مات خلق قبل موتهم ... موت الحياة وبعض الموت مزهودُ
والشعر من بعده بارت تجارته ... وكان في مدحه تعلى الأناشيدُ
قد كنت من بحره الفياض مغترفاً ... وإنني من كثير الناس محسودُ
فأين ألقى الذي منه به خلف ... وأين من مثله في الناس مقصودُ
أين ابن عون الذي كانت تذل له ... أسد العرين وتخشاه الصناديدُ
والبحر سكّنه والأرض مهدها ... حتى تساوت أسود الغاب والسيدُ
والوحش آمنة والورق ساجعة ... لها على مايس الأغصان تغريدُ
والناس تقصده من كل ناحية ... وليس عن بابه في الناس مطرودُ
سهل الخليفة تغرينا بشاشته ... قبل السؤال ومنها يعرف الجودُ
حسب المقلّين من جدواه ما وجدوا ... وجاره دايما أيامه عيدُ
غيث إذا جاد تغنينا مواهبه ... صعب المراس حكيم الراي صنديدُ
في السلم تلقاه ثوب الحلم ملتبساً ... طبعاً وفي أمره حزم وتشديدُ
ولبسه في الوغى من كل مانعة ... لا يعمل السيف فيها وهو محدودُ
بيض سوابغ قد شُكّت لها حلق ... كأنه حلق القفقاء منضودُ
مظفر أينما سارت كتائبه ... إلا عليها لواء النصر معقودُ
وألبس الملك عزاً لا يكون له ... ما دام حياً على الأيام تجريدُ
كانت به بهجة الأيام ضاحكة ... لها على خدها الوضاح توريدُ
تزهو على الأعصر الأولى بزينتها ... وكل يوم لها في الحسن تجديدُ
وعاش فيها سعيداً وهي تخدمه ... كذاك من تخدم الأيام مسعودُ
وراح منها عزيزاً في سعادته ... إن غاب شخصاً فإن العز موجودُ
وخلف الملك إرث الخالفين كما ... أبقاه أسلافه الغر الأماجيدُ
ما زال فيهم ويبقى في خلائفهم ... منهم إليهم له حلّ وتقييدُ
وكلهم إذ أشار الملك نحوهم ... كلٌّ يقول إنا واله معمودُ
عقيد نظيم يحير المستخير به ... بهم يزين لسان الملك والجيدُ
هم الذين بهم يحلو المديح فقل ... ما شئت مدحاً فما للمدح تحديد

الملحق رقم (٦): أشجار النسب (شجرة النسب الأولى)

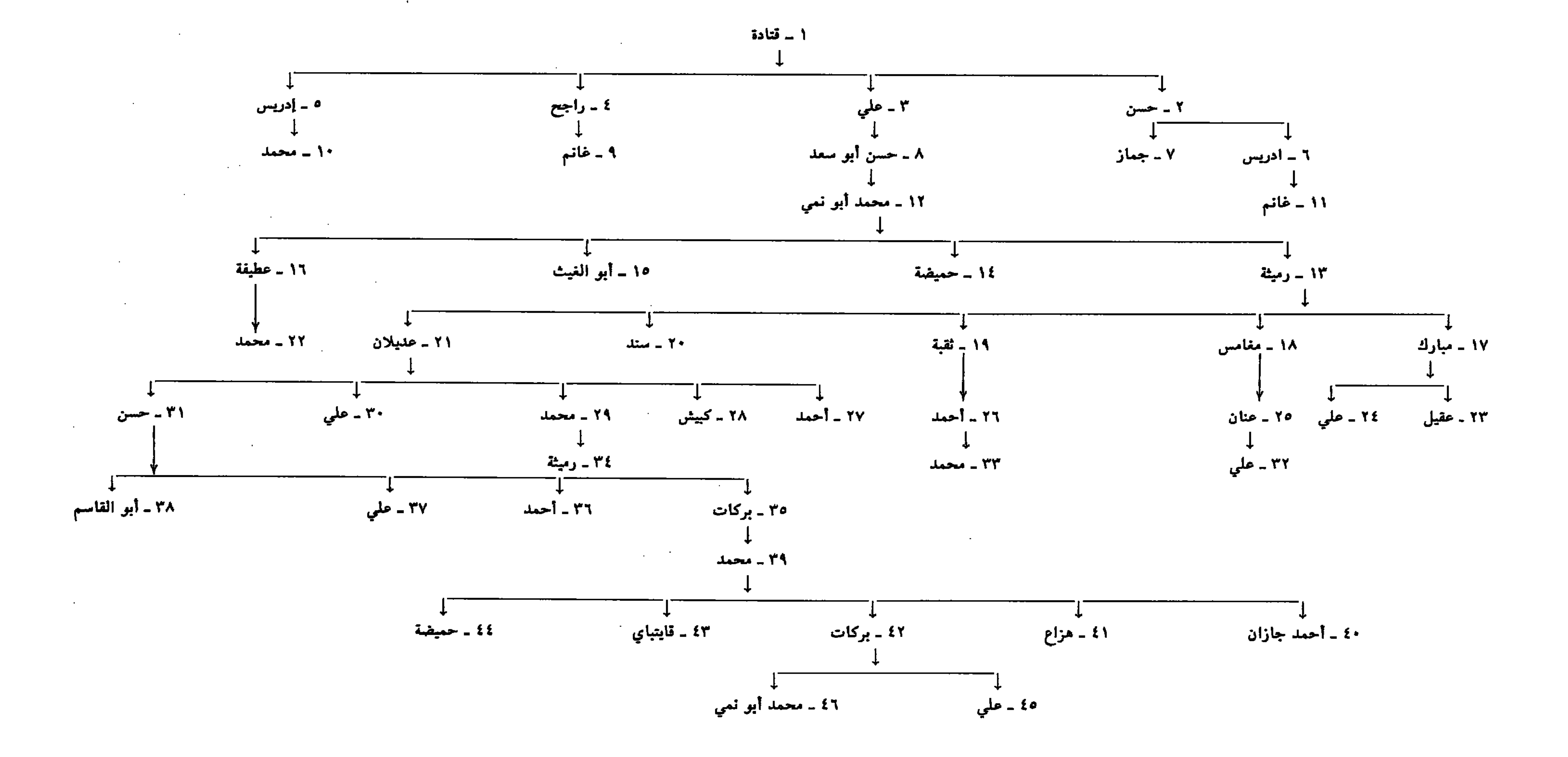
فاطمة ↔ علي

↓

الحسن

- ١ ـ (الحسن الثاني)
  - ٣ ـ عبد الله المحض
    - ٥ ـ محمد النفس الزكية
    - ٦ ـ إبراهيم
    - ٧ ـ موسى الجون
      - ٩ ـ عبد الله الصالح
        - ١٢ ـ صالح
          - ١٦ ـ محمد الصخير
            - ٢٢ ـ عبد الله ← علي ← سليمان ← حسين ← عيسى ← عبد الكريم ← مطاعن ← إدريس ← ٤٣ ـ قتاده
            - ٢٣ ـ حسين
              - ٢٥ ـ أبو جعفر محمّد
                - ٢٧ ـ أبو هاشم محمد
                  - ٣٠ ـ عبد الله ← ٣٤ ـ محمد ← ٣٨ ـ جعفر ← ٤٠ ـ أبو هاشم محمد ← ٤١ ـ أبو فليتة قاسم ← ٤٢ ـ فليتة
                    - ٤٤ ـ هاشم ← ٤٦ ـ قاسم
                    - ٤٥ ـ عيسى
                      - ٤٧ ـ مكثر
                      - ٤٨ ـ داود ← ٤٩ ـ منصور
                - ٢٨ ـ أبو محمد جعفر
                  - ٣١ ـ عيسى
                  - ٣٢ ـ أبو الفتوح حسن ← ٣٥ ـ محمد شكر
        - ١٣ ـ موسى الثاني
          - ١٧ ـ داود
          - ١٨ ـ محمد الطاهر
        - ١٤ ـ سليمان
          - ١٩ ـ داود ← ٢٤ ـ أبو فاتك عبد الله ← ٢٦ ـ عبد الرحمن ← ٢٩ ـ أبو الطيب داود ← ٣٣ ـ وهاس
            - ٣٦ ـ حمزة
            - ٣٧ ـ عيسى ← ٣٩ ـ علي
        - ١٠ ـ إبراهيم
          - ١٥ ـ يوسف الأخيضر
            - ٢٠ ـ إسماعيل
            - ٢١ ـ محمد
  - ٤ ـ الحسن الثالث
    - ٨ ـ (علي) ← ١١ ـ حسين شاهد الفخ
- ٢ ـ زيد

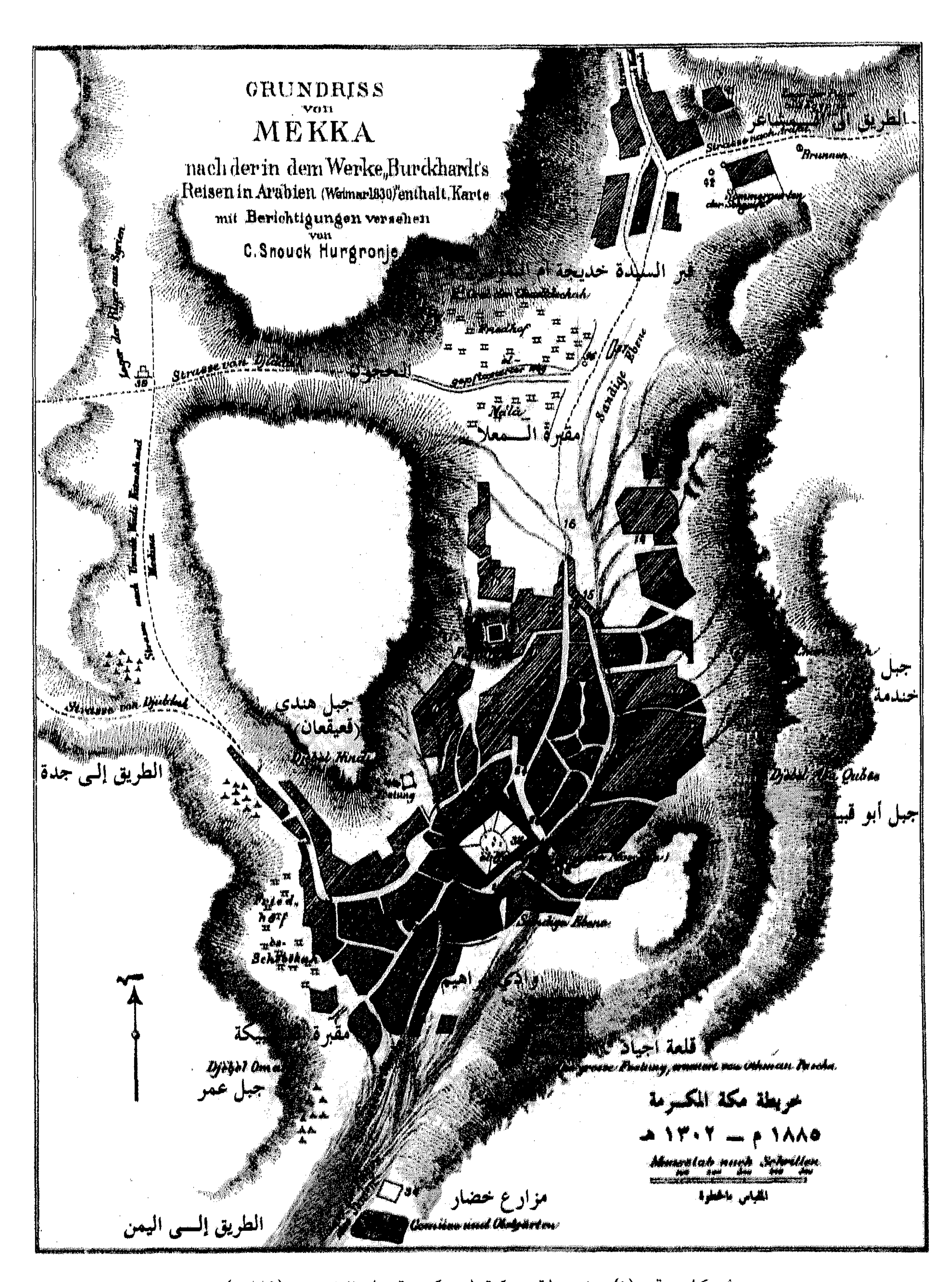
شجرة النسب الثانية



شجرة النسب الثالثة

- ١ ـ محمد أبو نمي
  - ٢ ـ أحمد
  - ٣ ـ حسين
    - ٥ ـ عبد الله
      - ١٤ ـ حسين
        - ٢٦ ـ عبد الله
          - ٣٢ ـ محسن
            - ٤١ ـ عون
              - ٥٠ ـ عبد المعين
                - ٥٨ ـ محمد
                  - ٦٣ ـ عبد الله
                    - شرف
                    - علي
                    - محمد
                  - ٦٤ ـ علي
                    - حسين
                    - ناصر
                  - ٦٥ ـ حسين
                  - ٦٦ ـ عون الرفيق
                  - ٦٧ ـ عبد الإله
                  - ٦٨ ـ سلطان
      - ١٥ ـ محمد
      - ١٦ ـ حمود
    - ٦ ـ مسند
      - ١٧ ـ مسعد
        - ٢٧ ـ محمد
          - ٣٣ ـ غالب
            - ٤٢ ـ أحمد
    - ٧ ـ حسين
      - ١٨ ـ محسن
        - ٢٨ ـ زيد
          - ٣٤ ـ سعد
            - ٤٣ ـ سعيد
              - ٥١ ـ عبد الله
                - ٥٩ ـ محمد
              - ٥٢ ـ علي
              - ٥٣ ـ مسعود
              - ٥٤ ـ جعفر
              - ٥٥ ـ مساعد
                - ٦٠ ـ سرور
                - ٦١ ـ عبد المعين
                - ٦٢ ـ غالب
              - ٥٦ ـ أحمد
          - ٣٥ ـ أحمد
            - ٤٤ ـ عبد المحسن
            - ٤٥ ـ مبارك
          - ٣٦ ـ حسين
            - ٤٦ ـ محسن
    - ٨ ـ أبو طالب
    - ٩ ـ عبد المطلب
      - ١٩ ـ نامي
      - ٢٠ ـ أحمد
      - ٢١ ـ محمد
        - ٢٩ ـ هاشم
          - ٣٧ ـ عبد الله
    - ١٠ ـ إدريس
      - ٢٢ ـ مسعد
      - ٢٣ ـ عبد العزيز
    - ١١ ـ فهيد
  - ٤ ـ بركات
    - ١٢ ـ إبراهيم
      - ٢٤ ـ محمد
        - ٣٠ ـ بركات
          - ٣٨ ـ سعيد
          - ٣٩ ـ جاها
            - ٤٧ ـ حسين
              - ٥٧ ـ عبد الله
            - ٤٨ ـ بركات
    - ١٣ ـ موسى
      - ٢٥ ـ حمزة
        - ٣١ ـ جلا
          - ٤٠ ـ محمد
            - ٤٩ ـ عبد الكريم

الملحق رقم (٧)
الأشكال والخرائط والصور المختارة

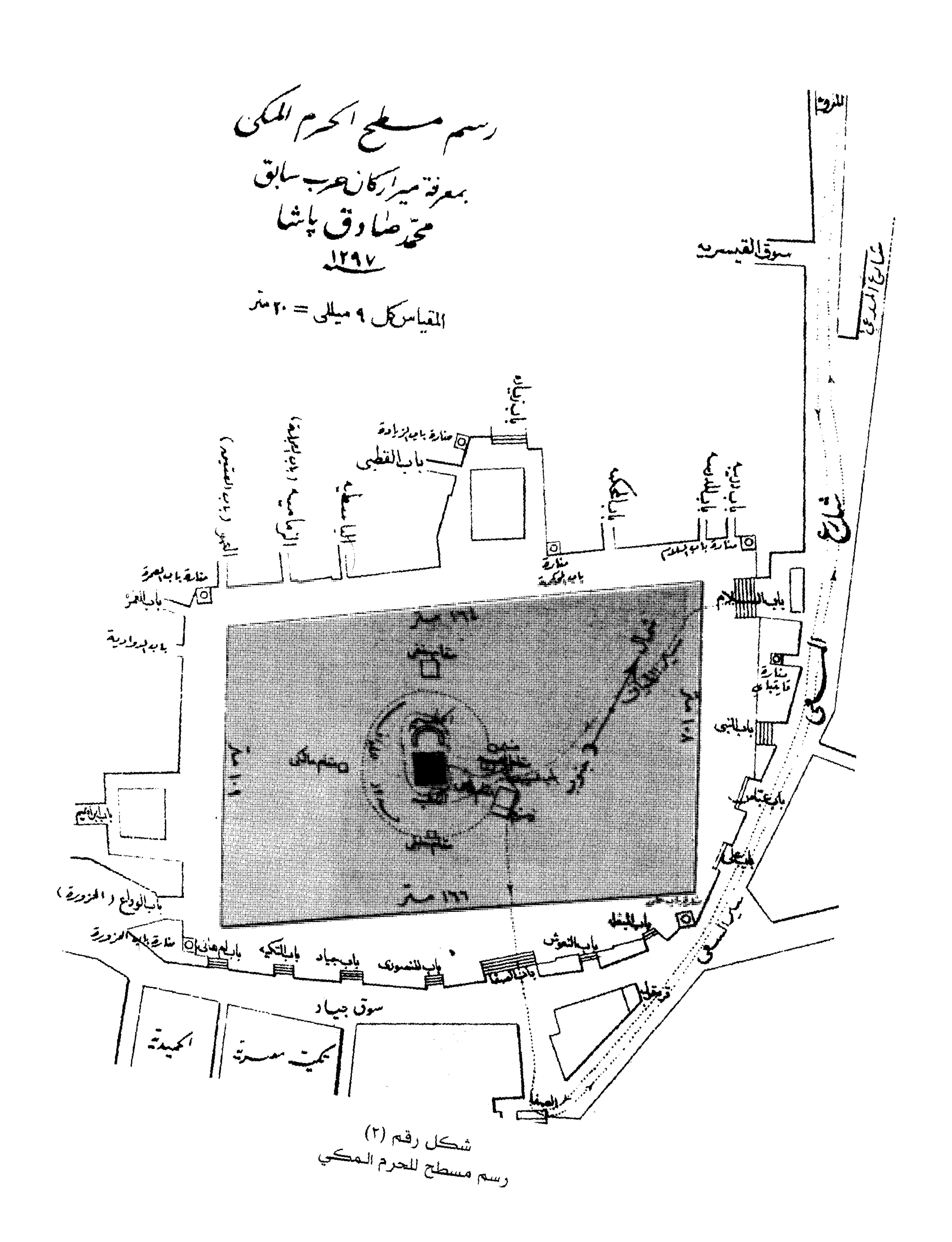


شكل رقم (١): خريطة مكة المكرمة عام ١٣٠٢هـ - (١٨٨٥م)

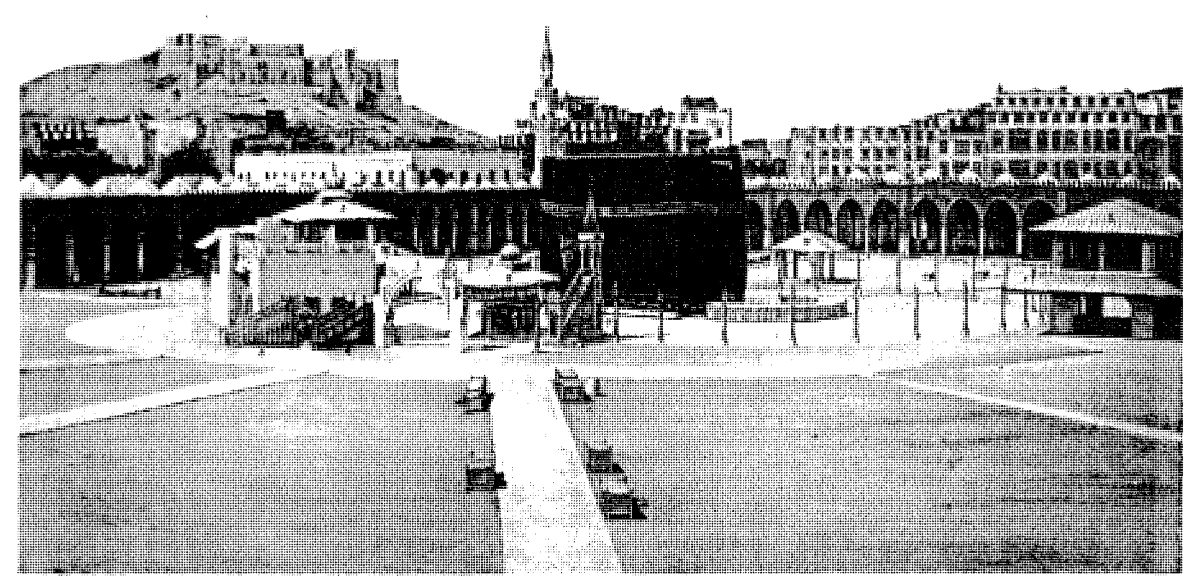
←

مفتاح خريطة مكة المكرمة عام ١٣٠٢هـ ـ ١٨٨٥م

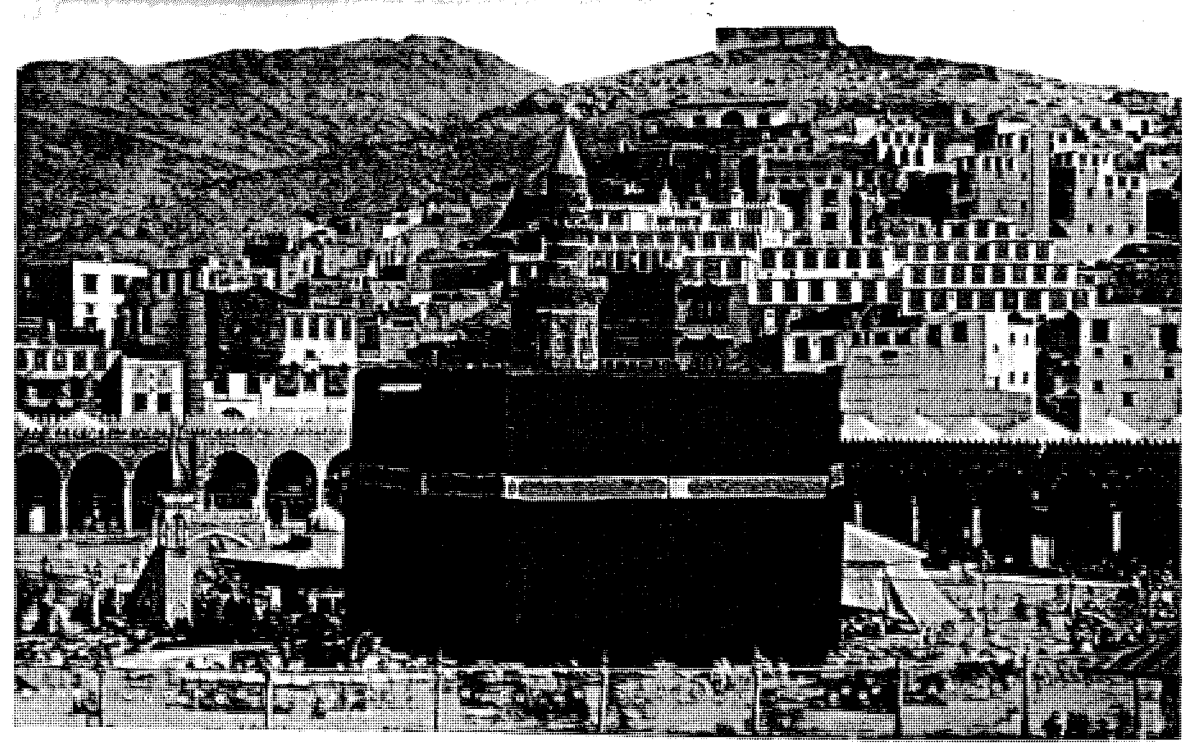
١ ـ حارة جرول.
٢ ـ حارة الباب.
٣ ـ حارة الشبيكة.
٤ ـ حارة سوق الصغير.
٥ ـ حارة المسفلة.
٦ ـ حارة باب العمرة.
٧ ـ حارة الشامية.
٨ ـ حارة سويقه.
٩ ـ حارة القرارة.
١٠ ـ الأكواخ.
١١ ـ حارة الراقوبة.
١٢ ـ حارة النقا.
١٣ ـ حارة السليمانية.
١٤ ـ حارة شعب عامر.
١٥ ـ شارع الحدادين.
١٦ ـ شارع المعلا.
١٧ ـ حارة الغزَّه.
١٨ ـ قصر الشريف عون الرفيق «١٨٨٢م ـ ١٩٠٥م» بني على يد والده الشريف محمد بن عون.
١٩ ـ قصر الشريف عبد الله «١٨٧٧م» الأخ الأكبر للشريف عون الرفيق.
٢٠ ـ حارة شعب المولد (شعب علي).
٢١ ـ حارة سوق الليل.
٢٢ ـ حارة المدعي.
٢٣ ـ المروة.
٢٤ ـ المسعى.
٢٥ ـ زقاق الحجر.
٢٦ ـ مولد ستنا فاطمة.
٢٧ ـ حارة القشاشية.
٢٨ ـ الصفا.
٢٩ ـ حارة الحميدية (أجياد) حيث توجد مباني التكية المضرية والمبني الحكومي الجديد (الحميدية).
٣٠ ـ التكيه المصرية.
٣١ ـ الحميدية (مقر الحكومة).
٣٢ ـ بيت والي الحجاز ومركز الشرطة.
٣٣ ـ مدرسة وتستخدم حالياً (١٨٨٥م) مقر الإدارة عين زبيدة ومكتب (الريس) رئيس المؤذنين في الحرم.
٣٤ ـ بركة ماجل (وتنطق لدى العامة بركة ماجد) وهي حوض ضخم يتصل بالمجرى (الدبل) المائي العام لعين زبيدة الذي يغذي مكة المكرمة بالماء.
٣٥ ـ المحكمة ودار القاضي.
٣٦ ـ المعلا (مقبرة مكة المكرمة).
٣٧ ـ مجمع للسقيا متصل بالمجرى المائي العام لعين زبيدة.
٣٨ ـ قبر السيد عقبل.
٣٩ ـ قبر السيد محمود بن إبراهيم الأدهم.
٤٠ ـ قلعة فلفل.
٤١ ـ حارة المعابدة.
٤٢ ـ خرزات لمياه الشرب متصلة بالمجرى العام لعين زبيدة. وقد أقيمت حالياً ١٨٨٥م عدة خرزات من هذا النوع على جميع الطرق الرئيسية لتزويد الحجاج والمسافرين بمياه الشرب.
٤٣ ـ مخفر شرطة (كركون الصفا).
٤٤ ـ قلعة جبل هندي.



شكل رقم (٢)
رسم مسطح للحرم المكي



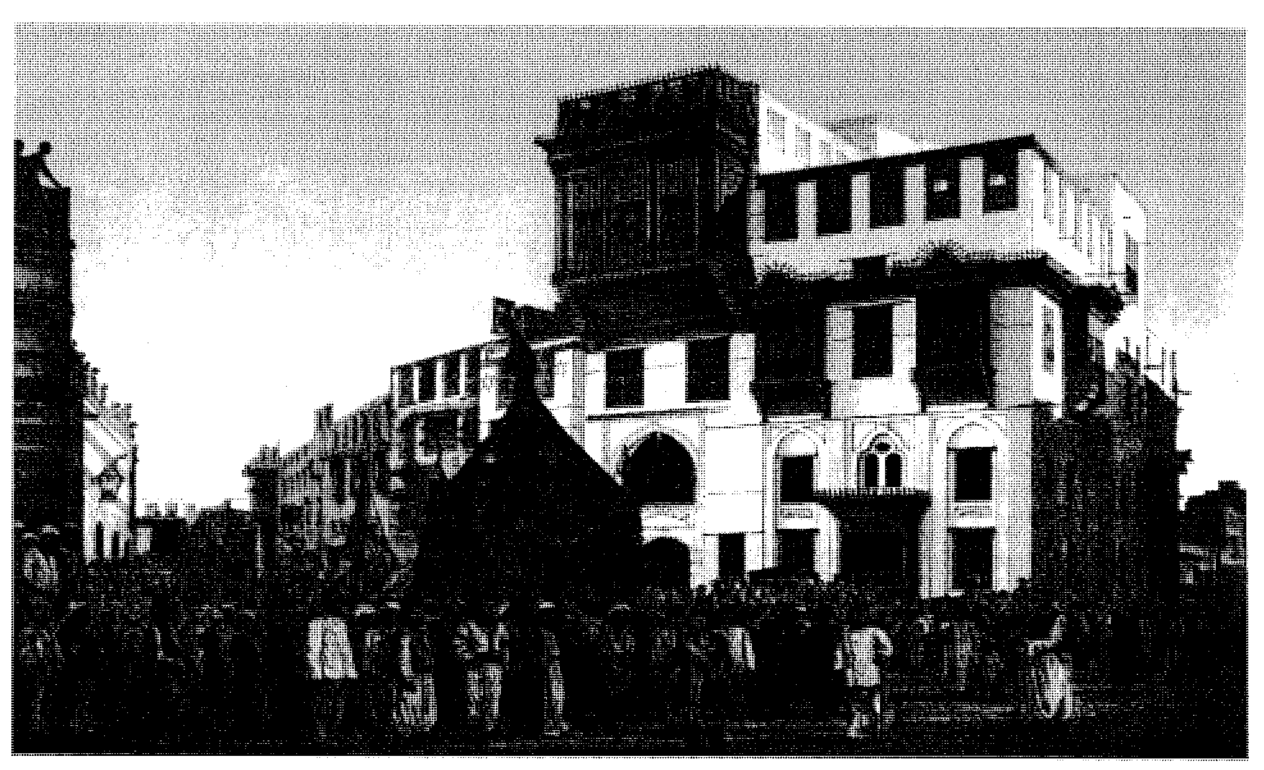
شكل رقم (٣): المسجد الحرام



شكل رقم (٤): الكعبة المشرفة ويظهر خلفها منارة باب علي. وجبل أبي قبيس، وفي أعلاه علامة للموقع الذي حصلت فيه معجزة انشقاق القمر وهو ما يعرف (بمشق القمر) وخلف جبل أبي قبيس يظهر جبل خندمة



شكل رقم (٥): الحميدية، مقر الحكومة (١٨٨٥م) الذي بناه عثمان باشا والي الحجاز ١٨٨٤م (١٣٠٢هـ)
ولقد هدمت في ١٩٥٧م (١٣٧٧هـ) وذلك في مشروع الملك عبد العزيز طيب الله ثراه لتوسعة المسجد الحرام



شكل رقم (٦): عثمان باشا والي الحجاز (١٨٨٥) في استقبال «المحمل» المصري
وفي الخلف يظهر بيت باناجة وإلى اليسار يظهر طرف من باب علي أحد أبواب المسجد الحرام



شكل رقم (٧): مخفر شرطة (قره قول أو كركون الصفا) بناه عثمان باشا
ويظهر الصفا (مبدأ السعي) في مؤخرة الصورة إلى اليسار



شكل رقم (٨)
سادن الكعبة (من أسرة آل الشيبي التي تتولى
هذه الخدمة الجليلة منذ عصر ما قبل الإسلام)



شكل رقم (٩): بعض كبار التجار الهنود مع أحد القادة الأتراك في مكة المكرمة



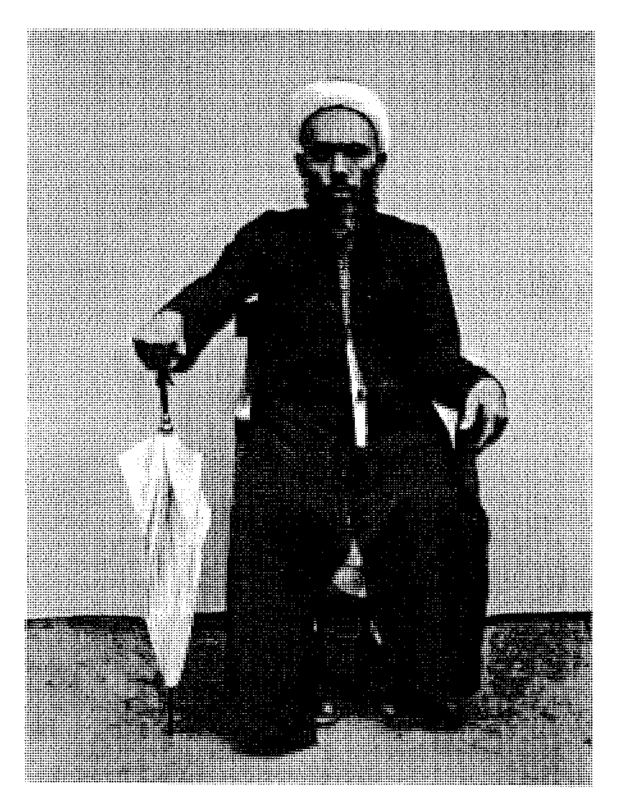
شكل رقم (١٠)
تاجر مرموق مع خادمه الشركسي



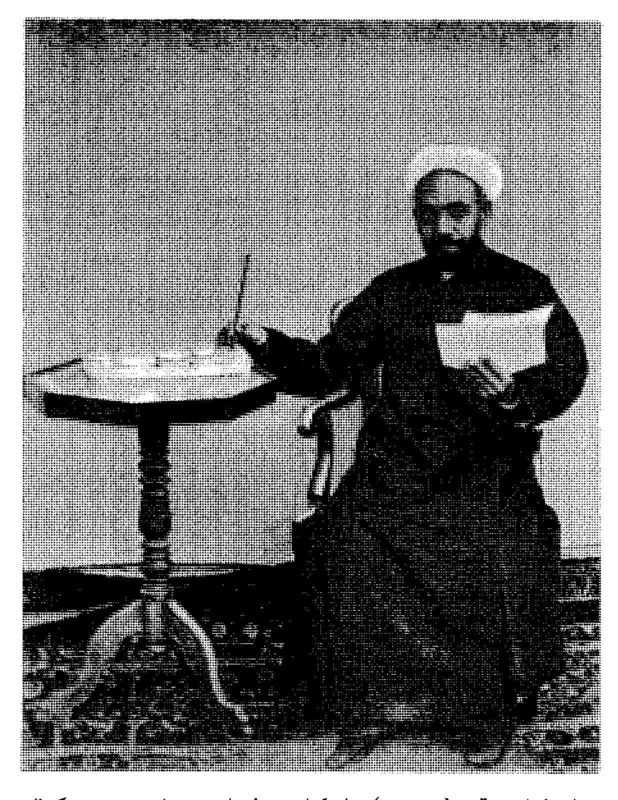
شكل رقم (١١ ــ أ): سيد من سادة مكة



شكل رقم (١١ ــ ب): سيد من سادة مكة



شكل رقم (١١ ــ ج): صورة للمؤذن



شكل رقم (١١ ــ د): الكاتب الخاص بشريف مكة



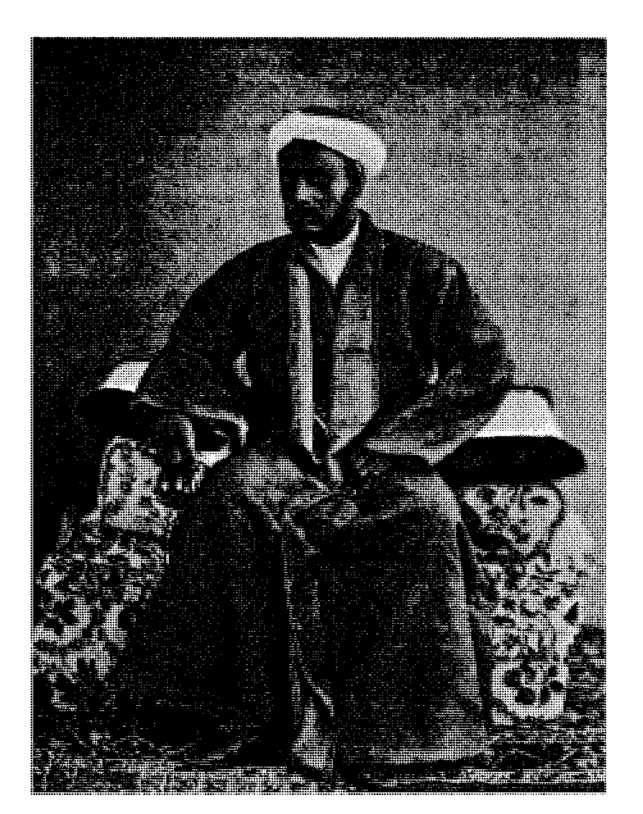
شكل رقم (١٢ ــ أ): طبيب من مكة



شكل رقم (١٢ ــ ب): ابن الطبيب



شكل رقم (١٢ ــ ج): أطفال من أسرة آل شيبة



شكل رقم (١٢ ــ د): أحد أسياد مكة



شكل رقم (١٣ ــ أ): أحد سادة مكة



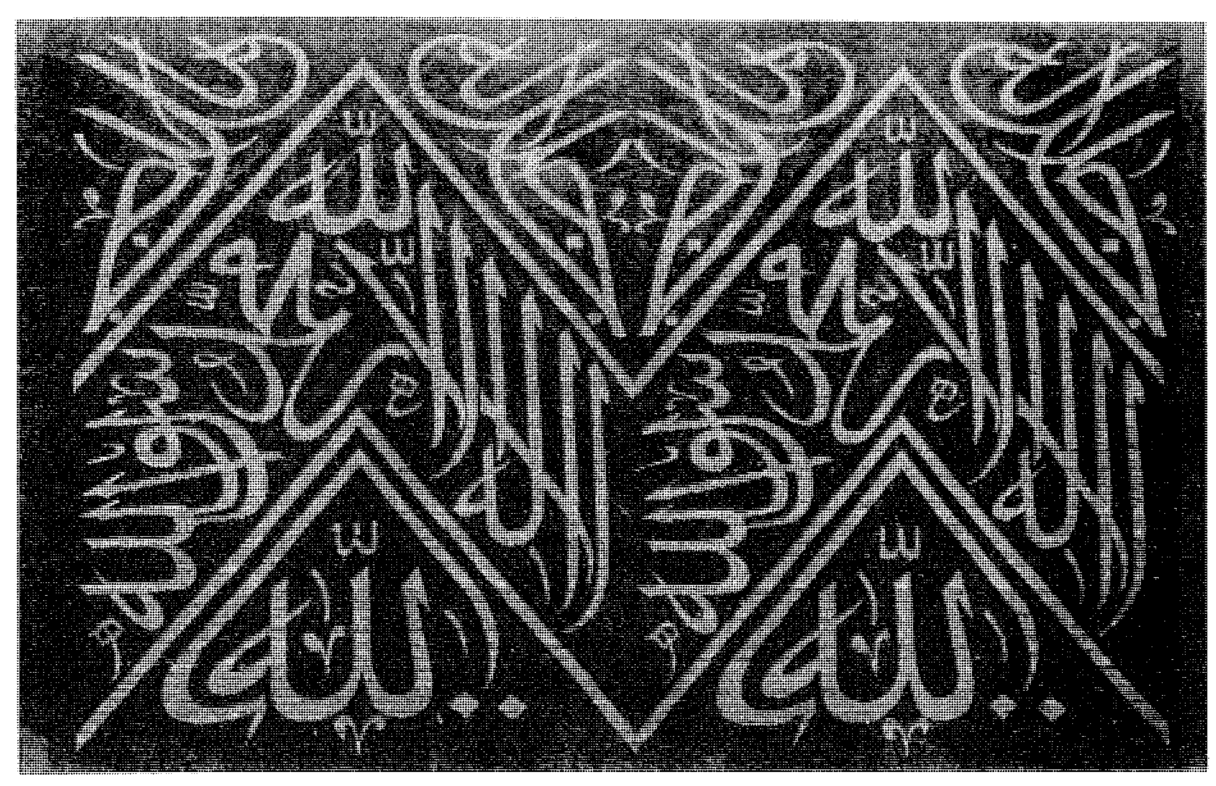
شكل رقم (١٣ ــ ب): تاجران من مكة وجدة



شكل رقم (١٣ ــ ج): الريس وهو كبير المؤذنين



شكل رقم (١٣ ــ د): المؤذن



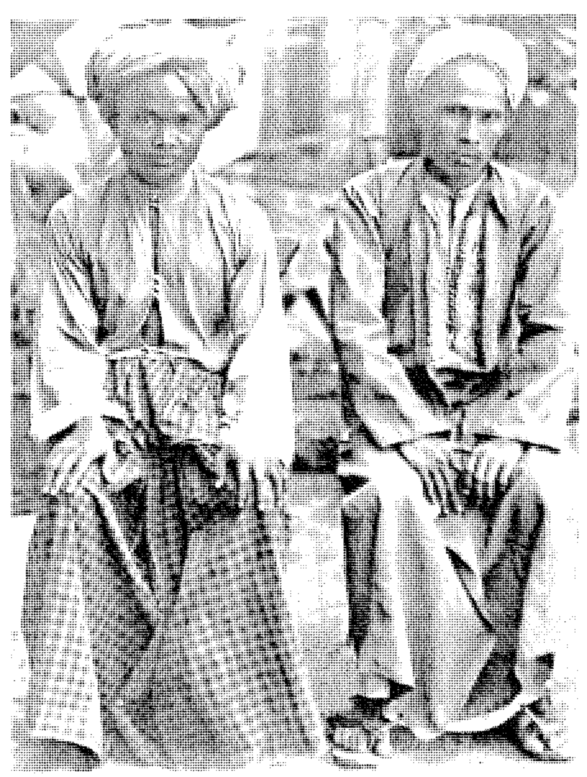
شكل رقم (١٤)، قطعة من الكسوة التي تغطي الكعبة المشرفة



شكل رقم (١٥)، بعض الرقيق ومعهم آلات العزف والدفوف والطبول



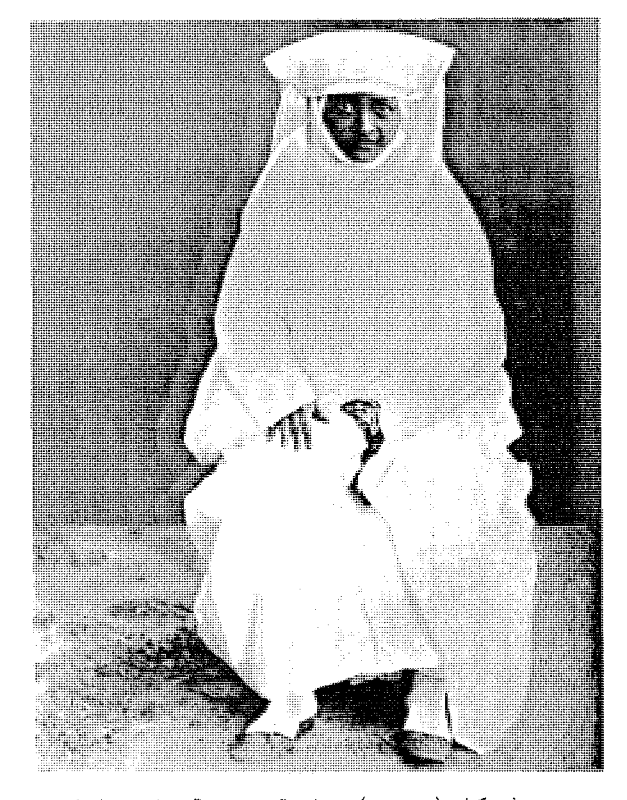
شكل (١٦ ــ أ): حاجان من كابورا




شكل (١٦ ـ ب): حاجان من بوقس



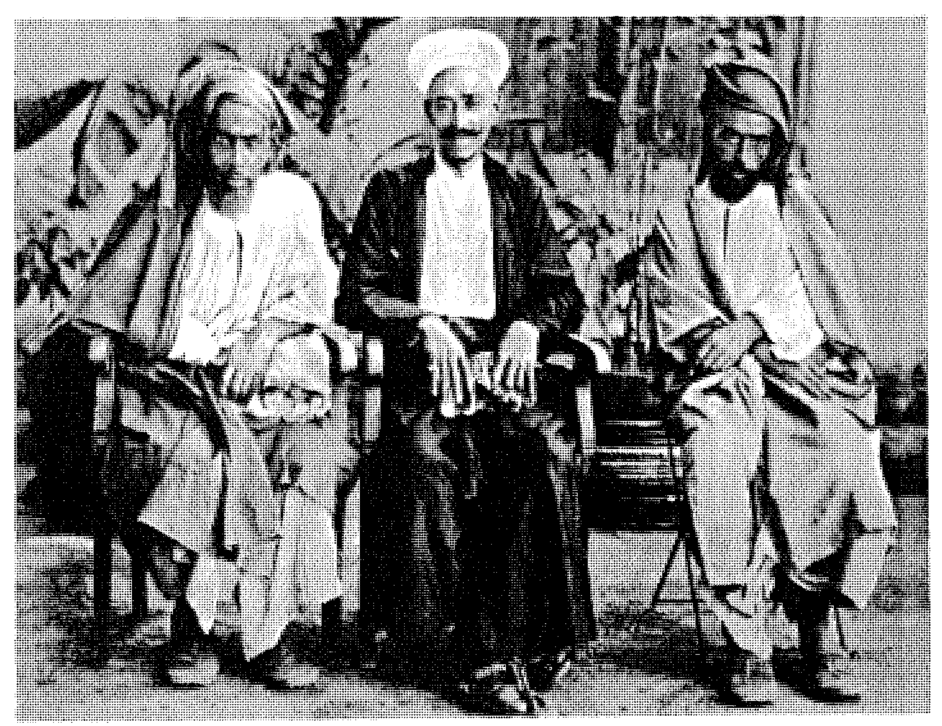
شكل (١٦ ــ ج): حاجان من سولوك (سومطرة)



شكل (١٦ ــ د): حاجة من بنتن في جاوة



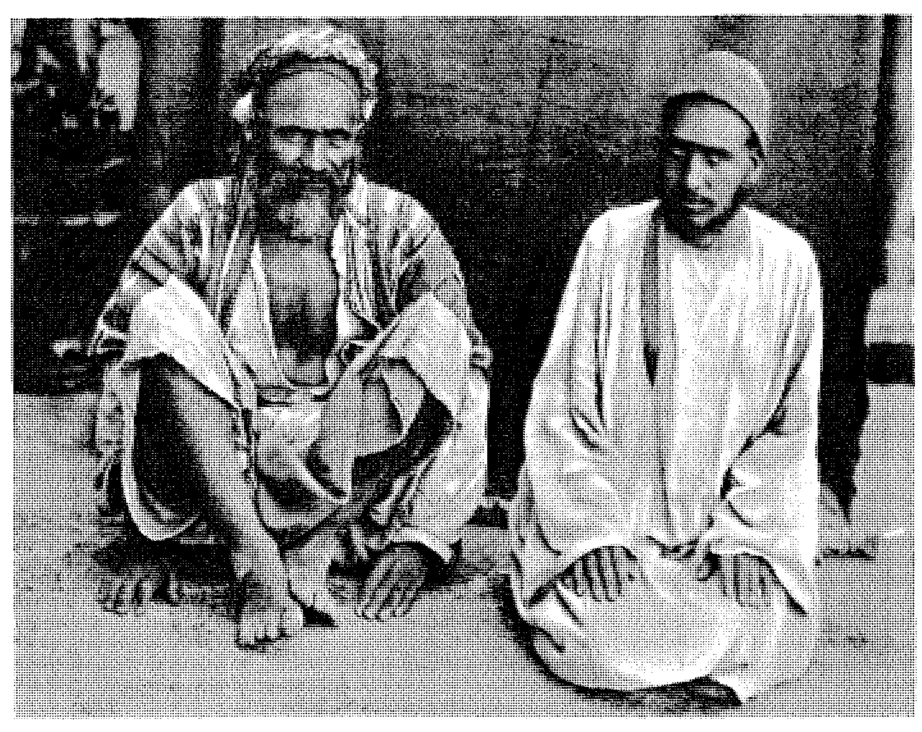
شكل رقم (١٧ ـ أ): بعض الحجاج من البصرة



شكل رقم (١٧ ـ ب): حاجان من البحرين يتوسطهم الشيخ كابل



شكل رقم (١٧ ــ ج): حاجان من زنجبار



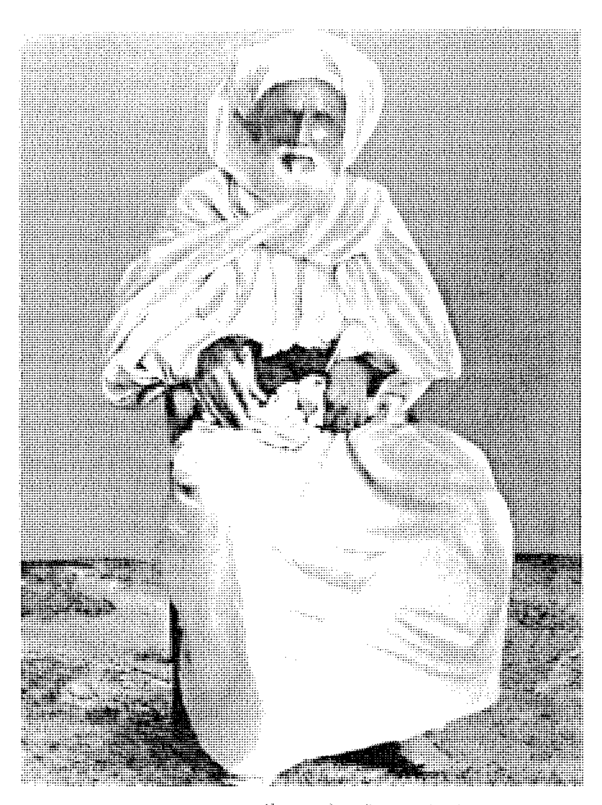
شكل رقم (١٧ ــ د): حاجان من بغداد



شكل رقم (١٨ ــ أ): حجاج من مندر (سليبس)



شكل رقم (١٨ ــ ب): حجاج من سمباوا



شكل رقم (١٩ ـ أ): حاج مغربي



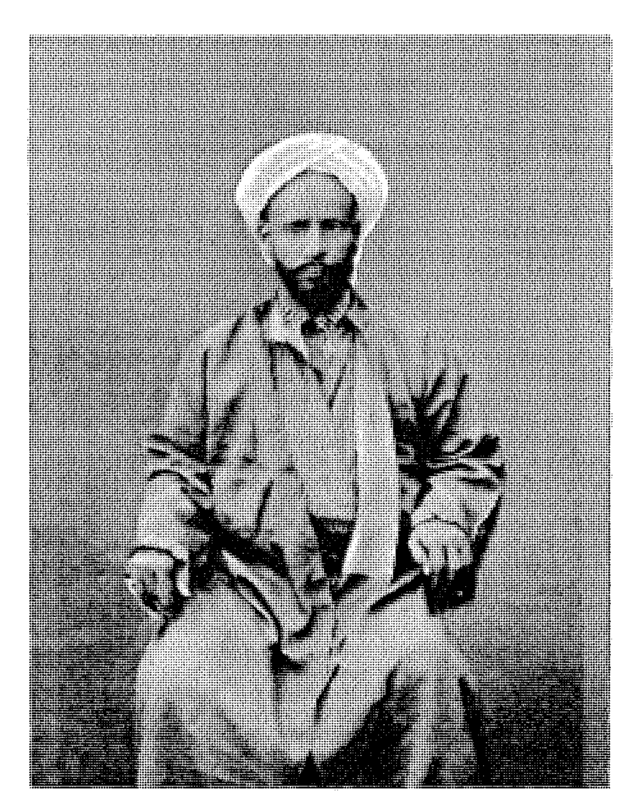
شكل رقم (١٩ ـ ب): حاج هندي



شكل رقم (١٩ ـ ج): حاجان من اليمن



شكل رقم (١٩ ـ د): درويشان من بخارا



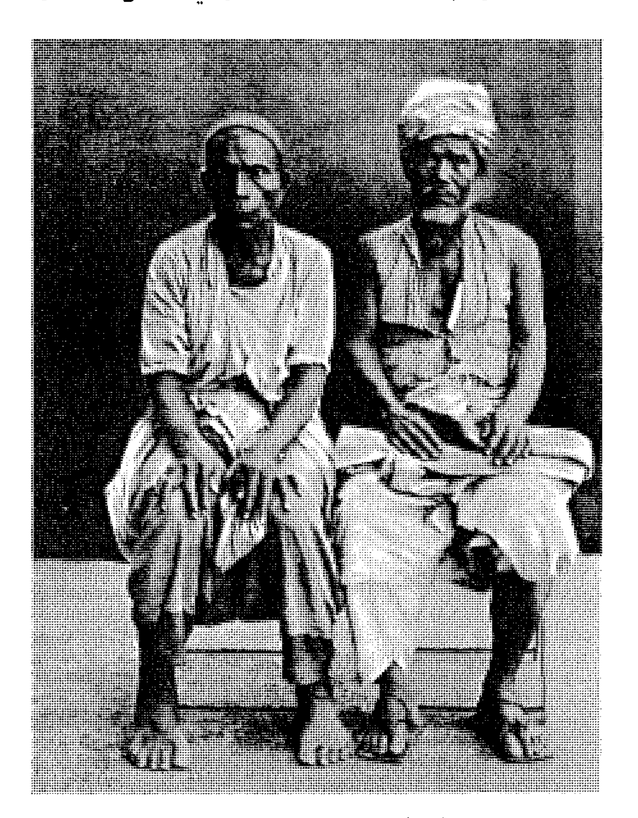
شكل رقم (٢٠ ــ أ): شيخ مطوفي حجاج الملايو



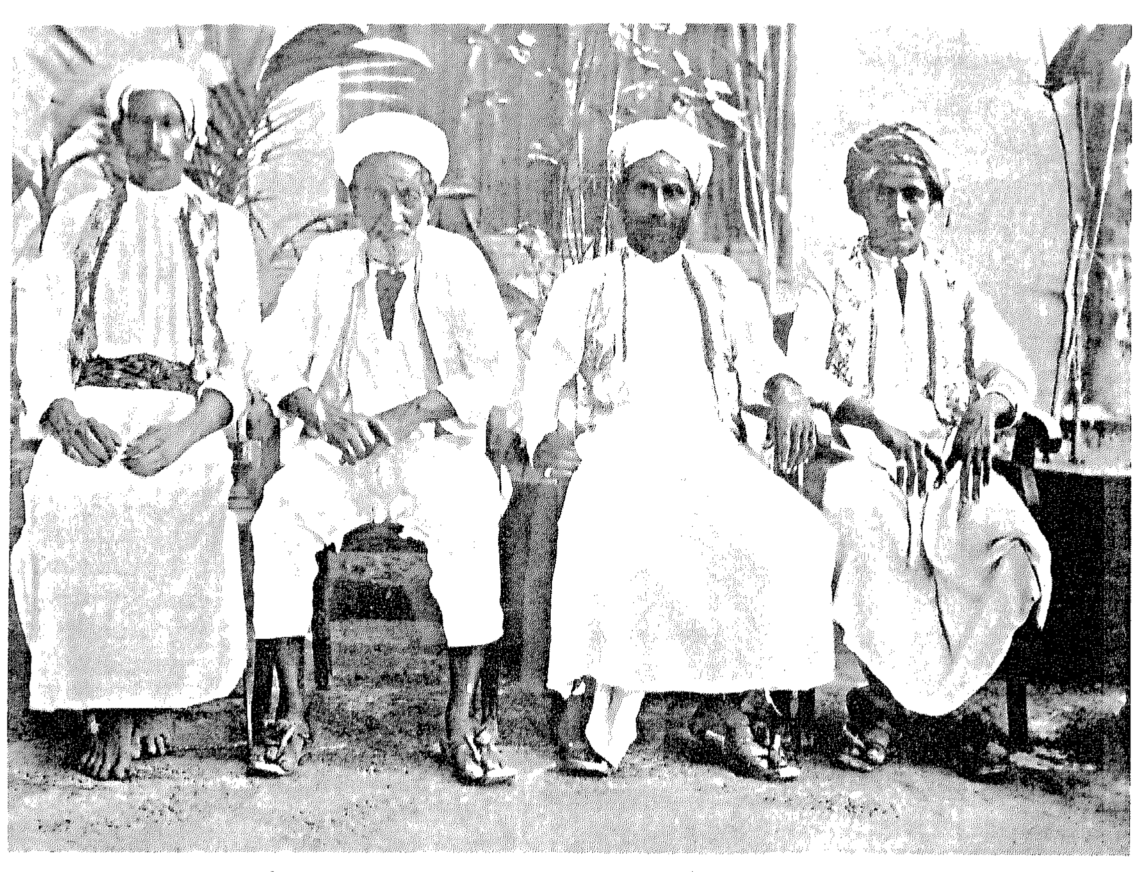
شكل رقم (٢٠ ــ ب): أحد مطوفي حجاج الملايو



شكل رقم (٢٠ ــ ج): بعض حجاج سومطرة



شكل رقم (٢٠ ــ د): بعض حجاج سومطرة



شكل رقم (٢١ ــ أ): شيخ البحارة مع بعض الربابنة في جدّة



شكل رقم (٢١ ــ ب):
بائع السويق في جدة



شكل رقم (٢٢): حجاج من سلجار (جنوب سليبس)



شكل رقم (٢٣): حجاج من بونتياناك (غرب بورنيو)
وفي أقصى اليسار حضرمي من جزيرة العرب يقطن هناك



شكل رقم (٢٤): حجاج من سامباس (بورنيو) ويقف خلفهم أحد أعوان المطوفين أو (الوكيل) في جدة



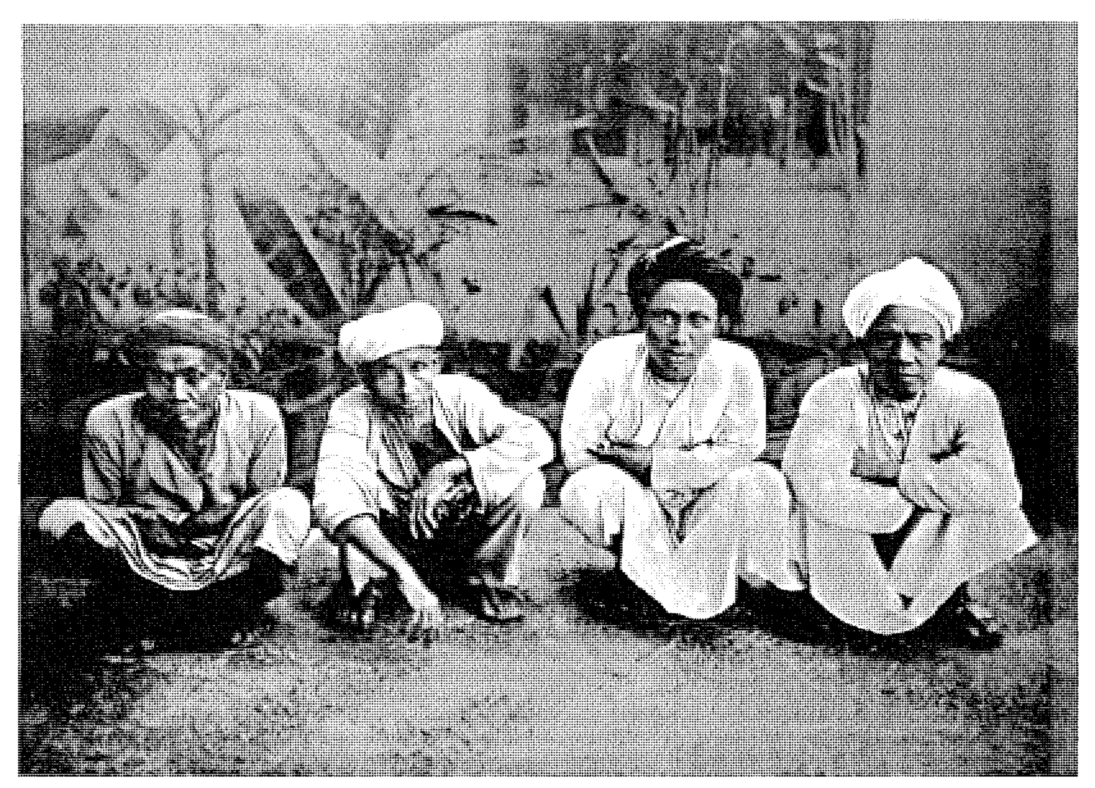
شكل رقم (٢٥): حجاج من مارتايورا (جنوب بورنيو)



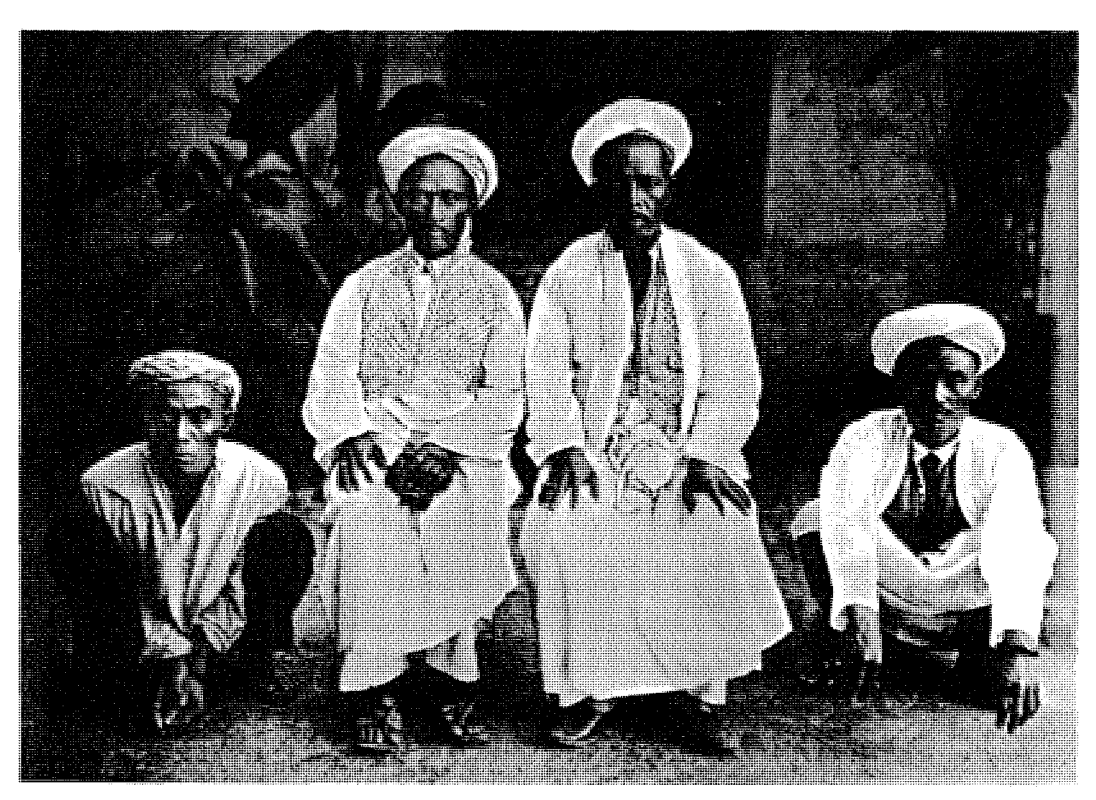
شكل رقم (٢٦): حجاج من أمبون وكاي وبندا وإلى اليسار ابن أحد الآمبونيين من امرأة مكية



شكل رقم (٢٧): حجاج من باتجان (مولوكين) الأوسط ابن السلطان ويساره خاله ويمينه الإمام



شكل رقم (٢٨): حجاج من تارنات



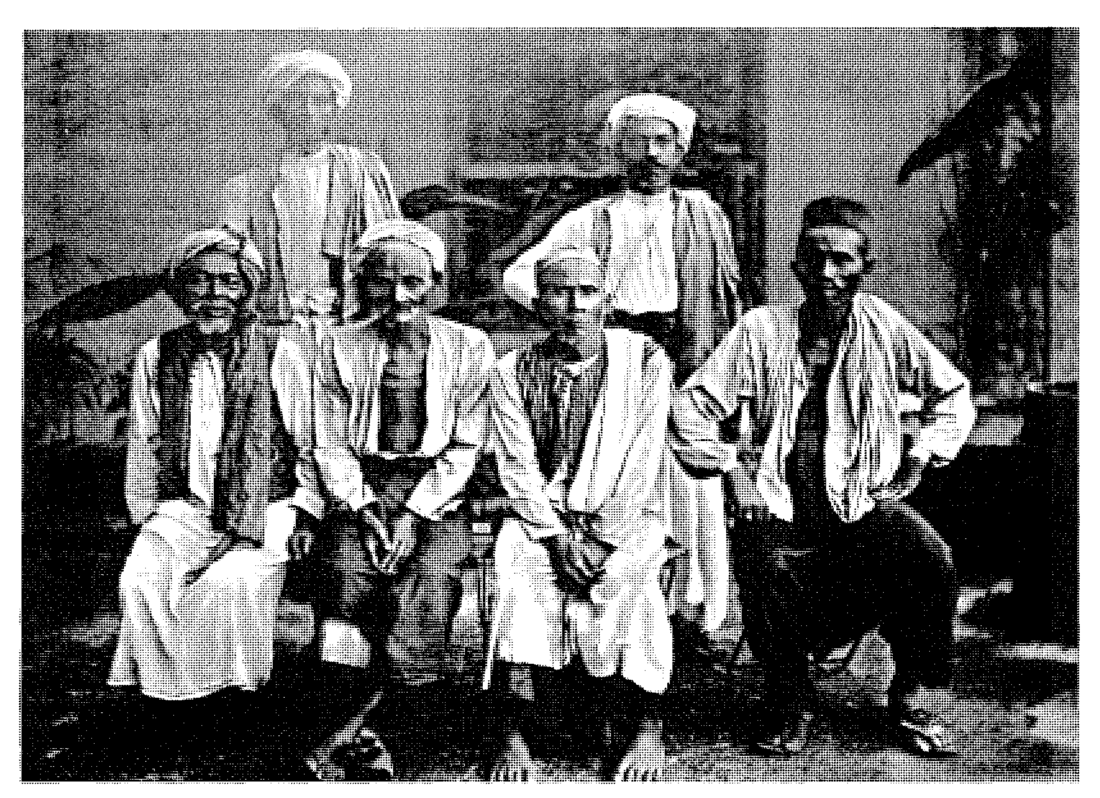
شكل رقم (٢٩): حجاج من بالـمانج



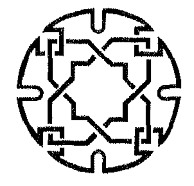
شكل رقم (٣٠): حجاج من لورتيجي (سومطرة)
وينتمي المرشد (المطوف) الذي يجلس وراءهم إلى المنطقة نفسها



شكل رقم (٣١): حجاج من منديالنج (سومطرة)



شكل رقم (٣٢): حجاج من آشي وخلفهم اثنان من وكلاء المطوفين بجدة



الملحق رقم (٨)
الصناعات التقليدية



شكل رقم (٣٣): صناعات تقليدية من مكة المكرمة

←

صناعات تقليدية من مكة المكرمة

١ ـ وعاء للشرب (شربة كبيرة لحفظ ماء الشرب مصنوعة من الفخار).
٢ ـ الدورق.
٣ ـ ٥ ـ ٦ ـ الشربة.
٤ ـ الإبريق.
٧ ـ القلة.
٨ ـ وعاء للشرب (ربع) شكل تقليدي من مكة المكرمة.
٩ ـ موقد متنقل للفحم (كانون).
١٠ ـ مبخرة.
١١ ـ ١٢ ـ وعاءان بدويان للقهوة.
١٣ ـ كأس بدوية للقهوة (فنجان).
١٤ ـ مشط رجالي.
١٥ ـ مشط نسائي.
١٦ ـ عصا خشبية لإدخال الحزام في السروال (مدك).
١٧ ـ مبخرة.
١٨ ـ وعاء لرش ماء الورد (مرشة).
١٩ ـ وعاء خشبي للشرب (قدح).



شكل رقم (٣٤): صناعات تقليدية من مكة المكرمة

←

صناعات تقليدية من مكة المكرمة

١ - زمبيل.
٢ - مكنسة من سعف النخيل.
٣ - غطاء لأطباق الأكل لحماية الطعام (مكبة).
٤ - القفة.
٥ - مروحة من سعف النخيل (مع تفصيل لها).
٦ - قبقاب حريمي مزركش.
٧ - مداس مكاوي.
٨ - مداس مدني.
٩ - ١٠ - كرسي.
١١ - ١٢ - حامل خشبي (الرجل)، وأكبرهما مصنوع من جريد النخيل، ويستخدمان أساساً لقراءة القرآن الكريم.
١٣ - خرج البائع الذي يضع فيه الأشياء الصغيرة التي يبيعها.



شكل رقم (٣٥): صناعات تقليدية من مكة المكرمة ←

صناعات تقليدية من مكة المكرمة

١ ـ ٢ ـ شربة مصنوعة من الخشب.
٣ ـ ٤ ـ برادية مصنوعة من الخشب.
٥ ـ علبة خشبية للأشياء الصغيرة (الحلية).
٦ ـ كأس للشرب.
٧ ـ وعاء خشبي لحفظ الأشياء.
٨ ـ حامل خشبي للأوعية المائية (المرفع).



شكل رقم (٣٦): صناعات تقليدية من مكة المكرمة

←

صناعات تقليدية من مكة المكرمة

١ ـ وعاء ماء.
٢ ـ وعاء ماء من الخشب.
٣ ـ كأس من الخشب بغطاء وطبق.
٤ ـ علبة بغطاء.
٥ ـ كأس للشرب من الخشب.
٦ ـ ٧ ـ فنجانان للقهوة.
٨ ـ كأس صغيرة بغطاء.
٩ ـ طاسة من النحاس (مشرب) في وسطها حافة مرتفعة.
١٠ ـ نرجيلة (الشيشة).
١١ ـ عقد مصنوع باليد.
١٢ ـ مسبحة (سبحة) من اللؤلؤ.



المستشرق ك. سنوك هورخرونيه (عبد الغفار) ١٨٥٧م ـــ ١٩٣٦م

الفهارس العامة

فهرس الأعلام

ـ ب ـ

- خ -

- ش -

- ص -

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

ـ هـ ـ

ـ ي ـ

فهرس الأماكن

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- ف -

- ق -

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس المحتويات

الجزء الأول

فهرس المحتويات

الجزء الثاني

الملاحق

الفهارس العامة

الإخراج و التنفيذ الطباعي
مؤسسة مرينا لخدمات الطباعة - الرياض - هاتف: ٤٧٦١٥٥١ - فاكس: ٤٧٣٠٧٦٧



يقدم هذا الكتاب للمهتمين بدراسة
مختلف الجوانب التاريخية والاجتماعية والاقتصادية
لمكة المكرمة-منذ ظهور الاسلام وحتى القرن الثالث عشر
الهجري-معلومات كثيرة ومتنوعة. وقد ألّفه المستشرق
الهولندي كرستيان سنوك هورخرونيه(١٨٥٧م-١٩٣٦م)،
الذي دخل مكة المكرمة باسم مستعار، وبقي فيها حتى
أغسطس عام١٨٨٥م. وقد ألّف كتابه بجزأيه أثناء
إقامته في مكة المكرمة. تناول الجزء الأول من الكتاب
التاريخ السياسي للبلد الأمين خلال تلك الفترة. أما الجزء
الثاني فتناول الأوضاع الاجتماعية لمكة المكرمة في الفترة
التي عاش المؤلف فيها في مكة المكرمة. وقد تضمّن الكتاب
في هذا الجزء مجموعة من الصور التي تبرز جوانب عديدة
من الحياة في مكة المكرمة في تلك الفترة.